

مشكلات
فلسفية

٦

المشكلة الخلفية



تأليف

الدكتور زكريا إبراهيم

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي (الغزالة)

المشكلة الخلفية

مشكلات فلسفية

(٦)

المشكلة الخلفية

بقلم
الدكتور كزيا ابراهيم

الناشر

مكتبة مصر

بقيادة د. السامح زكريا
٢ شارع كامل صدق - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

د. مصطفى لطفي هاشم
بقيادة د. السامح زكريا

« ... كل شجرة صالحة تُثمر ثمراً جيّداً ، والشجرة الفاسدة تُثمر ثمراً رديّاً . لا تستطيع شجرة صالحة أن تُثمر ثمراً رديّاً ، ولا شجرة فاسدة أن تُثمر ثمراً جيّداً . كل شجرة لا تُثمر ثمراً جيّداً تُقَطَّع وتُلْقَى في النار . فمن ثمارهم تعرفونهم ... » .

« المسيح »

« شيثان لا يفتان ييعثان في النفس الإعجاب والروعة : السماء المرصّعة بالنجوم من فوق ، والقانون الخلقى في باطنى » .

« كائنات »

« ... إنّ ما كان فى استطاعة غيرك أن يفعله ، لا تفعله ، وما كان فى استطاعة غيرك أن يقوله ، لا تقله ... بل حاول دائماً أن تخلق فى نفسك — بكل صبر وأناة — ذلك الموجود الفريد الذى هميات لغيرك أن يقوم بديلاً منه » .

« أندريه جيد »

تصدير

ليس هذا الكتاب أول عهد لنا بالمشكلة الخلقية : فقد سبق لنا أن تعرضنا لدراسة « الحرية الأخلاقية » و « علاقة الفكر بالإرادة » في كتابنا « مشكلة الحرية » ، كما سبق لنا أيضا أن تصدّينا للبحث في « مشكلة الشر » في كتابنا « مشكلة الإنسان » ؛ فضلا عن أننا قد عنيينا كذلك بدراسة « أخلاق الواجب » في كتابنا « كانت أو الفلسفة النقدية » ، إلى جانب اهتمامنا بتحليل موقف المدرسة الاجتماعية الفرنسية من المشكلة الخلقية في كتيب صغير لنا بعنوان « الأخلاق والمجتمع » ، وحرصنا على دراسة بعض الفضائل الأخلاقية كالحبة والغيرة والتعاطف في كتابنا « مشكلة الحب » ... إلخ . ولا يفوتنا كذلك أن نشير إلى كتابنا « مبادئ الفلسفة والأخلاق » الذي حاولنا فيه أن نقدم للطالب المبتدئ خلاصة مركزة لأهم قضايا الأخلاق الفلسفية كالضمير ، والخير والشر ، والواجب ، والمسئولية ، والجزاء ، وغير ذلك . ولكننا نحاول — اليوم — أن نعاود النظر إلى « المشكلة الخلقية » في ضوء ما استجد من أبحاث فلسفية في هذا المضمار ، آمليين أن يجد القارئ في هذه المحاولة الجديدة دراسة جدية تسد فراغا في صميم ثقافته الفلسفية .

ونحن نلاحظ — مع الأسف الشديد — أن مادة « الأخلاق » قد أصبحت في السنوات الأخيرة أقل مادة فلسفية تحظى باهتمام الباحثين ، لدرجة أن عدد الدراسات التي ظهرت في المجال الأخلاقي قد كان ضئيلا إلى أقصى حد ، بينما ظفرت المسائل السياسية ، والأيدولوجية ، والاجتماعية بالقسط الأوفر من الاهتمام . وقد كانت مناهج التعليم عندنا — حتى الماضي القريب — تفسح لمادة « الأخلاق » مجالا غير قليل ، جنبا إلى جنب مع مادة « التربية الوطنية » ؛ ولكن الظاهر أن هذا المجال قد أخذ يضيق ، حتى اختفت — أو كادت — مادة

« الأخلاق » من برامجنا التعليمية ، وأصبح الاهتمام بالمشكلات الخلقية مجرد حديث يتجاذبه رجالات التعليم والتربية ، دون أن يحاولوا إثارة القضية على الصعيد الفكرى البحت . ولم يكن من قبيل الصدفة أن تكون « الأخلاق » هي آخر مادة فلسفية تناولتها أقلام المفكرين العرب — في الأعوام الأخيرة — إذ قد وقر في نفوس الكثيرين أن حل « المشكلة الاقتصادية » سيكون هو الكفيل — وحده — بحل « المشكلة الخلقية » ، وكأن التفكير في « الأخلاق » مجرد شرف فكري لا موضع له في عهد الأزمان ! وأما الذين ارتأوا أن المهم في « الأخلاق » هو القدوة والمثال ، لا الأحاديث والأقوال ، فقد راحوا يعلنون عدم جدوى « الأخلاق النظرية » ، بحجة أنها مبحث عقيم لا غناء فيه ولا طائل تحته ، خصوصا وأن أهل النظر الفلسفى لم يكونوا يوما أفضل الناس أو أكثرهم تخلقا ! وهكذا قذف بمادة « الأخلاق » إلى زوايا النسيان ، وأصبح الكثيرون يظنون أنه لم يعد هناك موضع لإثارة تلك المشكلة الفلسفية العتيقة : « مشكلة الأخلاق »^(١).

يبد أن بعض رجالات الفكر الإلـيزى المعاصر — من أمثال : مور Moore ، وآير Ayer ، واستيفنسـون C. L. Stevenson ، وتولين Toulmin ، وأورمسون Urmson ، وهير R. M. Hare وغيرهم — لم يلبثوا أن حوّلوا اهتمام فلاسفة الأخلاق نحو اللغة المستخدمة في كتابات أهل « الأخلاق الفلسفية » ، فراح الباحثون يحللون القضايا الأخلاقية ، ويكشفون عن طابعها الوجدانى ، ويقارنون بينها وبين اللغة المستخدمة في المنطق أو العلم (مثلا) ، كما راح قوم منهم يستقصى طبيعة « الأحكام التقييمية » الجارية على أقلام فلاسفة الأخلاق ، بينما عنى البعض الآخر منهم بدراسة « اللغة الوصفية » أو « شبه الوصفية » المستخدمة في مجال النظر الأخلاق بصفة عامة ... إلخ . وهكذا تحول اهتمام الباحثين من « المشكلة الخلقية » — بمعناها المحدد —

(١) ارجع إلى مقالنا : « عؤد إلى مشكلات الأخلاق » ، المنشورة بمجلة « الفكر

إلى مشكلة أخرى « ميتا — أخلاقية Meta - Ethical » ألا وهي مشكلة « لغة الأخلاق ». وكان من نتائج هذا التحول أن دعت الحاجة إلى التمييز بين الجانب العلمى للمشكلة الخلقية ، ألا وهو جانب النظرية الأخلاقية من جهة ، والجانب العملى (أو التطبيقى) للمشكلة ، ألا وهو جانب الحياة الخلقية من جهة أخرى . وهم يبررون هذه التفرقة بقولهم : إن مشكلات الفلسفة الأخلاقية مختلفة — اختلافا نوعيا — عن تلك المشكلات التى تواجه الفاعل الخلقى ، أو حتى رجل الأخلاق . وآية ذلك أن لغة النظرية الأخلاقية مختلفة — من حيث طرازها المنطقى — عن لغة الأخلاق التى يستخدمها الفيلسوف التقليدى : إذ أن لغة الأخلاق الفلسفية لغة « من الطراز الأول » ؛ بمعنى أنها تعرض لمسائل الخير والشر والواجب وأنواع الفضائل وغير ذلك ، فى حين أن لغة النظرية الأخلاقية هى لغة من طراز أسمى (منطقيا) ؛ بمعنى أنها لا تعرض إلا لمعنى أو بناء اللغة السابقة (أعنى اللغة الفلسفية التى قلنا عنها إنها من الطراز الأول) وقصارى القول أن الموضوع الذى أصبح يستأثر اليوم باهتمام الكثير من الباحثين فى مضمار الأخلاق إنما هو موضوع « النظرية الأخلاقية » ، لا مشكلات الحياة الأخلاقية العملية ، ومن ثم فقد استحالت « الأخلاق » إلى « ميتا — أخلاق » وحلت مشكلة « اللغة الأخلاقية » محل مشكلة « الحياة الخلقية » (١) .

ولئن يكن من العسير على الباحث المنطقى أن ينكر أهمية تلك الدراسات اللغوية التى يضطلع بها رجالات المدرسة الإنجليزية من علماء الأخلاق ، إلا أن أحدا لا يتصور أن تقضى أمثال هذه الدراسات اللغوية على صميم « المشكلة الخلقية » بوصفها إشكالا حيا يعيشه موجود تاريخى لا يكاد يكف عن التساؤل : « ما الذى ينبغى لى أن أعمله ؟ » . فليس فى استطاعة الأبحاث

Cf. Kerner: "The Revolution in Ethical Theory." (١)

Oxford, Clarendon Press, 1966, pp. 1 - 2.

المنطقية التى يجربها أمثال هؤلاء الفلاسفة على لغة الأخلاق أن تقضى بجرة قلم على المشكلة الخلقية التقليدية ، بكل ما تنطوى عليه من جدية ، وخطورة ، وقلق وجودى . وما دامت وصفا حيا شاملا للخبرة البشرية فى مجموعها ، فستظل المشكلة الخلقية إحدى المشكلات الفلسفية الهامة التى تؤرق بال الفيلسوف بوصفه إنسانا تاريخيا يحيا فى مجتمع ، ويعانى الكثير من الخبرات الخلقية ، ويجد نفسه ملزما بتحقيق مصيره .

يبد أن ظاهرة « التهرب من الذات » قد حدث بالكثيرين إلى العمل على إسقاط المشكلة الخلقية من حسابهم الخاص ، خصوصا وقد جاءت الحياة الآلية المحدثه ، فقضت على « الحياة الباطنية » للكائن البشرى ، وجعلت منه إنسانا خاويا .

والواقع أن الإنسان المعاصر — فى ظل النظام الرأسمالى — قد استحال إلى مجرد « سلعة » ، فأصبح يُعَدّ قواه الحيوية مجرد « رصيد » يضعه موضع الاستثمار ، بُغية الحصول على أكبر قسط ممكن من الربح ، وفقا لما تقضى به حالة السوق ! وهكذا أصبحت العلاقات البشرية — فى المجتمع الرأسمالى الحديث — خاضعة تماما لقوة منظمة كبرى هى « السوق » ، ولم يعد من الغرابة فى شئ أن نجد إنسان القرن العشرين يجعل طمأننته النفسية رهنا بالبقاء إلى جوار القطيع ، دون أن يكون فى وسعه مخالفة أنماط جماعته فى التفكير والوجدان والسلوك .

صحيح أن المجتمع الرأسمالى هو فى حاجة دائما إلى أفراد يشعرون بأنهم أحرار مستقلون ، ولا يجدون أنفسهم مستعبدين لأى مبدأ أو سلطة أو ضمير ، إلا أنه فى الوقت نفسه يتطلب من هؤلاء الأفراد أن يكونوا على استعداد للخضوع ، وأن يُقبلوا عن طيب خاطر على فعل ما يُطلَبُ منهم أداؤه ، وأن يتكيفوا مع الجهاز الاجتماعى دون أدنى احتكاك أو اصطدام .

ومن هنا فإن الفرد — فى ظل النظام الرأسمالى الحديث — إنما يُوجَّه دون قَسْر ، ويُقاد دون حاجة إلى قائد أو زعيم ، ويُذفع به إلى الأمام دون ما هدف

أو غاية ، اللهم إلا لكي يكون ترسا صالحا في الآلة الاجتماعية ، بحيث يتحرك ، ويعمل ، ويؤدي وظيفته ، دون أن تكون له أية مبادأة شخصية ، أو أى نشاط مستقل^(١) .

ولكن ، على الرغم من أن كل فرد في المجتمع الحديث قد أصبح أحرص ما يكون على البقاء إلى جوار الآخرين ، إلا أن كل تلك الأساليب المشتركة أو الطرق الموحدة التي أصبح الناس يصطنعونها في الأكل والشرب والحب والزواج والعمل والتسلية وقضاء العطلات وما إلى ذلك ، لم يكن من شأنها سوى أن تزيد من شعور كل واحد منهم بـ « العزلة » ؛ ومن هنا فقد تزايد لدى الكثيرين الإحساس بالخواء ، والغربة ، وعدم الطمأنينة ، والقلق ؛ وكان من آثار هذه العزلة البشرية الأليمة أن نشأ لدى الكثيرين إحساس مَرَضِي بالإثم . صحيح أن الإنسان الحديث قد حاول القضاء على هذا الشعور الأليم بالوحدة عن طريق « روتين » الحياة البيروقراطية الآلية ، كما حاولت التغلب على يأسه اللاشعوري بِرُوتين التسلية والاستهلاك السلبي للأصوات والمشاهد التي تقدمها له صناعة التسلية ؛ فضلا عن التجائه إلى لذات شراء الأشياء الجديدة ثم استبدالها بغيرها ... إلخ ؛ ولكن كل هذه الأساليب المصطنعة في القضاء على شعور الفرد باغترابه عن ذاته : Alienation لم تستطع أن تحقق له الشعور بالأمن أو الإحساس بالطمأنينة . ومن هنا فإن استهلاك السلع المختلفة من أغذية ، ومشروبات ، وطباق ، وأفلام ، وكتب ، ومحاضرات ، ومشاهد ، وأصدقاء ، وعلاقات جنسية وما إلى ذلك ، لم يكن من شأنه سوى أن يزيد من شعور الفرد بالخواء Vide ، خصوصا وقد أصبحت الموضوعات الروحية نفسها في مجتمعه مجرد موضوعات للمبادلة والاستهلاك !^(٢) .

Cf. Erich fromm: "The Art of Love", London, Unwin, (١)

1962, pp. 62 - 64.

(٢) ارجع أيضا إلى كتاب فرويد : « المجتمع السليم Sane Society » ، (الترجمة العربية للأستاذ محمود محمود) .

والواقع أنه إذا كان ثمة شيء قد أصبح الإنسان المعاصر مفتقرا إليه ، فما ذلك الشيء سوى الوعي الأخلاقي الذى يمكن أن يوقظ إحساسه بالقيم . وحسبنا أن نمنع النظر إلى حياة الإنسان الحديث ، لكى نتحقق من أنها سطحية خاوية ، يعوزها عمق الاستبصار ، وينقصها كل إحساس بالمعنى أو القيمة ، خصوصا وأن الحياة الآلية الحديثة قد جعلت من وجود المخلوق البشرى وجودا مزعزعا لا سكونية فيه ولا تأمل ، بل مجرد حركة وسرعة وتعجل . وقد لا تخلو حياة الإنسان الحديث من جهد ونشاط ، ولكنه جهد لا غاية له ، ونشاط لا هدف له ، اللهم إلا إذا قلنا إن هذا الهدف هو التنافس الذى لا يُخفى وراءه أى تأمل أو تفكير . ولو حاول الإنسان الحديث أن يتوقف لحظة ، لوجد نفسه محمولا على تيار اللحظة التالية ، دون أن يملك من أمر نفسه شيئا ! وكما أن مطالب الحياة الخارجية تتصارع فيما بينها ، ويطردها بعضها البعض الآخر ، فكذلك تجيء الانطباعات ، والإحساسات والخبرات ، فيحاول كل منها أن يقتلع الآخر ، لكى يحل محله .

والظاهر أن الإنسان الحديث قد أصبح يبحث دائما عن أحدث الأشياء وأكثرها جدة ، فهو يجد نفسه محكما دائما بالجديد المستطرف ، حتى قبل أن تكون الفرصة قد أتت له لتذوق ما مرّ به من تجارب ، أو للتمتع فيما مرّ به من أحداث ! وهكذا صارت حياتنا انتقالا من إحساس إلى إحساس ، ومن خبرة إلى خبرة ، دون أن ننفذ إلى شيء ، أو نتوقف عند شيء ، أو نتمعق شيئا ، حتى لقد تبدلت (أو كادت) حساسيتنا بالقيم ، فأصبحنا نقتصر على اجترار بعض الأحاسيس الشهوانية التافهة !

ولم يعد الإنسان الحديث موجودا قلّقا ، مُتهوّرا ، متبلّدا فحسب ، بل لقد أصبح أيضا كائنا سطحيّا لا شيء يلهمه ، ولا شيء يمسّه ، ولا شيء يحرك كوامن وجوده الباطنى ' ومهما يكن من أمر تلك الابتسامة السطحية التى قد نلقى بها الكثير من الأحداث والأشخاص ، فإننا — مع الأسف الشديد —

لم نعد نفطن إلى القيم الحقيقية للأشياء والأشخاص . وربما كان أعجب ما في « الإنسان الحديث » أنه قد أحال عجزه عن الإعجاب (أو التعجب) : Nil Admirari إلى عادة متأصلة من عادات حياته ، فلم يعد يستشعر أية دهشة ، أو أى تعجب ، أو أية حماسة ، أو أى إجلال ! ولا شك أن الانزلاق على سطوح الأشياء يمثل أسلوباً سهلاً من أساليب الحياة : فليس من الغرابة فى شيء أن نجد الإنسان الحديث مرتاحاً إلى هذا الأسلوب السطحي من أساليب الحياة ، دون أن يفطن إلى ما يكمن وراءه من « خواء باطنى » : Inner Vacuity . وقد لا يكون عصرنا هو أول عصر من العصور التاريخية التى ظهرت فيه مثل هذه الأوضاع الحضارية الخطيرة ، ولكن من المؤكد أن هذه الضحالة فى الإحساس بالقيم قد اقترنت دائماً (حينما ظهرت) بأعراض الضعف والانحلال ، والجذب الباطنى ، والإحساس العام باليأس أو التشاؤم . ولا سبيل إلى علاج هذا المرض ، اللهم إلا باستشارة ما لدى الإنسان من قدرة على الدهشة (أو التعجب) ، من أجل دعوته إلى رؤية القيم ، والإحساس بثراء الحياة .

والحق أن رجل الأخلاق هو على النقيض تماماً من الرجل المتعجل المتهور ، أو الرجل الغليظ المتبلد ، وقد كان القدماء يسمّون « الحكيم » باسم « الرجل العارف Sapiens » ، ولكنهم كانوا يعنون بالمعرفة هنا « الذوق » ، فكان الإنسان « العارف » عندهم هو الإنسان « المتذوق Taster » .

وهارتمان يشرح لنا معنى « الإنسان المتذوق » فيقول : إنه المخلوق ذو البصيرة الذى يصحّ أن نطلق عليه اسم « رأى القيم Seer of values » .

ولو أننا فهمنا « الأخلاق » بمعناها الواسع ، لكان فى وسعنا أن نقول إن رجل الأخلاق هو ذلك الإنسان الواعى الذى يتمتع بقوة نفاذة تعينه على تذوق قيم الحياة بكل ما فيها من وفرة وامتلاء ، وخصوصية ليس من الضروري أن نسمّى تلك القوة — كما فعل هارتمان — باسم الملكة الخلقية Moral Faculty ، وإنما حسبنا أن نقول إننا هنا بإزاء حساسية أخلاقية تتفتح لشتى ضروب الثراء الكامنة فى الحياة ، وتنفذ إلى أعماق « القيم » الباطنة فى الوجود .

وليست مهمة فيلسوف الأخلاق — اليوم — سوى أن يأخذ بيد الإنسان الحديث لمساعدته على استرداد تلك « الحاسة الأخلاقية » ، حتى يعاود النظر من جديد إلى عالم الأشياء والأشخاص بعين نفاذة ترى « القيم » وتدرك « المعاني » ، وبذلك يفتح أمامه ذلك « العالم الروحاني » الذي أغلقه هو نفسه في وجه نفسه ! (١) .

وإذا كان كثير من الفلاسفة قد درجوا على تصوّر « الأخلاق » بصورة العلم المعيارى الذى يحدّد لنا السلوك الفاضل أو « ما ينبغي أن يكون » ، فإن من واجبنا أن نضيف إلى ذلك أن الأخلاق أيضا فلسفة علمية تفتح أمام الإنسان « ملكوت القيم Realm of Values » . والحق أن الحياة الخلقية تفرض على الوجود البشرى المشاركة في « ملاء الحياة Fulness of Life » ، وتقبل كل ما له دلالة ، والتفتح لكل ما ينطوى على قيمة .

وليس خواء الحياة الخارجية للإنسان ورتابتها سوى مجرد صدى لخواء حياته الباطنية ورتابتها ، إن لم نقل مجرد انعكاس لعماه الخلقى الذى كثيرا ما يفوّت عليه رؤية القيم الحقيقية للأشياء والأشخاص ، وكثيرا ما يخيل إلينا أن « عالم القيم » قد استوعب ، أو أن الإنسان قد استطاع إدراك كل ما تنطوى عليه الحياة من ثراء ، ولكننا سرعان ما نتحقق من أنه لا زال علينا أن نرى الكثير ! ومن هنا فإن الأخلاق — بحكم طبيعتها — تتجه دائما نحو المستقبل ، واثقة من أنها لا بد مكتشفة فيما يستجد عليها من « خبرات » معانٍ جديدة لم تكن بعد قد وقفت عليها ! صحيح أن « الأخلاق » لا تستطيع أن تعزل نفسها عن المبادئ الخلقية القائمة بالفعل ، كما أنها لا تملك الحق في التنكر تماما لكل ما بين يديها من مثل عليا لها وجودها الحقيقى ، ولكن ماهية الأخلاق ستظل دائما هي القيام بدور « القوة المحوّلة » في مضمار الحياة .

وعلى ذلك فإن الأخلاق الفلسفية لا تلقّنا بعض الأحكام الجاهزة ، بل

(١) N. Hartmann: "Ethics", Vol. I., English Translation by S. Coit, Allen & Unwin, London, 1958, pp. 63 - 64.

هى تعلمنا دائما كيف نحكم ! إنها توجه انتباهنا — بطريقة مباشرة — نحو
العنصر الإبداعي فى الإنسان ، فتحداه — فى كل مرة — طالبة إليه أن
يلاحظ ، ويحدد ، ويتكهن بما يجب أن يحدث ! إنها تدعوه إلى التصرف فى
كل مناسبة وفقا لما يستدعيه الموقف الخاص ، بحيث يجرى تصرفه سلوكا أصيلا
جديدا مبتكرا ! ولا غرو ، فإن « الأخلاق الفلسفية » لا تريد أن تحتبس
الإنسان داخل بعض الصيغ الميتة الجامدة ، بل هى تريد له أن يتقدم باستمرار
نحو المزيد من الحرية والمسئولية والقدرة على توجيه الذات . وليس من شك فى
أن تحرير الإنسان من كل وصاية ، إنما هو بمثابة خلق جديد للإنسان . ولكن
« التفكير الأخلاقى » — وحده — هو الكفيل بتحرير الإنسان ، والسمو به إلى
مرتبة « الشريك » الحقيقى لله فى عملية « إبداع الكون » (١) .

وهنا قد يقول قائل : « وما شأن الأخلاق — وهى نظرية الخير والشر —
بالعمل الإبداعي الذى يحققه الخالق فى هذا العالم ؟ » . وردنا على هذا
الاعتراض أن الإنسان بوصفه كائنا أخلاقيا — إنما هو « حامل القيم »
The carrier of values الذى يأخذ على عاتقه مهمة تحقيق « الغائية الإلهية »
على الأرض .

وإذا كان الكثيرون قد توهموا أن « الأخلاق » لا تزيد عن كونها مجرد نداء
« الواجب » أو « ما ينبغى أن يكون » ، وكأن كل مهمة « الأخلاق » أن تصدر
بعض الأوامر والنواهي ، وأن تضع بعض القواعد أو الوصايا ، فإن من واجبنا
أن نقول إن رسالة « الأخلاق » الحقيقية هى تحويل العالم من « المرتبة الطبيعية »
الصرفة إلى « المرتبة الأكسيولوجية » الحقيقية — وليس معنى هذا —
كما سنرى فى تضاعيف هذا الكتاب — أن الإنسان هو خالق القيم ، أو أنه
مبدع المعايير ، وإنما الذى نغنيه أن الإنسان هو همزة الوصل الوحيدة بين
« الواقعة » و « القيمة » ، فهو الجسر الحقيقى الذى تعبر فوقه « الطبيعة » لى
تستحيل إلى « ملكوت قيم » .

(١) المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٣٠ — ٣١ ، وانظر أيضا : ص ٦٥ — ٦٦

وكثيرا ما يظن بعض الفلاسفة أن « التقييم » الحقيقي للحياة لابد من أن يكشف لنا بالضرورة عما في الوجود من شرور ، ولكن العين البصيرة النفاذة هي الكفيلة دائما بأن تظهرنا على أن « الواقع » ليس خلوا تماما من كل « قيمة » ، وإن كان علينا نحن أن نستخرج « القيم » من مكانها .

والحق أنه لو كانت « القيمة الخلقية » — في صميمها — مجرد « عدم أذى » لكانت الحياة البشرية بأسرها لعبة تافهة لا طائل تحتها ، ولأصبح العالم كله واديا للدموع . وليس أيسر علينا — بطبيعة الحال — من أن ننكر على العالم كل « قيمة » ، لكي ننادى بالعبث واللامعنى واللامعقولة ، ولكننا — عندئذ إنما نصطنع ضربا من « العمى الخلقى » الذى يحول بيننا وبين رؤية « قيم » الواقع .

وحين يقول بعض المفكرين المعاصرين إن « اللامعقول » هو الكلمة الأخيرة فى دراما الحياة البشرية ، فإنهم عندئذ يغلقون أعينهم ، ويشلون أيديهم ، حتى لا يشاركوا فى ثراء الواقع بكل ما يحفل به من قيم . ولكن الحياة — لحسن الحظ — طافحة بالمعاني ، والدلالات ، والقيم ، وهى لم تنتظر ظهور هذا الإنسان أو ذاك ، حتى تصل — من خلال إرادته وفعله — إلى النور ، والمعنى ، والقيمة ، وإذن فإن « العمى الخلقى » — وحده — هو الذى يغلق أعيننا عن رؤية ما فى الواقع من « ثراء » و « معنى » و « قيمة » . ولا بد لفيلسوف الأخلاق من أن يأخذ على عاتقه مهمة « إعادة البصر » أو « البصيرة » إلى أولئك الذين لم يعودوا يدركون « القيم » .

وهنا تنكشف لنا صلة الأخلاق بالتربية : فإن الوظيفة الأولى للمرئى إنما هى العمل على تفتيح ذهن الحدث — أو الشاب — للتقييم الخلقية . وكلما زادت حساسية المرئى نفسه للتقييم ، كان تأثيره الخلقى على النشء أقوى وأفضل .

والحق أن للأخلاق الفلسفية وظيفة إيجابية إلى أعلى درجة : لأن واجبها أن ترى المرئى نفسه حتى يصبح أهلا لتربية النشء . وهذا ما فطن إليه أفلاطون قديما حين قال إن الأخلاق هى مربية الإنسانية بصفة عامة . ومعنى هذا

أن الأخلاق تضطلع بمهمة المساهمة في إيقاظ الإحساس بالقيم لدى الإنسان .
ولا بد أن يظل المربون الحقيقيون قلة دائما ، ولكنهم — بلا شك — ملح
الأرض (على حد تعبير المسيح) ؛ لأنهم — وحدهم — الذين يرون ، ثم
يعلمون الآخريين كيف « يرون » !

وأملنا — في النهاية — أن نسير مع القارئ على درب الحقيقة حتى نرى
معه ، ويرى هو أيضا معنا ؟

« زكريا إبراهيم »

عمان في فبراير سنة ١٩٦٦

مقدمة

الإنسان « حيوان أخلاقي »

اعتاد فلاسفة الأخلاق تخصيص جانب كبير من اهتمامهم لتعريف موضوع دراستهم ، أو مناقشة شتى التعريفات المقترحة لـ « علم الأخلاق » ، من أجل الوصول إلى تحديد علمي دقيق يستندون إليه من بعد في « نظريتهم الأخلاقية » .

والرأى عندنا أن كل هذه الجهود التي يبذلها الفلاسفة في سبيل تحديد موضوع « الأخلاق » لا تصلح « نقطة انطلاق » لأية دراسة أخلاقية جادة : إذ أن المشكلة الخلقية ليست مجرد إشكال نظري بحت ، أو مجرد بحث منطقي لغوي خالص ، وإنما هي أولا وبالذات مشكلة وجودية يواجهها المرء على مستوى « الخبرة المعاشة » .

صحيح أن كثيرا من الباحثين قد ذهبوا إلى أن الأخلاق « هي مجرد دراسة نظرية صرفة ، ما دام الغرض الذي تهدف إليه هو فهم طبيعة « الحياة الخلقية » ، ولكن من المؤكد أن نقطة انطلاق أى بحث أخلاقي فلسفي لابد من أن تكون هي « الخبرة الأخلاقية Moral Experience » .

ونحن حين نتحدث عن « الخبرة الأخلاقية » فإننا نعنى كل خبرة بشرية معاشة يمكن أن تنطوي على « مضمون ذي قيمة » ؛ فالحياة الأخلاقية — بما فيها من جهد ، ومشقة ، وصراع ، وألم ، وإثم ، وخطيئة ، وندم ، وتوبة ، ويأس ، وشقاء ، ولذة ، وسعادة ، ونجاح ، وفشل ... إلخ — حياة عامرة بالخبرات ، حافلة بالمعاني ، مفعمة بالقيم .

والخبرة الأخلاقية هي كل تجربة يعانها الإنسان حين يستخدم إرادته ،

أو حين يقوم بأى جهد إرادى ، سواء أكان ذلك من أجل تحقيق مقصد ذاتى ، أم من أجل تغيير العالم المحيط به والتأثير على غيره من الناس ؛ ولهذا فقد ارتبطت الحياة الأخلاقية — منذ البداية — بطابع « النشاط المهادف » الذى يراد من ورائه تحقيق « غاية » أو بلوغ « مقصد » .

ومهما اختلفت نظرات الفلاسفة إلى مضمون « الفعل الأخلاقى » ، فإنهم قد يتفقون على القول بأنه ذلك النشاط الإرادى الذى يترتب عليه أثر حسن أو سيئ ، إن بالنسبة إلى صاحبه أم بالنسبة إلى الآخرين (أو بالنسبة إليهما معا) . والحق أننا بمجرد ما « نعمل » ، فإن أفعالنا سرعان ما تنفصل عنا — بوجه ما من الوجوه — لكى تصبح ملكا للواقع ، دون أن يكون فى إمكاننا من بعد أن نجعلها وكأن لم تكن ، وحين يجرى فعلنا منطقيا على نقص أو عيب أو قصور ، فإننا قلما نستطيع — بعد تحققه — أن نتلافى تماما هذا النقص ، أو أن نصلح تماما ذلك العيب : إذ أن الفعل الذى تحقق قد أصبح بمثابة « واقعة » لا تقبل الإعادة .

والواقع أن كل موقف من المواقف لا يظهر إلا « مرة واحدة وإلى الأبد » ، فهو — بطبيعته — غير قابل للإعادة على الإطلاق ، وهو — فى جوهره — فردى كأى شئ واقعى آخر . ولكنه بمجرد ما يحدث ، فإنه سرعان ما يلتحم بنسيج الأحداث ، لكى يصبح جزءا لا يتجزأ من صميم تلك العملية الكونية . وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى أى فعل من الأفعال : إذ أنه بمجرد ما يتحقق ، فإن آثاره لا بد أن تمتد على شكل دوائر تتسع باستمرار وكأن من شأن كل فعل أن « ينتشر » على طريقته الخاصة . وهو حين يلتحم بنسيج الوجود ، فإنه لا يلبث أن يحيا فى باطن هذا الوجود ، دون أن يطرأ عليه الفناء أبدا ، حتى ولو ضعفت ضربات الذبذبات التى تنبعث منه ، أو لو تلاشت فى المجرى الكبير الذى يحمل فوق تياره كل شئ . أجل ، فإن الفعل الأخلاقى — بمعناه الحقيقى — لابد من أن يجرى فعلا خالدا ، مثله فى ذلك كمثل الواقع نفسه .

وقد تكون بعض أفعالنا — فى منشئها — أفعالا غير متدبرة أو غير صادرة

عن روية كافية ، ولكنها بمجرد ما تتحقق ، فإنها لا تلبث أن تخضع لقانون آخر ، ألا وهو قانون الواقع و « النشاط الفعّال » . وهذا القانون هو الذى يجيء فيضفى عليها حياة خاصة ، وعندئذ يصبح فى مقدورها إما أن تُسهم فى بناء الحياة ، أو أن تعمل على هدمها ، ولا يكون فى وسع الندم أو اليأس سوى أن يقف أمامها مكتوف اليدين . والحق أن من شأن « الفعل » أن يتجاوز صاحبه : لكى لا يلبث أن يسمه بطابعه ، ويصدر عليه حكمه ، دون أدنى هوادة أو رحمة ؛ صحيح أننا قد لا نفطن — سلفا — إلى سلسلة المعلولات (أو النتائج) التى يمكن أن تترتب على أفعالنا ، ولكن من المؤكد أن لكل فعل نتائجه التى لا بد من أن تترد إلينا ، وترين علينا ، حتى إذا لم نكن قد توقعناها أو قصدنا إليها .

وما يقال بالنسبة إلى الفرد ، يقال أيضا بالنسبة إلى الجماعة : لأن سلوك أى مجتمع ، أو أية أمة أو أى جيل ، أو أى عصر : لا بد من أن يولد « آثارا » تكون منه بمثابة النتائج الضرورية التى لا مناص من تحملها .

وليس من شك فى أن ما يستقر عليه قرارنا اليوم إنما هو الذى يفصل فى مستقبل الأجيال القادمة غدا ، بحيث إنه لا بد للزمان المقبل من أن يحصد ثمار ما زرعه أهل الوقت الحاضر ، على نحو ما أنضح « الحاضر » محصول « الماضى » . وكثيرا ما يستشعر أهل الحاضر أن قيم المجتمع قد أصبحت عتيقة بالية ، وأن ثمة قيما أخرى جديدة قد أخذت تتفجر من أعماق التربة الاجتماعية ، فتظهر الحاجة عندئذ إلى القيام بأفعال أصيلة من أجل العمل على توطيد دعائم تلك « القيم الجديدة » التى تتطلبها الجماعة .

وهنا يجيء السؤال الأخلاقى : « ما الذى ينبغي لنا أن نعمله ؟ » لكى يطرح نفسه على أفراد الجماعة ، فى حدة ، وقسوة ، وإلحاح ... ولكن ، سواء أكنّا بإزاء الفرد ، أم بإزاء الجماعة ، فإننا فى كلتا الحالتين لا بد من أن نجد أنفسنا بإزاء « أفعال أخلاقية » ، لها وزنها ، وقيمتها ، ودالتها ، وآثارها ، ونتائجها ... إلخ .

هل هناك « فعل أخلاقى » لدى الحيوان ؟

صحيح أننا قد نلتقى بسلوك — من هذا القبيل — لدى بعض جماعات الحيوان ، ولكن من المؤكد أن كل ما لدى الحيوان من أساليب تصرف قد تنطوى على شيء من الجهد ، أو النشاط ، أو الغائية ، أو حسن التقدير للأمور ، لا يعنى مطلقاً أن لدى الحيوان أية مقدرة على أداء بعض الأفعال الإرادية ، أو القيام ببعض التصرفات الأخلاقية . وآية ذلك أن الحيوان لا يتمتع بأية قدرة على تذكر الماضى ، أو التطلع إلى المستقبل ، أو الانفصال عن الواقع ، أو العمل على إعادة تنظيم الواقع من جديد ، بعكس الموجود البشرى الذى يستطيع أن يقيس الموقف ، ويزنه ، ويتأمله طويلاً ، ويقدر آثاره ونتائجه ، ويتجه ببصره نحو الأصداء التى سترتب عليه فى المستقبل ... إلخ .

والواقع أن الحيوان أعجز من أن يتعرف على الماضى بوصفه « ماضياً » : لأن ذاكرته محدودة فى الزمان ، فهى لا تستبقى الصور البصرية أو السمعية لمدة طويلة . ومن هنا فإن « الزمان » الذى يعيش فيه الحيوان ضيق الرقعة ، لدرجة أنه لا يكاد يمتد إلى الأمام أو إلى الوراء إلا النزر اليسير ، وحتى حين « يعمل » الحيوان من أجل « المستقبل » ، فإنه لا يملك فى ذهنه أى « تصور » حقيقى للمستقبل ، كما أنه حيناً يتأثر فى سلوكه بأصداء « الماضى » ، فإنه لا يملك فى ذهنه أيضاً أية « صورة » حقيقية عن الماضى ، بل كل ما هنالك أن آثار التجارب السابقة قد تتردد فى : نشاطه الحاضر ، دون أن يكون ثمة « تصور » صحيح يتجلى فيه تعرف الحيوان على الماضى بوصفه ، « ماضياً » ، أو تظهر فيه الإعادة المقصودة للماضى من حيث هو كذلك^(١) .

وهذه الأسباب جميعاً تدفعنا إلى القول بأنه ليس لدى الحيوان سلوك

(١) ارجع إلى كتابنا : « مبادئ الفلسفة والأخلاق » ، مكتبة مصر ،

الفصل الثانى : « مكانة الإنسان فى الكون » ، ص ٥٥ - ٥٨

أخلاق — بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة — ما دامت أفعاله خالية من « الغائية » و « القصد » و « تصور الزمان » و « إدراك القيمة » ... إلخ .

وهنا قد يقال إن بعض أفعال الحيوان — كالوفاء الذى يظهره الكلب نحو صاحبه — مصبوغة بصبغة أخلاقية ، فهى تشبه — من بعض الوجوه — أفعال الخير التى يقوم بها بنو البشر ، ولكننا — مع ذلك — لا نستطيع أن ننسب إلى الحيوان سلوكا أخلاقيا ، لأننا لا نكاد نجد لديه أفعالا إرادية تكشف عن وعى أخلاق صحيح ، أو تقدير واع للأمر . ولو أننا عرفنا الفعل الإرادى بأنه « ذلك الفعل الذى كان يمكن للفاعل أن يختار سواه » ، لكان فى وسعنا أن نقول إننا قلما نلتقى لدى الحيوان بأمثال هذه « الأفعال الإرادية » .

ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن الحيوان لا يعرف المشكلة الخلقية — بمعناها الحقيقى — لأنه لا يستطيع أن يكون لأى موقف صورة ذهنية صحيحة ينتزعها من خبراته السابقة ، فضلا عن أنه لا يملك القدرة على وضع الصعوبة التى يجد نفسه بإزائها فى « معادلة عقلية » يحللها بالوسائل الذهنية الملائمة .

والحق أن أى إنسان — كائن من كان — ، حتى ذلك الرجل الأبله الذى قد نلتقى به خارج مستشفيات الأمراض العقلية ، لا يمكن أن يكون مجرد « حيوان » يصدر فى كل تصرفاته عن بعض الدوافع العضوية البحتة ، وكأن ليس لديه ما يعدو مطالب الجسد ، أو يتجاوز حاجات الغريزة .

وعلى الرغم من أن حياة العاديين من الناس كثيرا ما تبدو لنا « منافية للعقل Irrational » : لأننا قد نقيسها بنمط منظم متسق من السلوك ، إلا أن هذه الحياة العادية — مع ذلك — قد لا تخلو من تنظيم أو تنسيق ، إذا قيست بفوضى الحياة الحيوانية التى تحكمها بعض الدوافع المشتتة ، أو إذا قورنت بعماء الحياة البشرية المستبعدة للأهواء المتعارضة ، لو قدر لمثل هذه الحياة أن تخلو تماما من كل « عقل » .

حقا إن حياة الإنسان قد تخلو من أى « غرض أسمى » أو أى « مقصد شامل »

أو أية « عقيدة كبرى » توجه نشاط صاحبها ، وتحكم في كل سلوكه ، وتجعل من هذا السلوك وحدة أخلاقية متسقة ، ولكن من المؤكد — مع ذلك — أن مثل هذه الحياة قد لا تخلو تماماً من بعض خيوط أو خطوط من « الغائية » ، تمتد هنا وهناك ، فتربط فروع السلوك بعضها ببعض ، وتقيم بينها بعض الوشائج الحية . وما دام لكل إنسان مهنته أو حرفته ، وحياته العائلية الخاصة ، وانفعالاته ، وعواطفه ، وهواياته الخاصة ، وبيته ، وحاجياته ، وممتلكاته ... إلخ ، فلا بد لهذه كلها من أن تحيى فتخلع على سلوكه ضرباً من النظام أو الاتساق أو الترابط ، وبالتالي فإنه لا بد لهذا السلوك من أن يصبح سلوكاً « غائياً » ، متصلاً ، معقولاً ، أما إذا قيل إن النتيجة النهائية لكل هذا لا بد من أن تحيى أقرب إلى المزيج المتنافر أو الخليط المهوَّش ، منها إلى التمثط المتسق أو اللوحة المنسجمة ، كان ردنا على ذلك أنه لا بد — في النهاية — من الحكم على أية حياة بما أصابت من نجاح ، لا بما تردت فيه من فشل .

ولا شك أن عناصر التنظيم والتحديد والغائية المتصلة ، في أية حياة بشرية ، إنما هي الدليل على أنها لم تُخلُ تماماً من كل طابع عقلي يكون بمثابة الوجه الحقيقي للسلوك^(١) .

وهذا استيقنسون يتحدث عن حياة الإنسان المشتتة المعزقة فيقول : « ما أشقى تلك النفس البشرية المسكينة التي لا تحيا على ظهر هذه الأرض إلا إلى حين ، وقد قُذِفَ بها في بحر خضم من العوائق والمصاعب ، وليس في قلبها سوى نوازع لا اتساق بينها ، ورغبات متعارضة لا تعرف الانسجام ، بينما أحاطت بها بيئة قاسية متوحشة ، كما كان هبوطها هي نفسها من سلاله بدائية متوحشة ، وقد كُتِبَ عليها — دون أدنى هواده أو رحمة — أن تسطو على حياة الآخرين ، وأن تلحق بهم الأذى ... إلخ . مَنْ ذَا الذي كان ليلوم مثل هذه الخليفة التعسة ، لو أنها بقيت جزءاً لا يتجزأ من صميم قدرها المحتوم ، وبالتالي

J. H. Muirhead: "The Use of Philosophy", London, (١)
Allen & Unwin, 1928, p. 76.

لو أنها ظلت مجرد ذات بربرية ؟ ... ولكننا نتطلع إلى الإنسان ، فنلتقى لديه — على العكس من ذلك — بالعديد من الفضائل (وإن كانت هذه الفضائل قد لا تخلو من نقص) ، كما نجد في كثير من الأحيان مخلوقاً قوياً شجاعاً تستثير جراته إعجابنا ، إن لم نقل إنساناً عطوفاً طيباً تحرّك طبيته شغاف قلوبنا . وإنه ليعلم أن حياته قصيرة الأمد ، محدودة الأجل ، ولكنه يجتمع مع ذلك إلى أقرانه ، لكي يتبادل معهم الرأي حول الخير والشر ، والصواب والخطأ ، ويتناقش معهم حول حقيقة الألوهية وصفاتها ... إلخ . ولكنه على استعداد — في الوقت نفسه — لحمل السلاح من أجل الحصول على بيضة ، أو في سبيل الدفاع عن فكرة ! على أننا لو حاولنا أن ننفذ إلى قلعة أسرارهِ ، أو إلى أعماق أعماق قلبهِ ، لما وجدنا هناك سوى فكرة واحدة : فكرة قد تبدو غريبة إلى حد الجنون ، ولكنها فكرته الأساسية التي لا يستطيع أن يعيش بدونها ؛ إنها فكرة الواجب : فكرة ذلك الشيء الذي هو مدين به لذاته ، ولقريبهِ ، ولإلههِ ، وهي فكرة تفرض عليه نمطاً خاصاً من السلوك ، أو نوعاً معيناً من الآداب ، وكأنما هو قد شاء لنفسه أن يضع كل شرفهِ في هذا « المثل الأعلى » الذي يفرضه على نفسه ... ومهما تردّى الوجود البشرى ، فإنه لا بد من أن يظل متمسكاً بخرقه صغيرة من الشرف ، حتى حين يكون في مأخور ، أو حين يكون حبل المشنقة قد طوَّق عنقه ، وكأنما هو يؤمن في قرارة نفسه بأن الشرف هو تلك اللؤلؤة الثمينة التي لا بد من أن تستمسك بها النفس التعيسة الشقية ... (١) .

ولئن تكن هذه العبارات أقرب إلى الشعر منها إلى الفلسفة ، إلا أنها عبارات قوية تصف لنا سلوك ذلك الوجود الأخلاق الذي لا يمكن أن يحيا على مستوى الغريزة وحدها ، لأنه لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى تجاوز مستوى الحياة الحيوانية الصرفة . والحق أنه لو كان علينا أن نوحّد بين الوجود

R. L. Stevenson: "Pulvis et Umbra". (quoted by (١) Maithead, p. 75).

البشرى والوجود الحيوانى ، لكان علينا أن نستبعد نهائيا من دائرة الحياة الإنسانية كل ما يتصل بمسائل الأخلاق والقيم ، والمثل العليا ، وتنظيم السلوك ، ومراقبة الدوافع ، وإصلاح الفرد ، وتغيير المجتمع ، وتربية النشء ، وتحقيق المصير ... إلخ .

ومهما كان من أمر تلك المشابهات السطحية التى قد تدفعنا أحيانا إلى مقارنة السلوك البدائى بالسلوك الحيوانى ، فإن الاختلاف بين هذين النوعين من السلوك اختلاف أساسى جذرى ، على الرغم من إلحاح بعض العلماء على ظاهرة « الاستمرار فى التطور » ، خصوصا وأنه ليس ثمة ما يشهد بوجود حلقات متوسطة بين السلوك الحيوانى وسلوك الإنسان البدائى .

والواقع أن أكثر أنواع « الشمبانزى » رقيًا — من الناحية الحضارية — لا يمكن مطلقا أن يُقارَن بأدنى فرد من أفراد القبائل المتوحشة ، سواء أكان ذلك من حيث قدرته على استخدام عقله ، أم من حيث قابليته للمشاركة فى النشاط الاجتماعى ، أم من حيث استعداده للتعاون مع أقرانه فى شتى المجالات ، أم من حيث قدرته على توجيه سلوكه توجيها واعيا ... إلخ .

وتبعاً لذلك ، فإننا لو نظرنا إلى الموجود البشرى فى أدنى مستوياته ، لوجدنا أنه يتمتع بمقدرة خاصة لا نجد لها نظيرا على الإطلاق فى كافة مستويات العالم الحيوانى ، ألا وهى المقدرة على مراقبة سلوكه والحكم عليه ... إلخ .

الدلالة الروحية للأفعال الحيوانية لدى الموجود البشرى

وهنا قد يقال إن الإنسان لا يخرج عن كونه موجودا طبيعيا يملك بعض الدوافع ، ويصدر فى سلوكه عن بعض البواعث ، ويهدف من وراء نشاطه إلى إشباع بعض الحاجات . وليس فى وسع أحد — بطبيعة الحال — أن ينكر أن لدى الإنسان حاجات عضوية يسعى دائما نحو إشباعها ، ومطالب بيولوجية يعمل جاهدا فى سبيل تحقيقها .

ولكننا لو نظرنا مثلا إلى أحاسيس الألوان والأصوات التي تتوافر لدى الحيوان، لوجدنا أنها قد خضعت لدى الإنسان لمبدأ رُوحِيّ *Spiritual Principle* — على حد تعبير الفيلسوف الإنجليزي جرين *Green* — فاستحالت إلى « إدراكات حسية » تختلف اختلافا كبيرا عن « الإحساسات »، من حيث إنها تنطوى على « معان » أو « دلالات » يشعر بها الإنسان شعورا مباشرا . وبالمثل، يمكننا أن نقول إن لدى الإنسان شهوات عضوية، كشهوة الجوع أو شهوة العطش، وهذه تمثل دوافع بيولوجية نلتقى بها لدى أدنى أنواع الحيوان ؛ ولكن « المبدأ الروحي » الموجود لدى الإنسان قد عمل على تعديل تلك « الشهوات » فأحالتها إلى « رغبات »، وأصبح في وسع الإنسان أن يدرك تلك الغايات الجزئية التي تكفل له إشباع تلك الحاجات، كما صار في مقدوره أيضا أن يوجّه نشاطه توجيها شعوريا واعيا نحو أمثال تلك الغايات أو الأهداف . وهكذا استحالت « شهوة الجوع » إلى « رغبة في تناول الطعام »، وأصبح في وسع الإنسان أن يعرف مقدّما أن من شأن الطعام أن يحقق له الإشباع المطلوب وأن يضمن له التغذية المنشودة . ويمضي جرين إلى حد أبعد من ذلك فيقول إن « الخير » ليس هو ما يشبع بعض المطالب الحيوانية الجزئية، بل هو ما يضمن لنا « تحقيق الذات » — ككل — تحقيقا يوفر للشخصية الواعية بذاتها إشباع رغباتها^(١) .

ونحن حين نتحدث عن « الفعل الإرادي »، فإننا نعني به ذلك الفعل الذي يقوم به الفرد حين يوجّه ذاته نحو تحقيق أية « فكرة »، ناظرا إلى مثل هذه « الفكرة » على أنها « موضوع » يكفل له — ولو إلى حين — إشباع إحدى رغباته . وربما كان أهم ما يميّز « المبدأ الروحي » لدى الإنسان هو هذه المقدرة العقلية على التطلع إلى الأمام من أجل تحقيق أية فكرة من الأفكار، أو من أجل العمل على بلوغ أية غاية من الغايات . وهنا يظهر دور « المثل الأعلى »

Cf. T. H. Green: “Prolegomena to Ethics”, (& H. Sidgwick: (١)
“Lectures on the Ethics of T. H. Green”).

في الحياة الإنسانية : فإن الوجود البشرى هو الكائن الأوحد — بين سائر الكائنات الحية في الطبيعة — الذى يملك القدرة على التطلع إلى « المستقبل » والنزوع نحو « حالة مقبلة » تصبح فيها « ذاته » أفضل مما هي عليه الآن « فى الحاضر » .

صحيح أننا لا نعرف — على وجه التحديد — ما هو المثل الأعلى الأخلاقى ، ولكن من شأن « العقل » — بوصفه القدرة الناطقة الواعية بذاتها — أن يكشف لنا عن « المثل الأعلى » باعتباره المرحلة التالية من مراحل تقدمنا الخلقى ؛ حتى إذا قدر لنا — عن طريق الجهد الإرادى — بلوغ تلك المرحلة ، عاد « عقلنا » فوضع نصب أعيننا مرحلة أخرى وهلمّ جرّاً .

ومعنى هذا أن « المثل الأعلى الأخلاقى » لا يمثل هدفاً معيناً تبلغه الذات مرة واحدة وإلى الأبد ، بل هو يشير إلى سبيل طويل ترتاده الذات فى سعيها المتواصل نحو ضرب من الكمال الخلقى (١) .

ومهما يكن من شيء ، فإن الإنسان — بين كائنات الطبيعة جميعاً — أقدرها على مراقبة دوافعه ، والعمل على قمعها ، أو هو أحرصها على تنظيم بواعثه ، والاهتمام بإبداها أو إعلائها . وهذا هو السبب فى أننا نقول عن الإنسان إنه الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يستبدل بالنظام الحيوى للحاجات ، نظاماً خلقياً للقيم . ومهما كانت درجة الانحطاط الخلقى التى قد يبلغها الإنسان فى بعض الأحيان ، فإنه لا بد من أن يبقى حيواناً أخلاقياً يمزج الواقع بالمثل العليا ، ويجمع بين مستوى الغريزة ومستوى الضمير .

والحق أن الإنسان هو « موجود القيم » الذى لا يقنع دائماً بما هو كائن ، بل يحاول فى كثير من الأحيان تجاوز الواقع من أجل الاتجاه نحو ما ينبغى أن يكون . وليس من الضروري أن يعرف الإنسان — على وجه التحديد — ما هو هذا الذى ينبغى أن يكون ، وإنما حسبه أن يمضى إلى الأمام ، لكى يحقق من الأفعال ما يضمن له تجاوز حالته الراهنة ، أو العلوّ على مستواه الواقعى .

ولا شك أن الحياة الإنسانية الصحيحة إنما تتمثل بكل معانيها في شعور الموجود البشرى بذلك التعارض القوى القائم بين « الكائن الواقعى » بنقصه وضعفه ، و « الكائن المثالى » بكماله وسموه . صحيح أن هذا الكائن المثالى « قد يبقى في نظر البعض مجرد « صورة خيالية » ، أو « حقيقة قصوى بعيدة المثال » ، ولكنه مع ذلك لا بد من أن يمارس تأثيره (البعيد أو القريب) على « حاضر » الشخصية . وربما كان أهم ما يميز الإنسان أنه ذلك الموجود الناقص أو الحيوان غير المكتمل ، الذى يشعر دائما بأنه في حالة عوز أو حاجة أو افتقار ، فهو يحاول دائما أن يكمل ذاته ، أو أن يسدّ نقصه ، أو أن يعلو على نفسه . وقد يقنع الحيوان بما تقدمه له البيئة ، أو ما يعرضه عليه الواقع ، وأما الإنسان فإنه لا يمكن أن يتناغم تماما مع البيئة ، ولا يستطيع مطلقا أن يركن إلى الواقع وحده .

ومن هنا فإن « الممكن » يلعب دورا هاما في الحياة الإنسانية ، إلى جانب « الواقعى » لأن الإنسان مضطّر دائما إلى أن يخلع على الأحداث « دلالات » يستمدّها من صميم نواياه ومقاصده ، أو أن يكشف عما تنطوى عليه الوقائع من « معان » يدركها من خلال إحساسه الخاص « بالقيم » . ولا غرابة بعد ذلك في أن يجهل الحيوان « الممكنات » ، وأن يبقى أسيرا — أو شبه أسير — للظواهرات ، بينما يعمل الإنسان جاهدا في سبيل إدراك « القيم » ، ويسير على درب النشاط الخلقى من أجل تحقيق بعض « المثل العليا » .. إلخ .

مكانة الإنسان في العالم بوصفه (كائنا أخلاقيا)

ولو أننا أردنا — الآن — أن نحدّ مكانة الإنسان في العالم بوصفه « كائنا أخلاقيا » ، لكان علينا أن نفصل في الخلاف الحاد الذى طالما ثار بين أنصار النزعة التشبيهيّة الساذجة ودعاة النظرة العلمية النقدية . فعلى حين أن أهل النظرة الساذجة يحكمون على العالم من وجهة نظر الإنسان ، فيقرّرون أن كل شيء في الوجود يدور حول محور واحد ، ألا وهو الإنسان ، وينادون بأن

الموجود البشرى هو « المركز » الذى يحيط به « الكل » ، نجد أن أهل النظرية العلمية النقدية — على العكس من ذلك — يؤكدون أن الإنسان — بالقياس إلى الكل — لا يزيد عن كونه مجرد حفنة من الرماد ، أو مجرد ظاهرة عَرَضِيَّة عديمة الأهمية . وبين هذين الموقفين المتطرفين ، تحيىء الأخلاق فتقرر أن تفاهة الإنسان الكونية لا تمثل الكلمة الأخيرة فى دراما الوجود ، وتؤكد أن هناك — إلى جانب « التحديد الأنطولوجى *Ontological determination* » للعالم — تحديدا آخر « أксиولوجيا *Axiological* » يلعب فيه الإنسان دورا أساسيا .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأية نزعة تشبيهية — من أجل العمل على تأكيد « قيمة الإنسان » — وإنما حَسَبْنَا أن نقول إن هذا « الكائن الأخلاقى » الذى نسميه بالإنسان هو — وحده — الذى يحمل « أمانة القيم » .

صحيح أن الموجود البشرى قد لا يمثل سوى كمية مُهْمَلَة فانية فى نطاق العالم ، ولكنه مع ذلك أقوى من العالم نفسه : لأنه حاملٌ لمبدأ أسمى ، إن لم نقل بأنه المَبْدَع الحقيقى لذلك « الواقع » الحافل بالدلالة والقيمة ، ما دام هو الذى ينقل إلى العالم الواقعى تلك « المعانى السامية » التى يأخذ على عاتقه مهمة اكتشافها . وعلى حين أن الطبيعة مضطرة إلى الخضوع لقوانينها الخاصة ، نجد أن الإنسان — والإنسان وحده — هو الموجود الذى يحمل فى باطنه قانونا أسمى ، ومن ثَمَّ فإنه يستطيع أن يخلق فى العالم — ابتداءً من اللاوجود نفسه — « مثلاً عليا » كانت بمثابة إمكانيات كامنة فى أعماق الوجود ، وربما كانت المعجزة الكبرى التى تصنعها الأخلاق هى أنها تردّ للإنسان كرامته ، وتحرك ما فيه من عنصر « سمو » أو « جلال » ، وتسمو به فوق المستوى الطبيعى البحت . وحينما وضع كائن فى كَفَّةِ « السماء المرصعة بالنجوم » ، ووضع فى الكَفَّةِ الأخرى « القانون الأخلاقى » ، فإنه لم يكن يقصد بذلك سوى إقامة ضرب من التوازن بين هذين العنصرين اللذين يستثيران فى النفس الشعور بالإعجاب والروعة وإن كان من المؤكد أن كائن نفسه كان أحرص على إبراز إعجابه بذلك « الوعى الأخلاقى » الذى يرقى بالإنسان إلى مستوى فائق للطبيعة^(١) .

والحق أن « الشخص البشرى » — على حد تعبير هارتمان — لا يقوم إلا عند الحدود الفاصلة بين « التحديد الواقعى » و « التحديد المثالى » ، أو بين « العالم الأنطولوجى » و « العالم الأكسيولوجى » ، وكأنما هو النقطة التى يتلاقى عندها العالمان ، فيظهر عندئذ ما بينهما من تعارض واتحاد .

فالشخصية البشرية هى مُلتقى « العالم الواقعى » و « العالم المثالى » ، أو هى حصيلة التفاعل الذى لا بد من أن يتم بينهما .

وربما كان من الحديث المُعاد أن نقول إن للكائن الأخلاقى طبيعة مزدوجة : فإن من المعروف أن حياة الإنسان موزعة على مستويين مختلفين ، ممّا حدا بكائن إلى التفرقة بين « الذات الطبيعية » و « الذات العاقلة » لدى الإنسان .

ولو أننا عَنينا هنا بكلمة « العقل » عملية « تمييز القيم » ، لكان فى وسعنا أن نقول إن لهذه التفرقة أهمية كبرى : لأنها تدلنا على أن الإنسان هو همزة الوصل بين « الطبيعة » و « العقل » أو بين « الواقعة » و « القيمة » .

ومعنى هذا أن هناك « وحدة » تتحقق فى الإنسان — أو من خلال الإنسان — بين « العالم الأنطولوجى » و « العالم الأكسيولوجى » .

ولكن هارتمان لا يتصور هذه « الوساطة » التى يضطلع بها الإنسان على أنها عملية آلية تتم فى نطاق النظام الطبيعى الجبرى ، بل هو يقرر — على العكس من ذلك — أن الإنسان حرّ فى التوسط (بين العالمين) أو عدم التوسط ، وبالتالى فإنه يحمل مسئولية السلوك الذى يأخذ على عاتقه القيام به فى صميم العالم الأخلاقى .

والحق أن الموجود البشرى — فى كل سلوكه العملى ، خارجيا كان أم داخليا — هو دائما حامل « القيم الأخلاقية » (أو « اللاقيم ») . وإذا كان الإنسان — فى آن واحد — كائنا « أنطولوجيا » وكائنا « أكسيولوجيا » ، فذلك لأنه موجود واقعى له وجوده الذاتى من جهة ، وموجود عاقل يملك فى ذاته أعلى القيم الأخلاقية (أو نقائضها) من جهة أخرى .

وهذا ما حدا ببعض فلاسفة الأخلاق إلى القول بأن شخصية الإنسان — فى بنائها الأسمى — ليست مجرد شخصية « وجودية Existential » ،

بل هي أيضا شخصية « تقييمية Valuational ». ومعنى هذا — بعبارة أخرى — أن ما يكون ماهية الإنسان — من الناحية الأخلاقية — إنما هو ما لديه من قدرة على حمل « القيم الأخلاقية ». ولعل هذا هو السبب في أننا لا نستطيع مطلقاً أن نحدد شخصية الإنسان — أعني طبيعته الأخلاقية — إذا اقتصرنا على النظر إليها من وجهة نظر أونتولوجية بحتة . أجل ، فإن الطبيعة البشرية ليست مجرد طبيعة أونتولوجية ، بل هي أيضا طبيعة أكسيولوجية : وليس يكفي أن نقول عن الإنسان إنه « موجود القيم » أو إنه « كائن تقييمي Valuational Entity » ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضا أنه « الكائن الأخلاق » الذي لا يتحدد وجوده إلا من خلال علاقته بالقيم^(١) .

والواقع أن الإنسان حين شرع يستخدم الطبيعة لتحقيق أغراضه الخاصة ، وحين راح ينظم غرائزه على صورة « شرائع أخلاقية » و « نظم اجتماعية » ، فإنه لم يلبث عندئذ أن خلق من نفسه « موجوداً أخلاقياً » لا يحيا على المستوى القرزى الصرف .

فالقيم — أو المعايير — هي همزة الوصل بين التاريخ الطبيعي والتاريخ البشرى ، والأخلاق — أو الأنظمة الخلقية — هي المظهر الحضارى الحقيقى لحركة « التصاعد » التى يفرضها الموجود البشرى على الطبيعة . وحتى لو نظرنا إلى التقدم الصناعى نفسه ، لوجدنا أنه لا يخرج عن كونه مظهراً من مظاهر ذلك النشاط التحررى الذى تقوم به البشرية حين تعمل على استئناس الطبيعة . وآية ذلك أن للإنتاج الصناعى « قيمة خلقية » لأنه ينطوى على « دلالات إنسانية » تكشف عن سيطرة الإنسان على الطبيعة .

وإذا كان إنسان اليوم قد أصبح يحيا فى « بيئة حضارية » تزخر بالقيم الأخلاقية والروحية التى لا يعرفها الحيوان على الإطلاق ، فما ذلك إلا لأنه قد أخذ على عاتقه أن يستخدم ما لديه من حرية وقدرة إبداعية فى إحالة « النظام الطبيعى » إلى « نظام أكسيولوجى » .

وهكذا كان تدخل الإنسان في مجرى الأحداث الكونية بمثابة « ثورة أخلاقية » كبرى ، قلبت أوضاع الطبيعة رأساً على عقب ، وأدخلت فيها حشداً جديداً من المعاني ، وعملت على صبغ الكون نفسه بصبغة عقلية روحية^(١) .

دور « الحرية » في سلوك « الكائن الأخلاقي » ...

وهنا قد يقول دعاة النزعة الطبيعية المتطرفة إنه لمن خطئ الرأي أن نعزل « السلوك البشرى » عن غيره من مظاهر السلوك في الطبيعة : فإن حياة الإنسان لا تزيد عن كونها مجرد عملية « تكيف مستمر » يتحقق بين الكائن وبيئته . وتبعاً لذلك فإنه ليس أمعن في الخطأ من أن نقحم على الأخلاق — فيما يقول أصحاب هذه الدعوى — اعتبارات « الرغبة » و « الإرادة » ، وكأن « للمقاصد » أو « الأفكار » أى دور في تحديد السلوك .

ولعل هذا ما عبر عنه أحد الباحثين الأمريكيين حين كتب يقول : « إن الحياة لا تُعاش من أجل بعض الغايات . صحيح أن حركتها تتجه نحو الأمام ، ولكن قوتها الباعثة لا تصدر مطلقاً عن الأمام (أى عن بعض الأهداف) ، بل عن الخلف »^(٢) .

يُبد أن القائلين بهذا الرأي ينسون أو يتناسون أن الموجود البشرى كائن ناطق يصدر عن « بواعث » ، ويعمل في سبيل تحقيق بعض « الغايات » ، ويكون لنفسه « فكرة » عن « كل » معين أو « نمط » خاص يَحْتَذِيهِ في سلوكه ، ويسعى جاهداً في سبيل صبغ حياته بصبغة معينة من « النظام » أو « التنسيق » . وما كان الإنسان موجوداً أخلاقياً إلا لأنه كائن عاقل يملك من « الفكر » و « الإرادة » ما يستطيع معه تجاوز « مستوى الغريزة » والتسامى إلى مستوى « السلوك الأخلاق الحر » .

(١) ارجع أيضاً إلى كتابنا : « مبادئ الفلسفة والأخلاق » ، الفصل الثانى ، ص ٦٠ - ٦٥

(٢) E. H. Holt: "The Freudian Wish", pp. 58-59. (quoted by

J. H. Muirhead: "The Use of Philosophy", p. 72.).

والحق أن ما نسمّيه باسم « الخير » إنما هو عملية « جهد حر » يقوم فيها الإنسان بالبحث عن « القيم » بوصفها « غايات » . ولا يمكن أن يكون هناك قهر أو إكراه على فعل الخير : لأن « الحرية » لا بد من أن تكون وليدة « الحرية » . ولا نرانا في حاجة إلى القول بأن إمكانية الخير — هي في الوقت ذاته وبالدرجة عينها — إمكانية الشر . فالإنسان « حيوان أخلاقي » لأنه كائن حرّ يملك الاختيار بين « فعل الشر » أو « فعل الخير » .

وربما كانت « الحرية » هي « القوة العظمى » في كل الحياة البشرية ، ولكنها في الوقت نفسه « الخطر الأعظم » الذي يتهدّدها باستمرار . وإنه لمن طبيعة الإنسان أن يحيا دائما على هذا الخطر ، ولكن هذا الخطر نفسه هو دعامة حياته الأخلاقية : لأنه لولاه لما كان الإنسان كائنا أخلاقيا .

وليس يكفي أن نقول إن حرية الإنسان الأخلاقية نعمة ونقمة معا ، وإنما يجب أن نضيف إلى ذلك أيضا أن الإنسان يحمل خطره في ذاته : أعنى في صميم « القوة الإبداعية » التي تكوّن صميم وجوده . وعلى حين أن سائر الكائنات الأخرى تواجهها أخطارٌ من الخارج ، نجد أن الإنسان — وحده — هو الموجود الذي يواجهه الخطر من الداخل .

ولعل هذا هو السبب في أن فلاسفة الأخلاق طالما حذّروا الإنسان من نفسه ، وطالما دعوه إلى مقاومة ذاته ، حتى لقد أحوالوا « الأخلاق » إلى شبه « صراع ضد الذات » . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن حياة الكائن الأخلاقي هي أشبه ما تكون برحلة يقوم بها المرء على حافة هاوية ؛ ولو أن كل ابتعاد عن هذه الهاوية لا بد من أن يتخذ طابع التنازل عن « الوجود الأخلاقي » ، لأن من شأنه أن يدنو بالمرء إلى هاوية جديدة ! وربما كان « السبيل الضيق » القائم بين الهاويتين هو — وحده — الطريق المؤدّي إلى الخير الأخلاقي : إذ أنه لا بد للإنسان من أن يحذر الانحدار إلى هاوية الشر ، ولكن لا بد له في الوقت نفسه من أن يستبقى ما لديه من قدرة على الشر ، وذلك لأنه لولا تلك القدرة الموجودة لديه على فعل الشر ، لما وجدت لديه أيضا أية قدرة على فعل الخير .

إننا لا نريد بطبيعة الحال — في هذه المقدمة السريعة — أن نتعرض لمشكلة الحرية الأخلاقية ، وإنما حسبنا أن نقول إن الحياة الإنسانية الصحيحة لا تبدأ إلا حيث تنتهى الحياة الحيوانية الصرفة : أى حيث يبدأ الشعور بالذات ، أو التجربة الباطنية التى تدرك فيها « الذات » نفسها ، بوصفها « علة » لسائر أفعالها .

وهنا يظهر الفارق الكبير بين الحياة الحيوانية العززية والحياة البشرية الخلقية : فإن الحيوان يخضع للدوافع والانفعالات العمياء ، ولا يتصف بالحرية أو القدرة على الاختيار ، فى حين أن الإنسان يتحكم فى أهوائه وانفعالاته ، ويشعر بأنه قوة فاعلة وإرادة حرة .

حقا إننا قد نصطدم بعوائق خارجية تقع تحت تأثيرها ، أو قد نلتقى ببعض الضرورات الخارجية عند الفعل ، ولكننا ما كنا لندرك « الضرورة » لو لم تكن أحرارا ، كما أننا ما كنا لنفهم معنى « الظلام » لو لم تكن لدينا فكرة « النور » .

ومهما يكن من أمر تصوّرنا للبواعث التى قد تؤثر على سلوكنا وسلوك الآخرين ، فإننا لا بدّ من أن نعدّ « الاختيار Choice » حدّنا فريدا لا نكاد نجد له نظيرا فى العالم الطبيعى كلّهِ والواقع أننا نفهم أن « الفعل الحرّ » ليس هو ذلك التصرف الأعمى الذى يصدر عن تعسف أو هوى أو إرادة هوجاء ، بل هو التصرف الواعى المستنير الذى يصدر عن فهم وتعقل و « تقيم » وتقدير للأمر .

فليست الحرية إرادة متعسفة تقول للشيء « كن » فيكون ، بل هى نشاط إيجابى مستمر تسعى من ورائه الإرادة إلى تحرير ذاتها ، مستندة فى هذه العملية الشاقة إلى وسائط المادة وإمكانيات العقل ^(١) .

وليس فى وسعنا أن نفصل مفهوم « الحرية الأخلاقية » عن مفهوم « الخبرة الخلقية » : لأنّ من المؤكد أن الحرية لا بد من أن تمارس ذاتها عبر التجارب المختلفة التى تصطدم بها ، وأن الحرية لتعرف أنها تحيا فى عالم ملئ بالضرورات

(١) زكريا إبراهيم : « مشكلة الحرية » ، الطبعة الثانية ، مكتبة مصر ، ١٩٦٣ ،

والعوائق ، فهي لا بد من أن تحقق ذاتها من خلال تلك الخبرات العديدة التي تتعامل فيها مع الضرورات ، وتتغافل على العوائق ، حتى يتسنى لها أن تصبح « حرة » بمعنى الكلمة .

والحق أنه لا سبيل لنا إلى تحقيق أى « نضج خلقى » ، أو أى اتساع فى أفقنا الأخلاقى ، اللهم إلا من خلال « خبرات الحياة » ، مع ما يقترن بها من صراع ، وخطأ ، وشقاء ، وبأس ، وفشل ... إلخ . وإذا كان من شأن « الحرية » أن تؤدى بنا غالبا إلى الاصطدام بخبرة « الخطأ الخلقى » ، فإن من شأن هذه الخبرة نفسها أن تزيد من ثراء حياتنا الأخلاقية والروحية .

وكل مضمون من مضامين الحياة الأخلاقية — بما فى ذلك الخطيئة ، والندم ، والعذاب ، والألم ... إلخ — ينطوى بالضرورة على « قيمة » أخلاقية . ولا شك أن الثراء الخلقى هو دائما حليف الحياة المليئة بالخبرة الواسعة . وعلى حين أن أهل النظر الأخلاقى الضيق قد يرون كل شيء عديم القيمة ، حتى ماله فى ذاته قيمة ، نجد أن أصحاب النظرة الأخلاقية الواسعة — على العكس من ذلك — يرون « القيمة » فى كل شيء ، حتى فيما قد يبدو — لأول وهلة — تافها عديم الشأن . ولا غرو ، فإن « الخبرة الأخلاقية » توسّع من آفاقنا الروحية ، وتكشف لنا الكثير من « القيم » .

وليس فى وسع أحد أن ينقل إلى الآخرين خبرته الأخلاقية — بكل ما لها من دلالة روحية عاشها وعانها لحسابه الخاص — وإنما لا بد لكل شخص من أن يستخدم حريته الخاصة فى مواجهة تجارب الحياة الشخصية التى لا بد له من معاناتها . وأما كل الدروس التى قد ينقلها إليه الآخرون فإنها لن تكون بالنسبة إليه سوى مجرد مفاهيم « خاوية » ، أو خبرات « عقيمة » .

ونحن نعرف كيف أن الرمى المستبصر — فى عصرنا الحاضر — لم يعد يقوهم أنه يستطيع أن « يدرّب » تلاميذه بحيث يخلق منهم ما شاء كيفما شاء ! حقا إن بعض الوالدين لا زالوا يظنون أنهم يستطيعون أن ينقلوا « خبراتهم » بنائمها إلى أبنائهم ، ولكن التجربة نفسها سرعان ما تظهرهم على أنه لا سبيل مطلقا إلى نقل الحكمة المكتسبة إلى الأجيال الناشئة .

وما دام سبيل الحياة لا بد من أن يظل دائما طريقا خاصا يضرب فيه كل فرد لحسابه الخاص ، ويخوضه دائما بمفرده ، فإن فيلسوف الأخلاق لم يعد يستطيع اليوم أن يحاكي المرتبى الواهم الذى يعتقد أن خبرات الكبار حاسمة بالنسبة إلى الصغار ، وأنها لا بد من أن تقيم وتعضمهم مواطن الزلل ! ولو كانت المشكلة الخلقية هى بهذا القدر من السهولة ، لما وُجد على ظهر الأرض سوى « الحكماء » والقديسين ! ولكن فيلسوف الأخلاق يعلم حق العلم أنه على الرغم من وحدة « المبادئ الأخلاقية » الأساسية التى تستلهمها شتى الشرائع والسنن والقوانين ، فإنه لا بد لكل جيل من أن يكون لنفسه حكمته الخاصة ، ولا بد لكل فرد منا — فى زمانه الخاص وموقفه الذاتى — من أن يعمل على اكتشاف شروط توازنه .

ومعنى هذا أن الأخلاق — مثلها فى ذلك كمثل الحياة نفسها — مغامرة كبرى أو مخاطرة هائلة ، يحياها كل موجود بشرى لحسابه الخاص ، يعبر من خلالها عن « التزامه » العيىء المشخص أمام وحدته التاريخية الخاصة . فليس من شأن « الأخلاق الفلسفية » أن تقضى على الحرية البشرية ، بل هى تقصر كل جهدها على إنارة السبيل أمام تلك الحرية . وهكذا نخلص إلى القول بأن « الأخلاق » تخاطب إنسانا واقعا ، يحيا فى حقبة تاريخية معينة ، ويتنسب إلى حضارة إنسانية بعينها ، ويحاول دائما أن ينشد « الإنسانى » فى « الإنسان » (١) .

وأخيرا ... لا بد من إثارة « المشكلة الخاصة » بكل حدثها ...

إن المجتمع الحديث ليضع فى مقابل « الإنسان الواقعى » الذى يدرك ، ويريد ، ويصمم ، ويفعل ، ويتحمل مسئولية أفعاله ، « إنسانا إحصائيا Statistical man » هو عبارة عن « عدد مجرد » أو « وحدة اجتماعية » فى مكتب الإحصائيات ! فلم يعد الفرد — فى المجتمع الحديث — يملك حق « التصميم

(١) ارجع إلى كتابنا « مشكلة الفلسفة » ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٣ ،

ص ٢٢٤ - ٢٢٥ . وانظر أيضا :

G. Gusdorf: "Traité de l'Existence Morale", Colin, Paris 1949

pp. 43 - 44.

الخلقى ، ، أو يأخذ على عاتقه « مسئولية » تحقيق خلاصه الذاتى (أو نجاته الشخصية) ، بل لقد أصبح يُقاد ، ويُغذى ، ويُكسى ، ويُرى ، ويُسلَى ، ويُقيّم كسلعة ، وكأنما هو مجرد « وحدة اجتماعية » ليس لها أدنى قيمة ذاتية . ونحن لا ننكر تداخل « السلوك الخاص » مع « السلوك العام » ، وترابط الحياة الخلقية للفرد بالحياة الخلقية للمجتمع (كما سيظهر بوضوح من دراستنا للأخلاق بين الفرد والمجتمع) ، ولكننا لا نتصور أن يصبح « معنى » الحياة الفردية رهنا بسياسة الدولة التى تُفرض من الخارج على سائر الأفراد ، وكأنّ ليس ثمة دور للحرية الأخلاقية فى تحقيق الترقى الشخصى للفرد ، أو فى توجيه السلوك الفردى نحو بعض الغايات أو القيم الشخصية .

وليس من الغرابة فى شيء — بعد ذلك — أن نرى « المشكلة الخلقية » وقد ذابت فى طوايا المشكلات الاقتصادية والسياسية التى يواجهها المجتمع الحديث ، حتى لقد أصبح البعض يتوهم أن « السوق » وحده هو الكفيل بحل شتى مشاكل « العلاقات الاجتماعية » ، نظرا لأنه هو الذى يتكفل بالفصل فى شتى مشاكل « العلاقات الاقتصادية » . وبعد أن كانت « المسئولية » فردية ، تتحملها كل « ذات » لحسابها الخاص ، أصبحت هناك « قوة مجسّمة » تأخذ على عاتقها مسئولية وجودنا ، ألا وهى « المجتمع » أو « الدولة » أو « الهيئة السياسية » ... إلخ . وهكذا أصبح الفرد مجرد « دالة Function » للمجتمع ، وصارت « الذات الباطنة » أثرا بعد عين ! وجاءت الحقائق الإحصائية فراعت الأفراد بأعدادها الكبرى ، وزادت من شعورهم بتفاهة الشخصية الفردية وضالة الذات الإنسانية^(١) .

وفى وسط هذه العوامل العديدة التى تتصافر على إخماد صوت « الحرية الأخلاقية » ، وتكاد تقضى على كل ما للمشكلة الخلقية من أهمية حيوية

Cf. C. G. Jung: "The Undiscovered Self", New-York, (١)
A Mentor-Book, 1961, pp. 22 — 27.

وارجع أيضا إلى مقال لنا بعنوان : « المشكلة الخلقية عند الفيلسوف الوجودى » ، مجلة « الآداب » ، يناير سنة ١٩٦٣ ، ص ١٠ - ١٣

بالنسبة إلى كل من الفرد والجماعة ، يجيء فيلسوف الأخلاق فيخاطب إنسانا واقعيا يحيا في حقبة تاريخية بعينها ، وينتمى إلى حضارة إنسانية بعينها ، ولكنه يملك حياة شخصية يتصرف فيها بنفسه ولنفسه ، ويسعى جاهدا في سبيل تحقيق « النجاة » أو « الخلاص Salvation » لذاته وبذاته .

وإن فيلسوف الأخلاق ليغلم حق العلم أن الظاهرة الخلقية ليست مجرد « ظاهرة فردية » لا تهم سوى صاحبها ، كما أنه يفهم حق الفهم أنه ليس ثمة حدّ فاصل بين « السلوك الخاص » و « السلوك العام » ، ولكنه يحاول في الوقت نفسه أن ينير السبيل أمام « حريتنا الفردية » ، حتى يكشف لنا عن الطابع « الإنساني » الذي لا بد من أن يتحلّى به كل « إنسان » .

فالفيلسوف الأخلاقي حريص على إيقاظ « الإحساس بالقيم Sense of value » ، سواء أكان ذلك لدى الفرد أم لدى الجماعة ، ولكنه مؤمن في الوقت نفسه بأنه لا بد لكل « ذات » (سواء أكانت فردية أم جماعية) أن تأخذ على عاتقها مسئولية وجودها ، وأن تحيا حياتها لحسابها الخاص .

وحين يتحدث فيلسوف الأخلاق عن « المسئولية » ، فإنه يؤكد في الوقت ذاته أنه لا قيام للأخلاق بدون « الحرية » .

وقد جرت عادة فلاسفة الأخلاق — حتى في العصور الوسطى — على القول بأن الإنسان الفاضل هو ذلك الذي « يستطيع أن يرتكب الخطيئة » ، ولكنه لا يرتكبها Posse peccare et non peccare ؛ بمعنى أنه ذلك الإنسان الذي يملك « حرية أخلاقية » يستطيع أن يستخدمها حتى في معارضة الأوامر الإلهية ، ولكن القديس أوغسطين كان يتحدث عن « حالة أسمى » لا بد للمرء من العمل على بلوغها ، وتلك هي الحالة التي لا يستطيع معها أن يرتكب الخطيئة non Posse Peccare ! بيد أن مثل هذه الحالة — إن وجدت — لن تكون « حالة أخلاقية » على الإطلاق ، حتى في أعلى صورة من صور كمالها ، لأنها لن تكون عندئذ « موقفا حرا » بأي شكل من الأشكال .

وهذا فيشته Fichte يتحدث عن « الأخلاقية العالية » التي لا بد للإنسان من

أن يرقى إليها حين يتنازل عن حريته ، وحين يصبح عاجزا تماما عن ارتكاب الخطيئة ، وكأنما هو قد اختار « الخير » مرة واحدة وإلى الأبد ، فلم تعد به أدنى حاجة — من بعد — إلى الحرية ! وفات فيشته أن مثل هذه « الأخلاق العليا » لن تكون « أخلاقا » على الإطلاق ، لأن « القيم » التي سيحققها الفرد — عندئذ — لن تكون قائمة على أية ركيزة من « حرية » .

والحق أنه إذا اختفت دعامة « الحرية » من الأخلاق ، فقد اختفى الشرط الأساسي لقيام الخير أو الشر .

ولاريب ، فإن الإرادة التي لم يعد في استطاعتها أن تختار شيئا سوى « الخير » ، لن تكون « إرادة خلقية » على الإطلاق ، و « القيم الشخصية » التي لا تستند إلى ركيزة من حرية ، لن تكون « قيما أخلاقية » بأى شكل من الأشكال .

* * *

أما بعد ، فإن أخشى ما يخشاه كاتب هذه السطور أن يكون فلاسفة الأخلاق — في مجتمعنا العربى المعاصر — قد تناسوا دورهم الخطير في هذه الفترة الحرجة من تاريخنا ، فتنازلوا عن كل شئ لرجل الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة ، وكأن « الدولة » تتكفل وحدها بحل كل « مشكلة خلقية » ، أو كأن « خلاص » الفرد رهن بقيام ضرب من « الرفاهية المادية » .

ولا شك أننا لو أحلنا « الفرد » — في مجتمعنا العربى الراهن — إلى مجرد « وحدة اجتماعية » أو « رقم إحصائى » فإننا عندئذ لن نكون قد واجهنا « المشكلة الخلقية » ، بل سنكون قد انسقنا وراء تلك النزعات « الجماعية » المتطرفة التي تتوهم أن سعادة الفرد لا تتحقق إلا بإذابته في فكرة مجردة يسمونها « الجماعة » أو « الدولة » أو « الإرادة العامة » !

صحيح أننا — في مجتمعنا العربى الحالى — قد أصبحنا نحيا في ظل « نظام اشتراكى » يقتضى منا أن نضع جسومنا وعقولنا وكل ما ملكت أيدينا في خدمة أمتنا . ولكننا نشعر — في الوقت نفسه — بأن لنا — كأفراد — « حياة خاصة » نريد أن نتصرف فيها بما نُمليه علينا حريتنا الشخصية .

ومهما يكن من أمر « التنظيم الاجتماعى » الذى نجيا فى كنفه ، فإننا لا بد من أن نجد أنفسنا بين الحين والآخر بإزاء مشكلات أخلاقية خاصة ليس فى وسع أحد سوانا أن يقوم بحلها : لأن علينا — وحدنا — تقع مهمة الفصل فيها ... ومن هنا فإن « المشكلة الخلقية » لا بد من أن تفرض نفسها علينا ، حينما نجد أنفسنا بإزاء « حالات خاصة » هيئات لأية « سلطة خارجية » أن تتكفل بحلها .

وقد نتساءل أحيانا عن الحد الذى ينبغى للدولة أن تذهب إليه فى محافظتها على الأخلاق ، ورعايتها للآداب العامة ، ولكننا قد نميل إلى الظن — فى أحيان أخرى — بأن خير تشريع قانونى هو ذلك الذى يتدخل بأقل قدر ممكن فى حياة الأفراد الخاصة ، بحيث يكاد يقتصر تدخله على حماية الحياة الخاصة للأفراد .

وبين هذين القطبين المتعارضين تبدو مشكلة تحديد الخط الرفيع الذى يفصل « السلوك الخاص » عن « السلوك العام » مشكلة خلقية عسيرة تستلزم الكثير من المناقشة ، وتحتاج إلى نص العميق الدقيق . ولكننا قلما نُقدم على إثارة مثل هذه المشكلة : لأننا نتوهم أن تنظيمنا السياسى قد فزع من حلها ، فى حين أننا هنا بإزاء « قضية فلسفية » ما زالت تفتقر إلى البحث والتمحيص . وليس من شك فى أن مجرد الدعوة إلى زيادة « تدخل الدولة » من أجل حماية الأخلاق والآداب العامة ، يفترض حلا معينا لهذه المشكلة ، بينما الملاحظ أن فلاسفة الأخلاق ورجال القانون — عندنا — لم يتعرضوا بعد للقضية دراسة واستقصاء ... وأملنا — فى هذه الدراسة الفلسفية للمشكلة الخلقية — أن نلقى بعض الأضواء على أمثال هذه القضايا الخطيرة التى قد أصبح لزاما علينا — اليوم — أن نواجهها بكل صراحة وصرامة .

الباب الأول
متناقضات أخلاقية

الفصل الأول

الأخلاق بين « النظر » و « العمل »

حينما يتحدث الفلاسفة عن « علم الأخلاق » ، فإنهم يعنون به تلك الدراسة النظرية التي تمثل صورة من صور البحث عن « الحقيقة » ، وتصدر عن باعث عقلى هو الرغبة فى « المعرفة » ، ما دام كل ما يهدف إليه « علم الأخلاق » إنما هو التعرف على « الصواب والخطأ » فى مضممار السلوك البشرى .

فليست الأخلاق — فى نظر الكثير من الفلاسفة — « فناً » أو « صناعة » ، بل هى « علم نظرى » بحث ، يهدف أولاً بالذات إلى فهم « طبيعة » الظاهرة الخلقية . وأصحاب هذه النظرة حريصون على إبراز الطابع العلمى للأخلاق ، فهم يؤكدون أننا حينما ندرس معايير السلوك ، أو طبيعة « الحياة الخلقية » أو ماهية الخير والشر ، أو ما إلى ذلك من « مسائل أخلاقية » ، فإننا لا نكون عندئذ بصدد « تطبيق » أو « عمل » ، بل نحن بصدد « بحث » أو « نظر » ، وبالتالي فإننا بإزاء « علم » ، لا بإزاء « فن » .

ولما كانت « الظاهرة الخلقية » — فيما يرى أصحاب هذا رأى — « واقعة عقلية » (أو معقولة) تقبل « الفهم » ، فليس بدعاً أن تكون الدراسة الأخلاقية مبحثاً فلسفياً يندرج تحت مستوى « الوعى » أو « التأمل » أو « التفكير » .

وأما إذا قيل إن من شأن « الأخلاق » أن تؤثر على سلوك الشخص الذى يقوم بدراستها ، كان رد القائلين بالطابع النظرى الصرف لعلم الأخلاق أنه لا شأن للنظرية الأخلاقية بالتطبيق العملى ، وبالتالى فإنه لا مجال للحديث عن « نظر » يؤثر على « العمل » . وآية ذلك أننا لو نظرنا إلى سلوك أربع جماعات

مختلفة : اتخذت الأولى من « كانت Kant » رائدا لها ، ووضعت الثانية نصب عينيها مبادئ أخلاقية استمدتها من جون استيوارت مل Mill ، بينما راحت الثالثة تسترشد بأخلاق ت . هـ . جرين Green ، والرابعة بأخلاق جورج ادوارد مور Moore ، فإننا قد لا نلتقى بأى اختلاف جوهري بين أهل هذه الجماعات الأربع حول المسائل الأخلاقية العملية^(١) . هذا إلى أنه ليس ثمة ما يضمن لنا أن يجيء الرجل الذى يفهم — بفضل دراسته الأخلاقية — الفارق بين الصواب والخطأ ، أو الخير والشر ، فيُقدم بالضرورة على فعل الخير أو اتخاذ المسلك الصائب .

ولعل هذا ما صورته لنا أحد رجالات الكوميديا الحديثة حين عرض علينا شخصية رجل أممى يحاول أن ينقذ أخاه الأكاديمى المتعلم ، فلا يرى سبيلا لمنعه اتخاذ مسلك شرير ، اللهم إلا بأن يذكره بتلك الجائزة الجامعية التى كان قد سبق له (أى للأخ المثقف) أن حصل عليها فى مادة « فلسفة الأخلاق »^(٢) !

صحيح أن الكثيرين قد يظنون أن الصلة وثيقة بين « المعرفة » و « الفضيلة » (كما توهم سقراط قديما) ، ولكن التجربة كفيلة بأن تبين لنا — فيما يقول أصحاب الرأى — أن العلم المحض بالمبادئ الأخلاقية لا يكفى وحده لتوجيه صاحبه نحو طريق « الفضيلة » ، أو لتحويله عن سبيل « الشر » (على أقل تقدير) .

ولسنا نريد أن نتبع — تاريخيا — آراء أولئك الفلاسفة الذين ذهبوا إلى القول بأنه لا علاقة على الإطلاق بين « النظرية الأخلاقية » من جهة ، والحياة العملية من جهة أخرى ، وإنما حسبنا أن نقول إن معظم الفلاسفة « الحدسيين Intuitionists » قد ارتأوا أن تصميمات الضمير — أو الشعور الخلقى — تصميمات نهائية حاسمة ، وأنه ليس هناك — بالتالى — أى مجال لتحليلها من قبل « النظر الأخلاقى » .

Mackenzie: "Manual of Ethics". (6th edition), p. 239. (١)

Barrie: "What Every Woman Knows, III". (quoted by Lillie, (٢)
in "Introduction to Ethics", 1961, p. 18.).

وأصحاب هذا الرأى يؤكدون أنه ليس هناك — فى الواقع — أى « نظر أخلاقى » على الإطلاق ، ومن ثمَّ فإنه لا موضع للحديث أصلاً عن « نظر » يؤثر على « العمل » .

ويمضى بعضهم إلى حد أبعد من ذلك فيقول إنه كما أن فى استطاعة المرء أن يفكر تفكيراً سليماً دون أن يكون قد درس « علم المنطق » ، فإن فى استطاعته أيضاً أن يحيا حياة خيرة ، دون أن يكون قد درس « علم الأخلاق » ، ومهما اختلفت اتجاهات أصحاب هذا الرأى ، فإنهم مجمعون على القول بأن « الأخلاق » دراسة نظرية بحتة لا شأن لها بفن الحياة أو التطبيق العملى .

شوبنهاور يؤكد أن « الأخلاق » نظرية بحت ...

ولنتوقف قليلاً عند نظرية واحدة من فلاسفة العصر الحديث الذين ذهبوا إلى القول بأن « علم الأخلاق » لا يخرج عن كونه مجرد « دراسة نظرية بحت » . وهنا نجد أنفسنا بإزاء « مذهب مثالى » ، وضع دعائمه شوبنهاور حينما راح يعلن أن « الأخلاق » مبحث فلسفى نظرى بحت ، فهى لا تتسم مطلقاً بأى طابع عملى أو تطبيقى ، مثلها فى ذلك كمثل « المنطق » أو « ما بعد الطبيعة » . والحق أنه ليس فى وسع « الأخلاق » أن تأمرنا بشيء أو أن تفرض علينا أى شيء ، إن لم نقل بأنه ليس فى وسعها أصلاً التعرض لدراسة أوامر السلوك . وليس ثمة قوة — سواء أكانت داخل الإنسان أم خارجه — تستطيع أن تفرض عليه أمراً أخلاقياً أو أن تحدد « ما ينبغى أن يكون » .

صحيح أن ثمة مبدءاً للسلوك الخلقى قد يصح القول بأنه متأصل فى أعماق الطبيعة الميتافيزيقية للإنسان ، ولكن كل ما تستطيع « الأخلاق » أن تفعله هو أن تكشف عن وجود ذلك المبدء ، وأن تسلط عليه أضواء الفكر ، ناظرة إليه على أنه مبدء فعال قائم منذ البداية من صميم الطبيعة البشرية .

ومعنى هذا أنه ليس فى وسع « الأخلاق » أن تحرك هذا المبدء أو تبعث فيه روح النشاط ، طالما بقى هو نفسه خامداً لا حياة فيه ، أو خاملاً لا فعالية له .

ولهذا يقرر شوبنهاور أن الأخلاق لا تمثل عاملا فعالا أو قوة منشطة في صميم الحياة الواقعية ، بل هي مجرد « نظر محض Pure theory » لا تعدو مهمته المشاهدة ، والتحليل والفهم ، مثلها في ذلك كمثل أى مبحث فلسفى آخر .

... وإن حياة الإنسان تتمضى في سبيلها دون أن تعير « الأخلاق » كبير اهتمام ، وآية ذلك أن الطريقة التى يحدد بها الإنسان مجرى سلوكه تتوقف أولا وبالذات على « طبعه العقلى Intelligible Character » ، بحيث إن هذا « الطبع » ليليدو نفسه بمثابة تصميمه الخلقى ، دون أن يكون هناك موضع للقول بأنه يتدخل في « عالم الظواهر » ، أو أنه يقحم نفسه على النظرية الأخلاقية .

وتبعا لذلك فإنه ليس في وسع « الأخلاق » أن « تتبكر » ما ينبغى أن يكون ، بل ليس في وسعها حتى ولا أن « تكتشفه » أو أن تعلمنا إياه . ولا غرابة في ذلك على الإطلاق : فإن ما ينبغى أن يحدث « ماثل » من ذى قبل ، ما دام « التصميم » نفسه قد « اتُخذ » منذ البداية .

ومعنى هذا أن فعل « الاختيار » الأصيل لا يكمن في « الوعى » مطلقا ، بل هو سابق أو متقدم عليه .

ولو أننا أنعمنا النظر الآن في رأى الذى ذهب إليه شوبنهاور ، لوجدنا أنه ينفى عن « الأخلاق » كل طابع « معيارى » ، لكى يحيلها إلى دراسة « نظرية » أو « تأملية » بحتة . وحجة شوبنهاور في ذلك أنه ليس من شأن « الأخلاق » أن تحدّد سلوكنا العملى ، أو أن تلقى أى ضوء على الطريقة التى لا بد لنا من اتخاذها في تحديد هذا السلوك .

والنتيجة التى تترتب على مثل هذا الزعم ألا يكون للأخلاق أى تأثير عملى ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، على سلوكنا أو أسلوبنا في الحياة .

ولسنا ندرى كيف يمكن أن يبقى وعينا بالمبدأ الخلقى مجرد « وعى غير مكترث » لا يهتم في كثير أو قليل بموقفنا من الحياة ، في حين أن لكل وعى — من الناحية العملية — شحنة وجدانية ، فضلا عن أنه لا وجود للنظر العقلى المحض ، اللهم إلا في عالم « التجريد » المطلق ! ثم إننا لا نتصور مطلقا أن

تكون « الأخلاق » — بوصفها « مذهباً » — خلوا تماماً من كل طابع « عملي » ، في حين أنها « معرفة بالمبدأ » ، ومثل هذه « المعرفة » لا بد من أن تكون بمثابة المقدمة الضرورية التي يستند إليها كل تصميم إرادى . صحيح أن السلوك الخلقى لا يُعدّ هو نفسه مجرد « معرفة » ، ولكنه يفترض بالضرورة مثل هذه « المعرفة » (١) .

والحق أن « المعرفة الأخلاقية » لا يمكن أن تكون مجرد « معرفة إدراكية » أو « عرفانية Cognitive » صرفة ، بل هي لا بد من أن تتخذ — منذ البداية — طابع « المعرفة العملية » التي تحفل بالشحنات الوجدانية . وقد يكون شوبنهاور على حق حين يقول إن الأخلاق لا تُملئ علينا — من تلقاء ذاتها — أى شيء ، ولكن من المؤكد أن الأخلاق تعلمنا ما هو « الخير » ، وإن كان من الواضح أن معرفتنا بالخير لا يمكن أن تصبح معرفة تامة مكتملة . فالأخلاق تكشف لنا عما « تراه » في مضمار « الخبرة الخلقية » ، وهي تريد أن تأخذ بيدنا حتى « نرى » نحن أيضاً ما تكشف لنا عنه في صميم خبرتنا الخلقية . ولما كان هذا الذى تكشف لنا عنه منطويًا على « أمر » أو « وصية » ، فإن « الأخلاق » هي في الوقت نفسه « وعى » بهذا « الأمر » ، أو هي على الأصح « وعى » يمكن أن نقول عنه إنه « أمر » .

وقد اعترف كثير من الفلاسفة المعاصرين بهذا الطابع « العملى » للأخلاق ، فذهب جورج إدوارد مور — مثلاً — إلى أن الغرض الأساسى للأخلاق هو « التأثير على سلوكنا الفعلى » . ولا يرفض مور شرعية « الإفتاء في قضايا الضمير Casuistry » (بعكس براذلى الذى رفض أصلاً إمكان قيام علم تطبيقي تكون مهمته تقرير مسائل الخير والشر والسلوك العملى) ، بل هو يذهب إلى أن المهمة الأصلية لعلم الأخلاق هي تطبيق مبادئه على النحو الذى يمكنه من إرشاد الناس في مضمار « فن الحياة » (٢) .

Hartmann: "Ethics", vol. I., Moral Phenomena, pp. 57-58 (١)

G. E. Moore: "Principia Ethica", London, 1903., Ch. I., (٢)

وحتى لو سلمنا مع بعض الفلاسفة بأن الأصل في « الأخلاق » أن تهتم أولا بالكشف عن « الحقيقة » في مضمار « السلوك » ، فإننا لن نجد مانعا من القول بأنه لا بد لفيلسوف الأخلاق — بين الحين والآخر — من التعرض لنقد المعايير الخلقية القائمة ، وبالتالي فإنه لا بد للأخلاق — سواء أرادت أم لم تُرد — أن تستحيل إلى « مبحث عملي » . هذا إلى أنه ليس ما يبرر الشك فيما قد يكون للأخلاق من تأثير عملي على سلوك الفرد ، إذا راعينا دور « المعرفة » في تحديد معالم الطريق أمام الشخص الراغب حقا في انتهاز سبيل الخير . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن معرفة الأخلاق قد تقدم للشخص بعض المعونة في بحثه عن الخير . ومن المحتمل أن يكون فيلسوف الأخلاق أقرب إلى جادة الصواب — في تطبيقه لقواعد الأخلاق على بعض الحالات الجزئية — من أى إنسان آخر لديه إلمام بظروف الموقف ، دون أن تكون لديه أية معرفة بأصول علم الأخلاق .

ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن الفائدة الحقيقية لعلم الأخلاق لا تتمثل في « التوجيه » أو « الإرشاد » الذى يقدمه لنا هذا العلم حين نكون بصدد بعض الحالات الخاصة أو الظروف الجزئية ، بل تتمثل في « التنمية » لسعة أفقنا وجدية مقصدنا حين نعرض للمسائل الخلقية بوجه عام .

نظرية سقراط في التوحيد بين « الفضيلة » و « العلم »

ولو أننا أردنا الآن أن نجد في تاريخ المذاهب الأخلاقية الكبرى وجهة نظر معارضة تماما لوجهة نظر شوبنهاور ، لكان علينا أن نرجع إلى سقراط الذى كان أول من قال بأن « الفضيلة علم والرذيلة جهل » .

وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن نزعة سقراط العقلية المتطرفة هي التى أملت عليه القول بأن فهم طبيعة الخير شرط ضرورى لممارسة حياة الفضيلة . وكانت حجة سقراط في ذلك أن أحدا لا يفعل الشر حبا في الشر ذاته ، فإن « الخير » الذى يسعى المرء جاهدا في سبيل الحصول عليه لا بد من

أن يظل يلاحقه ويحوم حوله باستمرار . ولكن المرء قد يخطئ التقدير ، فيقبل على « الشر » ظنا منه بأنه « الخير » ، وعندئذ يكون خطؤه الخلقى ناجما عن مجرد نقص في المعرفة أو جهل بطبيعة الخير . ولو أنه عرف « الخير » على حقيقته لما اتجهت إرادته مطلقا نحو فعل « الشر » ، وإلا لوقع صريعا لضرب من التناقض الذاتي . وتبعا لذلك فقد ذهب سقراط إلى أن في الإمكان « تعليم الفضيلة » ، ما دامت « الفضيلة » هي مجرد « معرفة » .

وقد يعجب المرء كيف غاب عن ذهن سقراط دور « الإرادة » في تحقيق « السلوك الخَيْر » ، ولكن الظاهر أن الفيلسوف اليوناني الكبير قد كان حريصا على تأكيد دور « المعرفة » في مضمار « الأخلاق » ، اعتقادا منه بأن العلم بالطبيعة البشرية أساسى لممارسة حياة الفضيلة . ولم يكن من المستغرب على فيلسوف اتخذ من العبارة المأثورة : « اعرف نفسك » شعارا له في كل تفكيره ، أن يُعَلَى من شأن « المعرفة » ، أو أن يوحد بينها وبين « الفضيلة » .

ومن هنا فقد اقترن اسم سقراط بالتصوّر المعيارى للأخلاق ، ولم تعد مهمة الأخلاق مقصورة على تلقين النشء « ما ينبغي أن يكون » بل أصبح من واجبا أيضا أن تُسهم في تحديد كل من الإرادة والفعل .

وهكذا أصبح الإنسان الشرير — في نظر الفكر اليوناني القديم — هو الإنسان الجاهل ، بينما نُظِرَ إلى « الرجل الخَيْر » على أنه « الإنسان الحكيم » . ولم يكن من الغرابة في شيء — بعد ذلك — أن يسيطر المثل الأعلى للرجل « الحكيم » على الفلسفة الخلقية بأسرها ، حتى عند « الرواقيين » أنفسهم . والحق أن الرواقيين حينما ذهبوا إلى أن « الانفعالات » قد تمنع الإرادة من الاتجاه نحو فعل الخير ، وحينما نادوا — تبعا لذلك — بضرورة القضاء على « الانفعالات » ، فإنهم لم يكونوا يعدّون « الانفعالات » سوى مجرد « معرفة ناقصة » ، وبالتالي فإن دعوتهم إلى قمع الانفعالات أو السيطرة عليها لم تكن سوى دعوى عقلية تهدف إلى تحقيق سيادة « اللوغوس Logos » . وأما أفلاطون فقد ذهب في محاورته « منون »

Menon إلى أن التحدث عن إرادة الخير هو مجرد « تحصيل حاصل » ؛ لأن الإنسان حتى حين يريد الشر فهو إنما يريد الخير ، بمعنى أنه يريد « الشر » بوصفه « خيرا » له . وإلا ، فهل وُجد على ظهر البسيطة مخلوق يريد لنفسه التعاسة ؟ وقد سار أفلاطون على نهج أستاذه سقراط فقال إن العلم بمسائل الأخلاق جوهرى لممارسة حياة الفضيلة ، ولكنه ذهب إلى أن العلم هنا علم ميتافيزيقى ينصب على معرفة « المثل » ، وفي مقدمتها جميعا « مثال الخير » . ولا يعنينا — فى هذا المقام — أن نتوقف عند نظرية أفلاطون فى الأخلاق ، وإنما حسبنا أن نقول إن الفيلسوف اليونانى الكبير قد اتفق مع أستاذه سقراط على القول بأن « الأخلاق » معيارية ، وأنها تعلمنا « ما ينبغى أن يكون » ، وأن لها تأثيرا ناجعا على حياتنا العملية ، وأن من شأن التعاليم الأخلاقية أن تدغم المسئولية البشرية وتعمل على تقويتها ... إلخ .

وقد لقيت النظرية اليونانية فى الأخلاق معارضة كبرى من جانب رجالات المسيحية : إذ ذهب المفكرون المسيحيون إلى أن « معرفة الخير » لا تكفى وحدها لحض « الإرادة » على فعل الخير أو لتوجيهها نحو ممارسة حياة « الفضيلة » . وآية ذلك أن الإنسان كثيرا ما يعرف وصايا الله وأوامر الأخلاق ، ولكنه مع ذلك قد يخالفها أو يتعدى عليها ، وربما كان السبب فى ذلك هو ضعف الإرادة البشرية من جهة ، وقوة الشر من جهة أخرى . وإذا كان الإنسان كثيرا ما يرتكب « المعصية » عن « جهل » أو « نقص فى المعرفة » ، فإن « الخطيئة » — مع ذلك — ليست مجرد « خطأ عقلى » أو « جهالة فى الفهم » .

والحق أن ما تسميه المسيحية باسم « الخطيئة » هو شئ أكثر بكثير من مجرد « الخطأ » أو « الإثم » : لأنه ليس للإنسان على « الخطيئة » يُدان ، كما أنه ليس فى استطاعة « المعرفة » أن تجنب المرء خطر الوقوع فى « المعصية » .

وربما كانت خطورة « المشكلة الخلقية » — فيما يقول رجالات المسيحية — كامنة على وجه التحديد فى قدرة الإنسان أو عدم قدرته على اتباع ما تقضى به

المعرفة الأخلاقية . ومعنى هذا أن « المعرفة » هنا ليست « مُلزمة » لصاحبها ، بل لا بد للمرء — حتى بعد معرفته بالشرعية الأخلاقية — من أن يحزم إرادته على العمل بمقتضاها ، أو أن يتخذ قراره برفضها والتمرد عليها .

هذا إلى أن هناك « قوة » مظلمة لا معقولة من شأنها أن تنجيء فتدخل في هذا التصميم ، ألا وهي قوة الشر أو الغواية أو الإغراء . وسواء أرجعنا هذه القوة إلى المادة ، أم إلى الشيطان ، فإن المهم أن « الجسد » — في نظر المسيحية — ضعيف ، وأن الله — وحده — هو الذى يستطيع أن يأخذ بيد الموجود البشرى ، وأن يحرره من أسر تلك « القوة الشريرة » .

ولا شك أننا هنا بإزاء نظرية أخلاقية معارضة تماما لنظرية سقراط : لأن المسيحية تؤكد أن الفضيلة لا يمكن أن تُعَلَّم ، ما دامت « المعرفة » وحدها هي التي يمكن أن « تُعَلَّم » ولا غناء في « المعرفة » حين نكون بصدد « السلوك العملي » . صحيح أنه في استطاعة « علم الأخلاق » أن « يعلمنا » ما ينبغي لنا أن نفعله ، ولكن هذه « المعرفة » بطبيعتها عاجزة قاصرة ، لأنه ليس في وسع الإنسان أن يتبعها ويسير على نهجها ، ولكن كانت « الأخلاق » معيارية — من حيث المذهب أو التفكير النظرى — إلا أنها ليست معيارية — من حيث الواقعية أو التأثير العملى — .

وهكذا يخلص مفكرو المسيحية إلى القول بأنه ليس من شأن الأخلاق أن ترشد الإنسان في حياته العملية ، وبالتالي فإنه لا موضع للقول بوجود « فلسفة عملية » .

دور « المعرفة » في الحياة الخلقية ...

ولو أننا حاولنا الآن أن نفصل في هذا النزاع الأخلاقى الذى قام بين سقراط من جهة ، وفلاسفة المسيحية من جهة أخرى ، حول دور « المعرفة » في الحياة الخلقية ، لوجدنا أن الفيلسوف اليونانى الكبير قد جانب الصواب حينما عمد إلى التوحيد تماما بين « العلم » و « الفضيلة » ، في حين أن فلاسفة المسيحية

قد تطرّفوا في الاتجاه المضاد حينما راحوا يؤكدون أن « الفضيلة لا تُعلّم » على الإطلاق . صحيح أن « الفضيلة » ليست مجرد « علم » ، ولكن من المؤكد أن عنصر « المعرفة » عنصر هام من عناصر « الفضيلة » ، وحين يكون الإنسان مفتقرا إلى هذا الضرب من « المعرفة » ، فلا بدّ لعلم الأخلاق من أن يضطلع بمهمة تلقينه مثل هذه « المعرفة » .

ومعنى هذا أنه لا بد للإنسان — قبل الإقدام على اتخاذ تصميماته الخلقية — من أن يكون ملُماً بتلك القواعد الأخلاقية التي سيكون عليه أن يعمل بها أو أن يخرج عليها . ونحن لا ننكر أن مثل هذه « المعرفة » لا تضمن لنا سلفا إقبال صاحبها على أداء « الفعل الخير » أو تحقيق « السلوك القويم » ، ولكن من الواضح أن « المعرفة » مع ذلك تمثل شرطا أوليا ضروريا لكل حياة خلقية سليمة .

وهنا قد يعود الفلاسفة النظريون (من أمثال شوبنهاور) إلى الاعتراض ، فيقولون إن مهمة « الأخلاق » الأولى هي الكشف عن « الحقيقة » في مضمار السلوك ، دون التعرّض للحياة الخلقية بوصفها « عملا » أو « فتّا » .

وردّنا على هذا الاعتراض أن عملية الكشف عن معنى آرائنا الخلقية قد لا تخلو من تأثير — هي نفسها — على سلوكنا العملي ، لأنها تسلّط على مبادئنا الكامنة أضواء الوعي أو الشعور ، فتزيل ما قد تنطوى عليه تلك المبادئ من متناقضات ، إن لم نقل بأنها قد تؤدي بنا إلى نبذ بعض الآراء الأخلاقية السائدة على ضوء ما تكشف عنه تلك الدراسة من « مبادئ جوهرية » .

والحق أن الكثير من فلاسفة الأخلاق قد فطنوا إلى أن « أوامر الضمير » تمثل وصايا عقلية تقبل التحليل والتبرير وبالتالي فإنهم قد جعلوا « للعقل Reason » دورا هاما في صميم حياتنا الخلقية .

ولا شك أن مثل هذا « التحليل » العقلي إنما يضطلع بمهمة تربية الضمير : لأنه هو الذي يجعل أوامر الضمير أكثر اتساقا وأشدّ توافقا مع « القانون الخلقى » الموضوعي . ولعل هذا ما عناه فلاسفة « المثالية » (خصوصا من بين رجالات

المدرسة الأخلاقية الإنجليزية) حينما ذهبوا إلى أن مهمة الحياة الخلقية هي تسليط أضواء الوعي أو الشعور على ذلك العنصر « العقلي » ، « الروحي » ، « الواعي بذاته » ، في الطبيعة البشرية . وإذا كان ثمة سبيل لتحقيق هذه المهمة بطريقة أكيدة فعالة ، فما ذلك إلا بالدراسة التأملية لتلك القواعد الخلقية التي اصطنعها الإنسان في توجيهه لسلوكه ؛ وهذه هي نقطة البدء في كل دراسة أخلاقية .

ويمضي بعض فلاسفة الأخلاق إلى حدٍّ أبعد من ذلك فيقولون إن الدراسة الأخلاقية التي يتم عن طريقها تسليط الأضواء العقلية على « العوامل الروحية » المؤثرة على السلوك الخيّر أو الحياة الخلقية القويمة ، هي بمثابة واجب خلق أساسي يقع على عاتق الإنسان . وهنا تظهر الصلة الوثيقة التي تجمع بين « النظر » و « العمل » في مضمار السلوك الخلقى : فإنه لمن الواضح أن « النظر » الأخلاقى مُوجّه منذ البداية نحو الحياة العملية ، كما أن « العمل » الخلقى قائم بطبيعته على فهم صحيح لروح « القانون الخلقى » بوصفه مبدأ عقلياً^(١) .

ولا نرانا في حاجة إلى التدليل على قيمة « الأفكار الخلقية » في حياة الأفراد والجماعات : فإن التجربة لتظهرنا على أننا حريصون دائما على التمييز بين الفكرة الصائبة والفكرة الخاطئة ، لا في مجال المنطق وحده ، بل وفي مجال الأخلاق أيضا . وحينما نسيء التصرف ، فإننا كثيرا ما نعود إلى أفكارنا محاولين فحصها وامتحانها ، لأننا على ثقة من أن سوء تصرفنا لا بد من أن يكون راجعا إلى خطأ في التفكير أو التقدير أو التقييم أو وزن الأمور . صحيح أن ظروف الحياة هي من السعة والتعقد بحيث إنه هيات للمبادئ الأخلاقية العامة أن تمدنا — في كل حالة — بالميزان العقلي الصحيح الذى يسمح لنا بتقييم كل موقف جزئى ، ولكن من المؤكد أن الإلمام بالمبادئ الأخلاقية العامة كثيرا ما يضع بين يدى المرء « معايير ثابتة » يمكن تطبيقها على الحالات الجزئية .

وحتى لو افترضنا أن كل ما يمكن أن تقدمه لنا « الأخلاق الفلسفية » هو مجرد فكرة عامة عن حقيقة الخير ، أو طبيعة « القيم » ، فستظل لهذه الفكرة العامة قيمتها الكبرى بوصفها « معيارا » للخير والشر بوجه عام .

وليس ما يمنعنا بعد ذلك من أن نحاول تطبيق المبادئ الأخلاقية على الحالات الخاصة ، حتى نرى ما إذا كانت تلك المبادئ متسقة مع ذاتها ، أو ما إذا كانت منطقية على بعض المتناقضات . وليس من شك في أن ميدان « التطبيق العملي » كثيرا ما يكون مناسبة طيبة لتصحيح بعض أفكارنا الخلقية ، أو لتعديل بعض مبادئنا الأخلاقية . وكثيرا ما تجيء « التجربة » ، فتكشف للفيلسوف الحدسي (مثلا) عن وجود ضرب من « التناقض » بين بعض « القواعد » التي توصل إليها عن طريق « الحدس » ، فيكون عليه من بعد أن يعاود النظر في مذهبه الأخلاقي ، حتى يقضى على ما فيه من أسباب التناقض .

ولا شك أننا إذا لم نحصر — بين الحين والآخر — على مراجعة مبادئنا الأخلاقية وضبطها ، عن طريق النظر إلى آثارها في الحياة العملية وطريقة تطبيقها على الحالات الخاصة ، فإن هذه المبادئ لن تلبث أن تستحيل إلى « أوهام خيالية » تسبح في مُخيلة فيلسوف حالم لا شأن له بدنيا الناس !

ونحن نعرف أن كثيرا من الفلاسفة قد رفضوا ربط نظرياتهم الأخلاقية العامة بحالات الضمير الخاصة ، ومواقف السلوك الجزئية ، بدعوى أنه لا شأن لعلم الأخلاق (من حيث هو علم نظري بحت) بمثل هذه الجوانب العلمية التطبيقية ، ولكن من الواضح أن الحالات الخاصة نفسها يمكن أن تندرج تحت « فئات Classes » ، ومن ثم فإنه ليس ما يمنع « علم الأخلاق » من تصنيف تلك « الفئات » والعمل على فهمها في ضوء القوانين الأخلاقية العامة .

وأما إذا قيل إنه قد يكون من الأفضل لعالم الأخلاق أن يركز كل انتباهه على المبادئ العامة للأخلاق ، وأن يدع التفاصيل (أو الجزئيات) تهتم بنفسها ، فرمما كان في وسعنا أن نردّ على ذلك بقولنا إن « الحالات الخاصة » قد تلقى بعض الأضواء على المبادئ العامة ، فليس ما يمنع فيلسوف الأخلاق

من الرجوع — بين الحين والآخر — إلى الحياة العملية بما فيها من حالات خاصة معقدة، من أجل العمل على توضيح « مبادئه » الأخلاقية العامة. وحسبنا أن نعود إلى تاريخ الفلسفة، لكي نتحقق من أن عددا غير قليل من فلاسفة الأخلاق، وعلى رأسهم أفلاطون، والقدّيس توما الأكويني، وبنّام، وجون استيوارت مل، وغيرهم، قد أظهرُوا اهتماما عميقا بالتطبيقات العملية، للأخلاق، فكانت الفلسفة الخلقية — في رأيهم — « مبحثا عمليا »^(١).

نوعية الطابع « العمل » للفلسفة الخلقية ...

... على أننا لو أنعمنا النظر إلى « الفلسفة الخلقية »، لوجدنا أنها منذ البداية فلسفة « عملية » تهدف إلى الإجابة على السؤال الآتي : « ما الذي ينبغي لي أن أعمله ؟ ». ولو أننا تساءلنا — مثلا — : « ما الذي يمكننا أن نعرفه ؟ »، لوجدنا أن « موضوع » المعرفة مائل أماننا، مستقل عنا، قائم بذاته، بحيث لا يكون على « الفكر » سوى أن يرتد إلى عالم « التجربة » من أجل الوقوف على مثل هذا « الموضوع ». وأما حين نتساءل : « ما الذي ينبغي لنا أن نعمله ؟ »، فإننا نكون عندئذ بإزاء « شيء » غير متحقق، أو غير واقعي، لأنه لا يملك وجودا سابقا في ذاته ؛ وهذا « الشيء » لا يمكن أن يكتسب « الوجود » إلا من خلال « فعلنا ».

ولكنّ المشكلة الخلقية لا تتمثل في « العمل » نفسه، بل « فيما » نعمل، أعني في هذا الذي لا بدّ لنا من أن نوجّه نحوه كلّ نشاطنا العملي.

وليس من شك في أنه لا بدّ « للفكر » هنا من أن يقوم بدوره في تصوّر « الفعل » الذي سيكون علينا أن نحققه، ولكنّ من المؤكد أن هذا

Cf. H. Samuel: "Practical Ethics", London, Home (١) University Library. & G. E. Moore: "Philosophical Studies", 1922., (The Nature of Moral Philosophy.).

« التصور العقلى » لن يخلو من « مخاطرة فكرية » . والواقع أننا لا نجد — منذ البداية — مبادئ أخلاقية أكيدة ، نستند إليها فى تقرير أحكامنا ، وبالتالى فإن « الخبرة الخلقية » لا تقدم لنا « حقائق أخلاقية » نجد فى تضاعيفها كل ما نريد معرفته عن « معايير السلوك » . ولكننا — مع ذلك — نحس بأن ثمة مطالب أخلاقية تفرض نفسها علينا ، دون أن يكون فى وسعنا تحديد نوعية تلك « المطالب » بكل دقة .

والحق أنه إذا كان من شأن سائر المجالات الأخرى للمعرفة العملية أن تكون على علم بالمهدف الذى ترمى إليه ، فإن « الأخلاق » — وحدها — تظل مفتقرة إلى مثل هذا العلم بالمهدف أو الغاية .

وآية ذلك أن علوم الصحة ، والتشريع ، والتربية ، وغير ذلك من ضروب « التكنية » تعرف جيدا ما هى « الغايات » التى تهدف إلى بلوغها ، وإن كانت المشكلة بالنسبة إليها هى معرفة السبل أو الوسائل المؤدية إلى تلك الغايات ، فى حين أن « علم الأخلاق » يستهدف معرفة « الغايات » نفسها ، أعنى تلك الغايات القصوى أو الأهداف المطلقة التى لا يمكن أن يُنظر إليها على أنها « وسائل » أو « وسائط » لأى شىء آخر .

صحيح أنه قد يكون فى الإمكان أيضا تصوّر « أخلاق وسائل » ، ولكن القضية الأصلية فى كل « الفلسفة الخلقية » إنما هى أولا وبالذات « قضية الغايات » . ومن هنا فقد كان للطابع « العملى » فى الفلسفة الخلقية معنى آخر مختلف كل الاختلاف عنه فى العلوم العملية الأخرى : لأننا هنا بإزاء بحث عن الغايات نفسها ، دون أن يكون هناك ما يضمن لنا سلفا إمكان الوصول إلى معرفة « نوعية » لتلك « الغايات » . وحين يتساءل كل فرد منا : « ما الذى ينبغى لى أن أعمله ؟ » ، فإنه يجد نفسه هنا بإزاء سؤال فريد فى نوعه : لأنه ملزم بالإجابة على هذا السؤال ، إن لم يكن بالفكر فبالعمل .

وليس فى وسع أى فرد منا أن يخطو خطوة واحدة فى سبيل حياته ، دون أن يكون قد أجاب على هذا السؤال بطريقة أم بأخرى . ولا غرو ، فإنه ليجد

نفسه هنا بإزاء « مطلب » حيوى هام لا بد له من أن يواجهه ، خصوصا وأن كل كرامة الإنسان ، وكل ما لديه من استقلال ذاتي ، لا بد من أن يُسْنَمَها في تحديد إجابة الفرد الواحد منا على مثل هذا السؤال^(١) .

... إن الانحراف المهني لِيُوقَع في ظن الفلاسفة أن الإنسان موجود « نظري » ، وكأن كل ما يثير اهتمامه إنما هو الفهم ، والعلم ، والمعرفة ، في حين أن الإنسان أولا وبالذات موجود « عملي » يهدف إلى تحقيق ذاته ، وإثراء حياته ، والتغير من عالمه وعالم الآخرين . وحتى حين يقوم الإنسان بعملية « إدراك » الأشياء من حوله ، فإن هذه العملية لا بد من أن تقترب لديه منذ البداية بفعل « تفضيل » يُؤثر بمقتضاه هذا الشيء على ذاك .

ومعنى هذا أن الإنسان لا يمكن أن يقف من الأشياء موقف « المرأة » التي تعكس صور الأشياء ، بل هو لا بد من أن يشارك في مجرى الأحداث بكل ما لديه من اهتمامات ، وانفعالات ، وقدرة على « التقييم » . ومن هنا فإن « الموجود الأخلاقي » ليس مجرد إنسان « عارف » يملك علما مجردا بماهيم الخير والشر ، بل هو أيضا إنسان « عامل » يملك إحساسا مرهقا بالقيم ، ويسعى جاهدا في سبيل المشاركة في تحقيقها .

وحيثما جعل سقراط من « الحكمة » المثل الأعلى للحياة الخلقية ، فإنه لم يكن يعنى بها مجرد « البحث النظري » الصرف ، بل كان يعنى بها أيضا اهتمام المفكر أو التزامه بالحياة على وجه العموم ، سواء أكانت حياته الخاصة أم حياة الآخرين . وهكذا كانت « الحكمة » بمثابة مرادف للذوق الخلقى *Moral taste* ، وكان « الحكيم » هو ذلك الإنسان الذي يتمتع بقدرة نفاذة على إدراك ما في الحياة من « قيم » و « دلالات » .

وتبعاً لذلك فقد ذهب سقراط إلى أن « الحكيم » هو الرجل الذي يملك عقلية مفتوحة لا تغلق عينها عن أية « قيمة » ، ولا تكف مطلقاً عن رؤية الأشياء والأشخاص دون أن ينكر في الوقت نفسه أن « الحكيم » أيضا هو

الرجل الذى لا يكفّ عن الاكتشاف والبحث والتعلم . وهذا هو السبب فى أن كل شىء يسهم فى زيادة نموه الخلقى ، ويعمل على إثراء القيمة الضمنية لحياته الخاصة . والرجل « الحكيم » أيضا هو ذلك الإنسان المتعاطف الذى يحرص على فهم الآخرين ، وإن كان يريد أن يفهمهم « من الداخل » ، فهو لا يفتأ يحاول النفاذ إلى « قيمهم » الخاصة ، حتى يحقق لهم ما يصبون إليه من خلاص ، وحرية ، وسعادة .

والواقع أن الكثيرين يستشعرون حاجة روحية عميقة إلى « التواصل » مع الآخرين ، حتى يفهمهم الغير ، ويقدرهم ، ويتعاطفوا معهم . وإن المرء ليلتقى فى حياته العادية بالعديد من الموجودات ، ولكن قليلون هم أولئك الذين « يراهم » بالمعنى الأخلاقى لهذه الكلمة ، وقليلون هم أولئك الذين يحظون بنظرتنا التعاطفية (مع العلم بأن « النظرة التعاطفية » هى نظرة « الحب » الذى يعرف كيف يقدر القيم) .

وبالمثل ، يمكننا أن نقول إن أولئك الذين « يرونا » نحن هم أيضا قلة نادرة ! وآية ذلك أن العوالم البشرية تتلاقى ، ولكن لكى ينزلق السطح على السطح ، بينما تبقى « الأعماق » مطوية ، نائية ، منعزلة ، غير متلامسة ، ثم هى لا تلبث بعد ذلك أن تتفارق وتتباعد ! صحيح أنه لا ينبغى لأى شخص أن « يذوب » تماما فى أى شخص آخر ، أو أن يفقد ذاته نهائيا فى أية ذات أخرى^(١) ، ولكن من المؤكد أن كل شخص يحسن — فى قرارة نفسه — إلى أن يصبح « مرثيا » من جانب شخص آخر ، بحيث يفهمه هذا الشخص ، ويتعاطف معه ويستجيب له ، ويثق فيه سلفا .

ألسنا نلاحظ أن كل واحد منا يلتقى فى خبرته العادية بالكثير من المواقف والمناسبات التى لا يكون نصيبه فيها سوى الإهمال أو الإعراض ، أو عدم الاهتمام ، أو سوء الفهم ، من جانب الآخرين ؟ وهل يمكن أن تكون فى الحياة

(١) ارجع إلى كتابنا « مشكلة الحب » ، دار الآداب ، ١٩٦٣ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ،

خيبة أمل أعظم أو أفدح من تلك التى يلقاها الإنسان حين يقدر له أن يمضى فارغا دون أن يراه أحد ، ودون أن يشعر به أحد ، وكأنما هو قد أقصى من الحياة لعدم تمتعه بأية قيمة ؟ .

الحكمة الأخلاقية هى نقطة تلاقى النظر والعمل

لقد كان الفلاسفة الأقدمون يتحدثون عن « فلسفة نظرية » تحقق كمال « القوة العاملة » ، و « فلسفة عملية » تحقق كمال « القوة العاملة » ، وكانوا يقولون إنه « ليس يتم أحدهما إلا بالآخر : لأن العلم مبدأ ، والعمل تمام ؛ والمبدأ بلا تمام يكون ضائعا ، والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلا^(١) » . والظاهر أن « الحكمة » السقراطية قد بدت للفلاسفة الأقدمين بمثابة تحقيق لوحدة « النظر » و « العمل » : إذ قد وجدوا فيها — من جهة — مظهرا للمعرفة ، والوعى ، والشعور بالذات ، كما وجدوا فيها — من جهة أخرى — تعبيرا عن الفضيلة ، وحب للخير ، والإحساس بالقيم .

وقد سبق لنا أن قلنا إن « الحكمة » قد تحولت على أيدي الرومان إلى « حس خلقى » ينطوى على معانى الاستبصار ، والتقدير ، والقدرة على « تذوق القيم » . ولم يكن من الغرابة فى شيء — بعد ذلك — أن يصبح « الحكيم » هو « الإنسان المتذوق » الذى يشارك فى ملء الحياة ، ويتعاطف مع قيم الآخرين ، ويفتح لكافة « القوى الروحية » الكامنة فى أعماق الوجود . وعلى حين أن الكثيرين يحبون ويموتون ، دون أن يكونوا قد « رأوا » الآخرين أو قد « أبصروا » ما فى الأشياء والأشخاص والمواقف من قيم ومعان ودلالات ، نجد أن الرجل الحكيم هو ذلك الإنسان « المتعاطف » الذى لا يكف عن استخراج ما يكمن فى أعماق الغير من « قيم » ، وما تنطوى عليه للمواقف الخارجية

(١) ابن مسكويه : « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٩ ،

من « دلالات » . وليس يكفي أن نقول مع بعض الفلاسفة إن « الحكيم » هو ذلك « الرجل الذى قد وُلِدَ صديقا للجميع ، أو مُعينا روحيا للناس أجمعين » ، بل لا بد من أن نضيف إلى ذلك أيضا أن « الحكيم » هو « المرتبى الحقيقى » ، أو المرشد الأخلاقى . ولسنا نعنى بعملية « إرشاد » الآخرين إثقال كاهلهم بعدد ضخم من المطالب الأخلاقية ، بل نحن نعنى بها توجيه الأفراد نحو « القيم الشخصية » الباطنة فى ذواتهم ، وهى تلك القيم التى لم يقدر لهم بعد أن يعرفوها أو أن يفهموها . وهنا تجيء مهمة الحكيم الأخلاقى فىكون عليه أن « يتبأ » سلفا بما قد يكون فى وسع هؤلاء الأفراد تحقيقه أخلاقيا ، وكأنما هو يمتد ببصره — أو بصيرته — إلى ما وراء واقعهم ، لكى يستشرف مثلهم العليا ، ويستطلع ما يعدو حدود خبراتهم الراهنة^(١) .

وهكذا نخلص إلى القول بأن « الحكمة الأخلاقية » هى نقطة تلاقى « النظر » و « العمل » : على اعتبار أن الغاية التى يهدف إليها « النظر الأخلاقى » هى منذ البداية توجيه السلوك وإرشاد الناس إلى فن الحياة ، كما أن « العمل الأخلاقى » — بمعناه الصحيح — إنما هو منذ البداية ذلك النشاط الواعى القائم على روية ، وتفكير ، وتعقل ، وتدبّر ، واستبصار ، وإحساس بالقيم ، ووزن صحيح للأمور . فليس عند « الحكيم » نظر بدون عمل ، أو عمل بدون نظر ، بل هناك حياة متكاملة قوامها معرفة الذات ، والإحساس بالقيم ، والمشاركة فى ملاء الحياة ، والمساهمة فى بناء شخصية الغير .

ومن هنا فإن الفلسفة الخلقية لا يمكن أن تكون مجرد « نظر عقلى » يستهدف تعريف الفضيلة أو تحديد ماهية الخير ، بل هى لا بد من أن تتخذ طابع « الفلسفة العملية » التى تأخذ على عاتقها مهمة العمل على إيقاظ الحساسية بالقيم لدى الناس ، والمشاركة فى تربية الإنسانية بوجه عام ، وفقا لمبادئ الحكمة السقراطية القديمة .

N. Hartmann: "Ethics", vol. II., Moral Values, London, (١)

1963, Ch. XX, Wisdom, pp. 241 — 242.

الفصل الثاني

الأخلاق بين « النسبية » و « الإطلاق »

قد تكون أول مشكلة تواجه فيلسوف الأخلاق هي مشكلة « المبادئ الأخلاقية » نفسها ، خصوصا وأن كلمة « المبادئ » تشير في العادة إلى معاني الضرورة ، والكلية ، والثبات ، والإطلاق ... والواقع أنه كثيرا ما يُقال إن العصر الذى نعيش فيه لم يُعَدِّ عصر مبادئ أخلاقية مطلقة ، وقيم أزلية ثابتة ، بل هو قد أصبح عصر مرونة ، وتساهل ، ونسبية .

ولا شك أننا إذا ربطنا الظاهرة الأخلاقية بعجلة التغير الاجتماعى ، وإذا سلّمنا مع بعض رجالات الأخلاق والقانون بضرورة اصطناع ضرب من المرونة فى الحكم على شتى أنماط السلوك الفردى ، فإننا قد نجد أنفسنا مدفوعين إلى دفع كل القيم الأخلاقية بطابع النسبية . ولكن المشكلة ليست بهذا القدر من السهولة : فإن الدفع بالقيم الأخلاقية جميعا إلى دوامة التغير والنسبية لن يلبث أن يصيب الحقيقة الخلقية فى الصميم ، وبالتالي فإنه لن يلبث أن يودى إلى بلبلة رأى العام الأخلاقى .

هذا إلى أننا لو سلّمنا بأن الأخلاق « علم » ، وإذا اعترفنا فى الوقت نفسه بأن من شأن كل « علم » أن ينطوى على مجموعة من الحقائق العامة التى تتسم بطابع الصدق ، فلا بد لنا من التسليم بأن « علم الأخلاق » ينطوى على مجموعة من الأحكام الأخلاقية التى لا تصدّق بالنسبة إلى فرد واحد بعينه ، بل تصدّق بالنسبة إلى الأفراد جميعا فى كل زمان ومكان^(١) .

William Lillie: "An Introduction to Ethics", London, (١)
1961, University Paperbacks, Methuen, Ch. vi, p. 102.

يبد أننا ما نكاد نتحدث عن قواعد أخلاقية مطلقة ، أو أحكام أخلاقية عامة ، حتى يبادر دعاة النسبية إلى الاعتراض على هذه الأخلاق الفلسفية « المطلقة » بقولهم إنها أخلاق واهمة تستند دائما إلى مبادئ أولية تسلم بها نسليهما ، دون أن تُعنى نفسها بالبحث في مدى صحتها : فهي تفترض — مثلا — أن « الطبيعة البشرية واحدة في كل زمان ومكان » ، ومثل هذا الفرض الأولي هو الذى يسمح لها بأن تنظر نظرا عقليا مجردا إلى مفهوم « الإنسان » بصفة عامة ، وأن تستخلص من ذلك قواعد كلية عامة . وبعبارة أخرى فإن الفلاسفة الأخلاقيين يسلمون بوجود ماهية بشرية ثابتة ، ومن ثم فإنهم يشترعون للإنسانية في جملتها ، دون أن يقيموا أى وزن للظروف أو المناسبات أو الأزمنة أو الأمكنة أو السلالات أو الأفراد .

هذا إلى أن هؤلاء الفلاسفة يفترضون أيضا أن الضمير أو الشعور الخلقي يؤلف لدى كل فرد منا « كُلا » متسقا ، تمثل أوامره المختلفة تطبيقات متنوعة لإلزام أخلاقي واحد . ولكن هذين المبدئين — فيما يقول دعاة النسبية — وهما باديا الخطأ : لأنه ليس ثمة « إنسان في ذاته » يمكن أن نقيم على أساسه مجموعة من الحقائق الأخلاقية الثابتة التى لا تكون محل نزاع أو موضع خلاف . وقد أثبتت لنا الإثنوجرافيا — فيما يقول أهل الاجتماع — أن للشعوب البدائية أساليب خاصة في الشعور والتفكير والعمل أو السلوك ، وأن هذه الأساليب مختلفة كل الاختلاف عما نأخذ به نحن — مثلا — في سلوكنا العادى .

والواقع أن كل عصر وكل مجتمع إنما يضعان تحت « مفهوم الإنسان » ، إنسان « هذا العصر » أو « هذا المجتمع » ، لا « الإنسان المطلق » أو « الإنسان بصفة عامة » وإذا كان من الحق أن الرجل اليونانى — قديما — لم يكن يحسب للرجل البربرى أى حساب ، فإن من الحق أيضا — فيما يقول دور كايم — أن الرجل الأوروبى فى أيامنا هذه ما يزال يعتقد أن « الإنسان » هو على وجه التحديد « إنسان هذا المجتمع الغربى المسيحى » (١) .

(١) زكريا إبراهيم « الأخلاق والمجتمع » ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ،

اختلاف الشرائع الأخلاقية : هل هو « اختلاف مطلق » ؟

ونحن لا ننكر أن تاريخ الحضارة البشرية حافل بالشرائع الأخلاقية المختلفة ، والمعايير الاجتماعية المتباينة ، ولكننا نلاحظ أن الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة قد كشفت لنا عن وجود تقارب كبير بين هذه الشرائع الأخلاقية المختلفة ، على العكس مما كان يتوهم رجالات الإثنوجرافيا في القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن . صحيح أن البشرية — حتى القرن السابع عشر — كانت ترى في « المبارزة » حقاً مشروعاً للفرد ، فكان الرجل يتأثر لكرامته أو شرفه عن طريق الانتصار على خصمه في هذا الصراع المسلح ، ولكننا — مع ذلك — ما زلنا نسلّم بمبدأ « الدفاع عن الشرف » أو الكرامة ، على الرغم من أننا قد أصبحنا نستنكر — اليوم — فعل « المبارزة » .

وقد كانت المرأة الهندية — قديماً — تحرق نفسها بعد وفاة زوجها ، لكي ترقد إلى جوار شريكها في كفنه ، ولكننا — اليوم — حتى إذا استنكرنا هذه الفعلة ، فإننا — مع ذلك — ما زلنا نعدّ وفاء الزوجة لزوجها — حياً كان أم ميتاً — فعلاً أخلاقياً له قيمته .

وقد تختلف الشرائع الأخلاقية في حكمها بحق الرجل البالغ في الزواج من واحدة أو أكثر (كأن تصرّح له مثلاً بالزواج من أربع) ، ولكنها تتفق جميعاً على أنه ليس من حق الرجل أن يتزوَّج أية امرأة شاء في أى وقت شاء . وربما اختلفت الشرائع الأخلاقية أيضاً في تحديد « الحالات » التي يكون فيها « الكذب » أهون الشرّين ، ولكنها تُجمّع — بلا استثناء — على اعتبار « قول الصدق » ، في الحالات العادية ، عملاً أخلاقياً صائباً .

والواقع أن هذا « التفاوت » القائم بين الشرائع الأخلاقية يرجع أولاً وبالذات إلى أن هذه الشرائع لا تمثل « قرارات » أو « صياغات » للمبادئ الأخلاقية القصوى ، بل هي مجرد « تطبيقات » لتلك المبادئ على بعض الظروف

الواقعية لهذا المجتمع أو ذاك . ولا شك أن جماعة الرهبان — حين تطبق « مبدأ العفة » — فإنها تطبقه بطريقة مختلفة عن تلك التى تصطنعها الأسرة حين تطبق هذا المبدأ فى حياتها العائلية أو علاقاتها الزوجية . وكثيرا ما نجىء بعض العوامل الحضارية أو التاريخية أو الاجتماعية فتحول بيننا وبين الوقوف على السمات المشتركة التى تجمع بين الأنظمة الأخلاقية المختلفة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشرائع الأخلاقية القائمة بالفعل لا تمثل بالضرورة « المعايير الأخلاقية المطلقة » ، أمكننا أن نفهم أنها جميعا شرائع أخلاقية « ناقصة » ، وبالتالي فإن اختلافها (فيما بينها) هو مجرد نتيجة لنقصها .

ولكن ، على الرغم من وجود « شرائع أخلاقية » متعددة ، وعلى الرغم من وجود « اختلافات » عديدة بين تلك الشرائع ، فليس ما يمنع من إمكان قيام « شريعة أخلاقية مطلقة » .

وربما كان الأصل فى هذا الخلاف المستمر بين فلاسفة الأخلاق حول « المبادئ الأخلاقية » وهل هى نسبية أو مطلقة ، وجود خلط مستمر فى أذهان الكثيرين بين مبادئ الأخلاق من جهة ، وأساليب السلوك من جهة أخرى ، مما أدى إلى عجز البعض منهم عن التمييز بين المبادئ القصوى الثابتة من جهة ، والقواعد النسبية المتغيرة من جهة أخرى .

والحق أنه مهما يكن من أمر تغير الظواهر الأخلاقية ، فإن من المؤكد أن الشرائع الأخلاقية لا تمثل مجموعة من القواعد التعسفية أو الاعتبارية التى لا تخضع لأى منطق ولا تصدر عن أية معقولة ، بل هى مبادئ إنسانية عقلية تستمد أصولها من قاعدة أولية عامة هى احترام الشخص البشرى ، وتقديس القيم الإنسانية .

ضرورة التمييز بين « المبادئ الأخلاقية » و « قواعد السلوك »

صحيح أن معظم السلطات الأخلاقية قد لقيت في الأيام الأخيرة الكثير من أسباب الضعف أو الوهن أو الانحلال ، فأصبح الناس يميلون إلى اعتبار « الأخلاق » مجرد مجموعة من « المواضعات » النسبية المتغيرة ، ولكن هذه « الظاهرة الحضارية » التي عملت على انتشار الرأي القائل بالنسبية لا تمنعنا من التمييز بين مبادئ الأخلاق وقواعد السلوك . والواقع أن ميل الكثيرين إلى اصطناع « خط المقاومة الأقل » قد أفضى بهم إلى القول بأنه ليس ثمة « معايير » على الإطلاق ، وأنه ليس هناك بالتالي « خير في ذاته » أو « شر في ذاته » . ثم جاء عجز البعض عن التمييز بين المبادئ الثابتة الكامنة والتعبيرات المتغيرة عن تلك المبادئ ، فدفع بهم إلى العمل على اجتناب مشقة التفكير في الأمور لحسابهم الخاص ، ومن ثم فقد أدّى بهم إلى خلع قيمة مطلقة على بعض العادات الجمعية أو الأساليب العامة في التصرف ، دون أن يفتنوا إلى أن أمثال هذه العادات والأنماط من السلوك لا تملك سوى شرعية نسبية . ولكن فلاسفة الأخلاق لم يلبثوا أن أدركوا خطورة هذا المسلك ، فراحوا يدعون المربين والمصلحين إلى مساعدة النشء على إدراك المبادئ التي تكمن من وراء قواعد السلوك ، حتى يفتن أبناء الجيل الحاضر إلى وجود « قوانين أخلاقية مطلقة » تكمن من وراء شتى المواضعات الاجتماعية المتغيرة . ولعل هذا ما عناه أحد فلاسفة الأخلاق حينما كتب يقول : « إنه لا بد للقائمين على شئون التربية من الأخذ بيد النشء من أجل مساعدتهم على التمييز بين السلوك التي يمكن — بل يجب — أن تتغير بتغير الظروف (وهي تلك القواعد التي نقول عنها إنها نسبية) ، وبين تلك المبادئ التي — إن صدقت — فلا بُدَّ من أن تصدق في كل زمان ومكان » (١) .

(١) زكريا إبراهيم : « عَوْد إلى مشكلات الأخلاق » ، مقال منشور بمجلة « الفكر

دور (الانفعالات) فى تأكيد (نسبية) الأخلاق ...

ويعود دعاة (النسبية) إلى الاعتراض فيقولون إن الأحكام الأخلاقية — فى جوهرها — أحكام وجدانية تستند إلى العواطف ، وترتكز على الانفعالات ، فهى بطبيعتها أحكام نسبية تختلف من فرد إلى آخر ، إن لم نقل بأنها تختلف لدى الفرد الواحد باختلاف حالاته الوجدانية . وأصحاب هذا الرأى يؤكدون — مع العلامة الإنجليزى وستر مارك Westermarck — أن (الانفعالات) هى المصدر الحقيقى لمعظم أحكامنا الأخلاقية ، بدليل أن عواطف الاستهجان أو الاستحسان هى الأصل فى الكثير من (الأحكام الأخلاقية) التى ندفع بها أفعال الناس . وهم يسوقون لذلك مثلاً فيقولون إننا حينما نغضب من أحد أصحابنا ، فإننا قد نجد أنفسنا مدفوعين إلى إدانة أفعاله الشريرة . صحيح أن صديقنا نفسه قد يكون هو المسئول بالفعل عن تلك التصرفات ، كما أن هذه التصرفات نفسها قد تكون سيئة ، ولكن من المؤكد أن (غضبنا) قد كان بمثابة المناسبة التى أتاحت لنا الفرصة لاكتشاف (سوء) تلك الأفعال ، أو (رداءتها) ...

يبد أن كل ما يستطيع دعاة هذا الرأى إثباته — فى أمثال هذه الحالات — هو أن الانفعالات تمثل شرطاً سيكولوجياً يتعذر علينا — بدونه — إصدار بعض أحكامنا الأخلاقية . ومعنى هذا أننا إذا لم نستشعر انفعال (الاستحسان) نحو بعض الأفعال ، فإننا قد نجد أنفسنا — سيكولوجياً — عاجزين عن الحكم على تلك الأفعال بأنها (حسنة) أو (خيرة) . ولكن ، إذا صح ما يقوله أحد الباحثين من أن (التنفس) شرط ضرورى (من الناحية الفسيولوجية) للقيام بعملية إصدار الأحكام الأخلاقية ، فهل يكون من حقنا — لهذا السبب — أن نقرر أن الأحكام الأخلاقية أحكام تنصب على (التنفس) ؟ وإذن أفلا يمكننا أن نقول إن الأحكام الأخلاقية لا تمثل أحكاماً تنصب على الانفعالات ،

(المشكلة الخلقية)

أو تدور حول العواطف ، وبالتالي فإنها لا تشارك بالضرورة في « الطابع المتغير »
الذى تتميز به الانفعالات والعواطف (١) ؟

على أننا حتى لو سلمنا — مع بعض أصحاب هذا الرأي — بأن الأحكام
الأخلاقية أحكام وجدانية تركز على العواطف وتستند إلى الانفعالات ، فإن
هذا الرأي لا يدفعنا بالضرورة إلى اعتبار الأحكام الأخلاقية مجرد أحكام نسبية .
وآية ذلك أن الكثير من فلاسفة الأخلاق — وعلى رأسهم ماكس شلر ونيقولاى
هارتمان — قد أثبتوا لنا « الطابع الأولي المطلق » لأحكامنا الأخلاقية ، على الرغم
من اعترافهم في الوقت نفسه بالصيغة الوجدانية المميّزة لتلك الأحكام . ولعلّ
هذا ما عبّر به ماكس شلر حينما كتب يقول : « إننا حتى لو نظرنا إلى المظهر
الوجداني للحياة النفسية — ألا وهو ذلك المظهر الذى يتمثل في انفعالنا ،
وتفضيلنا ، وحُبنا ، وكراهيتنا ، ومشيعتنا ... إلخ — لوجدنا أن لهذا المظهر
الانفعالي نفسه طابعا أوليا Aprioristic أصيلا ، لا يمكن اعتباره مستمدا من
دائرة الفكر ، ولا بدّ لفلسفة الأخلاق من قبوله على حدة باعتباره مستقلا تماما
عن دائرة المنطق . والواقع أن ثمة نظاما قَلْبِيًّا *Ordre du coeur* هو بطبيعته
فطريّ أولى ؛ وقد أصاب بليزيسكال Blaise Pascal حينما أطلق عليه اسم
« منطق القلب *Logique du coeur* » (٢) ومعنى هذا أن إحساسنا بالقيم (والقيم
الأخلاقية بصفة خاصة) إحساس أولى يعبر عما يصحّ تسميته باسم « العنصر
الوجداني الأول *The Emotional Apriori* » . وليس هذا العنصر الوجداني
الأولى مجرد « عاطفة » هوائية متقلبة ، بل هو نشاط انفعالي حذسى ندرك
بمقتضاه « القيم » ، ونستطيع عن طريقه معرفة الخير والشر . ومعنى هذا أن كل
« تفضيل أخلاقى » نقوم به إنما هو تفضيل حذسى أولى يستند إلى حساسية

Cf. A. C. Ewing: "Subjectivism and Naturalism in Ethics". (١)
article in "Mind" Vol. LIII., 1944, p. 139.

Ch. N. Hartmann: "Ethics", Vol. I., Allen & Unwin (٢)
1958, p. 177.

وجدانية بالقيم . فليست الأفعال الأخلاقية أفعالا عرفانية Cognitive تركز على المعرفة العقلية ، بل هى أفعال وجدانية تستند إلى ضرب من الوعى الأولى أو الحساسة الفطرية بالقيم .
ومن هنا فإنه قد لا يكون ثمة تعارض بين نسبة طابع وجدانى إلى الأفعال الأخلاقية ، وبين القول بأن للقيم الأخلاقية طابعا أوليا مطلقا .

الوضعيون المناطقة

ينكرون أصلا وجود « أحكام أخلاقية » .. !

وهنا يجيء فلاسفة الوضعية المنطقية — من أمثال كارناب Carnap وأير Ayer — لا لينكروا الطابع المطلق للأحكام الأخلاقية ، بل ليقرروا أنه ليس ثمة « قضايا أخلاقية » أصلا ! والحق أن الفلسفة الأخلاقية التقليدية — فيما يقول كارناب — لا تنطوى على أى بحث فى الوقائع ، بل هى بحث مزعوم فيما هو خير وما هو شر ، أعنى فيما يصح عمله وما يجوز عمله . ولو أننا نظرنا إلى « العبارات الأخلاقية » على أنها « قضايا » ، لكان علينا أن نقول إننا هنا بإزاء « قضايا زائفة » لا تعبر عن أى شئ قابل للتحقق تجريبيا . والحق أننا هنا بإزاء أقاويل لا تعبر إلا عن بعض الرغبات أو الأوامر أو الوصايا . فالعبارة الأخلاقية التى تقول — مثلا — « إن القتل جريمة » لا تزيد عن كونها مجرد « وصية » أو « أمر » يشبه قولنا : « لا تقتل » . صحيح أننا هنا بصدد وصية مسترة ، ولكننا لا نستطيع أن نقول — بأية حال — إننا هنا بصدد قضية منطقية تقبل الصدق أو الكذب . وعلى حين أن الأوامر لا يمكن أن تعد صادقة أو كاذبة ، وبالتالي فإنها لا تمثل « قضايا » أصلا ، نجد أن فلاسفة الأخلاق قد توهموا أن أحكام القيمة هى قضايا حقيقية ، فراحوا يُجهدون أنفسهم بالبرهنة على صدقها أو كذبها . وفات هؤلاء أن أى « حكم قيمة » لا يزيد عن كونه وصية أو « أمرا » مستترا خلف صيغة لغوية خداعة ! ومعنى هذا أن العبارات الأخلاقية لا تقرر شيئا ، ولا تشير إلى أى شئ ،

فلا سبيل إذن إلى تقديم أى برهان إثبات أو برهان نفى ، إن على صحتها أم على كذبها^(١) . ويمضى فلاسفة الوضعية المنطقية إلى حد أبعد من ذلك فيقولون إن « الأحكام الأخلاقية » هي مجرد تعبيرات عن بعض العواطف أو الانفعالات . فليس لقضايا الأخلاق أى معنى نظرى أو عرفانى ، بل هي أوامر أو وصايا عامة بالشحنات الوجدانية أو العاطفية .

ويضرب لنا آير مثلاً لذلك فيقول : [إننى حينما أقول لأحدهم : « إنك قد أخطأت حين سرت هذا المال » ، فإننى لا أقرر شيئاً أكثر مما لو أننى قلت له : « إنك قد سرت هذا المال » . وحين أضفتُ إلى ذلك أن هذا الفعل خاطئ ، فإننى لم أخبر بشيء جديد عن ذلك الفعل ، بل كل ما هنالك أننى قد أظهرتُ بوضوح استهجانى له . وهذا ما كان فى وسعى أن أفعله ، لو أننى اقتصرْتُ على مجابته بقولى : « إنك قد سرتَ هذا المال » ، مستخدماً فى قولى لهجة الاستهجان أو الاستنكار ، أو لو أننى اقتصرْتُ على كتابة هذه الجملة مع إضافة بعض علامات تعجب إليها]^(٢) .

من هذا نرى أن فلاسفة الوضعية المنطقية يرفضون « الأحكام الأخلاقية » رفضاً باتاً : لأنهم يرون من جهة أنها لا تنطوى على ألفاظ تشير إلى أشياء يمكن إدراكها عن طريق الحواس فى نطاق التجربة المباشرة ، ولأنهم يلاحظون من جهة أخرى أنها تستخدم « مفاهيم » غامضة لا تقبل التحليل ، ولا يمكن ردّها إلى عناصر تقبل الملاحظة المباشرة . ومهما يكن من أمر تلك الاختلافات التى قد تفصل بين فلاسفة الوضعية المنطقية فى تفسيرهم لنوعية « الأحكام الأخلاقية » ، فإننا نجدهم يُجمعون على القول بأن الأحكام الأخلاقية لا تزيد عن كونها مجرد « توصيات » أو « رغبات » أو « عبارات تعجب » !!

R. Carnap: "Philosophy and Logical Syntax", London, (١)

1935, pp. 24 - 25

وانظر أيضاً كتابنا : « دراسات فى الفلسفة المعاصرة » الجزء الأول ،

مكتبة مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣

Ayer: "Language, Truth and Logic", 1946, 2d ed., p. 107. (٢)

... الرد على حجج فلاسفة « الوضعية المنطقية » ...

ولكن ، هل من الحق أننى عندما أقول عن أى فعل ما من الأفعال إنه « صائب » ، فإننى لا أعنى بذلك سوى أننى « أحب » هذا الفعل ؟ الواقع — كما لاحظ مينونج — أنه لا بد لنا هنا من التمييز بين أمرين : الحالة الذهنية لذلك الذى يصدر الحكم ، والموضوع الذى تنصب عليه تلك الحالة الذهنية^(١) .

صحيح أننى عندما أقول : « إن هذا الرجل يستحق الشنق » ، فإننى بكل تأكيد أعبر عن حالتى الذهنية أو موقفى الوجدانى ، ولكن من المؤكد فى الوقت نفسه أن « معنى » عبارتى هو بمثابة « واقعة » تحتل الصدق أو الكذب ، بغض النظر عن موقفى الوجدانى منها .

ولئن يكن من الحق أننى عندما أقول عن أى فعل من الأفعال إنه « فعل صائب » أو « مشروع » ، فإننى بذلك أعبر عن حالتى التى تحمل معنى « الاستحسان الخلقى » ، أو « القبول » ، أو « الموافقة » ، ولكن من الحق أيضا أن « شرعية » الحكم الذى أصدره فى هذه الحالة لا تتوقف على ما يتطوى عليه من « تعبير » ، بل على ما يشتمل عليه من « معنى » (وهو « المعنى » الذى لا بد لفهمه من الرجوع إلى بعض القرائن الموضوعية) .

ولو كانت الأحكام الأخلاقية مجرد تعبيرات وجدانية عن « الاستحسان » أو « الاستهجان » ، لما كان هناك موضع للفصل فى القضايا الأخلاقية التى يختلف حولها الناس لأننا عندئذ لن نكون إلا بصدد « أمزجة مختلفة » لا مجال للتفضيل بينها .

ولكن أحدا منا لا يمكن أن يسلم بأنه لو قال شخص « إن قول الكذب أفضل دائما من قول الصدق » ، لما كان فى وسعنا مطلقا أن نثبت خطأ هذا القول عن طريق الحجة أو الدليل .

والواقع أن الرجل العادى حين يتساءل عن صواب أى فعل أو خطئه ، فإنه لا يريد من وراء هذا التساؤل الوقوف على رغباته أو التعرف على مشاعره ، بل هو يريد أن يعرف شيئا عن طبيعة الفعل نفسه ، وبالتالي فإنه يريد الوصول إلى « حكم أخلاقى » . ولو كانت « العبارات الأخلاقية » مجرد « توصيات » أو « رغبات » أو « عبارات تعجب » ، لما كان هناك موضع لإثارة أية مناقشة أخلاقية ، وبالتالي لما كان هناك « تناقض » حقيقى بين قولك بأن هذا الفعل خطأ ، وقولى بأنه صواب ! وحين يقول بعض فلاسفة الوضعية المنطقية إن الأحكام الأخلاقية هى مجرد « أوامر » أو « وصايا » ، فإنهم ينسون أو يتناسون أننا كثيرا ما نصدر أحكاما أخلاقية على بعض الأحداث الماضية ، كأن نقول — مثلا — « لقد أخطأ بروتس حينما قتل قيصر » (١) .

وأما القول بأن كل « الأحكام الأخلاقية » زائفة ، أو بأنها جميعا لا تقبل الإثبات ، فهو قول خطير لا بد حتما من أن يفضى إلى نزعة ارتيائية أو شكية مطلقة .

وحسبنا أن نرجع إلى الحياة اليومية العادية ، لكي نتحقق من أن أشد الناس ارتيابا فى صحة الأحكام الأخلاقية لا بدّ من أن يسلمّ معنا بأن ثمة أفعالا — مثل قول الصدق — تعدّ بالضرورة « صائبة » وأن ثمة أفعالا أخرى — كالقتل — تُعدّ بالضرورة أفعالا « خاطئة » .

ولو أننا أنكرنا على أمثال هذه الأحكام الأخلاقية العامة كل « شرعية Validity » ، لكان فى هذا الإنكار افتيات تام على المقدرة العقلية لدى الإنسان ، وكأن البشر عاجزون تماما عن إصدار أية أحكام أخلاقية معقولة .

William Lillie: "An Introduction to Ethica", 1961, (١)

أدلة أخرى على وجود معايير أخلاقية مطلقة ...

وهنا قد يقال إن التاريخ نفسه شاهد على تعدد الشرائع الأخلاقية ، فلا مجال للتحدث عن « أخلاق مطلقة » تكون صادقة في كل زمان ومكان . وردنا على هذا الاعتراض أنه لو سلمنا باستحالة وجود « معايير أخلاقية مطلقة » ، لكان علينا أن نرفض إمكانية تفضيل المرء لأية شريعة أخلاقية أخرى على شريعته هو الخاصة ، في حين أن التجربة تشهد بأننا قد نوازن بين الشرائع الأخلاقية المختلفة ، لكي نفضل واحدة منها على غيرها . ولو أننا أخذنا بالرأي القائل بأنه ليس ثمة معيار أخلاق مطلق ، لما كان من حقنا عندئذ أن نصدر مثل هذا الحكم ، لأنه لن يكون هناك — في مثل هذه الحالة — أى أساس تستند إليه للمقارنة بين أية شريعتين أخلاقيتين . وأما إذا قيل إننا نفضل في العادة تلك الشرائع الأخلاقية التي تقترب (إن في كثير أو قليل) من شريعتنا الأخلاقية الخاصة ، فقد يكون في وسعنا أن نرد على هذا الاعتراض بأن نقول إن هناك أناسا كثيرين يفضلون على شريعة مجتمعهم الأخلاقية شرائع أخرى قديمة أو حديثة . ومهما يكن من أمر مزاعم دعاة « النسبية » ، فإن من المؤكد أننا جميعا نفضل شرائع المجتمعات الراقية (كالمجتمع الرواقى ، أو المجتمع المسيحى أو المجتمع الإسلامى مثلا) على شرائع القبائل البدائية (كبعض العشائر المتخلفة من أكلة اللحوم البشرية مثلا) .

ولو لم يكن هناك « امتياز خلقى » أو « أفضلية حضارية » لبعض الشرائع الخلقية على بعضها الآخر ، لما كان هناك موضع للحديث عن « تقدم أخلاقى » أو « تأخر أخلاقى » . وأما إذا قيل إنه ليس هناك بالفعل أى « تقدم أخلاقى » ، وأنه لا يمكن اعتبار أية شريعة خلقية أفضل من أية شريعة خلقية أخرى ، فإن مثل هذا القول لا بد من أن يفضى بالضرورة إلى القضاء على كل « جهد خلقى » ، لأن مثل هذا الجهد لن يكون عندئذ سوى عبث لا طائل تحته . ولو كان كل ما تتطلبه « الأخلاق » من « الفرد » أن يظل مخلصا للشريعة الأخلاقية التي ينادى بها مجتمعه ، أو المبادئ الأخلاقية التي يدعو إليها بنو قومه ، لكان على الفرد أن يقيد نفسه بنظام أخلاق قد

لا يرى فيه أى سمّ أخلاق ، خصوصا إذا كان هذا النظام أدخل فى باب « الخضوع للأهواء والشهوات » منه فى باب « التضحية والسعى نحو تحقيق بعض المثل العليا .. » . فضلا عن هذا وذاك ، فإن النتيجة المنطقية التى لا بد من أن تُفصى إليها حتما نظرية « النسبية الأخلاقية » هى أنه لن يكون ثمة إنسان أفضل من أى إنسان آخر ، ما دام لكل إنسان منظوره الأخلاقى الخاص ، أو نظره الأخلاقية الخاصة (مهما يكن من غموضها) ، وهى تلك « النظرة » التى تحدد أفعاله ، وتعين سلوكه . وآية ذلك أنه لو استوت كل الشرائع ، لما كان هناك ما يرر حكمنا على الرجل الشرير الذى يسىء إلى مجتمعه ويلحق الأذى بأقرانه ، بأنه « أدنى أخلاقيا » من الرجل الذى يحب مجتمعه ويخلص فى خدمته ... إلخ . والواقع أن من شأن « النسبية » أن تسحب أيضا على الأفراد (لا على الجماعات وحدها) ، وبالتالي فإنها لا بد من أن تُفصى فى خاتمة المطاف إلى القضاء نهائيا على شتى « المعايير » Standards^(١) .

الأخلاق بين « التعدد » و « الوحدة » ...

ولكن دعاء « النسبية » يعودون إلى الاعتراض فيقولون إن كل الدلائل شاهدة على تعدد الشرائع الأخلاقية ، دون أن يكون فى إمكاننا اكتشاف أية « وحدة » حقيقية بين كل تلك الاتجاهات الأخلاقية المتباينة ، وبالتالي فإنه ليس ما يشهد بوجود حقيقة أخلاقية مطلقة . والحق أننا لو عدنا إلى التاريخ ، لوجدنا أن هناك أخلاق شجاعة وأخلاق طاعة ، كما أن هناك أخلاق كبرياء وأخلاق تواضع ، فضلا عن أن هناك أيضا أخلاق قوة ، وأخلاق جمال ، وأخلاق مقدرة إرادية ، وأخلاق شهامة ، وأخلاق وفاء ، وأخلاق تعاطف ... إلخ . وكل هذه الاتجاهات الأخلاقية — وغيرها كثير — إنما هى الدليل القاطع على أن البشرية لم تعرف يوما « وصايا أخلاقية مطلقة » أو « معايير أخلاقية ثابتة » . ونحن لا ننكر قيام هذا التعدد الأخلاقى عبر التاريخ البشرى

كله ، ولكننا نلاحظ أن كل شريعة من هذه الشرائع الأخلاقية المتباينة كانت تنظر إلى نفسها على أنها « الحقيقة الأخلاقية المطلقة » . والظاهر أن الإنسان حين يخضع لأوامر أية شريعة أخلاقية فإنه ينظر إليها في العادة على أنها « وصايا مطلقة » ، بحيث إنه قد يكون في وسعنا أن نقول إن أية أخلاق عملية سائدة لا يمكن أن تلقى قبولا اللهم إلا إذا كان ثمة « اعتقاد حيوى » لدى الأفراد بأنها تمثل الأخلاق المطلقة . ولكن ليس ثمة ما يمنع — فيما يقول الفيلسوف الألماني المعاصر هارتمان — من أن تجيء الأخلاق الفلسفية ، فتحاول التمييز — على وجه التحديد — بين الحقيقة الأخلاقية المطلقة من جهة ، وبين التطبيقات الأخلاقية النسبية (التى تتمثل في شتى الشرائع الأخلاقية) من جهة أخرى . وحين تحاول الأخلاق الفلسفية الكشف عن ماهية « الخير » بصفة عامة ، أو دلالة « القيمة الأخلاقية » على وجه العموم ، فإنها لا تنكر عندئذ وجود اختلافات كبرى بين الشرائع الأخلاقية المتعددة ، بل هى تقتصر على السعى نحو إدراك تلك « الأخلاق المحضة Pure ethics » التى تشارك فيها كل تلك الشرائع الأخلاقية المختلفة (١) .

ومعنى هذا أن فكرة الوحدة الأخلاقية متضمنة منذ البداية في تلك الكثرة الهائلة من المذاهب الأخلاقية ، ولكن لا على صورة « عنصر » مشترك يقوم جنبا إلى جنب مع عناصر أخرى كثيرة ، بل على صورة « حذس أخلاق أولى Apriori » يعبر عن توافر « الحقيقة الأخلاقية المطلقة » في كل مذهب من المذاهب الأخلاقية (مهما يبدو لنا هذا المذهب متطرفا ، أو قاصرا ، أو ناقصا .. إلخ) .

والواقع أنه ليس من حق « الأخلاق الفلسفية » أن تقف موقف العداء أو عدم الاكتراث من أى اتجاه أخلاق — كائنا ما كان — وذلك لأن فيلسوف الأخلاق لا يمكن أن يقحم نفسه في أى نزاع أخلاق (كطرف من الأطراف) ، بل هو لا بد من أن يعلو بنفسه فوق مستوى الأطراف المتنازعة ، حتى يتمكن من

N. Hartmann: "Ethics", Volume One, Moral Phenomena, (١)
English Translation by S. Coit, London, 1958, pp. 74 - 75.

الوصول إلى الوحدة الأخلاقية الصحيحة التى هى — بطبيعتها — فيما وراء كل تلك الكثرة الهائلة من الاتجاهات الأخلاقية المتصارعة . وليس أعرف من الفيلسوف بضروب التناقض التى طالما قامت (وما زالت تقوم) بين المذاهب الأخلاقية المتعارضة ، ولكن من المؤكد أن مهمة فيلسوف الأخلاق — على وجه التحديد — إنما تنحصر فى العمل على التماس الوحدة الكامنة وراء الكثرة ؛ وليست هذه « الوحدة » سوى « الحقيقة الأخلاقية المطلقة » التى تشارك فيها كل تلك الاتجاهات الأخلاقية المتباينة .

وقد تتساءل عن السرّ فى تعارض كل تلك الاتجاهات الأخلاقية المتنوعة ، ولكننا لن نلبث أن نتحقق من أن لكل منها غاية أخلاقية معينة تهدف إليها ، وتعمل جاهدة فى سبيل بلوغها ، دون أن يكون فى وسعها التحوّل عن مطلبها الأخلاقى الأساسى ، اللهم إلا إذا تنكرت لنفسها وخرجت على شريعتها الأصلية .

ومعنى هذا أنه لا بد لكل أخلاق من أن تشقّ لنفسها طريقا لا تحيد عنه ، لأن كل كيائها رهنٌ بهذا الاتجاه الخاص الذى تتخذه لنفسها . وكما أنه ليس فى استطاعة الكائن البشرى أن يمضى فى اتجاهين مختلفين فى وقت واحد : لأنه لا بد من أن يجد نفسه مضطرا إلى اختيار واحد منهما دون الآخر ، فكذلك ليس فى استطاعة أى فاعل أخلاق أن يعمل فى سبيل غايتين مختلفتين فى وقت واحد ، بل لا بد له من اختيار إحدهما دون الأخرى . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن السعى الأخلاقى يستلزم وحدة الهدف ، وإلا لوقع المرء صريعا للتشتت والتمزق والتفكك النفسانى .

وآية ذلك أن تعدّد الأهداف لا بدّ من أن يضيّع على المرء وحدته الأصلية ، فلا يلبث الإنسان أن يجد نفسه موزّعا ، مقسّما ، ضائعا مشلولا ، خائر القوى . ولعلّ هذا ما عناه هارتمان حينما قال : « إن وحدة الهدف تمثل مطلباً أساسياً للحياة الأخلاقية » .

ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا يقوم التعارض بالضرورة بين الاتجاهات

الأخلاقية المختلفة ، ولماذا تتخذ المعايير الوضعية وشتى التماذج الأخلاقية المختلفة طابع الأنظمة المتصارعة والأنماط المتناقضة .

والحق أنه ما دامت « وحدة الغاية » مُسلّمة تتطلبها الحياة ، ويستلزمها السلوك ، فسيظل الفاعل الأخلاقي مُلزما بانتهاج « مسلك أخلاقي » مُعيّن — دون سواه — وستبقى الأخلاق العملية مسرحا ألما لتناقض « الغايات الأخلاقية Moral ends » .

يبد أن فيلسوف الأخلاق لا بدّ من أن يجد نفسه مضطرا إلى التساؤل عما إذا كان التناقض هو الكلمة الأخيرة في دراما « الغايات الأخلاقية » أو ما إذا كان في الإمكان الاهتداء إلى علاقات ، وارتباطات ، ووشائج ، تجمع — بشكل ما من الأشكال — بين قيم البشر ومعاييرهم ومعنى هذا أن من حق الفيلسوف أن يتساءل : هل من الصحيح أن الشرائع الأخلاقية هي على هذا النحو من التباين والتناقض ، أم أن في الإمكان العثور على « حلقات اتصال » فيما بينها ، و « مظاهر ارتباط » تكشف عن « نقاط تلاقٍ » تجمع بينها ؟ وحتى لو افترضنا أن ليس ثمة وحدة (بمعنى الكلمة) تضم في رحابها كل تلك الكثرة الهائلة من « الغايات الأخلاقية » ، فقد يكون من حق فيلسوف الأخلاق أن يحاول الاهتداء إلى تنظيم تدريجي للغايات ، أو سلّم طبقى من القيم ، حتى يقف على طبيعة العلاقات التى تجمع بين كل تلك الأهداف أو الغايات . وإذن فإن السؤال الذى لا بد لفيلسوف الأخلاق — فيما يقول هارتمان — من أن يجد نفسه مضطرا إلى إشارته هو أولا وبالذات هذا السؤال : أليس ثمة نظام أو نسق للقيم ؟ (١) .

القيم الأخلاقية : هل هي نسبية أم مطلقة ؟

إننا لن نستطيع بطبيعة الحال (في هذه المرحلة الأولى من مراحل بحثنا) الإجابة على مثل هذا السؤال ، أو حتى مجرد التعرض للبحث فيما قد ينطوى عليه من إشكال ، وإنما سوف تقتصر في هذا الموضوع على إلقاء بعض الضوء على مشكلة « القيم الأخلاقية » من حيث دلالتها الوجودية .

ونحن نعرف كيف ذهب نيتشه إلى أن القيم مُبدعات بشرية عملت على خلقها بعض الاعتبارات الأخلاقية الخاصة ، وكأنَّ القيم « أوهام » أو « أصنام » ابتدعتها الذات البشرية من العدم ، دون أن يكون لها « أصول » أو « جذور » في صميم الحقيقة الموضوعية .

والحق أن للقيم « وجودها الخاص » في استقلال تامّ عن « تقييماتنا » الخاصة ، بدليل أنها تفرض نفسها على كل وجدان بشري ، بطريقة أولية حدسية . وقد نحتج على هذا الرأي بأن نقول — مثلاً — إن الناس جميعاً لا يدركون القيم ، أو لا يستطيعون التمييز بينها ، مما يدلّ على أنها ليست مبادئ موضوعية مطلقة ، بل هي مجرد ظواهر ذاتية نسبية ، ولكنّ من المؤكد أن المسئول عن عجز بعض الأشخاص عن إدراك القيم أو التمييز بينها إنما هو « العمى الخُلقي » الذي قد يرجع إلى انعدام التضج أو نقص التربية لديهم . فالضعف الذي يتسم به بعض الأشخاص من حيث مدى إحساسهم بالقيم ، إنما هو ظاهرة سيكولوجية لا يمكن أن تطعن في « موضوعية القيم » .

وكما أن بعض الأشخاص غير الموهوبين أو غير المدربين — رياضياً — قد يعجزون عن فهم أو إدراك بعض المبادئ الرياضية الأساسية ، فإن بعض الأشخاص الذين لم يتلقوا القدر الكافي من التربية الأخلاقية أو الثقافة السيكولوجية قد يعجزون كذلك عن التمييز بين القيم .

ومن هنا فقد يصح لنا أن نقول إن الإحساس بالقيم يسير جنباً إلى جنب

مع نضج « ملكة التمييز » لدى الفرد ، ونمو القدرة على الفهم لدى البشرية .
والحق أن القيم نفسها لا تتغير ، وإنما الذى يتغير هو إدراكنا لها أو نفاذ بصيرتنا إليها . وذلك لأن القيم — بطبيعتها — موضوعية قائمة بذاتها ، وأما إدراكنا لها فهو أشبه ما يكون بعملية ذهنية تتغير بتغير الزاوية التى نوجه منها أبصارنا إلى تلك القيم ، وتتذبذب وفقا لذبذبات حركة « العين الذهنية » التى تحاول التقاطها .

ويضرب لنا هارتمان مثلا بالقانون الأخلاقى القائل بحجة القريب ، فيقول إن هذا القانون — فى جوهره — قانون مطلق ، فائق للزمان ، أزلى أبدي . صحيح أنه قد وجدت عصور لم يكن الإنسان فيها قد عرف بعد هذا القانون ، ولكن المسألة عندئذ لم تكن سوى مسألة جهالة أو « عدم نضج أخلاقى Moral immaturity » من جانب البشرية . وما دامت « المحبة » قيمة « مطلقة » ، فإن جهل الإنسان بها — فى وقت ما من الأوقات — لا يمكن أن يقوم دليلا على « نسيئتها » . ولهذا يقرر هارتمان للأخلاق طابعا مطلقا يتجلى فيما تتسم به « القيم » من كلية ، وضرورة ، وموضوعية ، وآية ذلك أنه إذا تمهيا للمرء القسط اللازم من التربية الأخلاقية ، فإن إحساسه بالقيم لا بد من أن يمكنه من إدراك المعايير الأخلاقية الأساسية ، وبالتالي فإنه لا بد من أن يصل إلى درجة من « النضج النفسى » يستطيع معها تكون عيان شامل للقيم^(١) .

(١) هارتمان : « المرجع السابق » ، الترجمة الإنجليزية ، الجزء الأول ، ١٩٥٨ ،

الفصل الثالث

الأخلاق بين « الفرد » و « المجتمع »

من بين دعاة « النسبية » في العصر الحديث ، فلاسفة وضعيون اعتبروا « الظواهر الخلقية » مجرد « وقائع اجتماعية » تقبل الوصف ، والتحليل ، والتصنيف ؛ وذهبوا إلى أن لكل شعب من الشعوب أخلاقه الخاصة التي عملت على تحديدها ظروف اجتماعية متعددة . والواقع أن العادات ، والتقاليد ، والأعراف ، والآداب العامة ، ومعايير الخير والشر ، وأخلاق الطبقات المختلفة ، تمثل « ظواهر وضعية » تقبل الملاحظة ، وتخضع للقياس ، وبالتالي فإن من الممكن دراستها عن طريق استخدام بعض المناهج العلمية الدقيقة . ولعل هذا ما ذهب إليه — مثلاً — أنصار المدرسة الاجتماعية الفرنسية حينما نظروا إلى « الظاهرة الخلقية » على أنها « واقعية » حتمية ضرورية ، يمكن التعرف على أسبابها بالرجوع إلى الظروف الاجتماعية التي أحاطت بهذا المجتمع أو ذاك ، في هذه الحقبة التاريخية أو تلك . فالظاهرة الخلقية — في نظر علماء الاجتماع الخلقى — « واقعية موضوعية » تتصف بالشيئية والضغط والجبرية ، كغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى ، ولكنها في الوقت نفسه ظاهرة نوعية تحتل في صميم الحياة الجمعية مكانة خاصة لما لها من سلطة وإلزام وقدسية . وليس يكفي أن نقول إن هذه الظاهرة مستقلة عن آراء فلاسفة الأخلاق ، وإنما يجب أن نضيف إلى ذلك — فيما يقول أصحاب هذا الاتجاه — أنه ليس في استطاعتنا أن نبث في نفوس أفراد المجتمع الواحد مبادئ أخلاقية جديدة ، مهما يكن من سموها وعلو شأنها ، دون أن نشيع بينهم ضرباً من « التفكك الاجتماعي » . ومعنى هذا أن « الأخلاق » لا تمثل مجموعة من « الأفكار النظرية » التي يضعها الفيلسوف الواحد على النحو الذي يروق له ،

وكأنما هو يشترع للإنسانية قاطبة في كل زمان ومكان ، بل هي عبارة عن دراسة وضعية لتلك القوى الخارجية التي تعمل عملها في سلوك الناس ، في هذه البيئة المعينة أو تلك ، وفي هذا العصر المعين أو ذاك . ولهذا يقرر دعاة المدرسة الاجتماعية الفرنسية أن منهج « الأخلاق » لم يعد منهاجا استبطانيا ، أو حدسيا ، أو تأمليا نظريا ، بل هو قد أصبح منهاجا كميًا استقرائيًا يقوم على الملاحظة والإحصاء وغير ذلك من المناهج العلمية والموضوعية الدقيقة^(١) .

حملة الوجودية على هذه « الأخلاق الوضعية »

وهنا يثور فلاسفة الوجودية على أمثال هذه النزعات الأخلاقية الوضعية ، فيقولون إن أصحاب النزعات الاجتماعية — على اختلاف صورها — يحاولون أن يوفروا على إنسان العصر الحديث مشقة « الاختيار Option » ، وكأن ليس في السلوك لحظة فردية تتوقف على قرار الذات نفسها .

وحيثما حمل الوضعيون على الطابع الشخصي للأخلاق الفلسفية ، فإنهم في الحقيقة لم يريدوا للسلوك البشري سوى أن يستحيل إلى « ظاهرة موضوعية » تقبل القياس الكمي . وما دام الإنسان — في نظرهم — لا يخرج عن كونه مجرد « شيء » يُدرَس من الخارج ، أو مجرد « موضوع » يُحدَّد سلوكه تحديدا علميا ، فإن « الأخلاق » لا يمكن أن تكون إلا علما لا شخصا موضوعيا ، ولكن دعاة الأخلاق الوضعية — فيما يقول بعض فلاسفة الوجودية — ينسون أو يتناسون أن المشكلة الخلقية هي في أصلها مشكلة شخصية تقوم على ضرورة « الاختيار » التي لا مندوحة عنها ، فنحن جميعا « ملتزمون Engagés » دائما في صميم الحاضر ؛ ووجودنا نفسه إنما ينقضي في غمار ذلك الواقع الشخصي الذي لا يكف عن التكوّن ، والذي يضع مصيرنا الخاص موضع المخاطرة في كل لحظة . وعبثا يحاول أصحاب النزعة الاجتماعية أن يهيئوا بنا

(١) ارجع إلى كتابنا : « الأخلاق والمجتمع » ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٦ ، ص ٩ - ٢٠

أن نأخذ أنفسنا بقواعد « الجماعة » ، أو أن تعمل على مسامرة « قيم المجتمع » ، فإننا لا نملك سوى أن نظل فريسة للعالم ، وأن نختار بين المعاني العديدة الممكنة للحدث الواحد événement ذلك « المعنى » الذى يتناسب معنا ، أو الذى يجبىء على صورتنا ومثالنا . ونحن حين نختار معنى « الحدث » ، فإننا نختار عالمنا ، ونختار أيضا أنفسنا .

وليست شتى المحاولات التى يقوم بها بعض المحدثين من أجل صبغ الأخلاق بالصبغة العلمية سوى مجرد صورة مُقنَّعة من صور « الحتمية » الصارمة التى تجعل الفرد خاضعا لمصير سابق محتوم ، بحجة أن لا « خلاص » للفرد إلا بالاندماج فى نظام عُلوِّى يضمن له السلامة الخلقية .

وهكذا ينأى أصحاب الأخلاق الوضعية بالشخص الإنسانى عن مملكة الحرية والاختيار وتقرير المصير ، لكى يهيئوا به — فيما يقوله دعاة الوجودية — أن يسمو بنفسه نحو مستوى « الكلية » المجردة ، حيث يكون فى وسعه أن يتخلص من كل مسئولية .

بيد أن الفيلسوف الوجودى حين يمعن النظر إلى كل تلك المذاهب الأخلاقية الموضوعية ، فإنه لا يملك سوى أن يعدّها مجرد أساليب جديدة للتعبير عن سلوك التملص أو الفرار أو الهروب évason . وسواء قلنا بمذهب أخلاقى يعتمد على التنظيم الجماعى ، أم قلنا بأخلاق علمية تستند إلى تحديدات موضوعية ، فإننا فى كلتا الحالتين إنما ننادى بأخلاق مجردة تردّ الجانب الشخصى من الحياة الخلقية إلى « ضمير الغائب » ، وتجعل من « الحرية الشخصية » مجرد حقيقة سلبية محضة . ومن هنا فإن السلوك الخلقى لا يلبث أن يستحيل — على يد أصحاب هذه الدعوات — إلى مجرد « تنازل عن الذات » ، واتجاه نحو النظام ، وكأنّ ثمة « نسقا » جاهزا من « القيم » (فيما يقول الوجوديون) يتكفل بحل شتى المشكلات التى قد تثور فى نفس الموجود البشرى . وهكذا تصبح كل مهمة الإنسان أن يندمج فى « نظام عقلى » محدّد ، سواء أكان هو « المجتمع » أم « التاريخ » أم « العقل الجمعى » ، لكى يتسنى له عن هذا الطريق أن يكفل لنفسه

أسباب الطمأنينة النفسية والتكامل الروحي . وكما كان أصحاب الأخلاق الدينية يحاولون أن يظهروا الوجود البشرى على أن ثمة « حقيقة متعالية » أو « قوة إلهية » تضمن له سلامة التفكير والسلوك ، نجد أن دعاة « الأخلاق الوضعية » يحاولون أن يوفروا على الإنسان كل استعمال شاق للإرادة أو القدرة على المبادرة Initiative ، لكي يهيئوا به أن يلائم بين سلوكه وبين ما تقضى به أوامر الطبيعة ، أو تقاليد الجماعة ، أو معايير الحضارة ؛ وفات هؤلاء وأولئك أن إنكار حق الشخص البشرى في التصميم والتقرير الحر ، إن هو إلا إنكار للأخلاق نفسها^(١) .

صحيح أن المجتمع الصناعي الحديث قلما يسمح للإنسان بأن يختل إلى نفسه ، أو أن ينزوى بعيداً عن أفراد « القطيع » ، ولكن الفرد — مع ذلك — بمجرد ما يخلف وراء ظهره أقرانه في العمل أو النادي أو الحزب أو النقابة ، سرعان ما يجد نفسه وحيداً قد خُلّي بينه وبين ذاته ، فلا يلبث أن يتحقق من أنه مندمج في « موقف » خاص ، منخرط في « لحظة » معينة من لحظات « تاريخه » . وهو قد يشعر عندئذ بأنه ليس في وسعه تماماً أن يسيطر على تلك « اللحظة » ، بل هو بالأحرى معانق لها ، مقيد بها ، مأخوذ في حبائها ... ومن هنا فإن « المشكلة الخلقية » سرعان ما تنبثق في ذهنه بكل حدتها : إذ يدرك أن بيت القصيد — بالنسبة إليه — أن يجد لنفسه مخرجاً ؛ ولكنه يفهم في الوقت نفسه أن هذا المخرج لا يمكن أن يكون مجرد « مخرج عقلي » ينحصر في نطاق التفكير ، وكأنما هو بإزاء حل نظري لمشكلة عقلية ، بل هو لابد أن يكون مخرجاً وجودياً يرتبط بإمكانية الحياة نفسها ، لأن عليه أن يلتمس لجسمه ونفسه فرصة مستقبلية يخاطر فيها بتحقيق ذاته ، واثقاً من أنه لابد له من أن « يوجد » ، على الرغم من كثافة وجوده الواقعي ، وتناقض مطالبه الباطنية^(٢) .

(١) زكريا إبراهيم : « مشكلة الفلسفة » ، دار القلم ، ١٩٦٧ ، الفصل الثامن « بين الفلسفة والأخلاق » ، ص ٢١٨ .

(2) G. Gusdorf : "Traité de L' Existence Morale." Paris, Colin, 1949, pp.

المشكلة الخلقية — عند الفيلسوف الوجودي —

مشكلة شخصية

والواقع أننا لو أمعنا النظر إلى « المشكلة الخلقية » — فيما يقول دعاة الوجودية — لوجدنا أنها أولاً وبالذات مشكلة شخصية تتصف بالطابع التاريخي الدرامي الذي تتصف به أية خبرة أخرى مُعاشة : *Expérience Vécue*. ومهما يفعل فيلسوف الأخلاق التقليدي ، أو عالم الاجتماع الوضعي ، فإنه لن يستطع أن يضع نفسه موضع الشخص الذي يجد نفسه ملزماً بأن يفصل في مشكلة حياته ، وكثيراً ما يعجز المحلل النفسي عن فهم المشكلات الشخصية التي يُعانيها صرعى القلق والوحدة والوسواس والشعور بالإثم ، لأنه يحاول أن يصب تجاربهم في قوالب جامدة ، أو نصائح مُعدة من ذى قبل . وقد يستطيع عالم الأخلاق الاجتماعية أو صاحب التحليل النفسي أن يقدم لمثل هؤلاء الأشخاص بعض القواعد العامة أو التحديدات الكلية ، ولكنه يخطئ بلا شك لو ظن أنه يستطيع أن يصوغ « الحقيقة الخلقية » أو « السعادة النفسية » في قوالب عامة مجردة تصلح لكل فرد ، وتطبق على كل حالة . وذلك لأنه ليس ثمة « قانون عام » يصلح لكل المواقف ، بحيث لا يكون على الفرد الواحد سوى أن يستخلص منه بطريقة استنباطية صرفة بعض تحديدات نوعية أو نصائح خاصة لكل حالة فردية ، بل إن بعض الفلاسفة الوجوديين ليزهبون إلى حدٍّ أبعد من ذلك فيقررون أن الفيلسوف نفسه (مثله في ذلك كمثل المحلل النفسي) لا بد من أن يظل مقيداً بموقف معين ، بحيث إنه قلما يستطيع أن يرى الأشياء إلا من وجهة نظره الشخصية الخاصة . فليس في وسع المفكر أن يتخلص من تلك الظروف المعينة التي تحدد تفكيره الشخصي . وليس في وسع المحلل النفسي أن يتحرر من تلك النظرة الخاصة التي توجه حكمه على الخبرات البشرية ؛ ومن ثم فإن كل تقرير أخلاقي لن يكون — بطبيعة الحال — سوى وجهة نظر معينة في الحكم على الأخلاق ، أو طريقة ذاتية خاصة في حل « المشكلة الخلقية » .

بيد أن الوجوديين لا يقتصرون على القول بأن « الأخلاق » هي أولاً وبالذات « ظاهرة شخصية » ، بل هم يلحون أيضاً على ما للعامل التاريخي الدرامي من أهمية كبرى في كل أخلاق فردية . فالوجوديون يؤكدون أن الفرد لا يحيا في عالم مجرد من كل سياق تاريخي ، بل هو يفصل في مصيره الشخصي وسط ظروف لا سبيل له إلى تحديدها

بكل دقة . وحين يحقق الفرد « فعلاً أخلاقياً » ، فإنه إنما يقوم بضرب من المخاطرة في الحاضر والمستقبل ، مستخدماً ما لديه من « حرية » في تحقيق بعض إمكانياته ، وليست « الحرية » التي يتحدث عنها هؤلاء من قبيل « الاستقلال الذاتي » الذي تحدث عنه « كانت » ، وإنما هي حرية موجود مجاهد يعمل في مشقة وصراع وتوتر ، ويصارع نفسه ، والعالم ، والآخرين . وإذا كانت الحرية عند « كانت » ترادف « العقل المنتصير » الذي استطاع أن يسيطر على ذاته وعلى الكون ، فإن الحرية عند الوجوديين تساوى « الذات المُجاهدة » التي تجد نفسها فريسة لنفسها وللعالم ، فتحاول جهد طاقتها أن تحقق حياتها ، بوصفها « صنعة يدها » .

وهنا يقرر الفيلسوف الوجودي المعاصر جورج جسدورف أن الأخلاق الوجودية تقوم على الاعتراف بأولوية ضمير المتكلم ، وتدعو إلى تأسيس السلوك على الحرية الشخصية . وليست « الحرية » — في نظر الفيلسوف الوجودي — حقيقة جاهزة معدة من ذى قبل ، أو مجرد « معطى » من معطيات الحس بل هي كسب يُحصل كل يوم ، دون أن يستحيل يوماً إلى حصيلة ثابتة . ومعنى هذا أن الحرية الخلقية هي سعى شاق من أجل الانتقال من مملكة « الطبيعة » إلى مملكة « الأخلاق » . ولكن الحرية لا بد من أن تظل ناقصة غير مكتملة ، لأنها دائماً في صيرورة مستمرة ، فضلاً عن أنها مزعزعة تفتقر باستمرار إلى المزيد من الاستقرار . ومع ذلك ، فإن هذه الصيرورة نفسها هي التي تخلع على وجودنا معنى ، كما أن ذلك التزعزع هو الذي يكشف عما لدينا من إمكانيات لا بد من العمل على تحقيقها ، وليس من شك في أنها مهمة شاقة بالنسبة إلى الإنسان أن يأخذ على عاتقه حرته الخاصة ، بكل ما تنطوي عليه من شكوك ومخاطر ومغامرات ، فليس من الغرابة في شيء — بعد ذلك — أن تظهر في نطاق الأخلاق محاولات كثيرة من أجل التخلص من تلك الحرية ، سواء أكان ذلك بالخضوع لقانون أخلاقي ، أم بالامتثال لحقيقة إلهية ، أم بإطاعة عقيدة دينية ، أم باحترام معيار ميتافيزيقي ، أم باعتراف مذهب سياسي ، أم بالاندماج في منظمة حزبية .. إلخ . وكل هذه المحاولات إنما تخفي وراءها رغبة ضمنية في الاقتصار على الخضوع والطاعة ، بدلاً من العمل على الابتكار وخلق الذات . ولكن أى أخلاق تهدف إلى القضاء على « الذاتية » ، أو استبعاد « الحرية » ، أو إنكار « الشخص » البشري ، إنما تقضى في النهاية إلى هدم نفسها بنفسها . وآية ذلك أن فلاسفة الأخلاق التقليديين — فيما يقول بعض الوجوديين حين يتحدثون عن « القاعدة » ، و « القانون » ، وواجبات الذات نحو نفسها ، وواجباتها نحو المجتمع ، وواجباتها نحو الله ، فإنهم في الحقيقة يمزجون

« الأخلاق » بضرب من « التقنين » أو « التشريع الاجتماعي » ، وكأن المشكلة الخلقية هي مجرد مسئولية ، وقواعد ، وجزاءات . ولكن هذا التقنين الأخلاقي لا يَصْدُقُ إلا بالنسبة إلى « ضمير الغائب » ، فهو لا يتضمن سوى تحديدات خارجية تنصب على سلوك موضوعي صرف ، وكأن كل ما يهدف إليه مثل هذا التشريع القانوني إنما هو صيانة النظام الاجتماعي ، وضمان سلامة صحة المجتمع . ولكن الأخلاق الفردية لا تجد في مثل هذه المعايير الأخلاقية سوى مجرد ظروف خارجية أو شروط موضوعية ، فهي ترى أن من حقها أن تتخذ بإزائها موقفاً معيناً . وهي تعتمد بالتالي إلى قبولها أو رفضها أو التحايل عليها . وإذن فقد يكون في وسعنا أن نقول إن القانون أو التشريع لا يحل المشكلة الخلقية ، على الرغم من كل تلك الضمانات الخارجية التي قد يكفلها لسلامة المجتمع . والسبب في ذلك أن المشكلة الخلقية — على حد تعبير جسدورف — تفلت بطبيعتها من كل تحديد خارجي ، أو من كل حتمية اجتماعية ، فهي لا بد من أن تظل قائمة على أشدها ، حتى حين تتوافر إطاعة القانون ، ومسيرة القطيع ، ومطابقة السلوك الخارجى لمعايير الحياة الجمعية^(١) .

وهنا قد يحق لنا أن نتساءل : « ولكن ، إذا كانت المشكلة الخلقية مجرد مشكلة شخصية فردية ، فماذا عسى إذن أن تكون مهمة فيلسوف الأخلاق ؟ ألسنتُ أنا حراً في مواجهة موافقى لحسابى الخاص ، وبالاستناد إلى حريتى الذاتية ؟ » . وردّ الفيلسوف الوجودي على هذا التساؤل أن تدخل فيلسوف الأخلاق لا يتم إلا عن طريق « الاتصال غير المباشر » : بمعنى أن كل مهمته محصورة في معاونة الناس على الشعور بظروف وجودهم الخاصة ، وتسليط الأضواء أمامهم على ذلك الأفق المعين الذي يتحركون صوبه . فالفيلسوف الأخلاقي يمد الناس بالوسائل اللازمة لفهم تلك المواقف الأصلية التي يجدون أنفسهم مندجين فيها ، فضلاً عن أنه يحاول أن يحدد بعض « الثوابت » القائمة في التجربة ، مع ما يقترب بها من « أساليب » خاصة « في الحياة » : Styles de vie . ولكن الفيلسوف — في كل هذا — لا يفرض أى حل ، لأنه يعلم علم اليقين أن عناصر هذا المصير الفردى أو ذاك لا بد بالضرورة من أن تغيب عنه . — حقاً إن الفيلسوف قد يستطيع أن يقدم لنا عناصر تُعيننا على الاهتداء إلى الحل ، كما أنه قد يساعد الذات على تحقيق اختيارها في ضوء معرفة أفضل ، ولكن « اختيار » الذات لا بد من أن

(١) زكريا إبراهيم : « مشكلة الفلسفة » ، دار القلم ، ١٩٦٢ ، الفصل الثامن ،

يظل اختياراً شخصياً بحتاً ، كما أنه لابد أيضاً من أن يخضع لمواقفها الذاتية الأصلية ، وإن كان من شأن « الوعي » أو « الاستبصار » أن يزيد من درجة حرية هذا الاختيار ، ومدى شرعية نسبته إليها .

ومهما فعل فيلسوف الأخلاق (فيما يقول دعاة الوجودية) ، فإن تأثيره لابد من أن يبقى غير مباشر . وآية ذلك أنه لا يستطيع أن يقضى على إرادة الغير ، أو أن يضع نفسه موضعهم ، بل كل ما يستطيع أن يقوم به هو أن يؤثر فيهم كما تؤثر التماذج البشرية ، والشخصيات الروائية ، والقديسون ، والأبطال ، وكل من يستطيع أن يلعب دوراً خلقياً خطيراً في الحياة العملية الشخصية لبنى البشر . وليس المهم أن نحاكى هؤلاء محاكاة حرفية ، بل المهم أن نستمد من وقائع حياتهم وتصرفاتهم نبزاً ننتدى به ، وإلهاماً نسير في ضوئه ، ورسالة روحية نستوحىها . والشخص الذى يقلد المسيح أو يحاكى محمداً ، لا يمكن أن يكون هو ذلك المتوه الذى يكرر حركات الواحد منهما أو الآخر بطريقة آلية ، أو يردّد أقوالهما عن ظهر قلب ، بل هو ذلك الشخص الحر الذى يبذل جهداً شاقاً في سبيل التعبير بسلوكه العملى مما أظهرته تلك التماذج المثالية من سمو خلقى في صميم حياتها العملية . وإذن فإن التأثير الخلقى الذى يصدر دائماً عن أمثال هذه الشخصيات المثالية الكبرى إنما يتخذ طابعاً غير مباشر ، دون أن يكون في ذلك أى قضاء على قوة الابتكار الخلقى لدى الشخصيات التى تستلهمها أو تستوحىها أو تسير على هديها .

وعلى حين أن الفلسفة التقليدية كانت تحاول أن توصلنا إلى أخلاق تصوّرية توكيدية تتكفل بحل كل مشاكلنا في عالم مجرد ، نجد أن الفلسفة الوجودية المعاصرة ترفض أن تجعل للأخلاق ، مهمة العمل على تخليص الإنسان من نفسه ، وحمله على تناسي همومه ، بل هى ترى أن مهمة الأخلاق هى على وجه التحديد العمل على إظهار كل شخص منا على حقيقة موقفه الخاص ، حتى يتسنى له أن يصبح مالكاً لزمان نفسه — بحق — . فكل ما تقدمه لنا « الأخلاق الوجودية » هو عناصر (أو مواد) تعين كل فرد منا على تحقيق اختياره الشخصى الذى هو واجبه الخاص . وما دام لكل موجود ذائق متناقضاته الخاصة ، وأحداثه الدرامية المشخّصة ، فإنه هيات للفيلسوف أن يحل لكل فرد منا مشكلته الخلقية الخاصة . حقاً إن في استطاعة الفيلسوف أن يعين كل فرد منا على استجماع شتات قواه العقلية والوجدانية ، كما أنه قد يساعدنا على تبديد أوهامنا ، ودعم طاقاتنا ، ولكن اختيارنا — وحده — هو الذى سيفصل في مصيرنا الخلقى ، وبالتالي فإن حل مشكلتنا السلوكية لابد من أن يبقى رهناً بحريتنا الشخصية .

ولكن الظاهرة الخلقية ليست مجرد « ظاهرة فردية »

ونحن نوافق الوجوديين على أن « المشكلة الخلقية » لا يمكن أن تحل على المستوى الاجتماعي الصرف : لأننا على ثقة من أن « المجتمع » لا يستطيع أن يحل للفرد كل أزماته النفسية والخلقية ، فضلاً عن أنه لا بد للفرد من أن يواجه مصيره لنفسه وب نفسه . والحق أنه لو كان « المجتمع » قادراً على هداية سلوكنا ، وتوجيه حريتنا ، لما قامت للمشكلة الخلقية أدنى قائمة ، ولما كان ثمة موضع للحديث عن قيمة أو قيم . بيد أننا نخطئ خطأ جسيماً إذا نظرنا إلى « الظاهرة الخلقية » على أنها مجرد « ظاهرة فردية » لا تهم سوى صاحبها . وآية ذلك أنه ليس ثمة حد فاصل بين « السلوك الخاص » و « السلوك العام » ، بحيث قد يستحيل علينا تماماً أن نقول مع أحد الباحثين : « إن طريقة تصرفي مع ضميري أمر شخصي بحث لا يهم أحداً سواي » ! والسبب في ذلك أن ما يفعله المرء في عقر داره يؤثر تأثيراً عميقاً على ما قد يقدم على فعله في المجتمع العام . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إن الشخص الذي يُغلق على نفسه باب غرفته ، لكي يطالع بعض الكتب الخلية ، أو لكي يتأمل بعض الصور الفاضحة ، إنما يتصرف تصرفاً شخصياً بحتاً ، ولكن هذا التصرف الشخصي البحث سرعان ما يجعل من صاحبه « عامل فسادٍ ضمنى » : بدليل أن مثل هذا الشخص قد يعبر كنية الخلية أو صورته الفاضحة إلى الآخرين ، فيتسبب بذلك في إفساد أخلاقهم ، أو هو قد يسلك على الملأ سلوكاً أخلاقياً فاضحاً ، نتيجة لتأثره باطلاعه الشخصي الحافل بأسباب الانحراف والانحلال .

وقد يُقال إن الشخص الذى يتعاطى الخمر سراً ، لا يسىء إلى أحد ، اللهم إلا إلى شخصه هو ، ولكن من المؤكد أن الإساءة إلى النفس تتضمن الإساءة إلى الجماعة : لأنها تقلل من درجة إقبال الفرد على العمل ، كما تؤثر على مدى مشاركته في الحياة الجماعية . وليس من شك في أن الفرد الذى يهمل في تنمية قواه وترقية طاقاته ، لا يسىء إلى نفسه فحسب ، بل هو يسىء أيضاً إلى الجماعة التى هو عضو فيها . وهذا هو السبب في أن مُدمنى الخمور والمخدرات لا بد أن يصبحوا عبئاً ثقيلاً على كاهل الجماعة : ما دام من شأن تلك العادات الضارة التى يمارسونها أن تقلل من درجة مشاركتهم في الخدمات

الاجتماعية ، إن لم نقل بأنها سرعان ما تعزلهم تماماً عن كل نشاط اجتماعي مشر^(١) . والواقع أنه ما دام السلوك الخلقي للفرد سلوكاً عالياً يتم في محيط اجتماعي ، فلا يمكن أن تبقى دلالة هذا السلوك دلالة « فردية » بحت ، خصوصاً وأن « الفعل » الذي يحققه « الفرد » سرعان ما يتفصل عن صاحبه لكي يصبح مسلکاً عاماً تتردد أصدأؤه لدى الآخرين . وحينما قال أرسطو : « إن ذلك الذي يعجز عن الحياة في المجتمع ، أو الذي لا يشعر بالحاجة إلى مثل هذه الحياة لأنه مكثف بذاته ، لابد من أن يكون إما وحشاً أو إلهاً^(٢) » ، فإنه كان يعنى بهذه العبارة أن حياة الجماعة هي بمثابة « الجو الطبيعي » لنمو الحياة الأخلاقية لدى الفرد . وليس السلوك الخلقي — في الحقيقة — مجرد سلوك فردي يحققه صاحبه في وسط اجتماعي ، بل هو سلوك شخصي تنعكس آثاره على أشخاص غيره من أفراد الجماعة ، ولولا هذه « الخلفية الاجتماعية » التي تكمن من وراء أفعال كل فرد منا ، لما كان الموجود البشري « كائناً أخلاقياً » بمعنى الكلمة ، وبالتالي لما كان في وسعه التمييز بين الصواب والخطأ أو بين الأفعال الخيرة والأفعال الشريرة . ولعل هذا ما عناه بعض فلاسفة الاجتماع حينما قالوا « إن الإنسان لم يصبح موجوداً أخلاقياً إلا لأنه استطاع أن يعيش في جماعة . ولو أننا نجحنا في القضاء على الحياة الاجتماعية ، لقضينا في الوقت نفسه على الحياة الخلقية ؛ لأنها عندئذ ستكون غير ذات موضوع^(٣) . » .

بيد أننا حتى إذا لم نسلّم مع زعماء المدرسة الاجتماعية الفرنسية بأنه « لا أخلاق بدون مجتمع » ، فإننا لابد من أن نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن « الظاهرة الخلقية » هي بالضرورة نقطة تلاق « الشعور بالذات » مع « الشعور بالآخرين » . والحق أن من شأن كل خبرة يستشعر فيها المرء ذاته أن توسع من مدى فهمه للآخرين ، كما أن من شأن كل مشاركة يقوم بها المرء في حياة الآخرين أن توسع من مدى فهمه لنفسه ، وأن تزيد من حدة (أو شدة) خبرته الشخصية الذاتية . وكثيراً ما يكون عجزنا عن فهم نفوسنا أكبر من عجزنا عن فهم الطبيعة الخلقية للآخرين . ولعل هذا هو السبب في أننا نتعلم — عادة — كيف نفهم أنفسنا بملاحظتنا للآخرين أكثر مما نتعلم كيف نفهم الآخرين بملاحظتنا لأنفسنا . صحيح أن الأمر قد يختلف حينما تبلغ خبرتنا الأخلاقية درجة أعلى من السمو أو الترقى ، ولكن الملاحظ بصفة عامة أننا نفهم أنفسنا

(١) زكريا إبراهيم : « عود إلى مشكلات الأخلاق » ، مقال بمجلة « الفكر المعاصر » ،

العدد ٢٣٢ ، أكتوبر سنة ١٩٦٧ ، ص ١٢ ، ص ١٣ .

(2) Aristotle : "Politics" BK I., Ch. 2, (1280 b. 10).

(3) Cf. E. Durkheim : "Sociologie et Philosophie" . Ch. II., pp. 60 - 64.

بملاحظتنا للآخرين ، ومن ثم فإن تقييمنا لأنفسنا يستند في العادة إلى تقييمنا للآخرين . ومعنى هذا أنه ليس في الحياة الخلقية وجود شخصي مُغلق على ذاته ، أو شعور ذاتي منعزل تماماً عن كل شعور آخر ، بل هناك تداخل أولى بين « الذات » و « الآخرين » ، أو بين قطب « الأنا » وقطب « الغير » . وحسبنا أن نرجع إلى صميم حياتنا الخلقية العينية لكي نتحقق من وجود اندماج حقيقي أولى بين هذين القطبين ، بدليل أن الموجود البشري يحيا — منذ نعمة أظفاره — في سياق حياة اجتماعية قائمة على التفاعل بين الأشخاص ، وهو ينمو ويتطور في هذا الإطار ، كما أنه ينمى وينى — في كنفه — كل وعيه الخلقى . وليس هناك موضع للحديث عن أى انفصال أو انقطاع بين هذين القطبين اللذين يتألف منهما نسيج الحياة الخلقية للموجود البشري ، وإنما يجب أن نسلّم منذ البداية بأن الحياة الخلقية للإنسان — مثلها في ذلك كمثل باقي مظاهر حياته الروحية — هي في آن واحد فردية وجماعية . صحيح أن كل فرد منا يحيا أولاً بالذات لحسابه الخاص ، ويحقق طبيعته من خلال حريته الخاصة ، ولكن كل فرد منا أيضاً يقف وجهاً لوجه أمام كل فرد آخر ، في نطاق تلك الوحدة البشرية العميقة التي تجمع بين سائر بنى البشر . وليس في استطاعتنا أن ننكر أن من شأن واقعة « الأنا والأنت » أن تفصل البشر بعضهم عن بعض ، ولكن من شأن هذه الواقعة أيضاً أن تربط بينهم بعضهم وبعض . وليس يكفي أن نقول إن الإنسان وحده هو الذي يعمل ، وإنما يجب أن نقول أيضاً إنه لا يعمل إلا بإزاء إنسان آخر ، مهما كان من أمر الحلقات المتوسطة التي قد تفصل بينهما . وقد كان التعارض المتنافيزيقي القائم بين « الشخص » و « الشخص » هو السبب الأصلي في قيام علاقات تحلقية حقيقية بين الأشخاص ، وبالتالي فقد ظهرت التصميمات والأفعال الخلقية . ولم يعد من الغرابة في شيء بعد ذلك أن تصبح « الحياة الجماعية » نفسها بمثابة « مرجع أخلاقي » : إذ أصبح من معايير السلوك الخلقى ألا يكون سلوكاً فردياً يرتد إلى صاحبه وحده ، بل أن يكون سلوكاً عاماً لا تلبث آثاره أن تمتد أيضاً إلى الآخرين . وهكذا أصبح الاستقطاب القائم بين « الأنا » و « الأنت » تعبيراً عن ضرورة الربط بين « الأنانية » أو « الأثرة » من جهة ، و « الغيرية » أو « الإيثار » من جهة أخرى .

« أخلاق » « الأنانية » وأخلاق « الغيرية »

وهنا قد يحق لنا أن نتوقف وقفة قصيرة عند هذا الصراع المذهبي الذى طالما قام بين أنصار مذهب « الأنانية » Egoism وأنصار مذهب « الغيرية » ، Altruism ، لكى نرى إلى أى حد يمكن التوفيق بين هذين المذهبين المتعارضين . فالقائلون بالأنانية يزعمون أن واجب الفرد يقضى عليه دائماً بالبحث عن خيره الخاص ، خصوصاً وأن الطبيعة البشرية نفسها قد أرادت له ذلك ، حينما جعلت من « المحافظة على الذات » Self preservation و « تأكيد الذات » Self - assertion دافعين أساسيين لكل سلوكنا البشرى . والواقع أن « الاهتمام بالذات » — فيما يقول أصحاب هذا الاتجاه — هو الباعث الأسمى ، إن لم نقل الأوحد ، الذى تصدر عنه كل أفعالنا ؛ فليس بدعاً أن تكون « الأنانية » هى المحرك الأول للسلوك البشرى كله . صحيح أن الإنسان قد يأتى من الأفعال ما لا يتسم — بادئ ذى بدء — بأى طابع أنانى ، كأن ينشد العدالة — مثلاً — أو كأن يعمل فى سبيل مصلحة البشرية ، ولكن كل هذه الأفعال التى قد يبدو — فى الظاهر — أنها موجهة نحو الآخرين ، إنما هى فى الحقيقة أفعال أنانية تخفى وراءها « مصلحة الذات » . ومعنى هذا أن الناس قد ولدوا « أنانيين » ، ولكنهم قد يحققون أفعالاً « غيرية » حين يشعرون بأن فى البحث عن مصلحة الغير ضماناً لتحقيق مصالحهم الذاتية ، وقد استطاع الرجل القوى أن ينتصر على الضعفاء من الرجال ، وأن يستغلهم لمصلحته الخاصة ، ولكنه لم يلبث أن تحقق من أنه لا بد له من أن يعتنى بهم حتى يتسنى له أن يفيد منهم ، فكانت مصلحته الخاصة هى السبب فى اهتمامه بمصالحهم ، وبالتالي فقد كان دافع « الأنانية » هو الباعث له على العناية بمصالح أولئك الأفراد الخاضعين له . ولا يجد أنصار « الأنانية » كبير عناء فى تفسير شتى مظاهر السلوك البشرى بالرجوع إلى هذا « الدافع الفطرى » : فهم يقولون — مثلاً — إن كل صور « الغيرية » — بما فيها الحب ، والصداقة ، والتضحية بالذات — لا تزيد عن كونها مجرد « أنانية مقنعة » (بتشديد النون) . وليس من شك فى أن مثل هذا التفسير المبسط للسلوك البشرى بأسره قد بدا للكثيرين تفسيراً مغرياً : لأنه قد تكفل برد شتى القيم وكافة المبادئ الأخلاقية إلى مبدأ واحد يكفى وحده لتصنيف مختلف أنواع السلوك وتقييم شتى ضروب الخير . وفضلاً عن ذلك ، فقد كان من شأن هذا المبدأ القضاء على مشكلة الحرية ، والعمل على إحالة الإنسان إلى مجرد « كائن طبيعى » (مثله فى ذلك

كمثل الحيوان) يخضع لنفس القوانين الطبيعية التى تخضع لها باقى الكائنات . والحق أن « الأنانية » — فيما يقول أنصار هذا المذهب — ليست فى حاجة إلى أى أمر أو أية وصية : لأنها هى نفسها قانون من قوانين الطبيعة . والأخلاق التى تنادى بها فلسفة الأنانية هى بمثابة تنفيذ لما تقضى به الغريزة ؛ أو ربما كان الأدنى إلى الصواب أن يقال إن الأنانية ليست فى حاجة إلى أى « أخلاق » على الإطلاق : لأن « النزعة الطبيعية الأخلاقية » : Ethical naturalism ترتد فى خاتمة المطاف إلى مجرد تقرير نظرى للوقائع . وتبعاً لذلك فإن ما يسمونه باسم « فلسفة الأنانية » — فى مجال الأخلاق — ليس من قبيل التفكير « المعيارى » فى شئ : لأنه ليس هنا أى أمر أو تكليف بل إن « ما ينبغى أن يكون » لا يلبث أن يتلاشى ويختفى تماماً وراء « ما هو كائن » (١) .

وأما دعاة « الغيرية » فإنهم يقولون — على العكس من ذلك — إن الواجب الخلقى للفرد يقضى عليه بأن يشد « خير » غيره من الأفراد ، دون اعتبار لخير الخاص . وعلى حين أن مذهب « الأنانية » يستند إلى دافع « المحافظة على الذات » والرغبة فى « تأكيد الذات » ، نجد أن مذهب « الغيرية » يستند إلى دافع « التعاطف » مع الآخرين ، والرغبة فى « التضحية بالذات » . والحجة الكبرى التى يأخذ بها دعاة « الغيرية » فى نقدهم لمذهب « الأنانية » أن « الأثرة » تتعارض تماماً مع الخلدوس الخلقية التى طالما أخذت بها البشرية . وآية ذلك أن ضميرى يحدثنى بأن أنشد خير الآخرين ، لا خيرى الخاص ، وبالتالي فإننى أستشعر شيئاً من الندم أو تأنيب الضمير حينما تنجى أفعالى وليدة الأنانية المحضه . وليس بصحيح ما يزعمه دعاة « الأنانية » من أن الطبيعة البشرية نفسها هى التى تفرض علينا الاهتمام بمصالحنا الذاتية وحدها ، دون أدنى اكتراث بمصالح الآخرين ، بل الصحيح أننا نستشعر أيضاً دوافع أخرى كثيرة تحفزنا إلى توجيه اهتمامنا نحو الآخرين ، مثل دافع التعاطف أو دافع الشفقة .. إلخ . ومعنى هذا أن الحياة الطبيعية للإنسان حياة اجتماعية ، وبالتالي فإن الرجل الذى لا يشد سوى مصلحته الخاصة ، دون أن يهتم — فى كثير أو قليل — بمعاونة الآخرين أو بتلقى العون من الآخرين لن يكون « إنساناً » بمعنى الكلمة ، وإن جاز أن يكون — على حد تعبير أرسطو — حيواناً أو إلهاً !

وهنا قد يقول دعاة الأنانية إنه حتى إذا ضحى الفرد بنفسه فى سبيل تحقيق أى « خير » من أجل الآخرين ، كأن ينقذ طفلاً من الغرق أو كأن يعمل ليلاً ونهاراً فى

سبيل إعالة زوجته وأولاده ، أو كأن ينخرط في سلك الجندية دفاعاً عن وطنه ، فإنه في كل هذه الحالات يستهدف غايات يعرف مقدماً أن من شأنها أن تحقق له ضرباً من « الرضا » أو « الإشباع » Satisfaction . هذا إلى أن الشخص الذي يقبل على تحقيق أمثال هذه الأفعال يدرك — سلفاً — أنه إذا لم يحققها ، فإنه سوف يستشعر من الآلام أكثر مما قد يترتب على فعل « التضحية » نفسه . ولكن دعاة الغيرية يردون على هذه الحجة بقولهم : إن الرجل الذي يأخذ على عاتقه مهمة إنقاذ طفل ، أو إعالة أسرة ، أو الدفاع عن الوطن ، لا يصدر في فعله هذا عن الرغبة في الحصول على إشباع ، بل هو يجد نفسه بإزاء موقف يتطلب منه مسلكاً إرادياً معيناً ، فإذا ما حقق هذا المسلك جاء « الإشباع » فكان بمثابة نتيجة سيكولوجية ثانوية لهذا السلوك . وبعبارة أخرى ، فإن « الإشباع » هو بمثابة « المظهر الوجداني » الذي لا يكاد ينفصل عن ذلك « الموقف الإرادي » . ولكن هذه « الواقعة » لا تنطوي في ذاتها على أية دلالة : لأنها لا تعنى مطلقاً أن يكون « الأمر » الخلقى قد تولّد عن محض « واقعة » . هذا إلى أنه لو كان من شأن الأخلاق أن تأمرني بعمل شيء لا بد من أن يحدث بالضرورة من تلقاء نفسه لكانت هي نفسها عبثاً لا طائل تحته . وإذن فإن فلسفة الأنانية لا ترقى مطلقاً إلى تفسير أصل « الأمر الخلقى » ، أو دلالة « المعايير » و « القيم » الأخلاقية ...

والحق أننا إذا كنا نطلق على فعل التضحية اسم « الإيثار » أو « الغيرية » ، فذلك لأن الموضوع الذي يستهدفه هذا الفعل هو « الغير » لا « الذات » . وقد يُقال هنا إنه ليس ثمة فارق كبير بين فعل « الأثرة » وفعل « الإيثار » ، ما دام الغرض من الواحد منهما والآخر هو « إشباع الذات » . ولكن الحقيقة أن ما يرضيني في فعل التضحية إنما هو — على وجه التحديد — إرضاء الآخرين . ومثل هذا النوع من « الرضا » أو « الإشباع » هو وحده ما اصطللحنا على تسميته باسم « الغيرية » أو « الإيثار » . ولاشك أن رفاهية الآخرين لا يمكن أن تكون — في نظر الرجل الغيروي — مجرد أداة أو واسطة لتحقيق لذته الخاصة ، بل هي غاية في ذاتها يُسرّ لها أو ترتاح نفسه للقيام بها .

... لا تعارض — بالضرورة —

بين قطبي « الأنانية » و « الغيرية » ...

ولو أننا أنعمنا النظر الآن إلى هذا التعارض الذى طالما تصوره فلاسفة الأخلاق بين مبدأ « الأنانية » ومبدأ « الغيرية » لوجدنا أنه لا قيام للأخلاق نفسها بدون هذين المبدأين — مجتمعين — صحيح أننا قد دأبنا على الانتقاص من قدر « الأنانية » ، والنظر إليها على أنها « شر محض » ، ولكن من المؤكد أن للأنانية « قيمة » فى ذاتها باعتبارها مظهراً لاهتمام الفرد بنفسه ، وعنايته بتنمية شخصيته .. والواقع أن حياتنا النفسية بأسرها مبنية على هذا الأساس الفردى الذى يجعل من كل موجود بشرى وحدة مستقلة لا بد لها من أن تضطلع بمهمة المحافظة على ذاتها ، والعناية بنفسها ، والحرص على حماية شخصيتها . وأى إنسان لا تقوم حياته على الغريزة الطبيعية التى تقضى بأن يوجد كل فرد لنفسه : « Everyone for himself » لن يكون إلا كائناً ضعيفاً ناقصاً غير مؤهل للحياة . ولو أننا نظرنا إلى « الكمال » Perfection على أنه « الغاية الخلقية » ، لكان فى وسعنا أن نقول إن الفرد لا يستطيع أن يعمل إلا النزر اليسير من أجل تحقيق كمال الآخرين . صحيح أن فى وسع الفرد أن يؤثر (بدرجة تختلف شدة وضعفاً) على مظاهر نشاط الآخرين ، ولكنه يستطيع — بكل تأكيد — أن يتحكم فى مظاهر نشاطه هو . ولعل هذا ما حدا بكأنت إلى القول بأن علينا أن ننشد كمالنا الخاص ، ولكن ليس علينا سوى أن ننشد سعادة الآخرين⁽¹⁾ . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن المساهمة الوحيدة التى قد يستطيع الفرد الواحد أن يقوم بها فى سبيل العمل على خلق عالم طيب إلى أقصى حد ، هى أن يعمل على تحقيق خيره الخاص . ولا غرو ، فإن أكبر خدمة يمكن أن يؤديها الفرد للجماعة هى أن يحقق خيره الخاص : لأنه إذا قُدر لكل « فرد » أن يخلق من نفسه ذلك « الشخص » المعين الذى هو مُيسر له ، فقد قُدر له أن يساهم فى تحقيق تلك السعادة العامة التى سوف يجد فيها — هو أيضاً — سعادته⁽²⁾ .

(1) Kant : Preface to the Metaphysical Elements of Ethics., IV., (Abboatt's Translation), p. 296.

(2) Cf. W. Lillie : " Introduction to Ethics. " 1961, p. 247 .

ومن جهة أخرى فإنه على قدر ما تكون حياة الفرد عامرة بالوفرة والحيوية والثراء ، تكون قدرته على المساهمة في حياة الآخرين ، ومشاركتهم في آلامهم وآمالهم وأفراحهم وسائر خبراتهم . وإلا ، فكيف يتسنى للفرد أن يقاسم الآخرين « عواطف » لم يختبرها هو نفسه في صميم تجربته الخاصة ؟ كيف يستطيع فرد لا يملك شيئاً من الكبرياء أن يفهم إهانة لحقت بكبرياء شخص آخر ؟ ألسنا نلاحظ أن أولئك الذين لم يذوقوا طعم الحب هم — وحدهم — الذين يسخرون من أشواق المحبين ، ويهزءون بغيرتهم ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن معرفة الإنسان لذاته هي — بوجه ما من الوجوه — الدعامه الوحيدة التي يستند إليها علمه بتقدير الآخرين لذواتهم واحترامهم لأنفسهم ؟ ولم لا نذهب إلى حد أبعد من ذلك فنقول إن ثمة حقيقة كبرى تنطوى عليها الأنانية ، ألا وهي أهمية الفرد في الحياة الخلقية بوصفه « غاية في ذاته » ؟ ولماذا لا نقرر أيضاً أن « الحرية » التي يعدها كثير من فلاسفة الأخلاق « خيراً ذاتياً » جوهرياً : *Intrinsic good* لا يمكن أن تكون إلا حرية فردية ؟ وإذن أفلا يصح لنا أن نعدّ « الأنانية » — في حد ذاتها — أمراً « خيراً » ، وإن لم تكن — بكل تأكيد — هي « الخير » بالذات ؟

ثم لننظر الآن إلى « الغيرية » ، لنرى ما إذا كانت بالضرورة « خيراً » مطلقاً ، أو ما إذا كان في الإمكان اعتبارها — في بعض الحالات — عملاً مجافياً للأخلاق . ولنفترض — مثلاً — أن شخصاً أهمل صحته الجسدية إهمالاً تاماً — تحت تأثير حماسه في خدمة الآخرين — ، أو أن شخصاً آخر تقاعس عن تنمية مهارته الخاصة (في فن ما من الفنون) ، تحت تأثير انشغاله بالعمل من أجل الآخرين : أفلا يحق لنا أن نقول عن مثل هذا الشخص إنه قد أخطأ أيضاً في حق الآخرين ، لأن إهماله هذا قد يحول بينه وبين تقديم خدمات أكبر للآخرين ؟ بل ألسنا نلاحظ أحياناً ، لدى بعض النساء المتديّنات ، أنهن قد ينسّقن تماماً وراء روح التضحية بالذات ، فيُهملن أجسادهن تمام الإهمال ، وعندئذ لا يلبثن أن يقعن فريسة للمرض ، وبذلك يصبحن في حاجة إلى الرعاية من جانب الآخرين ، بدلاً من أن يقمن — هن — بخدمة الآخرين ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول مع الباحث الإنجليزي راشدال *Rashdall* : « إن التضحية بالذات من أجل التضحية بالذات هي في جميع الحالات عمل غير معقول *irrational* ، بل فعل غير أخلاقي *immoral* »^(١) . وإلا فما معنى ذلك الفعل الإيثاري الذي لا يكون من شأنه سوى إلحاق الأذى بصاحبه ، دون أن يعود على الآخرين بأي نفع حقيقي ؟ أو ماذا عسى أن

(1) *Rashdall* : "Theory of Good & Evil.," Bk II., Ch. S, P.ii. (Vol II., p. 70.)

تكون قيمة تلك التضحية التى تكلف صاحبها الكثير ، دون أن تفيد الغير إلا بالنزر اليسير ؟

... هنا قد يعترض دعاة « الغيرية » بقولهم : إن التضحية لا تعرف — بطبيعتها — مثل هذا الحساب : فإن الشخص الذى يتفانى فى خدمة الآخرين لا يزن تفانيه بميزان الحساب النفعى ، بل هو يُقدم على تضحيته دون أى تقدير عقلى . وردنا على هذا الاعتراض أن « الغيرية المطلقة » — مثلها فى ذلك كمثل « الأنانية المطلقة » — لا بد بالضرورة من أن تقضى إلى التقليل أو الانتقاص من « الخير العام » (كما لاحظ هربرت اسبنسر بحق) ^(١) وآية ذلك أننا لو تطلبنا من الفرد أن يضحي بذاته على كافة المستويات ، لكان فى هذه التضحية قضاء مبرم على شخصيته كلها ، ومعنى هذا أنه لا بد لكل فرد من أن يقيم ضرباً من التوازن بين مطلب « تحقيق الذات » . Self realization ومطلب « التضحية بالذات » — Self sacrifice — وعلى الرغم من أننا على استعداد للاعتراف مع برادلى Bradley بصعوبة تحقيق مثل هذا التوازن ، إلا أننا نرى أنه لا قيام للحياة الخلقية بدون هذا الاستقطاب الحاد بين الأنانية والغيرية ، أو بين « تحقيق الذات » و « التضحية بالذات » . فليس فى وسع الموجود الأخلاق أن يحيا دون هذا الصراع الروحى المستمر بين قطب « الأنا » وقطب « الغير » ، بل دون هذا التوتر النفسانى الأليم بين الرغبة فى تحقيق الذات والنزوع نحو التضحية بالذات . وربما كان هذا التوتر نفسه هو التربة الوحيدة التى تنمو فيها الحياة الخلقية : فإنه لمن الواضح أن شخصية كل فرد منا لا تتكوّن إلا عبر تلك الخبرات الروحية التى تلتقى فيها « الأنا » بـ « الأنت » وتتصارع فيها « الأنا » مع « الغير ... إلخ » وهكذا تخلص إلى القول بأنه لا قيام للحياة الخلقية بدون مشاعر « احترام الذات » و « احتقار الذات » ، التى تتولّد لدى « الفرد » من خلال تعامله مع « الآخرين » ، واحتكاكه بهم ، وتعاطفه معهم ، واحترامه لهم ... إلخ . وما دامت علاقة « الأنا » بـ « الغير » هى علاقة اتصال وانفصال ، فسيظل الخيط الذى يربط « السلوك الخاص » بـ « السلوك العام » ويفصله عنه ، خيطاً رفيعاً لا سبيل إلى تحديده !

الفصل الرابع

الأخلاق : بين الاتباع والإبداع

حينما يتحدث فلاسفة الأخلاق عن ترقى « الحياة الخلقية » فإنهم يشيرون فى العادة إلى مستويات ثلاثة : « مستوى الغريزة » Level of instinct الذى فيه السلوك الخير فى نظر الفرد هو السلوك الذى تحدده حاجاته الأساسية و غرائزه الأصلية ؛ و « مستوى العرف » أو العادات الجمعية Level of custom الذى يكون فيه السلوك الخير لدى الفرد هو السلوك الذى يجرى متفقاً مع ما تقضى به عادات الجماعة التى ينتسب إليها ، ثم أخيراً « مستوى الضمير » Level of conscience الذى يكون فيه السلوك الخير عند الفرد هو ذلك الذى يرضيه حكمه الفردى على الصواب والخطأ أو الخير والشر . وليس لدينا من الأسانيد أو الأدلة ما يحفزنا على الظن بأن هذه المستويات الثلاثة تمثل مراحل متعاقبة اجتازتها « الظاهرة الخلقية » بالفعل فى تطورها التاريخى ، ولكننا نلاحظ أن ترقى الحياة الخلقية للفرد قد انتقل به من مستوى « الطبيعة » إلى مستوى « العقل » ، ومن مجال الاتباع والتقليد والمسايرة ، إلى مجال الإبداع والتجديد والمبادأة . والحق أن للأخلاق — مثلها فى ذلك كمثل التربية — وظيفة مزدوجة : وظيفة تقليدية محافظة هى فى صميمها عبارة عن نقل للتراث الحضارى (أو القيم الروحية) من جيل إلى آخر ، ووظيفة نقدية مجددة هى فى جوهرها بمثابة تجاوز للماضى وعلو على المعايير القديمة البالية . ولاشك أنه إذا كان كل من الفرد والمجتمع هو فى حاجة إلى الاستقرار والاستتباب والتوازن ، فإن كلا منهما أيضاً هو فى حاجة إلى التجديد والابتكار والأصالة . وتبعاً لذلك فإن مهمة الأخلاق (مثلها فى ذلك كمثل التربية) لاتقف عند حد نشر المعايير الجماعية والقيم التقليدية ، بل هى لابد من أن تمتد أيضاً إلى خلق روح النقد والإبداع والابتكار فى نفوس كل من الأفراد والجماعات ^(١) .

حقاً إنه لمن الصعوبة بمكان أن نوفق بين الحاجة إلى الاتباع والتقليد والمسايرة ،

(١) ارجع إلى مقالنا : « التربية : بين التقليد والتجديد » ، مجلة « التربية » ، بيروت ، السنة الأولى ، العدد ٣ — فبراير سنة ١٩٦٠ ، ص ٢ — ٥ .

والحاجة إلى الإبداع والتجديد والمبادأة ، ولكن من المؤكد أن الفهم الصحيح لمهمة « الأخلاق » إنما هو ذلك الذى يقوم على المزج بين هاتين الحاجتين الأساسيتين لكل من الفرد والجماعة . وحين يتناسى المربون والمصلحون الأخلاقيون أن الوظيفة الحيوية الأولى لكل من التربية والأخلاق هى تسليم الثقافة ونقل القيم إلى رجال المستقبل الذين هم ورثتها الشرعيون ، فإن مهمة المفكرين والفلاسفة عندئذ لا بد من أن تنحصر فى العمل على تذكير الجيل الجديد بمعايير جماعته ، ولباب تراثها الحضارى وثمار قيمها الروحية ... إلخ . وأما حينما يغلب على المجتمع (وبالتالي على الأفراد) طابع التقليد والمحافظلة والاتباع ، فهناك تكون مهمة أهل الفكر وفلاسفة الأخلاق هى العمل بكل ما لديهم من قوة على تفتيح أذهان النشء لما ينتظره من قيم جديدة ، ومعايير مجهولة ، وإمكانات روحية بعيدة المدى ... ومعنى هذا أنه لا بد لفيلسوف الأخلاق من أن يشق طريقه وسط اتجاهين متعارضين يريد الواحد منهما أن ينظر إلى الوراء ويحافظ على مكاسب الماضى ، بينما يريد الثانى منهما أن يمتد ببصره إلى الأمام وأن يعمل على استجلاء قيم جديدة لم يقدر لها بعد أن ترى النور .

« الأخلاق المغلقة » و « الأخلاق المفتوحة »

عند برجسون

والواقع أن هناك ضربين من الأخلاق يقابلان هذين الاتجاهين : « أخلاقاً مغلقة » تنجّه بطبيعتها نحو الوراء ، وتمثل حياة الاتباع والمسيرة والتقليد ، « وأخلاقاً مفتوحة » تنجّه بطبيعتها نحو الأمام ، وتمثل حياة الإبداع والمبادأة والتجديد . وقد كان برجسون أول من أقام هذه التفرقة بين أخلاق مغلقة قال عنها إنها أخلاق الجماعات المغلقة ، أى أخلاق تلك المجتمعات التى تشبه من بعض الوجوه خلايا النمل أو بيوت النحل ، وأخلاق مفتوحة قال عنها إنها أخلاق إنسانية تتجاوز حدود الجماعة ، وتتسم بأنها مليئة بالحركة والخلق والإبداع ، ومن ثم فإن عليها يتوقف مصير البشرية بأسرها ، ما دامت هى وحدها التى تفتح أمام التطور البشرى أفقا واسعا لا نهائيا . ولو أننا ألقينا نظرة فاحصة على مجتمعات النحل أو النمل — فيما يقول برجسون — لوجدنا أن « الغريزة » هى التى تجعل أفراد تلك الحشرات تحقق من الأفعال ما هو ضرورى لصيانة حياتها الاجتماعية . وأما فى المجتمعات البشرية ، فإن « الأخلاق المغلقة » هى التى تقوم بأداء مثل هذه الوظيفة . وبرجسون يرى أن هناك تشابهاً كبيراً بين المجتمعات البشرية البدائية ، وبين خلايا النحل أو بيوت النمل ، بل هو يذهب إلى أن مجتمعاتنا المتحضرة نفسها هى فى جوهرها « مجتمعات مغلقة » : لأنه مهما يكن من اتساعها ، فإنها تضم فى العادة عدداً معيناً من الأفراد وتستبعد غيرهم . وأما الأساس الذى تقوم عليه هذه المجتمعات فهو « الإلزام » obligation الذى يفرض على الجماعة نظاماً خاصاً من العادات يحقق لها وحدتها ، ويصون لها كيانها . وتبعاً لذلك فإن الرباط الذى يجمع بين أفراد الجماعة هو هنا أشبه ما يكون بالرباط الذى يجمع بين خلايا الجسم الواحد أو بين نمل القرية الواحدة . والحق أن الإلزام الذى يتحدث عنه برجسون لا يقوم إلا على « غريزة اجتماعية » تنحصر وظيفتها فى المحافظة على التماسك بين أفراد المجتمع ، والعمل على صيانة وحدتهم ضد العدو الخارجى . فليس فى وسع تلك المجتمعات المغلقة أن ترقى إلى مستوى « حب الإنسانية » لأن « المسافة التى تفصل الأمة — مهما تكن كبيرة — عن الإنسانية ، هى كالمسافة التى تفصل المحدود عن اللامحدود أو المغلق عن المفتوح . » . وقد يقع فى ظننا أن « حب الإنسانية » هو مجرد فضيلة تنشأ عن « حب الوطن » ، كأن

(المشكلة الخلقية)

العاطفة المحدودة . يمكن أن تتسع وتكبر حتى تصير عاطفة غير محدودة ، ولكن الواقع أن الفارق بين المجتمع الصغير المغلق على نفسه ، وبين الإنسانية الكبيرة الواسعة ليس مجرد فارق في الدرجة ، بل هو فارق في الطبيعة أو الجوهر . ومن هنا فإنه ليس ثمة انتقال تدريجي من « الأسرة » إلى « الوطن » ، ثم من « الوطن » إلى « الإنسانية » ، بل نحن هنا بإزاء مراتب مختلفة يستحيل معها أن يكون « حب الإنسانية » مجرد ترق أو توسع في « حب الوطن » أو التعلق بالمجتمع المغلق^(١) .

وإذا كان برجسون يفرق بين هذين النوعين من الأخلاق ، فذلك لأنه يرى أن من الممكن تصور العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع على نحوين مختلفين تمام الاختلاف . فالفرد يجتزئ بالخضوع للجماعة ، والامتثال لضغط المجتمع ، أو هو قد يعمل على تجاوز حدود الجماعة ، والاستجابة لنداء الإنسانية . والملاحظ في العادة أنه لما كان من الضروري للمجتمع أن يحافظ على بقائه ، وأن يعمل على صيانة وحدته وتحقيق تماسكه ، فإن الفرد لابد من أن يجد نفسه بإزاء « ضغط » اجتماعي *Pression sociale* تلزمه الجماعة — بمقتضاه بأن يحترم قواعد خاصة ، مستعينة في ذلك بمجموعة من « الجزاءات » المادية والأخلاقية التي تضمن عن طريقها تحقيق ذلك « الإلزام » . ومعنى هذا أن « الأخلاق » لابد من أن تتخذ بادی ذی بدء صورة « تنظيم اجتماعي » يخضع فيه كل فرد لمقتضيات الحياة الجمعية ، فيألف من ذلك « عقل جمعي » شبيه بما تصوره دور كايم ، وليست « الأخلاق » — بهذا المعنى — سوى جهاز من « العادات » تنحصر مهمته في صيانة كيان المجتمع ، فهي بمثابة رجعة إلى حياة الغريزة على نحو ما نجد لها لدى بعض الحشرات — أو هي مجرد أخلاق جماعية لا ترقى إلى مستوى العقل . وهنا تكون مهمة « الضمير » مقصورة على تحديد واجبات الفرد نحو المجتمع ، ونحو غيره من أفراد الجماعة ، إذ ليس « الضمير » سوى ثمرة من ثمار الحياة الجمعية ، أو هو على الأصح ثمرة من ثمار الطبيعة التي أوجدت الجماعات . والوظيفة الرئيسية التي يقوم بها « الضمير » أو « الشعور الخلقى » هي تنظيم التآزر الاجتماعي ، وتحقيق « النظام الداخلي » المطلوب في كل جماعة قائمة بذاتها ، حتى يتسنى لها أن تقف صفا واحداً في وجه الأجنبي ، أو كتلة واحدة أمام العدو الخارجي . وحينما يستشعر الفرد — في ذاته — نزوعاً شخصياً يميل معه إلى مقاومة ضغط « الأنا الاجتماعية »

(١) ارجع إلى كتابنا « برجسون » ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ،

Le moi social ، فإن غريزة الحياة سرعان ما تستيقظ في نفسه لكي تمدّه بالقوة اللازمة لأداء واجبه الاجتماعي ، ومقاومة سائر النزعات الباطنية . وهكذا يندفع الفرد إلى قهر « الأنا الفردية » *Lemoi individuel* التي قد تحفزّه إلى إثارة مصلحته الذاتية على مصلحة الغير ، خاضعاً في ذلك لغريزة الحياة التي تكمن من وراء كل نظام اجتماعي^(١) .

هكذا نرى أن القاعدة الكبرى في كل أخلاق مغلقة هي العمل على صيانة التقاليد النافعة للمجتمع ، وتوفير العادات الطيبة لسائر أفراد الجماعة ، حتى يتحقق التعاون الاجتماعي المنشود على الوجه الأكمل . ومن هنا فإن المثل الأعلى للمجتمع المغلق على ذاته ، هو تهذيب أفراداه تهذيباً اجتماعياً صالحاً يضمن للجماعة أسباب التعاون والتآزر . وهذا هو السبب في أن الواجبات التي ينهض بها أفراد الجماعات المغلقة قد تبدو مجرد « واجبات لا شخصية » : *devoirs impersonnels* ، نظراً لأن طاعة الواجب هنا هي في صميمها مجرد عملية « مقاومة للذات » *résistance-à-Soi-même* والحق أن « التآزر الاجتماعي » الذي تتطلبه حياة المجتمعات المغلقة يرجع أولاً وبالذات إلى تلك الضرورة التي يجد المجتمع نفسه معها ملزماً بالدفاع عن نفسه ضد الآخرين . وليس من شك في أن حب الفرد لأقرانه الذين يعيش معهم جنباً إلى جنب هو الذي يضطره إلى معاداة سائر الأفراد الذين يتهددونه من الخارج . ولهذا فإن « الحرب » ضرورة اجتماعية تقتضيها حاجة الأفراد إلى الدفاع عن ممتلكاتهم الجماعية ومصالحهم المشتركة ؛ إن لم نقل بأنها المحك الأول لصدق الفرد في خدمة جماعته ، أو لمدى رغبته في النهوض بواجبه من أجل المساهمة في تحديد مصير أمته . وقد لا يكون داعي الحرب كافياً ، أو قد لا تكون أوامر الجماعة معقولة ، ولكن لا بد للفرد من الانصياع لأمر الجماعة ، كما لا بد له من الخضوع لقوانينها ، دون أن يدع لعقله الفردي أي مدخل في مناقشة دواعيها وأوامرها . وليست الحرب مجرد ظاهرة ضرورية لصيانة « الملكية الجماعية » فحسب ، بل الملاحظ أيضاً أن كل ما يجيء معها من قتل وسلب ونهب وكذب وخداع وتضليل هي كلها ظواهر مشروعة تقرها الجماعة ، وتثيب عليها ...

يبد أن الفرد حينما يحقق سائر الواجبات أو الالتزامات التي تفرضها عليه « الأخلاق المغلقة » ، فإنه لا بد من أن يستشعر ضرباً من الراحة النفسية التي تشبه إلى حد كبير ذلك الشعور النفسي الذي يصاحب قيام الحياة العضوية بوظيفتها السوية . وعلى الرغم

(1) H. Bergson : " Les Deux Sources de la Morale et de la Religion " Paris, P. U

من أن « الإلزام » هنا لا بد من أن يتخذ طابع « الأمر المطلق » الذى لا موضع فيه للأخذ أو الرد (إذ تكون صيغته هى : « هذا واجب ، لاشئ إلا لأنه واجب ») ، إلا أن الأخلاق المغلقة — مع ذلك — لا بد من أن تبقى فى صميمها « أخلاقاً اجتماعية » محضة ، تقوم على « غريزة الحياة » ، ومن ثم فإنها لا ترقى إلى مستوى العقل ، بل تظل بالضرورة ذات طبيعة بيولوجية ^(١) .

« الأخلاق المفتوحة » أخلاق « إنسانية » تقوم على « المحبة »

أما « الأخلاق المفتوحة » فهى وإن كانت — فى نظر برجسون — « بيولوجية » — مثلها فى ذلك كمثل « الأخلاق المغلقة » سواء بسواء — إلا أنها ليست وليدة « ضغط » اجتماعى ، بل هى صادرة عن « نزوع » سامٍ تتمثل فيه « جاذبية » القيم . وبينما تعبّر « الأخلاق المغلقة » عن خضوع الفرد لغير الجماعة ، نجد أن « الأخلاق المفتوحة » تعبّر عن استجابة الفرد لنداء الحياة الصاعدة . فنحن هنا بإزاء « أخلاق إنسانية » تدعونا إلى تجاوز حدود الجماعة ، والتعلق بواجبات سامية تجهلها الأخلاق « الاجتماعية » كالمحبة والتضحية وبذل الذات وما إلى ذلك . وليس الفارق بين الأخلاق الاجتماعية والأخلاق الإنسانية مجرد فارق فى الدرجة ، بل هو فارق فى الطبيعة : إذ بينما تتجه الأخلاق الاجتماعية نحو حماية البشرية الواحدة من عدوان غيرها من الجماعات ، وبينما ينحصر مثلها الأعلى فى تحقيق العدالة والتضامن الاجتماعى ، نجد أن الأخلاق الإنسانية تنزع نحو العمل لصالح البشرية قاطبةً ، وتجعل مثلها الأعلى هو « المحبة » و « الكمال الخلقى » . هذا إلى أن « الأخلاق المفتوحة » لا تستند إلى العقل الجمعى ، بل هى تقوم على أكتاف عظماء البشرية من الأبطال والأنبياء والمصلحين وغيرهم من العباقرة . وحين يتحدث برجسون عن « العباقرة » فإنه يعنى بهم أنواعاً بشرية جديدة قد خلقتها « الطبيعة » بوثة لا سبيل لها إلى التنبؤ بنتيجتها . وليس « العباقرة » مجرد رموز للبوثة الحيوية ، بل هم أيضاً دعاة « المحبة » و « الإيثار » ، ورسّل القيم الروحية فى كل زمان ومكان . وليس القديسون المسيحيون هم وحدهم دعاة تلك « الأخلاق المفتوحة » ، بل لقد عرفت الإنسانية من قبلهم حكماء اليونان ،

(1) Cf. Challaye: "Bergson" p. 272 .

وأنباء العهد القديم ، ورسل البوذية ، وغيرهم . وكل هؤلاء العباقرة المتنازين « أدوات » اصطفتها الوثبة الحيوية لتحقيق مقصدها الجديد : ألا وهو تكوين جماعات جديدة مفتوحة ، وإقامة « أخلاق دينامية » تعلو فوق مستوى العمل . وعلى حين أن « الأخلاق المغلقة » لا تنتشر إلا عن طريق « الدفع من الخلف » ، نجد أن « الأخلاق المفتوحة » لا تنتشر إلا عن طريق « الجاذبية من الأمام » : لأنها في صميمها اتجاه مجدد ينزع دائما نحو المستقبل . فنحن هنا بإزاء أخلاق حركية مفتوحة ، لا تنتشر إلا عن طريق محاكاة الأفراد لثودج فردى يُعجبون به ، وينجذبون إليه . ومعنى هذا أن « الأخلاق الإنسانية » لا تقوم إلا على الاستجابة لنداء البطل L, appel du héros ؛ والبطل يؤثر على إرادتنا تأثيراً فعّالاً مباشراً : لأنه لا يخاطب منا العقل ، بل هو يخاطب الحساسية ، كما أنه لا يجتذبننا بالحجة أو الاستدلال بل بالقُوَّة أو المثال^(١) .

وحينما يتحدث برجسون عن أولئك الأفراد المتنازين الذى نستجيب لندائهم ، ونعمل تحت تأثيرهم ، فإنه لا يقول عنهم إنهم « الصفوة المختارة » L'élite التى تحقق للحياة حركتها الصاعدة فحسب ، بل هو ينسب إليهم أيضاً قدرة خاصة على الإحساس بانفعالات جديدة لا عهد للناس بها من قبل . وهذه « الانفعالات » الجديدة هى الأصل فى شتى ضروب الإبداع ، سواء أكان ذلك فى مجال الفن أم فى مجال العلم أم فى أى مجال آخر من مجالات الحضارة البشرية . و « الانفعال » هنا لا يعنى مجرد تأثير وجدانى عابر ، أو مجرد اضطراب نفسى عارض ، بل أقرب ما يكون إلى ثورة نفسية عميقة أو زلزال باطنى عنيف . وكثيرا ما يجيء هذا الانفعال مصحوباً بحركة فكرية خصبة ، أو إلهام عقلى ممتاز ، كما تدلنا على ذلك بعض الانفعالات الهامة التى مرَّ بها كبار المتصوّفة والقديسين والأبطال وغيرهم ... والحق أن الخلق أو الإبداع ليس فى أصله سوى مجرد انفعال . والانفعال هنا مزيج من الحساسية واليقظة الفكرية والإلهام الروحى والحدس الصوفى ففى كل انفعال — من هذا القبيل — ضرب من « التطابق » بين « الرأى » و « المرئى » ، أو بين « العارف » و « المعروف » . وعلى الرغم من أن برجسون يربط هذا الانفعال بالحدس أو الوجدان ، إلا أنه يقرر فى الوقت نفسه أن « الأخلاق المفتوحة » التى تصدر عن مثل هذا الانفعال أو الحدس ليست مجرد أخلاق عاطفية ، بعكس ما قد يقع فى ظن البعض . وآية ذلك أن « الانفعال » الذى نحن بصدده لا بد من أن يتبلور على شكل « تمثّل عقلى » ، لكى لا يلبث أن يستحيل إلى نظرية أو مذهب .

ولولا وجود تلك « الانفعالات » الحية التى تكمن من وراء المبادئ الأخلاقية الصارمة ، لما تسنى لأمثال تلك المبادئ أن تنتشر وتعمل عملها . وهو الحال — مثلاً — بالنسبة إلى النظريات الأخلاقية التى جاءت بها المسيحية : إذ لولا ذلك « الانفعال » الذى عملت على إثارته فى قلوب الناس باستمالة إرادتهم نحو « الإحسان » أو « المحبة » ، لما تسنى لها أن تسيطر على سلوكهم ، أو أن تستولى على عقولهم . وإذن فإن « الانفعال » قد سبق الأخلاق الجديدة ، والمتأفزيقا الجديدة ، لأنه هو الذى مهد الجوّ لانتشار « الأخلاق » المسيحية ، و « المتأفزيقا » المسيحية .

وإذا كان من شأن المصلحين والصوفيين والقديسين والأبطال أن يصدروا فى أعمالهم ومبادئهم عن تلك « الانفعالات » الحية ، فذلك لأن لديهم شعوراً بالاتحاد أو التطابق مع جهد الحياة الخالق نفسه . وهذا هو السبب فى أن هؤلاء « العباقرة » كثيراً ما يبدون لنا قريين كل القرب من حالة « الروحانية الخالصة » التى يتم فيها تفتح النفس ، فلا تعود تشعر بثقل المادة ، أو أسر المجتمع ، أو قسّر الضغط الاجتماعى . والواقع أننا لو تعمقنا الأخلاق الجديدة التى يحبىء بها أمثال هؤلاء الأبطال ، لوجدنا أنها تعبّر عن اتحادهم بالمصدر الأصيل للحياة ، أو بالسّورة الحيوية *L' élan vita* . نفسها ؛ وهذا الاتحاد هو الأصل فى شعورهم بالتححرر من ربة الطبيعة وأسر المدنية . ولولا هذا الشعور الذى يستولى على أنفسهم حينما يتم الاحتكاك المباشر بينهم وبين المبدأ الأصيل الذى يصدر عنه الجنس البشرى بأكمله ، لما كان فى وسعهم أن يستمدوا قوة تمكّنهم من حب الإنسانية قاطبة . فالأخلاق الإنسانية هى أخلاق « للنفس المفتوحة » التى تدعى أمام ناظرها شتى العوائق المادية ، وعندئذ لا تلبث أن تشعر بأن « الغبطة الروحية » قد أخذت بمجامع قلبها . وخير مثال لتلك الأخلاق — فيما يقول برجسون — أخلاق المسيحية ، فإنها لتعبّر أحسن تعبّر عن « النفس المفتوحة » .

ولكن ، كيف يتسنى للأبطال الذين يتحدث عنهم برجسون أن يوجهوا تاريخ الإنسانية ، أو أن يضعوا دعائم تلك الأخلاق الدينامية المفتوحة ؟ هنا يهيب الفيلسوف الفرنسى الكبير بالتجربة الصوفية فيقول : « إن المتصوفة الحقيقيين ليفتحون قلوبهم لموجة علوية أو مدد إلهى يستولى على صميم وجودهم . وهم إذا كانوا كبيرى الثقة فى أنفسهم ، فذلك لأنهم يشعرون بأنهم يطوون فى أعماق ذواتهم شيئاً أسمى منهم ؛ وهكذا نراهم يقدمون الدليل على أنهم أهل عمل ورجال فعل ، مما قد يدهش له أولئك الذين يظنون أن التصوف إن هو إلّا نظر ونشوة وانجذاب . وأما ذلك المجرى الدافق

الذى يَدْعُونَهُ ينهمر في صميم نفوسهم . فهو مجرى هابط يريد من خلاصهم أن يمتد إلى باقى الناس ، ومن هنا فإن الحاجة الملحة إلى نشر ما تلقوه ، وإذاعته فيما حولهم ، كثير ما تأخذ بمجامع قلوبهم كأنما هى سورة الحب . ولا بد لكل منهم أن يسمي ذلك « الحب » بطابعه الخاص — والواقع أن هذا الحب هو لدى كل واحد منهم عبارة عن « انفعال » جديد كل الجدة ، ومن ثم فإنه يتكفل وحده بأن يغير من مجرى الحياة البشرية ، وأن يخلق عليها نعمة جديدة . وهكذا يجعل هذا الحب من كل واحد منهم موجوداً محبوباً لذاته ، فيندفع الناس من خلاله وفي سبيله إلى فتح قلوبهم لمحبة الإنسانية قاطبة ^(١) .

من هذا نرى أن « الأخلاق المفتوحة » لا تنتشر إلا عن طريق « النموذج الحى » الذى يقدمه لنا « البطل » . وإذا كان من شأن هذا « النموذج » أن يجد أصداء قوية في نفوسنا ، فذلك لأن هناك « صوفيا » كما نرى في أعماق ذواتنا ؛ وهذا المثال الحى لابد من أن يكون مناسبة لثقافته . وتبعاً لذلك فإن الأخلاق المفتوحة لا تنتشر عن طريق المبادئ المجردة غير الشخصية ، بل هى فى الغالب وليدة نداء حتى ترسله إلينا شخصية قوية نجد لديها القوة الحركية والمثال الحى الذى لابد من أن يُتخذى . هذا إلى أن الأخلاق المفتوحة لا تقوم على قوانين صارمة ملزمة ، بل على الاستتالة والقدوة . وعلى حين أن « الأخلاق المغلقة » تستند إلى أوامر « ملقة » ، وقوانين صارمة ، وضرورات اجتماعية ، والتزامات لا شخصية ، نجد أن « الأخلاق المفتوحة » فى صميمها عبارة عن مجموعة من « النداءات » التى يوجهها إلى ضمير كل فرد منا « أشخاص » ممتازون يمثلون خير ما فى الإنسانية . وما لهذا « النداء » من قوة أو فاعلية إنما يتوقف على قوة أو شدة « الانفعال » الذى ارتبط به منذ البداية ، لأن هذا « الانفعال » — وإن كان من الممكن أن يستحيل إلى مجموعة من « الأفكار » — هو فى صميمه أسمى من « الفكرة » ، إن لم نقل بأنه فى مستوى أرق من مستوى العقل ، ومهما يكن من شئ ، فإن قوة « الأخلاق المفتوحة » لا تنحصر فى تعاليمها النظرية ومبادئها الفلسفية ، بل هى تتوقف على شرط واحد فقط : ألا وهو أن تحيى تلك القواعد العامة والمبادئ المتعددة فتلوب فى شخصية رجل واحد ، وتنصهر فى بوتقة نموذج بشرى واحد . وهذا يكون « البطل » — أو القديس أو الصوفى أو المصلح الدينى — بمثابة « العبرى » الذى يرمز إلى « السورة الحية » وينطق باسمها ، لأنه هو الذى يسوق وراءه المجتمعات المتحضرة ،

(1) Bergson : " Les Deux Sources de la Morale et de la Religion " p. 102.

منطلقاً بها نحو آفاق واسعة تمتد فيما وراء كل ما تنطوى عليه « الأخلاق المغلقة » بأوامرها ووصاياها والتزاماتها ، وحدودها الاجتماعية الضيقة^(١) .

صلة الأخلاق بالإبداع عند كل من برجسون وريد

وهنا قد يحق لنا أن نتساءل : « هل تكون الصلة مقطوعة تماماً بين « الأخلاق المغلقة » القائمة على ضغط المجتمع ، وبين « الأخلاق المفتوحة » القائمة على الاستجابة لنداء البطل ؟ » هذا ما يرد عليه برجسون بالسلب ، لأنه يرى أننا هنا بإزاء مرحلتين من مراحل التقدم الحيوى ، أو مظهرين مختلفين من مظاهر السورة الحيوية ، وإن كان يقرر فى الوقت نفسه أن الاختلاف بين هذين الضريين من الأخلاق هو اختلاف فى الطبيعة ، لا فى الدرجة . صحيح أننا حينما نتقل من التضامن الاجتماعى إلى الإخاء الإنسانى ، فإننا نكون قد قطعنا صلتنا بطبيعة معينة ، ولكننا لا نكون قد قطعنا صلتنا بالطبيعة كلها على وجه العموم . وكثيراً ما يجيء المثل الأعلى للأخلاق المفتوحة فيسهم بقسط وافر فى تغيير طبيعة المجتمعات المغلقة نفسها وهذا هو السر فى ظهور تلك الأنظمة الديمقراطية التى تنسب إلى سائر الناس حقوقاً متساوية وحظوظاً متكافئة . حقاً إنه قد يبدو أن ثمة تعارضاً بين « الحرية » و « المساواة » ، ولكن من شأن « الإخاء » بالضرورة أن يزيل كل تغارض بينهما . وحين يقول برجسون إن للديموقراطية طابعاً « إنجيلياً » ، فإنه يعنى بذلك أن « المحبة » هى منها بمثابة المحرك الأسمى . ولكن ، سواء أكننا بإزاء « لأخلاق المفتوحة » أم بإزاء « الأخلاق المغلقة » ، وسواء تحدثنا عن « نداء البطل » أم عن « ضغط المجتمع » ، فإنه لا بد لنا دائماً من أن نتذكر أن « علم الحياة » — بمعناه الواسع — هو الأصل فى كل « أخلاق » . ومعنى هذا أن الأخلاق — فى نظر برجسون — ذات طبيعة « بيولوجية » : بمعنى أنها تستند أولاً وبالذات إلى « التطور » . ولو لم تكن « الحياة » نفسها هى التى أرادت « الأخلاق » لما كان ثمة موضع للحديث عن ضربين مختلفين من الأخلاق ، أو ينبوعين مختلفين صدر عنهما الشعور الخلقى . وليس يكفى أن نقول إن كل فلسفة برجسون الأخلاقية فلسفة « حيوية » لا تفهم إلا على ضوء نظريته فى « التطور الخالق » و « السورة الحيوية » ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً أننا هنا بإزاء « أخلاق تطورية » تعتبر ظهور « المثل العليا » الجديدة فى صميم

(١) Ibid, pp. 85-86 (وانظر أيضاً كتابنا « برجسون » ، الطبعة الثانية ، ص ١٩٧) .

الحياة الخلقية مجرد نتيجة للطبيعة الإبداعية التي يتصف بها الواقع . ولما كان « التطور » عند برجسون « إبداعياً » ، لا آلياً ، أو غائياً ، فليس بدعاً أن نجد « الحياة الخلقية » في نظره تسير جنباً إلى جنب مع التطور الإبداعي .

والحق أن الكثير من الفلاسفة التطوريين قد أقاموا ضرباً من التوحيد بين « الخيرية » goodness « والإبداعية » : Creativeness ، بدعوى أن السلوك يكون بالضرورة أفضل حين يجيء أشد أصالة وأكثر إبداعاً . وربما كان برجسون هو الذي فتح السبيل أمام هذه الأخلاق الإبداعية : لأنه كان أول من وصف « الأخلاق المفتوحة » بصفات الإبداع والتجديد والمبادأة . ثم جاء المفكر الإنجليزى المعاصر ريد L. A Reid فى كتابه المسمى باسم « الأخلاق الإبداعية » فراح يؤكد أن فى فعل الخير من « الإبداعية » قدر ما فى أى عمل فنى . وإذا كان كثير من فلاسفة الأخلاق قد جانبوا الصواب حينما راحوا يبحثون عن « خيرية » الفعل الخلقى فى جانب واحد مجرد من جوانبه^(١) ، فإن ريد يقرر أنه كما أن جودة أى عمل فنى لا بد من أن تتجلى فى العمل بوصفه « كلا عينياً » ، فإن جودة أى فعل خير لا يمكن أن تتمثل فى « الدافع » إليه ، ولا فى « النتائج » السارة المترتبة عليه ، بل فى صميم الفعل الخير ككل — وحسبنا أن نمنع النظر إلى « الفعل الخلقى » لكى نتحقق من أنه لا بد من أن يتضمن — مثله فى ذلك كمثل العمل الفنى — شيئاً فريداً فى نوعه ؛ شيئاً لا يقبل الإبدال أو التحويل لأنه « نسيج وحده » . صحيح أن هناك قواعد لا بد لكل من الفنان ورجل الأخلاق من مراعاتها ، ولكن الفنان الذى يقتصر على التزام تلك القواعد ، بحيث يكون كل نشاطه الفنى مجرد تقييد بأصول المهنة ، دون أن يكون فى وسعه الخروج عليها أو الإتيان بشىء أكثر منها ، لن يكون فى وسعه يوماً أن ينتج عملاً فنياً عظيماً . وبالمثل ، يمكننا أن نقول إن رجل الأخلاق الذى يقتصر فى سلوكه على التزام بعض القواعد الصارمة ، أو اتباع بعض المبادئ الجامدة ، لا يمكن أن يبدع عملاً خلقياً أصيلاً . ولعل هذا ما عبر عنه ريد حينما كتب يقول : « إن واجبنا الحقيقى لا ينحصر فى إطاعة قاعدة عامة ، بل فى القيام بعمل أصيل فريد فى نوعه ، نحققه فى نطاق موقف عيى فردى لم يحدث قط من قبل ، ولن يحدث مطلقاً من بعد »^(٢) وليس الفعل الصائب أخلاقياً مجرد فعل سلبى نطبق فيه قاعدة ما من القواعد ،

(١) كما فعل مثلاً جماعة « الحدسيين » (فى تأكيدهم على أهمية الدافع) ، أو جماعة « النفعيين » (فى إبرازهم لأهمية النتائج السارة) ... إلخ .

(2) L. A. Reid : " Creative Morality " , London Ch 6, p. 104.

بل هو فعل إيجابي تصدر فيه عن استبصار فردى لا يخلو من خيال أو سعة أفق . ولا سبيل إلى المحافظة على حيوية الأخلاق ، والحيلولة دون انحدارها إلى هاوية الموصفات الآلية الخالية من كل معنى أو دلالة ، اللهم إلا بالعمل على زيادة الاهتمام بالأشخاص وتقوية العلاقات الشخصية بين الأفراد . والحق أن « المحبة » — لا مجرد الإحساس بالواجب — هى المحرك الحقيقى ، أو القوة الفعالة المحركة لكل « الأخلاق الإبداعية » . وهكذا يتفق ريد مع برجسون فى القول بأن « الأجائية » Agapé — أو المحبة — هى دعامة « الأخلاق المفتوحة » التى تتجاوز حدود الجماعة لكى تمتد إلى « الإنسانية قاطبة » .

نموذج آخر للأخلاق الإبداعية : لدى برديايف

وقد قدم لنا الفيلسوف الروسى المعاصر نيقولاى برديايف نموذجاً آخر لهذه الأخلاق الإبداعية ، متأثراً فى ذلك بنزعتة اللاهوتية المسيحية التى لا تخلو من عناصر وجودية . وهو يبدأ حديثه بالفرقة بين ثلاثة مستويات من الأخلاق :

- ١ — أخلاق القانون التى تجعل من السلوك الخير مجرد إطاعة لبعض القواعد .
- ٢ — أخلاق الحرية أو الخلاص الفردى التى ينظر فيها إلى الإنسان نفسه بوصفه كائناً عينياً مشخصاً — لا إلى عملية طاعة القانون — على أنه الغاية القصوى للحياة ، وبالتالي فإن القانون الخلقى يعتبر فى خدمة الإنسان ، لا الإنسان فى خدمة القانون .
- ٣ — وأخيراً أخلاق الإبداع : Creativeness . ويسير برديايف على نهج برجسون فيقول إننا سواء أخذنا بالقانون على أنه المعيار ، أم اعتبرنا الغاية التى يفضى إليها السلوك الخير هى نفسها المعيار ، فإننا فى كلتا الحالتين نحيل الإنسان إلى مجرد عبد للقانون ، أو القاعدة ، وإن كانت القاعدة فى الحالة الأولى مفروضة من قبل سلطة خارجية ، فى حين أنها فى الحالة الثانية مفروضة من قبل الغاية التى يهدف إليها الإنسان^(١) . وهذه العبودية العمياء للقاعدة — فى نظر برديايف — هى المسئولة عن حالة الجمود أو البلادة التى قد تنتهى إليها « الفضيلة » . وعلى العكس من ذلك ، نلاحظ أن من شأن « الروح الإبداعية » فى مجال الأخلاق أن تحيىء فتخلق شيئاً جديداً أصيلاً مبتكراً ؛ شيئاً فريداً لم يقدر للعالم أن يشهده من قبل .

وليس من شك فى أن الإبداع وليد الحرية . ولكن المهم فى الإبداع الخلقى أن يعمل

كل فرد بوصفه هذا الشخص المعين ، لا أى شخص آخر ، بحيث يجيء فعله وليد ابتكاره الخاص ، لا بالشكل الذى كان يمكن لأى شخص آخر — مكانه — أن يقوم به . ومعنى هذا أنه لا بد للنشاط الخلقى من أن ينبع من أعماق الضمير الفردى لكل شخص على حدة . ويؤكد برديايف — فى الوقت نفسه — أن مثل هذه الأخلاق الإبداعية تستلزم أولاً وقبل كل شيء أن تكون الشخصية العينية الفريدة للفرد البشرى هى القيمة العليا فى الحياة الخلقية ، وبالتالي فإن الفعل الخلقى لا يمكن أن يعد مجرد واسطة أو أداة لنصرة أى قانون كلى عام . وليس المهم فى النشاط الإبداعى للإنسان هو الغاية التى يسعى إلى بلوغها ، بقدر ما هو « الطاقة الإبداعية » التى يعمل على تحقيقها . وآية ذلك أننا نسلم عادة بأن الأهمية الكبرى — فى أى كفاح يقوم به المرء من أجل غاية نبيلة — هى لنوع الكفاح أو كيفيته الخاصة ، لا للنتيجة التى تفضى إليها المعركة . صحيح أن القوة الإبداعية قد تجلب لصاحبها السعادة ، ولكن هذه النتيجة هى مجرد أثر عرضى ، وليست مطلقاً المقصد النهائى للفعل الإبداعى . والحق أننا لا نلجأ على الغاية النهائية للسلوك الخير — بوصفها تمايزة عن السلوك نفسه — بلغة « الخيرية الخلقية » ، بل بلغة « الجمال » . وهكذا يخلص برديايف إلى القول بأن ترقى الأخلاق يسير فى اتجاه الحرية ، والرحمة ، والإبداعية ، كما يشهد بذلك تزايد العطف على الضعفاء والأطفال ، والحيوانات ، فى شتى الأنظمة الأخلاقية الحديثة^(١) .

والظاهر أن تطور الأخلاق — فى الفكر المعاصر — قد عمل على ظهور هذا النوع الجديد من التفكير الأخلاقى ، فقام بين فلاسفة الأخلاق من يؤكد دور « الإبداع » فى مضمار « السلوك الخلقى » ، وراح الكثيرون يؤكدون أنه لا بد للعقل البشرى — حتى حين يكون بصدد الأخلاق — من القيام بضرب من المخاطرة أو المغامرة فى عالم المجهول . ولعل هذا ما عناه أحد الفلاسفة الأمريكيين المعاصرين حين كتب يقول : « إن فى الإتيان بأية فكرة أخلاقية عظيمة عنصر مخاطرة يضعنا وجهاً لوجه أمام إمكانية جديدة لم يسبق لنا اختبارها^(٢) » . ويمضى أحد الباحثين المعاصرين إلى حد أبعد من ذلك فيقول إن فى أبسط فعل من أفعال الواجب ، أو الطيبة ، أو المحبة ، ضرباً من « المجازفة » أو « المغامرة » التى لا تخلو من جانب إبداعى . والواقع أننا هنا بإزاء فعل

(1) Berdyaev : " The Destiny of Man. " , Engl. Trans., p. 196.

(2) Trfts. « Creative Intelligence » , N - Y., p. 383.

ينطوى على عملية « إعادة توزيع للقيم » ، وكأن صاحب الفعل الخلقى الأصيل ينسج « نموذجاً » جديداً لم يسبق لأحد السير على نهجه ، أو كأنه يقوم بعملية « امتداد » أو « توسيع » لنمط سابق يزين به نسيج الحياة . ولهذا يقرر بعضهم أن « الخيرية » — بمعنى ما من المعانى — هي مظهر من مظاهر عملية « إبداع القيم » . وليس في وسع الأخلاق أن تتطلب منا شيئاً أكثر من أن نعمل على « إبداع » نمط واسع متسق من القيم . وهذا ما أراد وليم جيمس أن يؤكد حينما كتب يقول : « اعطِ صوتك دائماً لأكثر العوالم ثراءً وخصباً ، وكن دائماً نصيراً لذلك « الخير » الذى يكون أقدر على الانتظام كعضو في كل شامل متكامل » (١) .

نظرة نقدية إلى « الأخلاق الإبداعية » ...

ولو أننا نظرنا الآن إلى هذه الأشكال المختلفة من الأخلاق الإبداعية ؛ لوجدنا أنها قد صدرت جميعاً عن رغبة حادة في إبراز دور التجديد والمبادأة والإبداع ، على حساب دور التقليد والمسيرة والاتباع . وربما كان من بعض أفضال المذاهب التطورية على فلسفة الأخلاق أنها قد يَبْنَتْ لنا أن الحياة الخلقية ليست مجرد خضوع سلبي لبعض الأوامر والنواهي ، بل هي في جانب منها نشاط إراديّ إيجابي حرّ ، يضطلع فيه الإنسان بتنظيم دوافعه ، وتنسيق حوافزه ، وحلّ متناقضات حياته الباطنة ، وابتكار أساليب سلوكية جديدة ، لفض النزاع الذى قد يقوم في نفسه بين الواجبات الخلقية المتعارضة . وقد أسهب كثير من فلاسفة الأخلاق في وصف دور « الحدس الخلقى » في حلّ مشكلات الضمير ، وفضّ شتى ضروب النزاع التى تنشأ بين الواجبات المختلفة ، كما فعل برجسون مثلاً حينما حدثنا عن تلك « الأخلاق الحية المتفتحة » التى لا تلتزم بشكليات القواعد الأخلاقية ، بل تتصرف في كل الحالات بالرجوع إلى وجدان إبداعيّ يبتكر القواعد الأخلاقية الجديدة لمواجهة أزمت الضمير المختلفة . ونحن لا ننكر أن « الفعل الأخلاقي » في أعلى صورة من صورهِ — هو ضرب من « الابتكار » الذى فيه يصدر الفاعل الأخلاقي عن فهم صحيح للواجبات المتعارضة أو القيم المتصارعة ، فيحاول التأليف بينها على النحو الذى يرضى ضميره وإحساسه بالقيم . وكثيراً ما يجد

(1) Cf. John H. Muirhead : « The Use of Philosophy. » , London Allen & Unwin, 1928, pp. 65-66.

الفرد نفسه بإزاء صراع حاد بين واجبين (أو أكثر) ، فلا يلبث أن يتحقق من أن عليه عندئذ أن يراعى واجباً آخر أسمى من جميع الواجبات المتعارضة ، ألا وهو واجب ابتكار الوسيلة المثلى للتأليف بين القيم المتصارعة . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يفعله القاضي التزيه حينما يجد نفسه بإزاء حالة خاصة تستحق الشفقة ، ولكنه في الوقت ذاته يجد نفسه مضطراً إلى تنفيذ حكم القانون . فمثل هذا القاضي قد يؤلف بين القوانين ويستخدمها لصالح العدالة ، دون أن يلتزم بحرفية القانون من جهة ، ودون أن يخرج على روح القانون من جهة أخرى ، واثقاً من أن هناك طرقاً أخرى لتعديل القوانين غير طريقة الالتجاء إلى مخالفتها .

وفي هذا المثال يتخذ « الفعل الخلقى » صبغة « الابتكار » ، فيكون تصرف القاضي بمثابة حل مبتكر لا يخرق فيه القانون ، ولكنه أيضاً يراعى حالة المتهم ، وظروفه الخاصة ، وضرورة التزام الشفقة في الحكم ... إلخ . وما كان القضاء « قسراً » إلا لأنه كثيراً ما يتطلب من صاحبه التأليف بين الواجبات المتعارضة بمهارة وحذق وبصيرة ، والحق أن هناك أفعالاً خلقية تنطوي على شيء من « الإبداع الفني » الذي تنطوي عليه اللوحة الرائعة أو القصيدة العصماء ! وهذا ما حدا ببعض فلاسفة الأخلاق إلى القول بأن في الفعل الأخلاقي العظيم تعبيراً فريداً أصيلاً عن « الخيرية » في أشكال جديدة أو صور مبتكرة من السلوك . ولكن الابتكار الخلقى لا يتوقف على مهارة الفاعل وبراعته وقدرته على التأليف فحسب ، بل هو يتوقف أيضاً على إخلاصه وأمانته ودقة شعوره . ولعل من أهم ما يساعد الفاعل الأخلاقي على ابتكار الحل المناسب في المواقف الأخلاقية المخرجة ، استعماله لقوة « الحدس الخلقى » التي تستند إلى « وجدان مبدع » يمتدح إلى أعماق القيم الأخلاقية فيهتدي إلى « القيمة » الملائمة لكل من حالات الضمير ، ويفطن إلى « القاعدة » المناسبة لكل موقف جزئى من المواقف ^(١) .

يبد أن دعاة الأخلاق الإبداعية كثيراً ما يتناسون أن « السلوك الخير » ليس بالضرورة سلوكاً مبتكراً أصيلاً ، بل قد يكون مجرد سلوك تقليدى يصدر فيه المرء عن طاعة القاعدة أو احترام الواجب . والواقع أنه ليس بيت القصيد في الفعل الأخلاقي أن يكون فعلاً جديداً فريداً في نوعه ، بل المهم أن يكون فعلاً خيراً يصدر عن إحساس

(١) زكريا إبراهيم : « مبادئ الفلسفة والأخلاق » مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص

٢٠٩ — ٢١١ وبجانب هذا انظر :

W. Lillie : « Introduction to Ethics. » London, 1961, pp 194-195.

بالواجب وتقدير للقيم . وقد سبق لنا أن لاحظنا أنه لا يكفي أن نجعل من « الأخلاق » أداة للابتكار والتجديد ، بل لابد لنا أيضاً أن نبرز دورها في الحياة الاجتماعية بوصفها أداة محافظة وتقليد . أو ربما كان الأصح أن نقول إن قطب التجديد لا يقوم إلا جنباً إلى جنب مع قطب التقليد : لأن الاثنين هما أشبه ما يكونان بواجهتي العملة ... وربما كان الخلط بين « الأخلاق » و « الفن » هو المسئول عن هذا التصور الإبداعي المتطرف للسلوك الخلقى ، وكأن « الخير » هو مجرد صورة من صور « الجمال » ! ولكن ، مهما يكن من جمال « الفعل الخلقى » ، فإن من المؤكد أن « خيرية » هذا الفعل لا ترتد إلى أصلاته أو جدته أو ابتكاره ، بل هي تتمثل أولاً وبالذات في قيمته الخلقية ، وسلامة بواعثه ، ومدى ملاءمته للموقف ... إلخ . وتبعاً لذلك فإن الأخلاق الإبداعية تضحي بالقاعدة والقيمة والوعى الخلقى ، لحساب المبادأة والابتكار والأصالة الفنية !

على أن الخطأ الأكبر الذى طالما وقع فيه أصحاب هذه « الأخلاق الإبداعية » إنما هو توهمهم أن الإنسان « يبدع » القيم ، وأن « الأخلاق المفتوحة » هي وليدة ابتكار بعض العباقرة أو الأبطال ، وفات هؤلاء الفلاسفة أن كل عصر من العصور يحمل في ثناياه بذوراً مطوية من القيم والمثل والأفكار ، وأن ثمة عملية « نضج » للوعى بالقيم تجري دائماً على قدم وساق في أعماق كل مجتمع من المجتمعات . فليس من شأن « العبرى » — كما توهم برجسون — أن يستحدث « قيماً » لا عهد لمجتمعه بها ، بل هو لابد من أن يستند في كشفه لتلك القيم إلى أسس حضارية كانت موجودة من ذى قبل . ومعنى هذا أن بطل الأخلاق لا يزيد عن كونه « مكتشفاً » يعيد النظر في تقييم الناس للحياة ، ويعمل جاهداً على استخراج القيم الضمنية الباطنة في صميم التربة الأخلاقية لبيئته أو مجتمعه . والحق أنه ليس ثمة عصر — أو مجتمع — يفهم ذاته — أخلاقياً — فهماً صحيحاً ، كاملاً ، غير منقوص . ومن هنا فإن مهمة المصلح الأخلاقي كثيراً ما تقتصر على الأخذ بيد مجتمعه من أجل معاونته على فهم نفسه ! ومن جهة أخرى ، فإنه كثيراً ما يبقى « بطل الأخلاق » غير مفهوم ، وذلك لأنه قد جاء قبل أوانه أو في غير أوانه ، ومن ثم فإنه لابد من أن يموت ومنه حقيقته ! صحيح أن مثل هذا البطل قد يحمل « فكرة » لا تعوزها الحياة ولا تنقصها القوة ، ولكن حياتها وقوتها فيه هو ، لا في المجتمع نفسه . وهذا هو السبب في أن مثل هذه « الفكرة » لا تلقى أى صدى من جانب القلب الإنسانى ، ما دامت لم تنبعث منه . حقاً إن وقتها قد يحين ، ولكن مكتشفها لن يرى هذا الوقت ! ولا عجب : فإن من يعيش قبل أوانه ، لابد من أن يبقى « ميتاً » في عصره ! ومهما يكن من شيء ، فإن « البطل » الذى طالما تحدث عنه برجسون وغيره من

فلاسفة الأخلاق الإبداعية ليس سوى مجرد « مكتشف » استطاع استخراج بعض القيم الضمنية ، مع العلم بأن « اكتشافه » نفسه لا بد من أن يظل مشروطاً ببعض الظروف الاجتماعية . وسيكون علينا من بعد أن نعاود النظر إلى هذه المشكلة ، حتى نقف على دور الموجود البشري في « العالم الأكسيولوجي » ، بوصفه « باحثاً » لا مخترع شيئاً ، ولكنه لا يكف أبداً عن الاضطلاع بمهمة « المعاينة » و « الكشف » .

الباب الثاني
نظريات أخلاقيّة

الفصل الخامس

نظرية « اللذة »

قد يعجب القارئ حين يرانا نتحدث عن « نظريات أخلاقية » ، ولكننا في الحقيقة لا نستخدم هنا كلمة « نظرية » بمعناها العلمى ، بل بالمعنى الذى نقصده فى الفلسفة حينما نتحدث مثلاً عن « نظرية المعرفة » . وتبعاً لذلك فإن ما اعتاد بعض فلاسفة الأخلاق تسميته باسم « نظرية اللذة » ، هو فى نظرنا إشكال أو مشكلة ، خصوصاً وأن الأخلاق — فى أصلها — إشكال حول بداهة اللذة . وكأن مشكلة المعرفة هى أولاً وقبل كل شيء ، تفكير فى إمدادات الحس ، وشك فى قيمة التجربة ، فإن المشكلة الخلقية أيضاً تفكير فى اللذة ، وشك فى قيمة الخبرة السارة ، وهذا هو السبب فى أن « المشكلة الخلقية » — مثلها فى ذلك كآية مشكلة فلسفية أخرى — تصدر عن ضرب من « الدهشة » ، وتبدأ بالشك فى قيمة « اللذة » من حيث هى بيئة شعورية مزعومة . ونحن نعلم أن كل « تفكير » لا بد من أن ينطوى فى صميمه على معانى « الانفصال » و « البعد » و « البؤس » و « عدم التطابق » ، فليس بدعاً أن يكون فى « التفكير الخلقى » ضرب من الانشقاق على اللذة ، أو الانفصال عن الخبرة الطبيعية السارة . والواقع أن كل « المشكلة الخلقية » — سواء أردنا أم لم نرد — تدور فى الأصل حول ضرورة تحويل « بيئة اللذة » إلى « إشكال فلسفى » يبعث على التساؤل . ولو كان يكفى أن ينشد المرء اللذة ويتجنب الألم ، لكى يكون « كائناً أخلاقياً » لما وَجَدَ أى فرد أية صعوبة فى أن يكون « صاحب خلق » ! ولكن « الضمير » — أو « الشعور الخلقى » — لا يلبث أن يثير فى أنفسنا الكثير من الشكوك حول « بداهة اللذة » ، ومن ثم فإن المرء سرعان ما يتساءل عن مدى قدرة « الطبيعة » على توجيه سلوكنا ، وكأنما هو يُحسّ فى قرارة نفسه بأنه هيات للذة أن تَقْوَى — وحدها — على هداية ضميرنا . وحينما يتحقق الإنسان من أن « حساب اللذات » أعجز من أن يحقق لصاحبه ما يصبو إليه من توازن نفسى ، وأن « حياة اللذة » لا يمكن أن تُفْضَى إلا إلى حالة أليمة من التشتت الروحى أو التمزق النفسى ، فهناك لا بد من أن يتولّد لديه إدراك واضح لعجز « اللذة » عن تفسير نفسها بنفسها ، واقتناع تام بقصور « مبدأ اللذة » عن توجيه السلوك الإنسانى برمته .

صحيح أن الكثيرين منا — خصوصاً في العصر الحاضر — قد أصبحوا يعدّون « اللذة » بمثابة « العملة الذهبية » في سوق « القيم » ، ولكن هذا الإقبال الشديد على حياة الملذات لا يضطرنا إلى أن نخلع على « اللذة » صفة « المطلق » ، بل لابدّ لنا — على العكس من ذلك — أن نطالب « اللذة » بتقديم أوراق اعتمادها ، حتى نقف على مدى « شرعية » ذلك المبدأ الأخلاقي الذي طالما استمسك به البشر . وليس أيسر على الإنسان — بطبيعة الحال — من أن يقيم ضرباً من التوحيد بين « الخير » و « اللذة » ، ولكن مهمة فيلسوف الأخلاق على وجه التحديد — تنحصر في الكشف عن تلك المغالطة الطبيعية « Naturalistic Fallacy » (على حد تعبير مور) التي يقع فيها المرء حين يعرف « الخير » بأنه « ما يجلب لنا اللذة » أو المتعة ^(١) .

فلسفة اللذة في الفكر اليوناني : أرسطيس وأبيقور

ليس من شك في أن البشر جميعاً ينشدون « اللذة » ويعزفون عن « الألم » ولكن فلاسفة اللذة يضيفون إلى ذلك أن « المتعة » هي الكيفية الوحيدة التي تصبح بمقتضاها « الخيرة » ذات قيمة ، وبالتالي ذات صبغة أخلاقية . ومعنى هذا أن « الفعل الخير » هو ذلك « الفعل » الذي يفرض بالضرورة إلى « نتائج سارة » أو « خيرات مُمتعة » . ولعلّ هذا ما عناه بعض فلاسفة اليونان حينما قالوا إن الإنسان لا يعرف سوى خير واحد هو « اللذة » ، شر واحد هو « الألم » . وأما الفيلسوف اليوناني أرسطيس Aristippus فقد ذهب إلى أن اللذة هي صوت الطبيعة ، فلا موجب للحياء أو الخجل ، ما دامت كل القيود أو الحدود هي من وضع العرف . صحيح أن التعلق باللذات قد يكون أحياناً مصدر قلق وألم ولكن فيلسوف اللذة لا يريد أن يفكر في المستقبل ، لأن التفكير في المستقبل هو مبعث الشقاء ومصدر الهموم ، بل هو يريد أن يقتنص اللذة الحاضرة ، عالماً أنه ليس للإنسان سوى الساعة التي هو فيها ! وما دامت الغريزة هي المحرك الأول لأفعال الإنسان — مثله في ذلك كمثل الحيوان والطفل — فإن معيار اللذة والألم هو المعيار الأوحـد لقياس خيرية الأفعال وشرّيتها . ومن هنا فإن أرسطيس لا يقتصر على القول بأن « اللذة » هي « الخير » الأوحـد ، بل هو يقرر أيضاً أن

(1) Cf. G. E. Moore : «Principia Ethica» , Cambridge 1903 I., P. v -xiv.

(وانظر أيضاً كتابنا : « دراسات في الفلسفة المعاصرة » ١٩٦٨ ، ص ٢١٠ — ٢١٣) .

اللذة القصوى هي المقصد الأوحد للحياة ، وليست اللذة القصوى سوى أكثر اللذات حدة أو شدة . ولا نرانا في حاجة إلى القول بأن معظم حديث أرسطس عن اللذات إنما كان يدور حول اللذات البدنية ، خصوصاً وأن كل تفكير أرسطس السيכולوجي لم يكن يتجاوز استجابات اللذة والألم ، على المستوى المادى للبحث .

وأما الفيلسوف اليوناني المعروف بإبيقور Epicurus فقد اتفق مع سلفه أرسطس في القول بأن الناس ينشدون اللذة — كالحوانات سواء بسواء — بدافع غريزي لا أثر فيه للتفكير أو التعليم ، ولكنه ارتأى أنه وإن كانت اللذة هي الخير الأعظم أو الغاية القصوى لمعظم الأفعال البشرية ، إلا أن اللذة في بعض الأحيان عواقب قد لا تكون جميعها « خيراً » ، بدليل أن الشره مثلاً يصيب صاحبه ببعض الأمراض ، كما أن الإفراط في الشهوات أو الملذات قد يؤدي إلى عواقب جسمية وخيمة . وإذن فإن من الواجب تعديل اللذة بالألم ، واجتناب اللذات التي تجرّ آلاماً ، بوصفها وسائل سيئة للسعادة . كذلك ينبغي تعديل الألم باللذة ، وتقبل الآلام التي تجلب لذات أعظم ، ما دامت عواقب الألم ليست في جميع الأحيان شراً .. إلخ . والظاهر أن إبيقور قد فطن — بعكس أرسطس إلى أنه ليس للذة صبغة مطلقة ، بدليل أنها نسبية تقاس دائماً بالألم المقابل لها ، وتخضع باستمرار لقانون التباين . ومن هنا فقد ذهب إبيقور إلى أننا لا نستطيع أن نسعى وراء اللذات بطريقة مباشرة ، بل لابد لنا من التماس الملابس أو المناسبات التي قد تقترن بها اللذة ، مع مراعاة اختلاف تلك الملابس وتباين صبغاتها السارة . هذا إلى أن إبيقور لم يقتصر على النظر إلى « شدة » اللذات ، بل هو قد راعى أيضاً « استمرارها » ، ومن ثم فقد دَعَا إلى تفضيل اللذات التي يمكن أن تدوم ، وتصبغ بصبغتها كل حياتنا . فضلاً عن ذلك ، فقد أعلّى إبيقور من شأن اللذات الروحية ، واعتبر الأخلاق بمثابة تهذيب لتلك اللذات النبيلة (كالصدقة ، وحبّ الجمال ، والحكمة ، وما إلى ذلك) . ولم يقف إبيقور عند هذا الحد ، بل لقد دَعَا أيضاً إلى التحكم في الدوافع الدُّنيا ، واعتبر « الفضيلة » مظهراً من مظاهر « ضبط النفس » ، وتغليب « القيم العليا » على « القيم الدنيا »^(١) .

(1) Cf. Hartmann : « Ethics » vol. I., Ch. ix, pp. 131 - 132.

موقف أرسطو من فلسفة اللذة

وأما أرسطو فإنه يوافق فلاسفة اللذة على أن البشر قاطبة يطلبون اللذة ، ويتجنبون الألم ، لدرجة أنه يقرر أن ثمة نوعاً من التكافؤ بين « الحياة » و « اللذة » . والواقع أن التأكيد الطبيعي لحقنا في اللذة هو « بديهية » واضحة بذاتها ، وكأنما هي « مطلب منطقي » أو « تحصيل حاصل » أكثر مما هي « حساب نفعي » . ومعنى هذا — فيما يقول أرسطو — أنه لمن التناقض أن تصور وجود كائن يقبل على الألم ، ويعزف عن اللذة : لأن جاذبية اللذة تتمتع بضرب من الوضوح أو البدهية ، وكأنما هي قانون « الهوية » أو « الذاتية » Identity في مجال السلوك . وهذا أفلاطون نفسه (كما سبق لنا القول) يحدثنا عن « إرادة الخير » فيقول إنها « تحصيل حاصل » : لأن الإنسان حتى حين يريد الشر فإنه لا يريد إلا الخير ، بمعنى أنه يريد الشر بوصفه خيراً له ! وإلا ، فهل وُجد على ظهر البسيطة مخلوق يريد لنفسه الشقاء أو التعاسة ؟ وإذن ، أفلا يحق لنا أن نقول إن « اللذة » هي « الحقيقة الذاتية » الأولى التي تتحقق في « الآن » Instant ، فتقبض على « الذات » بجمع يديها ، محاولة أن تستبقيها في الحاضر ؟ ويمضي أرسطو في دفاعه عن اللذة فيقول إنها « البينة » Evidence التي ليست في حاجة إلى تبرير أو تفسير : لأنها تملك من قوة الإقناع وسحر البيان ما يعجز عن الردّ عليه أي منطق عقلي كائناً ما كان ! وآية ذلك أن اللذة ليست في حاجة إلى إلحاح حتى تفرض نفسها علينا ، بل إننا جميعاً لنقبل عليها من تلقاء أنفسنا ، دون أن نسائل ذواتنا كيف يمكننا تفسيرها ، أو لِمَ كانت « المتعة » أمراً مرغوباً فيه . وكأني بأرسطو يعترف — مع فلاسفة اللذة — بأنه كثيراً ما تكون الذرة الصغيرة من « اللذة » كافية لبلبله الرأس الكبير ⁽¹⁾ .

بيد أن أرسطو يؤكد — مع ذلك — أننا لو أنعمنا النظر إلى طبيعة « اللذة » . لتبين لنا أنها مجرد « غرض » أو « علاقة » تصاحب حالة جسمية : فالعضو الذي يمارس نشاطه بطريقة صحيحة عادية لا بد من أن يحیی نشاطه مقترناً بضرب من الشعور باللذة ، في حين أن العضو الذي يمارس نشاطه بطريقة مَرَضِيَّة غير سليمة ، لا بد من أن يصحب نشاطه شعوراً بالألم . ومعنى هذا أن اللذة ظاهرة مصاحبة للنشاط العضوي بنصفه

(1) V. Jankélévitch : « La Mauvaise Conscience », Paris, Alcan. Nouvelle Edition, 1939, pp. 5 - 6.

عامة . ولما كان كل موجود مجموعة من الميول ، أو نسقاً متآلفاً من النشاطات ، فإن الهدف الطبيعي المباشر للحياة ليس هو اللذة ، بل ممارسة تلك الأنواع المختلفة من النشاط ، ومن ثم فإن اللذة لا تخرج عن كونها مجرد غاية ثانوية . وليس من الضروري أن تكون كل لذة « خيراً » وكل ألم « شراً » : فإن بعض اللذات قد تنطوى على شرور ، كما أن بعض الآلام قد تنطوى على خيرات . هذا إلى أن هناك لذات دنيا ولذات عليا ، ولكننا لا نستطيع أن نجعل من « اللذة » بصفة عامة « غاية في ذاتها » أو « خيراً أقصى » : لأن من طبيعة اللذة أن تكون مجرد وسيلة إلى شيء آخر يجيء بعدها ، كلذة الراحة التي يراد بها التأهب لمواصلة العمل ، ولذة مشاركة الأصدقاء في المآدب والحفلات بقصد توثيق عُرى المودة والإخاء ... إلخ . ولكن أرسطو — مع ذلك — لم يرفض مبدأ اللذة ، بل لقد ظلت « القيم الحيوية » عنده قيماً أساسية تستند إليها الحياة الخلقية بأسرها ، خصوصاً وأن الفكر اليوناني بصفة عامة قد ظل ينظر إلى كل ما هو « طبيعي » أو « غريزي » على أنه « حسن » أو « خير » .

... سحر اللذة ، وارتباطها بالقيم اليولوجية

والحق أننا لو أقمنا ضرباً من التطابق بين ما هو « طبيعي » أو « غريزي » من جهة ، وما هو « حسن » أو « خير » من جهة أخرى ، لما وجدنا كبير صعوبة في القول — مع فلاسفة اللذة — بأن المعيار الأوحد لقياس « خيرية » الأفعال هو درجة « اللذة » التي تحققها لأصحابها . وآية ذلك أن الأفعال الخيرة هي تلك التي تجيء متوافقة مع ما تقضى به طبيعتنا البشرية ، وبالتالي فإن « القيم الطبيعية » هي وحدها الكفيلة بضمان « خيرية » السلوك . ولكن المدافعين عن « اللذة » يمحضون إلى حد أبعد من ذلك فيقولون إنه قد يكون في وسعنا أن نشبه سحر اللذة بسحر المرأة : لأنه مهما يكن جمال المرأة عابراً أو براقاً ، فإن نشوته لا بد من أن تلعب برأس الرجل ، حتى ولو كان أرهد الناس جرياً وراء النساء ؛ ولعل هذا ما عناه ألدس هكسلي حينما كتب يقول : « إن الجمال لم هو خطاب توصية مفتوح ، هيئات لأحد أن يتجاهله ! » . صحيح أنك قد تحاول أن تظهر بمظهر الرجل الرزين الرصين ، أو الشخص القوي المتماusk ، ولكن الوجه الجميل لا بد من أن يثير لديك ضرباً من الفضول ، ولا بد من أن يدفعك إلى التوقف ، وبالتالي فإنه لا بد من أن يفرض نفسه عليك ؟ ومهما تكن جاداً ، بل مهما تكن فاضلاً ، فإن السؤال الملح الذي يُلقيه عليك « الحميا الجميل » لن يرح ذهنك في

سهولة ويسر ، لأنك لن تستطيع أن تجزم — في يقين قاطع — بأن « الحكمة » أفضل من « الشهوة » ، وأن التعقل الهادئ الرزين أجدى على النفس من أى استغراق عارم عنيف في ليلة سحرية عميقة من ليالى الحب الصاحب الجامح العرید ! وحتى لو نجحت في مجابهة اللذة بكلمة « لا » ، فإنك عندئذ لن تكون قد تنكرت لها أو قاومت سحرها ، بل ستكون قد أثرت تأجيل موعد استحقاق الدفع ، أو ربما تكون قد أثرت الانتظار ، أملاً منك في الحصول على لذة أكبر ^(١) !

ولو أننا سلمنا مع بعض فلاسفة الحياة بأن « القيم البيولوجية » هي الدعامة الكبرى لكل حياة خلقية ، لكان علينا أن نعدّ الصحة ، والقوة والحيوية ، وشتى ملذات الطبيعة البشرية ، « قيماً خلقية » أساسية . والواقع أن جذور « اللذة » متأصلة في صميم التربة البيولوجية ، فليس بدعاً أن تكون لها كل تلك الأهمية في حياتنا النفسية والخلقية ، مادام من شأن كل ما هو « طبيعي » أن يكون — في نظرنا — « بريئاً » و « جميلاً » في الآن نفسه . ولعل هذا هو السبب في أن بعض الفلاسفة القدماء كانوا يرون في « اللذة » مظهراً من مظاهر « الصحة النفسية » ، على اعتبار أن النفس العاجزة عن الاستمتاع بالملذات (جسدية كانت أم روحية) هي نفس مريضة أو معتلة . وسواء عدنا إلى أبيقور ، أم إلى الرواقين ، أم إلى أفلاطون ، فإننا سنجد لدى جميع هؤلاء المفكرين « نظرة طبيعية » توحد بين ما هو « صحي » ، وما هو « خير » ، وكأن الخير الأقصى للنفس هو ما يضمن لها الصحة النفسية . وليس من شك في أن هذا الاعتراف الصريح بأهمية « القيم البيولوجية » هو الذى أدخل « اللذة » في مضمار الحياة الخلقية ، خصوصاً وأن هذه النزعة الطبيعية الأخلاقية قد رفضت منذ البداية مبدأ التوحيد بين ما هو « طبيعي » وما هو « سئ » أو « شرير » . ثم جاء العصر الحديث بسعيه العارم وراء اللذات ، فلاقى المذاهب القائلة بالزهد أو التقشف حملات عنيفة من جانب أولئك الذين لم يفهموا معنى لمعاداة « الطبيعة » ، وإنكار قيمة « الحيوية » ، وبالتالي فقد عادت « فلسفة اللذة » إلى الظهور تحت ستار الدفاع عن « قيمة الحياة » .

(١) ارجع إلى مقالنا « مشكلة اللذة » ، المنشور بمجلة « العربى » ، العدد ١١٠ ، يناير سنة ١٩٦٨ ، من ص ٦٠ إلى ص ٦٧ (وانظر أيضاً : .

هل تكون طبيعة اللذة « سلبية » ؟

أما خصوم مذهب اللذة فإنهم يقولون : لنحاول أولاً التعرف على طبيعة تلك « اللذة » التي قد يبدو لنا في كثير من الأحيان أنها كل شيء في الحياة ، ثم لنسائل أنفسنا : هل تكون « اللذة » خيراً حقيقياً يمكن أن نعدّه بمثابة « غاية في ذاته » ؟ .. إن هناك — بلا شك — لذات طبيعية نحسّ بها إحساساً تلقائياً في صميم حياتنا العادية ، وتلك هي لذات الحياة السوية : كالصحة والشباب والحرية والسلام . ولكن أليست هذه « اللذات » — مع الأسف — مجرد « لذات لاحقة » قلما نستشعرها اللهم إلا بعد أن يكون المرض والشيخوخة والعبودية والحرب قد جاءت فسلبتنا إياها ، وحرمتنا منها ؟ الحق أن « وجودنا » ظاهرة عادية تمضي من تلقاء نفسها ، وكأنا « هبة » أو « منحة » لا تكاد نشعر نحو القدر بأي عرفان للجميل بسببها ، مثله في ذلك كمثل المناخ المعتدل بالنسبة إلى سكان المناطق الطبيعية المتوسطة : فإنه في نظرهم ظاهرة عادية قلما يشعرون بقيمتها ! ولا شك أن شوبنهاور حينما قرر أن « الألم » — لا « اللذة » — هو وحده « الظاهرة الإيجابية » ، فإنه لم يكن يعنى بذلك سوى أن « الألم » يتأرجح دائماً بين حالتين سلبيتين : حالة الانتظار أو التوقع — قبل حدوث اللذة — ثم حالة السأم أو الملل — بعد استمرار اللذة — . فلألم ظاهر إيجابية نستشعرها بطريقة مباشرة ، لدرجة أننا لا نتذوّق المتع أو اللذات ، اللهم إلا بفضل تلك الآلام التي تهددها وتكمن من ورائها . ولهذا يقرر بعض فلاسفة الأخلاق أنه إذا كان في اللذة « جانب إيجابي » ، فإن هذا الجانب نفسه موسومٌ بطابع « الألم » !

والواقع أن كل « إحساس » Sensation لابد بالضرورة من أن ينطوى على ضرب من « التقبل » أو « الانفعال » أو « المعاناة » أو « التألم » . . ولعلّ هذا ما تعنيه العبارة الفرنسية المعروفة التي تقول : « إن الاستجابة الحسية تأثرت ومعاناة » : Sentir c'est pâtir . وآية ذلك أن المرء لا يشعر بأي عضو داخلي من أعضائه ، إلا حينما يختل أو يمرض ، أو يطرب عليه اضطراب : إذ عندئذ — وعندئذ فقط — يشعر المرء بقلبه أو كبده أو كليتيه أو أمعائه ... إلخ .

ولكن ، هل يكون معنى هذا أن كل شعور لابد من أن يكون شعوراً بالألم ، وأنه ليس هناك — بالتالي — شعور باللذة ؟ كلا ولا ريب ، فإن ثمة شعوراً باللذة ، ولكن على حين أن من شأن الشعور بالألم أن يزيد من حدة الألم وخطورته ، نجد أن من شأن

الشعور باللذة — في كثير من الأحيان — أن يبدد اللذة ويعمل على محوها . والسبب في ذلك أنه ليس للذة من طعم أو شكل أو لون ، اللهم إلا حينما نتطلع إلى شيء آخر بجانبها ، أو إلى جوارها ، بدلاً من أن نركز أبصارنا فيها ، أو أن نحدق النظر إليها ! ولا غرو ، فإنه بمجرد ما يتسلل الوعي إلى اللذة ، فإننا سرعان ما نتحقق من أن لذاتنا قد ابتدأت ، وأنها قد تطورت ، وأنها قد تنتهى ! وحينما يعرف الفكر طريقه إلى اللذة ، فإن اللذة لا بد من أن تبدو له بمثابة فقاعة هوائية كبيرة ، أو مجرد بقعة لامعة فوق قوس قزح ! أضف إلى ذلك أنه إذا دامت اللذة — وهى قلما تدوم — فإنها لا بد من أن تخفى وراءها إحساساً بالسأم . ولا شك أن هذا الإحساس الخفى الذى يشيع فى كل — أو جل — اللذات البشرية هو الذى يخلع عليها ضرباً من المرارة ، خصوصاً حين تجيء تلك « اللذات » فتعكس على نفسها ، محاولة العمل على تأمل مضمونها ...

هل تكون هناك « لذات خالصة » ؟

وهنا يسارع أنصار اللذة إلى القول بأن ثمة « لذات خالصة » Pure pleasure لا ينطبق عليها مثل هذا الوصف ، لأنها متعة طبيعية سوية لا أثر فيها للألم أو السأم . ولكن الواقع — فيما يقول خصوم اللذة — أنه قلما تخلو « لذة » — كائنة ما كانت — من أى أثر للنقص أو التناقض أو الازدواج أو النسبية أو التكرار أو الخواء . وآية ذلك أن اللذة أولاً وليدة الحاجة ، كالشبع الذى لا يجيء إلا بعد جوع ، والإشباع الجنسى الذى لا يتم إلا بعد نهم أو شوق جنسى ، والراحة التى لا تتحقق إلا بعد عمل ، وهلم جرا . ثم إن اللذة ثانياً كثيراً ما تجيء مشوبة بالألم ، خصوصاً وأنها — بطبيعتها — خاضعة لقانون التباين Law of contrast الذى يجعلها دائماً مشروطة بالألم ؛ وهى — أخيراً — لا بد من أن تنطوى على صبغة انفعالية أو كيفية وجدانية : بمعنى أنها لا تخرج عن كونها « حدثاً » نفسانياً تشعر به عن طريق مثول ضده الألم . ولعل هذا ما عناه الكاتب الفرنسى الشهير مونتني Montaigne حينما قال : « إننا قلما نتذوق شيئاً صافياً أو لذة خالصة » . ولماذا لا نقول إن ضحكنا أنفسنا قد تخفى وراءها فى بعض الأحيان دموعاً متجمدة ، أو آلاماً مكتومة ، أو إحساساً دفيناً بالقلق ؟ بل ألسنا نقطب وجوهنا حين نضحك ، كما نقطبها حين نبكى ؟ وإذن فقيم الحديث عن « لذات نقية » ، وكل ما فى وجودنا مزيج من الدموع والضحكات ، أو موكب من الآلام والأفراح ؟ ... ولنحاول — على سبيل المثال — أن ننظر إلى « اللذة » من وجهة نظر

« الزمان » ، لكي نتحقق من أنها لا تكاد تتمتع بأى « حاضر » حقيقى . ألسنا نلاحظ أننا نستطيع دائماً أن نحدد « موضع » الألم ، وأن ننسب إليه ضرباً من « الدوام » أو « الاستمرار » فى حين أن « اللذة » تبدو لنا غالباً بعيدة كل البعد عن أن تكون حَدَثًا مائلاً « هنا والآن » : *Hic et nunc* ؟ ... الحق أن « الألم » كثيراً ما يبدو لنا بصورة كتلة كثيفة متماسكة من الحاضر الأليم ، فى حين تلوح لنا « اللذة » على صورة سراب واه زائل أو ضباب خفيف عابر ، فوق سطح الحاضر ! ولهذا يقول الكاتب الفرنسى لافورج : *Laforque* « إنه ليس للسعادة من حاضر ، بل كل ما لها ماضٍ ومستقبل فقط » . وقد يستطيع الإنسان أن يألف الألم ، ولكن هذه الألفة — مع ذلك — لن ترفع عن الألم طابعه الشرير أو وطأته الثقيلة ، بل سيظل « الألم » دائماً ضعيفاً بغضاً يلاحق المرء بوخزه المستمر وضرباته المتلاحقة . وأما « اللذة » فإنها ما تكاد تدوم ، حتى تنطفئ جذوتها وتخف سورتها ، على العكس من « الألم » الذى قد تزداد حدته تحت وطأة التكرار أو الاستمرار . وإن أنصار اللذة ليتحدثون عن « الشهوة » ، ولكن الشهوة مجرد « حدث » يقع فى « الآن » *Instant* : فهى « حاضر » لا كثافة له ، بدليل أنها ما تكاد تدوم لفترة تتجاوز اللحظة ، حتى تستحيل إلى « تقزز » أو « نفور » ، أو « تبلد » ، أو « إعياء » ! ومن هنا فقد استطاع شوبنهاور — مرة أخرى — أن يقول : « إن للألم تاريخاً ، وأما اللذة فلا تاريخ لها ! »

وهنا يعاود فلاسفة اللذة الاعتراض فيقولون : « وماذا عن لذة الحب ؟ أهى أيضاً ليست لذة خالصة ؟ » وردّ خصوم اللذة على « الاعتراض أن الإنسان حريص على أن يجعل اللذة وجودها الحقيقى ، بوصفها القطب الآخر المقابل للألم ، ومن ثم فإنه يستعين بكافة الوسائل الإرادية والحيل الاصطناعية من أجل العمل على تحقيق استمرار اللذة وضمان دوامها . ولهذا فإننا نراه يغلف اللذة بأغطية جميلة برّاقة من « الأمل » و « التطلع » و « الاسترجاع » و « التذكر » ، كما نراه يخلط فى الوقت ذاته بين اللذة نفسها من جهة ، وبين مجموع الشروط أو الظروف الموضوعية الثابتة التى تحدّد ظهورها من جهة أخرى . وهكذا يصبح للذة وجودها فى « الماضى » بفضل عملية « الاسترداد » أو « الاسترجاع » ، وفى « المستقبل » بفضل عملية « التطلع » أو « الاستباق » ، بدليل أننا نتخسّر على لذاتنا المنصرمة ، ونتطلع بشغف ولهفة إلى لذاتنا المقبلة . ولكن ، ألسنا نجد هنا سخرية لازعة من قبل « الزمان » : فإن الزمان لا يدعنا نتذوق سحر « اليوم » ، اللهم إلا بعد أن يكون قد انتزعه منا وأحاله إلى مجرد « أمس » ؟

ولنتظر — مثلاً — إلى « لذة الحب » — تلك اللذة القديمة في تاريخ البشرية قدم العالم نفسه ، وإن كان من شأنها دائماً أن تبدو جديدة كل الجدة لذلك القلب العاشق الذى يرى فيها لذة نقية خالصة — ولنسائل أنفسنا : « ألسنا هنا بإزاء لذة لاحقة ، تستبدل بمتعة الأمر الراهن نظرة استرجاعية ترتد إلى صورته الماضية ، أو نظرة استباقية تتطلع إلى صورته المقبلة ؟ » ألسنا نلاحظ أن لحظة الحب الحقيقية تشغل مكاناً ضئيلاً بالقياس إلى المقدمات الجميلة التى تسبقه والتحسرات الأليمة التى تتلوها ؟ وإذن أفلا يجدر بنا أن نقول إنه لولا تدخل كل من « الذاكرة » و « الخيلة » ، لما كانت لتلك اللحظة الخاطفة التى نسميها باسم « الحب » أية حقيقة واقعية فعلية في « الزمان » ؟ ... صحيح أننا قد نحيا على تلك اللحظات الخاطفة من الأمل والدفء فصولاً طويلة من الوحدة القاسية والعزلة الباردة ، ولكن من المؤكد مع ذلك أن هذه المتع الخاطفة لا تجعل من اللذة حقيقة مليئة تشغل كتلة من الزمن ! ومهما يكن من شأن لذة الحب أن تحيل شتاء حياتنا القارس إلى ربيع وردى ساحر ، بل مهما يكن من شأن متعة الحب أن تخلع على ساعات حياتنا المتبدلة إشراقة الأيام الهاربة من أسر الزمن ، فإن هذه « اللذة » أو « المتعة » ليست مع ذلك سوى مجرد بطاقة جميلة تغلف « الحب » ، دون أن تدخل في صميم « جوهره » . وآية ذلك أننا حينما نتحدث عن « الحب » ، فإننا كثيراً ما نبتدع لأنفسنا أسطورة جميلة تملأ بها وحدتنا ، ونستعين بها على مواجهة ما في الحياة من جفاف أو فراغ أو غياب أو جفاء ! وإلى هذا المعنى قصد الروائى الفرنسى المشهور مارسيل بروسـت M. Proust حينما كتب يقول : « إن ما نحب ليس هو المحبوب ، بل الحب نفسه ! ومعنى هذا أن من شأن « اللذة » — في حالة الحب — أن تعكس على نفسها ، لكى تستمتع بنفسها وتتذوق ذاتها ، بفضل تلك الأنانية الساحرة التى تسمح لها باجتراء حالاتها النفسية المتعاقبة من انتظار ، وأمل ، وتوقع ، وتذكر ، وتحسّر ، وتلهف ، واشتياق ... إلخ . وعبئاً يحاول بعض الفلاسفة أن يسهبوا في الحديث عن بساطة اللذة ، فإن اللذة — مع ذلك — ليست عنصراً بسيطاً ، بل هى وليدة نظرة عقلية تقطع من نسيج السعادة خيوطاً ضئيلة ، لكى تعزها وتتأملها وتعدّها بمثابة عناصر أولية بسيطة . وكما أن « الإحساس » مفهوم لاحق نقطعه من كتلة الإدراك الحسى ، بل كما أن « اللفظ » عنصر غير أولى نقطعه من حقيقة منطقية كلية هى « القضية » ، فإن « اللذة » أيضاً حقيقة مشتقة Dérivé مقطوعة من « السعادة » ، دون أن تكون هى نفسها أولية ، عينية ، مشخصة . وآية ذلك أن اللذة تفترض أولاً مبدأ الزمان ، ثم تستلزم بعد ذلك إنكار (أو سلب) هذا الزمان ، بالالتجاء إلى « الآن » : Nunc . وحتى حينما يتحدث

أنصار اللذة عن بساطة مبدئهم ، فإننا نجدهم — كما فعل إبيقور — يستعينون بمبدأ « العقل العملي » من أجل تبرير اللذة . ولهذا يقرر جانكلفتش : Jankélévitch أن اللذة ليست « بيّنة » تتأيد من تلقاء ذاتها ، بل هي « طفولة ثانية » : Deuxième Enfance . تعبر عن انعكاس الفكر على حالاته النفسية ، من أجل تبرير مبدأ اللذة وتأكيده حقوقه والدفاع عن قيمته ...

هل تنطوى « فلسفة اللذة » على تناقض ذاتي ؟

ولكن ، ربما كان أخطر ما أخذ يوجهه خصوم اللذة إلى كل فلسفة أخلاقية تسمى نفسها باسم « فلسفة اللذة » ، هو أنه لا بد لمثل هذه الفلسفة من أن تنطوى على تناقض ذاتي خطير : إذ أنه لا مخرج لنا من أحد أمرين : فإما لذة نقية خالصة ، وعندئذ لا بد لهذه اللذة من أن تكون لا شعورية ؛ وإما شعور باللذة ، وعندئذ لا مفرّ لهذا الشعور من أن يكون ممتزجاً بشيء من المرارة ! ولكن ، منذ الذي يريد لنفسه أن يكون سعيداً من حيث لا يدري ، أعنى دون أن تجيء سعادته مصحوبة بتلك الحالة النفسية الواعية التي فيها تستمتع الحساسية بأفعالها الذاتية ، فلا توجد « في ذاتها » فقط ، بل توجد « لذاتها » أيضاً ؟ ... إن السعادة التي ترتضى لنفسها ألا تشعر بذاتها ، لن تكون سعادة على الإطلاق ، بل ستكون بمثابة فقدان لكل أسباب (أو مبررات) السعادة ، في حين أن هذه الأسباب أو المبررات هي في العادة كل شيء في صميم إحساسنا بالسعادة ! ولعلّ هذا ما عبر عنه جانكلفتش حينما كتب يقول : « طوبى لمن يعرف سعادته ، ولكن ويل أيضاً لمثل هذا المخلوق السعيد : لأنه بمجرد ما يقدر حظه السعيد وقيسه ، فإنه سرعان ما يقع فريسة للقلق ! ونحن نعرف كيف كان « الوعي » أو « الشعور » سبباً في خروج الإنسان الأول من الفردوس السعيد الذي كان ينعم به (كما تقول الكتب المقدسة) . ومعنى هذا أن الإنسان قد حقق اختياره بالفعل : فهو قد آثر الوعي والحركة ، على الرغم مما يقترب بهما من ألم وتعب ! وليس من شك في أن أندميون النائم Endymion endormi لا يمكن أن يكون سعيداً ، فإن أحداً — كما قال أرسطو — لا يمكن أن يكون سعيداً من حيث لا يدري ! والحق أننا بمجرد ما نفلسف « اللذة » ، فإننا لا بد من أن نسلبها (ولو في طرفة عين خاطفة) جانباً من سرّها الشهواني ، ألا وهو ذلك الجانب الذي نتوسع في شرحه ، ونفقيض في الحديث عنه . ومن هنا فقد ذهب بعض فلاسفة الأخلاق إلى أنه بمجرد ما تتسلل المعرفة العقلية إلى « اللذة » ، فإنها

سرعان ما تجد نفسها مضطرة إلى القيام بألعاب بهلوانية دُوارية : Jeux vertigineux مع حقيقة مستغلقة لا سبيل إلى فهمها أو الإحاطة بها . وهذا هو السبب في أن كل تقرير فلسفي يؤكد فيه قيمة « اللذة » — بوصفها حقيقة واقعة أو ظاهرة مُعطاة — إنما هو في صميمه تصوّر عقلي نحقن فيه « الواقعة » بمصل « المثال » !

هل من سبيل إلى الحصول على « اللذة » ؟

ولنفترض — مع ذلك — أن اللذة « خير » في حدّ ذاتها ، ثم لنحاول أن نتساءل عن السبيل إلى الحصول عليها أو الوصول إليها . وهنا نلاحظ — مع الفيلسوف الألماني ماكس شلر M. Scheler . أنه « إذا كان من شأن الألم أن يلاحق الهارب ، فإن من شأن اللذة أن تهرب من المطارد » ! وهذا بروسـت Proust أيضاً يحدثنا عن عجز الإنسان عن الاهتداء إلى اللذة حين يكفى بالبحث عنها ، فيبين لنا كيف أن المرء حين يتوقع اللذة ويطرقها ويمهد لها ، فإنه لا يلبث أن يلتقى — في خاتمة المطاف — بالسأم الممض الأليم ... أليس من خصائص الوعي أنه بمجرد ما يحاول الاستمساك باللذة والعمل على استبقائها ، فإنه سرعان ما يقصّيها وينأى بها بعيداً عنه ؟ بل ألا تدلنا التجربة على أن اللاعب الذي لا يكف عن التفكير في المتعة التي سوف يظفر بها من وراء لعبته هو بعينه اللاعب الذي يُحتمل أن تفوته تلك المتعة إلى أقصى حدّ ، في حين أن اللاعب الذي يعبى كل جهوده ويحشد كافة طاقاته لعملية اللعب نفسها ، أو للقيام بدوره في المباراة ، هو — على أرجح الظن — ذلك الذي يمكن أن يظفر بقسط غير قليل من المتعة أو اللذة ؟ وإذن فهل نقول إن خير طريقة للحصول على اللذة هي العمل على تناسيها تماماً ، أو الحرص على تجاهلها باستمرار ؟ أو بعبارة أخرى هل نعدّ حالة « اللذة » مجرد مثال لذلك القانون السيكولوجي المعروف الذي يقرر أن تركيز الانتباه بكل شدة حول أية حالة وجدانية من شأنه بالضرورة أن يغيّر من تلك الحالة ، بحيث يضعف — إن لم نقل يهدم — طابعها السارّ أو غير السارّ (١) ؟

إن الكثيرين ليحاولون التفتن في البحث عن الملذات ، وتصيّد شتى ضروب الاستمتاع ، ولكن الحقيقة أننا مهما أنفقنا ، وتعبنا ، وأجهدنا نفوسنا ، فإننا نلتقى باللذة كما لو كانت « نتيجة » قد ترتبت على بعض « المقدمات » . والسبب في ذلك أن

(1) Cf. H. Sidgwick : « Methods of Ethics. » , Book I., Ch. 4.

« اللذة » — بطبيعتها — ليست « حالة » أو « موضوعاً » أو « أسلوباً في الوجود » ، بل هي — في جوهرها — « لَحَقٌّ » ، أو « إضافة » أو « هبة مجانية » ! وحتى حين ترتب اللذة آلياً على فعل قمنا به ، وكأنا هي جزاء له ، أو مكافأة عليه ، أو نتيجة طبيعية له ، فإننا مع ذلك قد نجد فيها عنصراً « غير مستحق » لم يترتب على ذلك العمل على سبيل اللزوم السببي أو الترابط العليّ . ومعنى هذا أنه مهما يكن من أمر استحقاقنا للذة ، فإنها لا بد من أن تبدو لنا بصورة الأمر الذي لم نكن نتوقعه أو الشيء الذي لم يُمهّد له ! ولعلّ هذا ما قصد إليه المسيح عليه السلام حين قال : « ... وهذه كلّها تزداد لكم » ! حقا إن اللذة قد تتمثل لذهنى على صورة حق مشروع أو نتيجة طبيعية للجهد قمتُ بأدائه ، إلا أنها لا بد من أن تبدو لى — حين تتحقق — بمثابة شيء جديد ، وكأن اللذة الفعلية ليست مجرد نتيجة مستخلصة من إمكانية اللذة . وما أشبه اللذة هنا بالخدس أو الإلهام أو الإبداع : فإنك مهما عملت ، ومهما أجهدت نفسك ، فإنك لن تستطيع أن تقول إن لك حقا طبيعياً في الإلهام ! ولن يكون في وسعك أن ترفع شكواك إلى « مجلس الدولة » ، لو أنك سهرت الليالى الطوال دون أن تنبثق في ذهنك شرارة الإلهام ! وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى اللذة : فإن مثلها كمثّل الإلهام ، من حيث إن كلا منهما يضعنا تحت رحمته باستمرار ، دون أن تكون لنا أدنى سيطرة حقيقية عليه ! والواقع أن كلاً من اللذة والإلهام يريد منا أن نقنعه بالحسنى ، لا أن نأخذه بالقوة ، بحيث قد يحق لنا أن نقول — مرة أخرى — مع جانكلفتش : « إن اللذة والإلهام يريدان — بلا شك — الجهد الشاق ، ولكنهما يريدان أيضاً ضرباً من الغفلة الإلهية أو النسيان المقدس : Divine Insouciance » ^(١) ومعنى هذا أن « اللذة » لا تريد أن تؤخذ بالقوة أو بالقهر ، بل هي تريد دائماً أن تتسلل إلينا في خفة ورشاقة ! وآية ذلك أننا حينما لا نتوقعها ولا نفكر فيها ، فإننا قد نفاجأ بأن نجدنا جالسة إلى مائدتنا ! أجل ، فإنها ربما تكون قد وجدت طريقها إلى بيوتنا — في ليلة من ليالى الربيع — أو هي ربما تكون قد نجحت في التسلل إلى داخل بيوتنا ، أو التسلق من النافذة المفتوحة ، فإذا بنا ننسّم في أجواء بيتنا عطرأً ساحراً كعطر الندى أو الزنبق ... إنها اللذة الإلهية ، وهذه تسير دائماً على أطراف أصابع قدميها ، وهي تهبّ علينا دائماً في خفة ونعومة كالروح الإلهية التي كانت ترفرف على وجه الأرض قبل الخليفة ! وقصارى القول أنه ليس هناك « تكليك » خاص لاقتناص اللذات ، بل إن من شأن اللذة باستمرار أن تفاجئنا من حيث لا ندرى ،

دون أن يكون في وسعنا يوماً الحصول عليها بالحيلة أو بالقوة !
 ومن جهة أخرى ، فإن الحساسية الوجدانية ليست « أعمق » ما في الوجود البشري
 من « قوى » أو « طاقات » ، بل إنها هي نفسها مجرد « نتيجة » تترتب على إشباع
 نشاطنا (أو عدم إشباعه) . ولعل هذا ما قصد إليه أرسطو حين لاحظ أن « اللذة » لا
 تخرج عن كونها غاية ثانوية للحياة البشرية ، حقاً إن الرغبة في الحصول على خبرة سارة
 أو نتيجة ممتعة هي إحدى الرغبات التي تؤثر على بواعثنا ، ولكن من المؤكد أنها لا تمثل
 الرغبة الوحيدة التي تتحكم في كل سلوكنا . والحق أننا لا نرغب في بعض الأشياء لأنها
 تسبب لنا لذة ، بل — على العكس من ذلك — إنها تسبب لنا لذة ، لأننا نرغب
 فيها^(١) . ولنفترض مثلاً أن شخصاً يهوى تسلق الجبال : ففي هذه الحالة نجد أن فكرة
 « تسلق الجبال » تصبح بالنسبة إليه فكرة سارة ؛ لأن لديه رغبة نفسية في القيام بمثل هذا
 العمل . ولكن الإنسان كثيراً ما يتحقق من أنه هيهات له أن يتخذ من « اللذة » غاية
 نهائية لكل سلوكه : إذ أنه يشعر بأن في أعماقه طاقة دافئة تلمس شيئاً آخر غير اللذة .
 ومهما يكن من أمر التفسيرات النفعية : فإن من المؤكد أن الأم التي تضحي بذاتها في
 سبيل طفلها لا تقوم بعمل يُعْمَلُ عليها البحث عن اللذة أو الحرص على المنفعة ! وكثيراً ما
 يسلط الضمير أضواءه الساطعة على « اللذة » ، فلا يلبث المرء أن يدرك أن « اللذة »
 التي تريد أن تفرض نفسها عليه ليست سوى متعة تافهة حقيرة لن يكون لها غد ! فليس
 من شأن « الوعي الخلقى » أو — الضمير — أن يحيل « اللذة » إلى مجرد « موضوع »
 « تافه » فحسب ، بل إن من شأنه أيضاً أن يظهرنا على ما فيها من نقص ، ونسبية ،
 وزوال . وهذا هو السبب في أننا كثيراً ما نشعر بأن اللذة عرض زائل هيهات أن يوصلنا
 إلى شيء . ولعل هذا ما عبر عنه جوليان جرين حينما كتب يقول : « إن اللذة تقتل فينا
 شيئاً . ونحن نتعرق شوقاً في صميم قلوبنا للرغبة في شيء آخر غير اللذة . وليس الأصل
 في هذا النزوع مجرد « نزعة تطهيرية » Puritanisme ، بل لأننا نشعر بأن اللذة لا تفضي
 بنا إلى شيء ! إنها تريد أن تكون غاية في ذاتها ، ولكنها في الحقيقة لا تقوم إلا بدور تافه
 حقير !... إنها مجرد قرد يحاكي « المطلق » وأقصى ما يمكن أن تعمله اللذة ، أن تمدنا
 بوهم الفناء أو أن تكشف لنا عن خداع العدم ! »^(٢) .

(1) Cf. W. Lillie : « An Introduction to Ethics » 1916. pp. 30-39.

(2) Cf. J. Green : « Journal », Paris Plan 1939, t. II., p. 97.

فوضى اللذات فى حياتنا النفسية

ولنسلم — جدلا — مع بعض فلاسفة اللذة بإمكان توجيه الحياة النفسية بأسرها نحو البحث عن اللذات ، ثم لنر بعد ذلك ما الذى يمكن أن يترتب على مثل هذا المسلك . الحق أننا لو تركنا لذاتنا وشأنها لاستحالت على الفور إلى مجموعة فوضوية أو حشد متناقض من اللذات . وهذا هو السبب فى أنه لا بد — إن عاجلا أو آجلا — من أن يجيء « الفكر » فيحاول تنظيم تلك اللذات ، أو العمل على تنسيقها . ولا غرو ، فإن من خصائص اللذات أن كل واحدة منها قلما تقنع بجانب صغير من الشعور ، بل هى تريد أن تستأثر لنفسها بمجال الوعى كله . ولكننا نعيش فى عالم متناهى هيات أن تتحقق فيه سائر اللذات معاً ، فلا بد لنا من العمل على تحقيق ضرب من « الاقتصاد » أو « التنظيم » فى نطاق تلك المتع أو اللذات ، عن طريق معرفة الشروط أو الظروف التى يمكن أن تكفل الانسجام بين اللذات ... ومعنى هذا أنه لا بد لنا من أن نحاول الاستعاضة عن « فلسفة اللذة » بما قد يصح أن نسميه باسم « صنعة السعادة » (أو تكنيك السعادة) ولا يمكن أن تتحقق هذه الاستعاضة إلا عن طريق إقحام التفكير أو التدبير أو التنظيم على سلسلة اللذات ، بحيث نرجى الحصول على بعضها من أجل التمتع بغيرها ، ونحاول إشباع رغباتنا على أمد طويل بدلا من الاندفاع إلى إشباعها بشكل فورى مباشر . ولكننا عندئذ لن نلبث أن نجد أنفسنا بإزاء « مذهب المنفعة » الذى يريد لنفسه أن يكون مجرد تصحيح عقلى لفلسفة اللذة . ولما نريد فى هذا المقام أن نعرض بالبحث لنظرية الفلاسفة النفعيين (فذلك ما سنعود إليه بالتفصيل فى فصل قادم) وإنما حسبنا أن نقول إن « حساب اللذات » عند جون استيورات مل J.S.Mill لا يعنى سوى تأخير موعد استحقاق اللذة من أجل صبغ السعادة بصبغة عقلية تتفق مع مصلحة كل من الفرد والجماعة . ولكن الظاهر أن الفيلسوف حين يطرد « اللذة » من الباب ، فإنها لا تلبث أن تعود من النافذة ! وآية ذلك أن كل الفلسفة النفعية — كما سنرى فيما بعد — لم تستطع أن تقضى تماماً على كل اعتبار لمبدأ اللذة ، ومن ثم فقد بقيت الأخلاق عندها — فيما يقول خصوم اللذة — مجرد حيلة عقلية تصطنعها « اللذات » من أجل تأكيد نفسها على حساب « الوعى الخلقى » أو « الضمير » . والحق أن « النفعية » — كما يقول جانكفليتس — تريد أن تتحايل علينا من أجل العودة إلى تقرير مبدأ اللذة ، وإن كان بصورة أكثر معقولة ؛ فى حين أننا نشعر فى قرارة نفوسنا بأن كل « نقد أخلاقى » ينتهى

بنا في خاتمة المطاف إلى « اللذة » — بوصفها الكلمة الأخيرة لكل « أخلاق » — لن يكون إلا نقداً متهاقناً مشكوكاً فيه . ولا غرابة في ذلك على الإطلاق : فإن « اللذة » — بالنسبة إلى مثل هذا النقد الأخلاقى المزعوم — ليست « نتيجة » قد تم التوصل إليها ، بل هى « غاية » قد انتهى إليها مساره من حيث لا يدري بفضل نوع من الاستدلال التبريرى .

موقف « الضمير » من « مبدأ اللذة »

والواقع أننا لو نظرنا إلى ما اصطلاح فلاسفة الأخلاق على تسميته باسم « الضمير » أو « الشعور الخلقى » ، لوجدنا أن هذه « الحاسة الخلقية » — إن صح هذا التعبير — ذات طابع « أليم » . فالضمير ينطوى أولاً وقبل كل شيء على إحساس ضمنى بأن اللذة لا تساوى شيئاً ، أو أنها — على الأقل — ليست « كل شيء » وهنا تتفرق كلمة فلاسفة الأخلاق : فمن قائل بأن اللذة كريمة في حد ذاتها ، وأن الضمير لا يقوم إلا على مبدأ كراهية اللذات إلى قائل بأن اللذة ليست كريمة في حد ذاتها ، وإنما الكريمة هو الانقياد لها ، والاكتفاء بها ، والارتقاء في أحضانها . وإذا كان كثير من رجالات الأخلاق قد أفاضوا في ذم فلسفة اللذة ؛ فذلك لأنهم قد لاحظوا أن الضمير المرفه يجزع في العادة من حياة السهولة ، وإشباع الأهواء ، والاستسلام للشهوات . وربما كان أخطر ما في « اللذة » أنها تهدد الإرادة باعتياد السهولة ، فتفقد القدرة على المقاومة ، وتجعل منها ضحية لدكتاتورية الجسد .

صحيح أن « لذاتنا » تمثل وقائع أصلية في صميم حياتنا الشعورية ، فضلاً عن أنه ليس من مصلحة العقل أن يتنكر تماماً لمبدأ اللذة ، ولكن الفضيلة — مع ذلك — تعامل اللذات معاملة الأعداء ، وكأنما هى تحس بأن كل ما يمثل حياة السهولة أو التلقائية أو الإشباع المباشر لابد من أن يكون في حد ذاته « لا — أخلاقياً » : Immoral . وهذا هو السبب في أن الكثير من فلاسفة الأخلاق قد ذهبوا إلى أن مبدأ « الحياة الخلقية » لا يمكن أن يكون هو « اللذة » ، بل لابد من أن يكون — على الأحرى — « قانوناً قائماً للطبيعة » . وحين يقرر بعض « الأخلاقيين » أن الفضيلة « شريعة القلب » ، فإنهم يعنون بذلك أنها تمثل قانوناً غير مكتوب لا يكاد يمت بأدنى صلة إلى مصلحة الفرد ، أو إلى الخير العام ، أو حتى إلى ما قد نسميه باسم « المصلحة العليا للحقيقة » ! فلا يمكن أن تكون « الفضيلة » مجرد استجابة لنداء « اللذة » ، وإلا لكان كل الناس « فضلاء » ، (المشكلة الخلقية)

خصوصاً في عصر أصبح فيه السعي وراء « الملذات » طابعاً يميز معظم خبرات الناس . ولا شك أن الشباب المعاصر حين يسعى جاهداً في سبيل تنويع خبراته والبحث عن تجارب جديدة ، فإنه يتوهم أن الوصول إلى « ملذات جديدة » هو السبيل الأوضح إلى تحقيق السعادة ! ولكن عبثاً يظن البعض أن حياة اللذة هي السعادة بعينها : فإن حياة اللذة في الحقيقة هي حياة التشتت ، والتفكك ، والتمزق ، والانفصال ، والفوضى ، والاضطراب ، وانعدام التكامل ... إلخ . إنها حياة إنسان يعيش صريعاً لحالة مستمرة من « الشد والجذب » أو « المد والجزر » : لأنه يبحث دائماً عن مطالب متناقضة ، وغايات متعارضة ، دون أن يتمكن يوماً من الوصول إلى أية « وحدة نفسية » أو أى « تكامل نفسى » . وحينما تصبح حياة الإنسان ضحية لمطلب منهم ، ما يكاد يتم إشباعه ، حتى يعاود الإلحاح على صاحبه ، كما هو الحال — مثلاً — لدى عبيد الخمر أو المخدرات أو الجنس أو أية لذة أخرى ، فإن « الامتلاء » المزعوم الذي تلوح به اللذة سرعان ما يستحيل إلى « خلاء » حقيقى أليم . ولا غرو ، فإن حياة اللذة حياة متقطعة عديمة الانتظام ، تفصل اللحظات بعضها عن البعض الآخر ، لكي تجرى وراء كل لحظة منها في اتجاهها الخاص ! ومن هنا فإن اللذة لا يمكن أن تهينا الشعور بالطمأنينة أو السلم : لأن « التحرر » الذي توفره لنا يظل هو نفسه خاضعاً للزمان ، والزمان لا يفتأ ينكره ويلغيه بغير انقطاع ! وحسبنا أن نرجع إلى حياة كل من أندريه جيد A. Gide ومونترلان ، لكي نتحقق من أن اللذة عندهما قد كانت تلتبس « المطلق » في « الآن » ، فلم تستطع أن تظهر إلا بامتلاء وقتى أو إشباع آنى ، وهيات لمثل هذا « الامتلاء » أن يشبع بهم الإرادة !

وأخيراً قد يكون في وسعنا أن نقول إن كل فلسفة أخلاقية تمجد اللذة ، وتوحد بين « الخير » و « القيم الحيوية » لابد من أن تنتهى إلى القضاء على كل « إحساس بالقيم » لدى الفرد : إذ أنه بمجرد ما يستحيل الإنسان إلى « عبد للملذات » ، فإنه لن يلبث أن يضحي بالأعلى في سبيل الأدنى ، ومن ثم فإنه لابد من أن يصبح — في خاتمة المطاف — مجرد حيوان أنانى ! وليس من شك في أن أحداً لا يدعو الإنسان إلى التكر تماماً لكل « لذة » ، والعمل على استئصال كل رغبة في الحصول على « الخبرة السارة » ، ولكن أحداً أيضاً لا يريد للإنسان أن يستحيل إلى مجرد « كائن طبيعى » تتحكم في كل سلوكه بعض « القيم البيولوجية » المحضة ، وتتجاذب حياته بأسرها طائفة من الشهوات المتناقضة التي تسودها الفوضى والاضطراب !

الفصل السادس

نظرية « السعادة »

رأينا أن « فلسفة اللذة » لا بد بالضرورة من أن تستحيل إلى « فن السعادة » خصوصاً حين يتحقق الإنسان من أنه لا بد له من تنظيم اللذات ، والاقتصاد في طلبها ، وعدم الاقبال عليها جميعاً في وقت واحد ... إلخ . وليس من شك في أنه حينما يرجى المرء الحصول على بعض اللذات في سبيل التمتع بغيرها ، وحينما يعمل على إشباع رغباته بطريقة غير مباشرة ، أو على أمد طويل ، وحينما يحاول التعرف على الشروط أو الظروف التي يمكن أن تكفل له تحقق سائر اللذات ، فإنه لا بد — عندئذ — من أن يجد نفسه مدفوعاً إلى اعتبار « السعادة » — لا اللذة — هي الخير الأقصى . والواقع أن البشر أجمعين ينشدون « السعادة » ، حتى إذا لم يعرفوا — على وجه الدقة — ماذا عسى أن تكون تلك « السعادة » التي يصبون إليها . وحينما قال بعض فلاسفة اليونان إن « السعادة » هي « الخير الأسمى » أو « الخير المطلق » فإنهم لم يكونوا يعنون بالسعادة مجرد « خير نسبي » متغير كاللذة ، بل كانوا يعنون بها تلك « الغاية القصوى » التي ليس بعدها غاية . ومعنى هذا أنهم كانوا يعدون « اللذة » جزئية ، في حين أنهم كانوا ينظرون إلى « السعادة » على أنها كلية ، فضلاً عن أنهم كانوا يرون في « اللذة » مجرد ظاهرة تجريبية ، في حين أنهم كانوا يعدون « السعادة » عالية على التجربة أو عقلية صرفة .

صحيح أن فلاسفة اليونان قد فطنوا إلى أن « اللذات » جميعاً ليست بالضرورة حسية : لأن هناك نوعاً آخر من « اللذات » أطلق عليه إبيقور (مثلاً) اسم « اللذات العليا » (كالنشاط العقلي ، وحب الجمال ، والعبادة الروحية ... إلخ) ، ولكن أنصار مذهب السعادة — من بين فلاسفة اليونان — هم وحدهم الذين أبوا أن يجعلوا من « اللذة » أيّاً ما كانت درجتها — « غاية في ذاتها » ، أو « خيراً أقصى » ، لأنهم أدركوا أن من طبيعة « اللذة » أن تكون مجرد « وسيلة » إلى شيء آخر يحببها ، في حين أن من شأن « السعادة » بطبيعتها أن تكون « غاية في ذاتها » . والواقع أن الأصل في اللذة أنها مرتبطة بمنطقة ما من مناطق الجسم ، في حين أن « السعادة » حالة نفسية تستوعب

كيان الإنسان كله . ومن هنا فقد كان لكلمة « اللذة » جمع (فنقول اللذات) ، بينما بقي لفظ « السعادة » مفرداً .

ومعنى هذا أن السعادة لا تصاحب نشاطاً جزئياً بعينه ، بل هي تقترب في العادة بالتأزر الشامل لكل مظاهر النشاط البشرى ، وبالتالي فإنها تجيء مصاحبة لحالة « الانسجام » الكلى الذى قد يتحقق بين الوظائف النفسية للفرد . وعلى حين أن « اللذة » نَهْبٌ للتغير والتحول المستمر ، نجد أن « السعادة » أقل تغيراً وأشد استقراراً . هذا إلى أن من شأن « السعادة » أن تكون أكثر ارتباطاً وأشدّ تحاملاً بتلك « النشاطات » التى تواكبها ، بحيث قد يحق لنا أن نعد تلك « النشاطات » نفسها جزءاً لا يتجزأ من هذه « السعادة » . وفضلاً عن ذلك ، فإن « السعادة » — بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة — لا يمكن أن تنسب إلا إلى حياة بأكملها (أعنى : من حيث هي « كل ») ؛ وهو ما عبّر عنه صولون Solon (فيما روى لنا أرسطو) بقوله : « لا تَدْعُ أحداً سعيداً ، اللهم إلا بعد مماته ! » (١) .

نظرية أرسطو في (السعادة)

وربما كانت أهم نظرية في « السعادة » عرفها تاريخ التفكير الأخلاقى — منذ عهد اليونان — هي نظرية أرسطو التى عرضها بالتفصيل فى كتابه « الأخلاق النيقوماخية » . وقد تصور أرسطو « الأخلاق » على أنها علم عملى يبحث فى أفعال الإنسان من حيث هو إنسان ، ويهتم بتقرير ما ينبغى عمله وما ينبغى تجنبه ، لتنظيم حياة الموجود البشرى وتديبرها على أحسن وجه ، وحينئذ تعرض أرسطو لدراسة « السعادة » ، بدأ دراسته بقوله إن كل فعل بشرى لابد من أن يهدف إلى « خير » ما ، لأن « الغاية » تطبع بطابعها حياة الموجود البشرى بأكملها . ولكننا لابد من أن نتنقل فى سلسلة « الغايات » من « خير » إلى « خير » ، حتى نصل فى خاتمة المطاف إلى « خير أقصى » يكون هو وحده الكفيل بإشباع إرادتنا ، وتوجيه حياتنا ، وتحقيق سعادتنا ، وقد سلم أرسطو — مع كل من سقراط وأفلاطون — بأن الخير الأقصى هو « السعادة » ، وإن كان قد حاول أن يثبت ذلك بأدلة عقلية . وحجته فى ذلك أن « السعادة » تُختار لذاتها دون أن تكون وسيلة لغاية أخرى من جهة ، وأنها كافية

بنفسها لإسعاد الحياة دون حاجة لخير آخر من جهة أخرى . ومعنى هذا أن الناس يطلبون الخيرات الأخرى — كاللذة ، والكرامة السياسية ، والحكمة — لأجل السعادة ، في حين أنهم لا يطلبون السعادة لشيء آخر ، ولكن أرسطو يضيف إلى ذلك أن أسمى « فعل » يمكن أن يحققه الكائن البشرى لا بد من أن يكون هو ذلك « الفعل » الذى يختص به الإنسان من حيث هو حيوان ناطق ، ومن ثم فإنه يقرر أن « الأخلاق » نشاط إنسانى يتميز به الوجود البشرى بوصفه كائناً شخصياً يتمتع بنعمة « العقل » . وليست « الحياة » في نظر أرسطو هي « الفعل » الخاص الذى يتميز به الإنسان ، لأنها مشتركة بينه وبين كل من النبات والحيوان . كذلك لا يمكن أن نعد « الحساسية » فعلاً مميزاً للإنسان : نظراً لأنها مشتركة بينه وبين الحيوان . وأما « الفكر » فهو « الفعل » الأوحد الذى يتميز به الإنسان بوصفه كائناً ناطقاً ، وبالتالي فإن الخير الأقصى للإنسان لا بد من أن ينحصر في تأدية وظيفته العاقلة ، ما دام كمال الوجود أو خيره لا يقوم إلا في تأديته لوظيفته . وعلى ذلك فإن خير الإنسان رهنٌ بممارسته لتلك الحياة الناطقة على أكمل وجه ، ما دامت « السعادة » — eudaimonia — كامنة في عمل النفس الناطقة بحسب كمالها ، أو في عملها بأحسن كمال ممكن ، إن كان ثمة كالات عدة^(١) .

حقاً إن الكثيرين لينشدون اللذة أو المجد أو الشهرة أو الثروة ، أو ما عدا ذلك من خيرات ، ولكن هذه كلها ليست سوى خيرات جزئية لا تحقق سعادة الإنسان من حيث هو موجود ناطق ، ومن ثم فإن أرسطو لا يرى فيها سوى سعادة ناقصة لا تشبع لدى الإنسان سوى قواه النامية والحاسة فقط . والحق أن هناك فضائل دنيا وفضيلة عليا : فضائل دنيا ترتبط باللذة والنجاح الخارجى ، وفضيلة عليا هي تلك القوة الخلقية التى تحدونا إلى التأمل أو النظر العقلى المجرد ، دون أدنى غاية نفعية تخرج بنا عن دائرة « النظر الخالص » . ومعنى هذا أنه إذا كان للفضائل الدنيا طابع نفعى مغرض ، فإن لفضيلة النظرية العليا طابعاً نزيهاً مجرداً عن كل غرض . ولهذا يربط أرسطو السعادة بالحكمة ، مؤكداً في الوقت نفسه أن « الحكمة » هي أسمى الفضائل : لأنها تعبر عن فعل نزيه حر يقوم به العقل ، دون أن يرمى من ورائه إلى أية مصلحة عملية أو أية فائدة نفعية . وإذا كانت « اللذة » زائلة ، والأعجاب عابرة ، والثروة مهددة بالضياح ، والشهرة متوقفة على الآخرين ، فإن « الحكمة » هي وحدها الفضيلة الباقية الكاملة التى ترقى بالوجود البشرى إلى مستوى الألوهية . صحيح أننا لا نحيا حياة الآلهة إلا في

(1) Aristotle : « Nicomachean Ethics. » Book I., 7., 1099 a.

لحظات سريعة خاطفة : لأن حياة النظر المجرد أو الحكمة الخالصة أسمى بكثير من كل ما تحتمله حياة كائن بشري من لحم ودم ، ولكن في استطاعتنا مع ذلك أن نعلو على أنفسنا عن طريق الفكر ؛ لأننا بالفكر نشارك الآلهة نفسها ، ومن ثم فإننا نستطيع عن هذا الطريق أن نحقق لأنفسنا وجوداً إلهياً وسعادة إلهية يرقيان بنا إلى عالم علوى مفارق للحس . وإذا كان المثل الماثور يقرر أنه ليس على الإنسان بوصفه إنساناً سوى أن يصطنع لنفسه أفكاراً بشرية محض ، كما أنه ليس عليه بوصفه كائناً قانياً ، سوى أن يصطنع لنفسه أفكاراً فانية محض ، فإن أرسطو — على العكس من ذلك — يدعونا إلى أن نحاول بقدر استطاعتنا أن نرقى إلى مستوى « الخلود » عن طريق اصطناع أفكار إلهية عقلية خالصة . من هذا نرى أن أرسطو قد عرّف « السعادة » بالاستناد إلى مفهوم « الكمال » ، فقال إنها « العمل وفقاً لما يقضى به الكمال » ونصّ في الوقت نفسه على أن من شأن هذا العمل أن يحقق لصاحبه لذة حقيقية ، وعلى الرغم من أن أرسطو قد أفسح المجال — في نظريته الأخلاقية — لكافة أنواع الخيرات — بما فيها الخيرات الخارجية ، وخيرات الجسم ، وخيرات النفس — إلا أننا نراه مع ذلك يقرن السعادة بخيرات النفس ، لأنه يعدّ « السعادة » فعلاً نفسياً . ولم يقتصر أرسطو على القول بأن من شأن السعادة — بوصفها عملاً كاملاً — أن تكون « ثابتة » ، بل هو قد ذهب أيضاً إلى أن الرجل الفاضل — أي ما كانت الظروف — أسعد بالضرورة من الرجل الشرير : لأنه « يأتي في كل حالة أجهل ما تسمح به ظروفه من أفعال ؛ وفضيلته هي السعادة الجوهرية ، وما عداها من خيرات فهي سعادة عرضية »^(١) وهكذا قصر أرسطو « السعادة » على خير النفس باعتباره خير الإنسان بما هو إنسان ، وإن كان هذا لم يمنعه من التنويه بالخيرات الخارجية والجسمية كغيره من فلاسفة اليونان^(٢) .

ولو أننا أنعمنا النظر الآن إلى مذهب أرسطو في « السعادة » ، لوجدنا أن من أهم مزايا هذا المذهب أنه قد نجح في التفرقة بين « السعادة » و « اللذة » من جهة ، فضلاً عن أنه قد فطن إلى ضرورة ربط مفهوم « السعادة » بمفهوم « الكمال » أو « تحقيق الذات » من جهة أخرى . وليس من شك في أن أرسطو حين قال إن « السعادة » يجب أن تكون هي « الحكمة » فإنه كان يعدّ « الحكمة » بمثابة فضيلة العقل النظرى ،

(1) Aristotle : « Nicomachean Ethics. » , Book I., 10.

(2) يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة اليونانية » ، طبعة خامسة ، مكتبة النهضة ،

وبالتالى فقد كانت « السعادة » عنده بمثابة « الفعل المطابق لأشرف فضيلة ». ولكن أرسطو نفسه قد اعترف بأن الإنسان لا يستطيع أن يمارس حياة « النظر » إلا أوقاتاً قصاراً ، ومن ثم فقد وجد نفسه مضطراً إلى التسليم بأن السعادة البشرية بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون ناقصة . ولو أننا اعتبرنا « النظر » غاية الوجود البشرى ، ما دامت سعاداته كلها رهنأ بذلك الجزء الإلهى من وجوده ، لكان فى وسعنا أن نقول إن الوجود البشرى — وحده — هو الكائن التعيس الذى يظل عاجزاً عن تحقيق غايته ، بينما تشهد التجربة بأن سائر الموجودات الأخرى — هذا الوجود الغائى — تحقق جميعاً غاياتها ! وأغلب الظن أن يكون أرسطو قد ربط « السعادة » بحياة « الآلهة » ، ما دامت الآلهة هى وحدها « العقول الصرفة » التى تحيا حياة « النظر العقلى المجرد » ، فلم يستطيع من بعد أن يهبط بالسعادة إلى دنيا الناس ، وبالتالى فقد بقيت « السعادة » عنده حلماً إلهياً بعيد المنال !

مذهب « الرواقية » فى « السعادة »

ولنعمد الآن إلى دراسة النظرة الرواقية إلى « السعادة » لنبرز العناصر الجديدة فى هذه النظرة . وهنا نجد أنه إذا كان الأبيقوريون قد ذهبوا إلى أن « الخير » هو ما يشبع رغباتنا البشرية ، وفى مقدمتها جميعاً الرغبة فى اللذة ، فإن الرواقيين — على العكس من ذلك — قد ذهبوا إلى أن العقل الخير هو ذلك وفقاً لمبدأ من المبادئ العقلية . وإذا كان الرواقيون قد اعتبروا « الخيرية » ظاهرة طبيعية ، فذلك لأنهم قد افترضوا منذ البداية أن قوانين الأخلاق هى قوانين الطبيعة ، وأنها تتسم بطابع عقلى تام ، وبالتالى فهى قابلة للفهم — إلى أبعد الحدود — من جانب العقل البشرى . ولاشك أن مثل هذه النزعة الأخلاقية تفترض بالضرورة نظرة ميثافيزيقية خاصة : لأنها تقيم فـهـمـها للخير الأقصى على تفسير عقلى للطبيعة البشرية بصفة خاصة ، ولطبيعة الكون بصفة عامة . وآية ذلك أن الرواقيين يقررون أن « القانون الأخلاقى » هو قانون الوجود ، وأن الوجود هو الحياة ، وأن الحياة هى ممارسة الوظائف بطريقة طبيعية سوية ، « فليست السعادة سوى شعورنا بأننا نمارس وظائفنا فى انسجام تام ، وأنها تتمتع بأقصى ما تيسره لنا طبيعتنا من حياة خصبة فائضة مليئة . وما دام الأمر كذلك ، فإن الإنسان حين يريد حياته ، إنما يريد سعاداته ، وهو حين يريد سعاداته ، فهو إنما يريد أن يحىء كل شىء مطابقاً لقانون الطبيعة » ... وتبعاً لذلك ، فإن « الخير » — فى نظر الرواقيين — هو مطابقة النظام الكونى ، بينا « الشر »

هو التمرد على قانون الأشياء . ولما كان من شأن « اللذة » في معظم الأحيان أن تصرف الإنسان عن « الحياة العقلية » القائمة على النظام والتوافق والانسجام فإن من واجب الرجل الحكيم العمل على اجتناب حياة الملذات والانصراف عن مشاغل العواطف والأهواء والانفعالات .

والحق أن محور الارتكاز في كل فلسفة الرواقين الأخلاقية هو التوحيد بين الفضيلة والسعادة : على اعتبار أن « القيمة العليا » في الحياة البشرية بأسرها إنما هي للسلوك الخير ، وأن السعادة لا تخرج عن كونها مجرد « وعى » أو « شعور » بهذا السلوك الخير . ولكن الرواقين يرفضون مبدأ اللذة لأنهم لا يرون في « الانفعالات » سوى أهواء حقيرة لا بد من العمل على استبعادها ، ومعنى هذا أن « الانفعالات » — بطبيعتها — « مضادة للمنطق » فهي بمثابة قوى غاشمة تبعث في حياة الإنسان الفوضى والاضطراب ، وتقف حجر عثرة في سبيل « اللوغوس » الذى هو أسمى شئ في الوجود البشرى بأسره . وحينما يستسلم الإنسان للانفعالات والأهواء ، أو حينما يفقد كل سيطرة على ما لديه من رغبات وشهوات ، فإنه سرعان ما يقع فريسة لذلك « الشر الخلقى » الذى لا بد من أن يفرض عليه بالضرورة ضرباً من العبودية الباطنية .

ولكن ، إذا كان الرواقيون قد ربطوا الفضيلة بالسعادة ، والرزيلة بالشقاء ، فماذا تراهم كانوا يعنون بكلمة « السعادة » ؟ هذا ما يجيبنا عليه الرواقيون أنفسهم بقولهم إن السعادة تنحصر في « ضبط النفس » ، و « الاكتفاء بالذات » ، و « الحكمة » : ولا شك أن هذه الفضائل الثلاث قد اكتسبت لدى الرواقين صيغة عقلية فأصبح مدلولها مختلفاً تمام الاختلاف عما كان لها عند الأبيقوريين . ولكن المهم أن « الفضيلة » (التى قد بينها الرواقيون وبين « السعادة ») قد أصبحت تتصف بطابع « الخلو من الرغبة » ، بمعنى أنها أصبحت تشير أولاً وقبل كل شئ إلى حالة « التحرر من الانفعال » أو « التخلص من الهوى » ومن هنا فقد فقدت « الفضيلة » على يد الرواقين كل طابع وجدانى أو عاطفى أو انفعالى ، وكأن على رجل الأخلاق أن يتحرر تماماً من كل مشاركة في قيم الحياة الغائضة ، وأن يغلط عينيه عن كل ما قد يولد لديه رغبات أو انفعالات أو أهواء . وفات الرواقين أن الإنسان ليس « عقلاً » صرفاً لا يخضع لأية عاطفة أو وجدان بل هو كائن مشخص له أفكاره وعواطفه ورغباته ونوازه وميوله واتجاهاته الوجدانية .. إلخ . وعيناً يحاول فلاسفة « الرواقية » التوحيد بين « الخضوع للطبيعة » و « الخضوع للعقل » ، فإن « الحياة الخلقية » للموجود البشرى لا يمكن أن تظل مجرد « حياة عقلية » لا يحكمها سوى طاعة القانون الطبيعى الكلى .

ولسنا هنا بمعرض نقد الفلسفة الأخلاقية التي نادى بها المذهب الرواقى ، وإنما حسبنا أن نقول إن « الفضيلة » التي دعا إليها الرواقيون تكاد تخلو من كل مظهر من مظاهر « الثراء الباطنى » : لأنها تتطلب من الإنسان إغلاق عينيه على الكثير من « القيم » التي تفيض بها الحياة ، خوفاً من أن تستثير لديه هذه « القيم الحيوية » بعض الرغبات أو الأهواء أو الانفعالات . ومن هنا فقد ذهب بعض فلاسفة الأخلاق المعاصرين — وعلى رأسهم هارتمان — إلى أن أخلاق الرواقية تفضى في خاتمة المطاف إلى التنازل التام أو التخلي المطلق عن سائر « الخبرات البشرية » بدليل أن الرواقيين لم يدعوا نحو تلك الخبرات — حتى أنبلها وأسمىها — سوى الاحتقار والازدراء ! صحيح أن الفضيلة الرواقية لم تبلغ درجة « الصرامة » التي بلغت « الأخلاق الكلبية » ، ولكنها مع ذلك قد أدت بالضرورة إلى إجداب الحياة ، وتخدير الذهن . وآية ذلك أن نظرة الرواقيين إلى الفضيلة — فيما يقول هارتمان — قد تضمنت الدعوة إلى مطابقة النظام الكونى ، دون أن تنص في الوقت نفسه على ضرورة تحقيق الذات على النحو الملىء الكامل الذى يضمن للإنسان إشباع شتى القوى الكامنة فيه . ولا شك أن مثل هذه الدعوة لا بد من أن تؤدي إلى ضمور الإحساس بالقيم ، إذ لا يصبح من واجب الإنسان العمل على تنمية قواه ، وتربية أحاسيسه ، بل يكون كل ما عليه أن يحقق ضرباً من التطابق الخارجى بين إرادته من جهة ، وقانون الأشياء من جهة أخرى^(١) .

وحين يتحدث الفلاسفة الرواقيون عن « الاكتفاء بالذات » ، باعتباره فضيلة أساسية من فضائل الرجل الحكيم ، فإنهم في الحقيقة يشيرون إلى حالة رجل لم يعد يعوزه شيء مجرد أنه قد أطرح القيم ! فحن هنا بإزاء استغناء زائف ، وضبط نفس فارغ ، ما دام الرجل الحكيم قد تنازل عن كل شيء ، أو تخلى تماماً عن كل شيء ! والواقع أن فضيلة الرجل الرواقى هي أقرب ما تكون إلى ضرب من المتنكر للحياة ، وكأن « الحكيم » لا يعترف بالجميل للعالم ، ولا للوجود الخارجى وربما كان هذا الموقف على النقيض تماماً من ذلك الموقف الذى اتخذته لو كرتيوس Lucretius حين عبر عن إحساسه العميق بالوفاء والعرفان بالجميل للحياة الوفيرة المليئة بالفائضة . ولكن المهم أن مذهب السعادة عند الرواقيين قد أعلى من شأن قيم أخرى لا صلة لها على الإطلاق بمعانى اللذة ، والإشباع ، والخبرات السارة ، فراح يتحدث عن ملكوت أسمى هو « ملكوت اللوغوس Logos » ، بوصفه قانون العالم ، ومعناه ، وروحه ، ومن هنا أصبح « الخير

(1) N. Hartmann : « Ethics. » Vol. I., Ch. IX. pp. 133 ' 134.

الأسمى « للفيلسوف الرواقى هو الاتحاد باللوغوس ، وتحقيق القيم الروحية التى تتطلبها هذه الحياة السعيدة فى أحضان « العقل الكلى » ! وليس بدعا — بعد ذلك أن نرى الأخلاقية الرواقية تتجه نحو الإعلاء من شأن العقل البشرى ، بكل ما يحمله من معانى القوة والحرية والجلال ، بينما نجدتها تحط من قدر الانفعالات البشرية ، مع كل ما يقترن بها من اهتمامات حقيرة بمشاغل الحياة اليومية ، ومطالب الأحداث العرضية الزائلة ، ومقتضيات البحث عن السعادة ! ولاشك أن الرواقية حين أعلت — فى خاتمة المطاف — من شأن « المثل الأعلى » للرجل « الحكيم » ، فإنها قد حطمت الإطار الضيق لفلسفة السعادة ، ولكن لكى تعود إلى مذهب سقراط فى التوحيد بين « الفضيلة » و « العلم » . ومن هنا فقد أعلن الرواقيون أن ما يحول دون الفضيلة والسعادة إنما هو « الانفعال » الصادر عن قوة غير عاقلة . وهكذا انتهى الرواقيون إلى القول بأن الشقاء حليف الرذيلة والجهل ، ما دام من شأن العقل أن يصير غير عاقل بتراخى النفس واندفاعها وراء الميل المسرف والحكم الكاذب^(١) .

السعادة فى الأخلاق المسيحية والأفلاطونية المحدثه

ولسنا نعدم فى الأخلاق المسيحية نفسها — على الرغم من دعوتها إلى محبة القريب — مذهباً فى السعادة قد يصح أن نسميه باسم مذهب « السعادة الأخروية » . والواقع أن المسيحية قد أهبت إلى أن هناك ثواباً وعقاباً أبديين ينتظران الإنسان فى حياة أخرى ، على اعتبار أن ما يزرعه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، لابد من أن يحصد فى الحياة الآخرة . صحيح أن الإنسان الخير قد يلقى فى الحياة الدنيا الكثير من المصاعب والآلام والحزن ، ولكنه لابد من أن يظفر فى الحياة الأبدية بما هو أهل له من نعيم وسعادة وغبطة روحية . وليس انتقاص المسيحية من قيمة « العالم الحاضر » سوى الواجهة الخلفية لإعلائها من شأن « الحياة الأخرى » . وحتى لو نظرنا إلى فضيلة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، لوجدنا أن قيمتها رهن بخلود النفس والاستعداد للحياة الأبدية . ولكن « السعادة » فى الأخلاق المسيحية ليست مجرد سعادة أخروية : « Eudoeonism of the Beyond » فحسب ، وإنما هى أيضاً سعادة « فردية » . وآية ذلك أن المسيحية تتطلب من الفرد — أولاً وقبل كل شئ — العمل على تحقيق « خلاصه » الشخصى ، قبل التفكير فى إنقاذ

(١) يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة اليونانية » ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٢ .

نفوس الآخرين ! حقا إن المسيحية قد دعت الفرد إلى محبة القريب والاهتمام به والإحسان إليه في هذه الحياة الدنيا ، ولكنها لم تطلب إليه كل ذلك إلا لكي تكفل له العمل على إنقاذ نفسه في الحياة الآخرة . ومن هنا فقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن « الغيرية » المطلوبة في هذا العالم هي في الآن نفسه « أنانية » فيما يختص بالعالم الآخر ! ولعل هذا ما حدا ببعض فلاسفة الأخلاق إلى القول بأن العقيدة الدينية الميتافيزيقية القائلة بالحياة الأبدية هي التي تملي على المسيحي — بالضرورة — أن يكون من دعاة النزعة الفردية ، أو الأنانية ، من نزعات « فلسفة السعادة » (١) .

صحيح أن تاريخ المسيحية — خصوصاً في العهود الأولى لحياة الجماعة المسيحية — لم يكن يخلو من نزعات جماعية كانت تقوم على الحياة المشتركة والمسئولية العامة ، ولكن من المؤكد أن ماهية التفكير الأخلاقي المسيحي كانت تنطوى على مبدأ « الخلاص الفردي » ، ما دام كل فرد كان يُعد مسؤولاً أمام الله عن سلوكه الخاص لا عن سلوك غيره من الناس . وحينما دعا المسيح كل فرد إلى أن يكثر كنوزه في السماء ، فإن من الواضح أنه كان يوجه الحديث إلى كل رجل مسيحي على حدة . ولم تلبث نزعات الزهد والرهبانية والاستشهاد أن جاءت فعملت على تقوية هذا الاتجاه الفردي ، خصوصاً وأن « الحياة الأخرى » قد بقيت هي كل ما يصبو إليه الإنسان المسيحي . وحينما ظهرت « الأفلاطونية المحدثة » على مسرح التفكير الديني ، تحولت فكرة « السعادة الأخروية » إلى حنين صوفي للعودة إلى « الواحد » أو « الصعود » إلى « السماء » ! وعلى الرغم من أن فكرة « النجاة » أو « الخلاص » قد كانت تعنى لدى أهل الصوفية المسيحية التحرر من الخطيئة ، والطهارة أو النقاء ، وبلوغ حالة البراءة ، والتشبه بالمسيح ، والاتحاد بالله ... إلخ . إلا أن « السعادة » قد بقيت هي « القيمة الخلقية » الأساسية الكامنة وراء هذه الفكرة ولم يكن من المستغرب بعد ذلك أن نرى المتصوفة المسيحيين يسهون في وصف تلك السعادة الإلهية التي تترتب على انجذاب النفس نحو الله ، واستغراقها فيه ، واتحادها به ... إلخ . بل لقد ذهب بعض رجالات المسيحية إلى حد أبعد من ذلك ، فراحوا يتحدثون عن « النعيم الإلهي » بلغة حسية لا تخلو من عبارات العشق ، واللذة ، والانفعال ، وما إلى ذلك . والحق أن « المسيحي » لم يكن في يوم من الأيام مجرد « فيلسوف رواق » ، ومن ثم ، فقد بقيت « القيم العليا » عنده مرتبطة بالانفعالات العارمة ، والأهواء العنيفة ، والرغبات الجياشة ... إلخ .

(1) Cf. N. Hartmann : « Ethics », vol. I. Ch. IX, pp. 134-136.

وقصارى القول أن « السعادة » المسيحية لم تبق مجرد « قيمة خلقية » خالصة ، بل هي قد اقترنت بالكثير من « القيم الدينية » ، فكان من ذلك أن اقترنت بشتى « الانفعالات » التي تعتور « النفس المؤمنة » في سعيها الحماسي نحو « الخلاص » أو « النجاة » . ولاشك أن تلك « القيم » الموضوعية الفائضة التي انطوت عليها « فلسفة السعادة » في الأخلاق المسيحية هي التي حالت دون استحالتها — في خاتمة المطاف — إلى مجرد « فلسفة لذة » (١) .

نظرية نقدية إلى « فلسفة السعادة » بصفة عامة

ولسنا نريد أن نقوم باستعراض تاريخي لشتى « مذاهب السعادة » — عبر تطور التفكير الأخلاقي — وإنما حسبنا أن نقول إن العصور الحديثة قد شهدت نسخة جديدة معدلة من « فلسفة السعادة » على صورة مذهب « نفعي » اقترن اسمه بأسماء بعض الفلاسفة الإنجليز من أمثال بنتام وجون ستيوارت مل ، وسدجويك وغيرهم . ولما كان هذا المذهب قد اقترن بفكرة جديدة لا نكاد نجد لها نظيراً في المذاهب القديمة أو الوسيطة ، ألا وهي فكرة « المنفعة العامة » ، فقد آثرنا أن نفرده فضلاً خاصاً نتحدث فيه بالتفصيل عن مبادئ « النفعية » بوصفها صورة منقحة من صور « فلسفة السعادة » . ولكن الشيء المشترك بين كل تلك النظريات الأخلاقية القائلة بالسعادة — قديماً وحديثاً — هو أنها جميعاً « أخلاق نتائج » Ethics of Consequences ، فنحن هنا بإزاء مذاهب أخلاقية تحكم على « الأفعال » بما يترتب عليها من « نتائج » ، ولا تقدر « السلوك » إلا بالنظر إلى « الثمار » الذي تجتني من ورائه . وحين يقول أصحاب هذه المذاهب — مثلاً — إن الصلة وثيقة بين الخير والسعادة ، فإنهم يعنون بذلك أن الرجل الفاضل وحده هو الذي يستطيع تحقيق الانسجام بين سائر قواه ، ومن ثم فإنه هو وحده الذي يتمكن من بلوغ حالة « السعادة » . ومعنى هذا أن « الفضيلة » لا بد بالضرورة من أن تقضى إلى « السعادة » ما دام من شأن الفضيلة أن تضمن للإنسان ضرباً من النظام ، والتناسب والانسجام . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن الصلة وثيقة بين « السعادة » و « الخير » : لأن كلا منهما يستلزم تحقيق القوى الكامنة في صميم الطبيعة البشرية تحقيقاً مليئاً كاملاً . ولا بد للإنسان من أن يستشعر « السعادة » حينما يحقق

(١) ارجع إلى كتاب هارتمان المشار إليه آنفاً : « علم الأخلاق » ، الجزء الأول ، ص ١٣٧ .

ما تقضى به طبيعته : فإن توافق الإنسان مع نفسه هو « السعادة » بعينها^(١) . وفضلاً عن ذلك ، فإن « البحث عن السعادة » ميل طبيعي لدى الإنسان ، ولاشك أننا حيناً نعود إلى إشباع ميل طبيعي موجود لدينا فإننا لا نشد إلا « الخير » . وماذا عسى أن تكون « السعادة » في الحقيقة إن لم تكن ذلك الجهد الذي نرمي من ورائه إلى إعادة تنظيم وجودنا ، بحيث نستبقى من بين لذاتنا تلك التي لا تمثل أى خطر حقيقى على انسجام شخصيتنا أو توافقها ؟

إن الناس جميعاً لينشدون « السعادة » حتى أولئك الذين ليس لديهم أى إحساس بالحياة الخلقية . وربما كان الأصل في عملية « البحث عن السعادة » هو ذلك الميل السيكولوجى الذى يدفع بالإنسان عادة إلى التماس « القيم » ، وتقديرها ، وتذوقها ، بصفة عامة . وحتى إذا لم تكن لدينا جميعاً فكرة واضحة عما نريده حين نلتمس « السعادة » ، فإن لدينا إحساساً ضمناً — على الأقل — بتلك « النزعات » أو « الرغبات » التى نسعى نحو إشباعها . ولو كانت « الأخلاق » فى صميمها هى هذا « البحث عن السعادة » ، لكان الناس جميعاً « أصحاب خُلُق » ، ولاستحالت « المشكلة الخلقية » — بالتالى — إلى مجرد « صنعة » أو « تكنيك » ينصب على الوسائل أو السبل المؤدية إلى الهدف المنشود . ولو جاز أن يكون ذلك كذلك ، لكان أفضل الناس وأقربهم إلى الأخلاق هو أمهرهم فى الاحتفاظ بضرب من التوازن المرضى بين شتى حالات وجوده من جهة ، وبين ظروف معيشته من جهة أخرى . ولكننا نعلم أن هذا « السعى » كله لا يتم إلا فى النطاق المادى ، ما دامت هذه « المهارة » ، رهناً باستخدام الأشياء على النحو الذى يضمن للذات تحقق التوافق بينها وبين العالم الخارجى . وتبعاً لذلك فإننا هنا فى مملكة الصدفة وانعدام اليقين : إذ سوف تظل « السعادة » خاضعة لإمكانية التغير ، وسوف يكون فى وسع أى حدث صغير أن يكون هو الكفيل وحده بتحطيم كل تنظيماتنا ! ولاشك أننا عندئذ لن نكون إلا مخلوقات تعيسة — بكل معنى الكلمة — لأننا سنكون عندئذ قد علقنا آمالاً كبرى على هذه الاستجابة من جانب العالم الخارجى ! ولكن متى كانت « السعادة » رهناً بحالة الخضوع السلبي أو الاعتماد الكلى على العالم الخارجى ؟ ومتى كانت حياة الفضيلة مجرد تناغم طبيعى مع ذبذبات الواقع العينى ؟

إننا لا ننكر — بطبيعة الحال — أن « السعادة » تلعب دوراً كبيراً فى حياة الإنسان

(١) ارجع إلى كتابنا : « مبادئ الفلسفة والأخلاق » ، مكتبة مصر ، الفصل الخامس ص ١٦٤ .

الخلقية ، ولكننا لا نستطيع أن نجارى تلك المذاهب الأخلاقية التى أضفت على « السعادة » مكانة كبرى فى سلم للقيم ، فاعتبرتها « القيمة العليا » أو « الخير الأقصى » . ومعنى هذا أننا نرفض تلك « المعادلة الأخلاقية » الكبرى التى وضعها بعض فلاسفة اليونان حينما قالوا إن الإنسان السعيد هو الإنسان الخير ، فى حين أن الإنسان الشقى هو الإنسان الشرير . والسبب فى ذلك أن ضميرنا الخلقى ينفرد من كل نزعة أخلاقية تأتى إلا أن تحكم على السلوك البشرى والحياة البشرية بالاستناد إلى « النتائج » وحدها ، دون النظر إلى الميول الباطنية ، والبواعث النفسية ، والمقاصد العميقة ... إلخ . والواقع أن من شأن « النتائج » فى بعض الأحيان أن تنحرف بالحكم الخلقى عن جادة السبيل ، فينسى المرء — أو يتناسى — أن للنية أو المقصد أو الحالة النفسية أو البواعث الداخلية دوراً كبيراً فى تحديد طبيعة « الفعل الخلقى » . ولما كانت « النتائج » لا تتوقف على « الإرادة » وحدها ، فى حين أن « الإرادة » وحدها هى التى يمكن أن توصف — فى أى فعل من الأفعال — بأنها « خيرة » أو « شريرة » ، فليس بدعاً أن تكون « أخلاق النتائج » أخلاقاً قاصرة تظل بطبيعتها عاجزة عن إصدار أى تقييم خلقى حقيقى على الشخص البشرى .

يبد أننا لا نستطيع أن نقرر — مع ذلك — أنه ليس للنتائج من دور على الإطلاق فى صميم المشكلة الخلقية ، وإنما لا بد لنا من أن نتحاشى خطر الوقوع فى أخطاء الاتجاه المضاد . صحيح أن الإنسان كثيراً ما يشعر بأنه ليس له على الأحداث يدان ، ومن ثم فإنه قد يحس بأن « النتائج » ليست رهناً بإرادته ، ولكنه يشعر — مع ذلك بأنه مسئول — إلى حد غير قليل — عن « ثمار » أفعاله ^(١) .

والحق أنه ليس فى وسع الإنسان أن يقنع بإرادة « العمل الخير » فى سلبية وتراخ وتقاوس تام ، وإنما لا بد له من أن يأخذ على عاتقه مسئولية تحقيق ذلك العمل ، واكتشاف الوسائل اللازمة لتنفيذه ، واستخدام كل ما لديه من معارف فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية . ومعنى هذا أن الشخصية بأكملها لا بد أن تجتهد نفسها « ملتزمة » بذلك الفعل الإرادى الذى تسعى جاهدة فى سبيل تحقيقه . وليس من شأن « الميول الخلقية » أن تقف فى حالة « عدم اكتراث » بالنسبة إلى « النتائج » ، وإنما لا بد للموقف الأخلاقى من أن يولد لدى صاحبه حالة « اهتمام » تستوعب الفرد بأسره ،

(١) وربما كان هذا ما قصد إليه المسيح عليه السلام فى « موعظة الجبل » حين قال : « من ثمارهم تعرفونهم » [راجع : إنجيل متى ٧ : ١٦ — ٢٠] .

فتجعله يفكر في « نتائج » أفعاله ، ويقدر « الآثار » التي يمكن أن تترتب عليها ، إن بالنسبة إلى نفسه أم بالنسبة إلى الآخرين . وتبعاً لذلك فإن هناك علاقة وثيقة بين الميل أو النية أو القصد من جهة ، وبين نتائج الفعل من جهة أخرى . مما يدفعنا إلى القول بأن « أخلاق النتائج » لا بد من أن تمثل عنصراً أساسياً يدخل في تكوين كل « أخلاقية » سليمة . ولكننا نعود فنقرر أن هذه الحقيقة لا تبرر الحكم على أى « فعل خلقى » بالاستناد إلى آثاره الفعلية أو نتائجها الواقعية وحدها ...

« ما أخذ أخرى يمكن أن توجه إلى » فلسفة السعادة »

ولنتساءل الآن : هل من الصحيح أن « الإرادة » حين تنتج نحو شيء قيم (أعنى نحو « موضوع » ينطوى على « قيمة » ما من « القيم ») فإنها لا تستهدف سوى « السعادة » ؟ هذا ما قد يكون في وسعنا أن نردّ عليه بالسلب : فإن الإرادة الواعية لا تعرف شيئاً عن هذا السعى المقصود نحو السعادة ، وإنما هي تعمل — أولاً وقبل كل شيء — على مواجهة « الموقف » ، وإن كان من الممكن — فيما بعد — أن تجيء عملية « البحث عن السعادة » فتندس في الموقف على صورة « باعث لا شعورى » . وحتى ما قد نسميه باسم : البحث عن « السعادة » إنما هو في صميمه نشاط يستهدف اهتمامات أخرى كثيرة . والظاهر أن دعاة مذهب السعادة يميلون في العادة إلى تجاهل وجود ضروب مختلفة من السعادة ، في حين أن التجربة شاهدة على قيام أنماط مختلفة من السعادة . ولا شك أننا لو نظرنا — مثلاً — إلى سعادة الوعي البليد الذى لاحظ له من الترقى أو النضج ، فإننا لن نريد لأنفسنا مثل هذه السعادة ، لأننا سوف نعدها بالضرورة ضرباً من الانحلال البشرى . ولو أننا لاحظنا أن « السعادة » قد تقتزن — في نظر البعض — بمعانى « الذهول » ، أو « الغيوبة » ، أو « التخدير العقلى » ، فإن من المؤكد أننا لن نتحمس كثيراً لمثل هذا النوع من « السعادة » . والمهم أننا نميز في العادة تمييزاً واضحاً بين « سعادة » و « أخرى » : لأننا لا يمكن أن نضع سعادة « الرجل الأنانى » على قدم المساواة مع سعادة « الرجل الغيرى » : كما أن أهل العصور القديمة لم يكونوا يضعون سعادة « الأحمق » أو « الجاهل » على قدم المساواة مع سعادة « الحكيم » أو « الفيلسوف » . ولعل هذا ما عبّر عنه أبيقور قديماً حين قال : « إنه لخير لك أن تكون شقياً وعاقلاً ، من أن تكون سعيداً وأحمق » .

وربما كان المأخذ الكبير الذى يمكن أن نوجهه إلى مذهب السعادة هو أن نكشف

للقائلين بهذا المذهب عن استحالة اعتبار السعادة « قيمة في ذاتها ». وآية ذلك أن هناك ضرورياً عديدة من السعادة ، ومن بينها « سعادة » لا تنطوى على أية « قيمة خلقية » ، إن لم نقل على النقيض تماماً من كل « قيمة » . وتبعاً لذلك فإن « السعادة » نفسها لا يمكن أن تعد « معياراً » أخلاقياً ، بل المعيار شيء آخر باطن فيها ، ألا وهو « مضمونها » الخاص ، أو « كيفيتها » الخاصة . وهذا هو السبب في أن القائلين بالسعادة لابد من أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التسليم بقيم أخلاقية أخرى تكمن وراء تلك « السعادة » . وحسبنا أن نعود إلى كل من « الأبيقورية » و « الرواقية » لكي نتحقق من أن « السعادة » عند كل منهما لم تكن سوى حقيقة فرعية أو واقعة ثانوية تخفى وراءها السعى نحو اقتناء أنبل القيم الروحية لدى الأبيقوريين ، والنزوع نحو الاستعلاء على الحظ أو الصدقة بفضل قوة الروح أو العقل لدى الرواقيين ، وحينما ربطت المسيحية « السعادة » بالخلاص أو النجاة ، فإنها هي الأخرى كانت تخفى وراء تلك « السعادة » إيماننا ضمينا بخير أقصى نحن إليه كل نفس مسيحية ، ألا وهو « نقاء الضمير » و « الصحة الروحية » ، و « الاتحاد بالله » . وسنرى فيما بعد أن فلاسفة « النفعية » أنفسهم لن يقولوا باستواء كافة « الوسائل » المؤدية إلى « السعادة » ، بل سيعمدون إلى التفرقة بين « ثروة » يحصل عليها المرء عن طريق الأمانة أو بالطرق المشروعة ، و « ثروة » أخرى يحصلها عن طريق السرقة أو بوسائل غير مشروعة ، وإن كانت « النتائج السعيدة » واحدة في كلتا الحالتين . والواقع أن الفيلسوف النفعي — هو الآخر — لا يملك سوى أن يعد النظام ، والوفاء ، والأمانة ، والعلاقات القائمة على العدل ، « قيماً » أخلاقية لا تتحمل أدنى شك . ولو كان من شأن « الحماقة » أن تسبب في إسعاد الكثيرين ، فإن من المؤكد أن الفيلسوف النفعي لن يريد مثل هذه « السعادة » لأكثر عدد ممكن من الناس ! وهكذا نرى أن « المعيار » الحقيقي — في كل هذه الحالات — لابد من أن يظل شيئاً آخر غير « السعادة » نفسها ...

يُبد أن هذا لا يعنى أن تكون « فلسفة السعادة » خلواً تماماً من كل صيغة أخلاقية ، خصوصاً وأن الكثير من المذاهب الأخلاقية القديمة التي طالما أثرت على ضمائر البشر في كل زمان ومكان قد بقيت في صميمها مجرد « مذهب سعادة » . والواقع أننا جميعاً نشعر شعوراً مباشراً بما للسعادة من « قيمة » . كما أننا ننفر بطبيعتنا من كل ما قد يحمل في أنظارنا معنى « الشقاء » أو « التعاسة » . صحيح أننا ندرك منذ البداية أن ضروب السعادة المختلفة لا تستوى ، وأن البعض منها قد يخلو تماماً من كل قيمة ، ولكن هذه

الحقيقة لا تمنعنا من الاعتراف بما للسعادة من « قيمة » ، وإن كانت في الوقت نفسه لا تسوّغ لنا الظن بأن « السعادة » أعلى قيمة في الحياة ، أو أنها « القيمة الوحيدة » . وربما كان الخطأ الأكبر هنا هو في تحويل « السعادة » من مجرد « قيمة » ، إلى « مذهب » ، أو « فلسفة أخلاقية » بأسرها !

على أننا لو أنعمنا النظر إلى « السعادة » بوصفها قيمة أخلاقية — لتحققنا من أنها تختلف اختلافاً جذرياً عن كل ما عداها من « قيم » : لأنها لا تمثل كيفية أخلاقية تنسب إلى الشخص ، بل هي تمثل واقعة محايدة بالنسبة إلى كل من الخير والشر ، إن لم نقل بأنها سابقة على الواحد منهما والآخر . وليس في وسعنا أن نعدّ أى شخص كائناً من كان « مسئولاً » — بطريقة مباشرة — عن سعادتنا أو شقائنا . ولكن من العسير أيضاً أن ندخل « السعادة » في عداد « الخيرات » (بالمعنى المفهوم عادة من هذه الكلمة) : لأن للسعادة طابعاً عاماً . إلى أقصى حدود العمومية فضلاً عن أنها لا تدخل دخولا جوهرياً في صميم التكوين الحقيقي للقيم ، بل هي تظل مجرد « قيمة وجدانية » : Emotional Value . ومع ذلك فإن للسعادة علاقة وثيقة بكل ما يحمل طابع « الخير » ، أو هي — على الأصح — مرتبطة ارتباطاً جوهرياً بعملية « تحصيل الخير » أو امتلاكه . ولعل هذا ما حدا بهارتمان إلى القول بأن السعادة هي عبارة عن « قيمة انفعالية » تصاحب أية حالة نفسية يكون فيها امتلاك شعورتي حقيقي . ومعنى هذا أن من شأن أية مشاركة في القيم ، أو أية استجابة لحقيقة ذات قيمة ، أن تنجي بالضرورة مقترنة برد فعل انفعالي هو ما نسميه — على وجه التحديد — باسم « السعادة » . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن السعادة ترتبط ارتباطاً كلياً « عاماً » بسلسلة القيم كلها ، ابتداء من أعلى الفضائل الأخلاقية وأكثرها روحانية ، حتى أدنى الخيرات الخارجية وأشدّها ابتدالاً . وقصارى القول إنه على الرغم من أن « السعادة » لا تزيد عن كونها مجرد « ظاهرة مصاحبة » إلا أنها قد لعبت خلال العصور الأخلاقية المختلفة دوراً هاماً ، بوصفها « مقولة أخلاقية » : Ethical category ، فكانت بمثابة « صورة كلية » للإحساس بالقيم : Universal form of the valuational sense .

وأما إذا نظرنا إلى علاقة السعادة بالفضيلة فقد يكون في وسعنا أن نقول إن « أسعد الناس ليس بالضرورة هو أفضلهم » ، كما تدلنا على ذلك التجربة نفسها ؛ ولكن هناك إحساساً أخلاقياً يسوّغ لنا الاعتقاد بأن « من الواجب أن يكون أفضل الناس أسعدهم » . ومعنى هذا أن شعورنا الأخلاقي هو الذى يملئ علينا الإيمان الضمنى بأن من حق أهل الخير أن يكونوا سعداء ؛ لأنهم جديرون — أخلاقياً — بتلك

« السعادة ». ولا شك أننا حين نربط « السعادة » بأحقية الإنسان أو أهليته للسعادة ، فإننا عندئذ نخطئ حدود المذهب التقليدي القائل بالسعادة : لأن « القيم » التي ستجعل الإنسان أهلاً للسعادة ستكون بطبيعتها فيما وراء عملية البحث عن السعادة . والحق أنه قد يكون من العسير علينا أن نتحدث عن عملية « بحث عن السعادة » : لأن مثل « السعادة » كمثال « الحب » من حيث إن كلا منهما لا يمكن أن يكون « موضوعاً » نجاهد في سبيل الوصول إليه أو نعمل على الظفر به . وربما كان من طبيعة « السعادة » أنها لا تكف عن إغاطة الإنسان والسخرية منه ؛ فهي لا تفتأ تغريه ، وتخدعه ، وتضلله ، لكي لا تلبث أن تتركه خاوياً فارغ اليدين ! وقد تلاحق السعادة إنساناً انصرف عنها وراح يبحث عن قيم أخرى غيرها ، ولكنها لا بد من أن تهرب من ذلك الإنسان الذي يحاول الإمساك بها وإلقاء القبض عليها ! ولو شاء مثل هذا الإنسان أن يمتضى في البحث عنها ، وأن يعمل جاهداً في سبيل الحصول عليها ، فإنها عندئذ لا بد من أن تمنع في التدلل عليه والتهرب منه ؛ حتى إذا ما كف عن السعي وراءها ، وأقلع نهائياً عن البحث عنها ، راحت تغازله من بعيد ، وتغريه مرة أخرى بمعاودة الجري خلفها ، وهلم جرا ..

والواقع أن السعادة ليست رهناً بتلك الخيرات الجزئية التي يسعى المرء عادة في سبيل الظفر بها ، بل هي تتوقف أولاً وبالذات على ضرب من الاستعداد الباطني السابق ، بحيث قد يحق لنا أن نقول إنها رهن بحساسية الفرد نفسه ، أو بما لديه من قدرة على بلوغ السعادة . وكثيراً ما يجيء « البحث عن السعادة » فيفسد على الفرد ما لديه من « حساسية » أو « قابلية للسعادة » ، وكأن من شأن « السعادة » أن تند عن كل جهد يراد من وراءه الحصول عليها ، أو كأن من طبيعتها أن تجيء على غير ميعاد ، في وقت لم يكن في الحسبان ! وإن السعادة لتدعنا نحن إليها ونتحرق شوقاً في سبيل الظفر بها ، ولكنها قلما تسمح لنا بأن نتملكها عن طريق السعي المتواصل أو البحث المستمر . وليس من شأن السعادة أن تهرب من مطاردتها فحسب ، بل هي لا بد أيضاً من أن تترك في نفوسهم مشاعر القلق والتلهف والتعطش المستمر ! وهذا هو السبب في أن أشقى الناس على هذه الأرض كثيراً ما يكونون هم أكثر أهل الدنيا بحثاً عن السعادة ! وعلى العكس من ذلك ، كثيراً ما تجيء السعادة فتدنو منا ، ولكن من الجانب الآخر الذي ما كنا ننتظر أن تجيئنا منه ! وهي عندئذ لا بد من أن تجيئنا كهبة أو منحة ، لا كمكافأة أو جزاء ! وهكذا نخلص إلى القول بأن المذهب الأخلاقي الذي يدعو إلى « السعي وراء السعادة » لا بد من أن يكون مذهبا يهدم نفسه بنفسه ، مادام من شأن كل جهد يُبذل في سبيل الحصول على السعادة أن يقودنا إلى العجز التام عن التمتع بالسعادة !

الفصل السابع

نظرية « المنفعة »

رأينا فيما تقدم أن فلاسفة الأخلاق الذين قالوا بنظرية « السعادة » قد وجدوا في مفهوم « الخير الأقصى » ما يشير إلى وحدة الغايات البشرية ، فكانت « السعادة » عندهم مجرد « تصور عقلي » بحث لا يكاد يمت إلى تجربة الأفراد بأية صلة . ولا شك أن القارئ الذى يوافقنا على صحة الواقعة التى تشهد بتعدد « غايات » الأفراد ، لن يجد مانعا من القول معنا بأن هذه « الغايات » هى من الكثرة بحيث إنه قد لا يسهل ردها إلى غاية قصوى واحدة ، حتى ولو قلنا إنها « السعادة » . وقد سبق لنا أن بينا أنه لا بد من التمييز بين « سعادة » و « أخرى » : فإنه ليس ثمة شئ يمكن أن نطلق عليه اسم « السعادة » (بألف لام التعريف) ، بل هنالك ضروب مختلفة من « السعادة » . والواقع أنه قد يكون فى استطاعتنا أن نقول عن « السعادة » ما سبق لنا أن قلناه من قبل عن « اللذة » : إذ كما أن « اللذة » لا يمكن أن تعد « غاية » نهائية لكل أفعالنا ، وإنما هى مجرد ظاهرة مصاحبة لعملية ممارسة « نشاطاتنا » بطريقة سوية ناجحة ، فكذلك يمكن القول أيضا بأن « السعادة » ليست « غاية » حياتنا ، بل هى مجرد ظاهرة مصاحبة لعملية نهوضنا بواجباتنا فى شتى مواقف حياتنا الخاصة ، على نحو مرضى ناجع . وكما أن « اللذة » تلعب دوراً غير قليل فى حياتنا السيكلوجية والأخلاقية ، دون أن تكون مع ذلك هى « القيمة العليا » فى كل سلوكنا العملى ، فإن « السعادة » أيضا تقوم بدور هام فى حياتنا السيكلوجية والأخلاقية ، دون أن تكون مع ذلك هى « القيمة العليا » فى كل سلوكنا العملى .

وفضلا عن ذلك ، فإنه لو وضع كل فرد منا نصب عينيه دائما الحصول على « السعادة » ، لنشأ من جرى الأفراد وراء هذا « الهدف » ضرب من الصراع أو التعارض . ألسنا نلاحظ أنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن تتشابك مصالح الأفراد ، فيكون تحقيق الواحد منهم لسعادته الخاصة على حساب سعادة الآخرين ؟ بل ألا تظهرنا التجربة أحيانا على أن طلب السعادة قد يخلق فى نفس « الفرد » نوعا من « الأنانية » أو « الأثرة » ، فيغلب منفعته على منفعة الآخرين ، مخالفا بذلك ما تقضى به قوانين

العدالة ؟ وإذن أفلا يجدر بنا أن ندخل في اعتبارنا أيضاً « سعادة الآخرين » ، بدلا من أن نقتصر على الحديث عن « الخير المطلق » أو « السعادة » بصفة عامة ؟ ... هذه الأسباب جميعاً رأى دعاة مذهب « المنفعة » أن يستعيضوا عن مفهوم « اللذة » ، ومفهوم « السعادة » بمفهوم آخر يقوم على مراعاة مصلحة البشرية ، بدلا من الاقتصار على تأكيد خير الفرد . وكان أنصار مذهب المنفعة من رجالات الإصلاح الاجتماعي ، فاتخذت كلمة « المنفعة » عندهم طابعاً اجتماعياً ، على اعتبار أن مصلحة كل فرد منا تتوقف على المصلحة العامة (أو مصلحة الجميع) . ومن هنا فقد أطلق كل من بنتام Bentham وجون استيورات ميل J. S. Mill على مذهبه اسم « أخلاق المنفعة العامة » ، بدعوى أن العقل يقضى بأن يكون المرء أنفع بوجه عام للآخرين ، بدلا من أن يقتصر على البحث بصفة خاصة عن أكبر قدر ممكن من اللذة للبشرية جمعاء . ولاشك أن أصحاب مذهب « المنفعة العامة » حين اصطنعوا فلسفتهم الأخلاقية هذا الاسم ، فإنهم كانوا على علم تام بالدلالة الانفعالية لمثل هذا الاسم ، وفقا لمبدأ « الاستعمال الوجداني للغة » : « Emotive use of language »^(١) .

مذهب « بنتام » في « المنفعة العامة »

إذا كانت العصور القديمة قد شهدت العديد من « مذاهب السعادة » ذات النزعة الفردية ، فإن ظهور الكثير من المشكلات الحديثة المتعلقة بالجماعة ، والدولة والقانون ، قد عمل على قيام مذهب جديد في السعادة اتسم بالنزعة الاجتماعية Social audaemonism . ولكن على حين أن أصحاب مذهب السعادة — في العصور القديمة — قد أقاموا نظرتهم إلى « الخير » على أساس فلسفى عقلى ، نجد أن أنصار مذهب المنفعة العامة — في العصور الحديثة — يريدون أن يقيموا نظرتهم إلى « الخير » على أساس علمى تجريبى . وحنة هؤلاء أنه ليس من سبيل إلى إثبات أن هذا الشيء أو ذاك مرغوب فيه اللهم إلا بإظهارنا على أن الناس يرغبون فيه بالفعل . وحسبنا أن نرجع إلى التجربة ، لكي نتحقق من أن الشيء الواحد الذى يرغبه الناس جميعاً إنما هو « السعادة » ، وأن كل ما عده من أشياء إنما هو موضع « رغبة » ، بوصفه « واسطة » (أو « وسائط ») لبلوغ تلك الغاية . وليست « المنفعة » في نظر أصحاب هذا المذهب سوى المبدأ

(1) W. Lillie : « Introduction to Ethics. » 1961, p. 766.

الأخلاق الذى يقضى بتحقيق أكبر سعادة ممكنة . فالخير إنما يساوى فى رأيهم ما هو نافع لنا ، وما هو « نافع » لنا إنما هو هذا الذى يكون فى الوقت نفسه نافعاً لغيرنا .

ولما كان مذهب المنفعة مذهباً تجريبياً : فإن « الخير » الذى يتحدث عنه هو « شئ » محسوس ملموس ، أو هو على الأصح ظاهرة تقبل الوزن والقياس . ولهذا يحيل بتنام « الخير » إلى ورقة مالية أو قطعة نقدية ، ويحاول إقامة « الأخلاق » بأسرها على ما يسميه حساب اللذات . وقد أخطأ أيقور — فيما يقول بتنام — حين يتحدث عن « كيف » اللذات أو « نوعها » ، فى حين أن المهم هو « كمها » أو « مقدارها » . وتبعاً لذلك فإن « الحكمة » تنحصر فى تنظيم حياتنا ، بحيث يكون ميزان اللذات والآلام لصالح « اللذات » على قدر الإمكان ، ومن ثم يصبح فى وسعنا أن نضمن تنظيم تلك الموازنة النفسية (أو الأخلاقية) بحيث نحقق فائضاً من اللذات ! وهناك عوامل كثيرة تؤثر فى « كم » اللذات أو « مقدارها » كالشدة *Intensity* ، والمدة *Duration* ، واليقين *Certainty* والقرابة الزمانية أو المكانية *Propinquity* ، والخصوبة *Fecundity* والنقاوة *Purity* والامتداد *Extent* ومعنى هذا أن قيمة اللذة تقاس بمدتها أو ضعفها ، وطول مدتها أو قصرها ، ودرجة يقينها أو احتمالها ، ومدى قربها أو بعدها عنا ، ومدى قدرتها على توليد خبرات أخرى سارة على أعقابها ، ودرجة خلوها من الألم أو امتزاجها به ، وعدد الأفراد الذين يمكن أن يشعروا بها فى وقت واحد . ولكن أهم العوامل المؤثرة فى حساب اللذات هو عامل « الامتداد » : لأن بيت القصيد أن تشمل اللذة أكبر عدد ممكن من الأفراد^(١) .

وهنا يربط بتنام خير الفرد بخير الجماعة فيقول إن البحث عن لذة الآخرين هو خير وسيلة يمكن أن تعين الفرد نفسه على الوصول إلى أكبر قسط ممكن من اللذة . ومعنى هذا أن المنفعة الشخصية وثيقة الصلة بالمنفعة العامة ، ما دام الفرد عاجزاً بالضرورة عن الوصول إلى ما هو نافع له ، دون الاجتماع بالآخرين والتضامن معهم . وليس « الإيثار » سوى تضحية الفرد بجانب من لذته ، وفى سبيل الحصول على قدر أكبر من اللذة لنفسه ، عن طريق العمل على خدمة مصالح الآخرين . وبعبارة أخرى يمكننا القول بأن « الفضيلة الاجتماعية » هى تلك التى توفق بين مصلحة الذات ومصلحة الغير للحصول على أكبر نسبة من « اللذة » للشخص نفسه .

ولسنا نريد أن نسهب فى الحديث عن تفاصيل المذهب النفعى عند بتنام ، وإنما

(1) J. Bentham : « Principles of Morals & Legislation. », Ch. 4. p. iv.

حَسْبُنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْمَحْوَرِ الْأَسَاسِي الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ كُلُّ هَذَا الْمَذْهَبِ هُوَ الْمَبْدَأُ الْقَائِلُ بِتَحْقِيقِ أَكْبَرِ قِسْطٍ مُمْكِنٍ مِنَ السَّعَادَةِ لِأَكْبَرِ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنَ النَّاسِ . فَلَيْسَ الْمَهْمُ هُوَ سَعَادَةُ الشَّخْصِ الْفَرْدِ ، بَلِ الْمَهْمُ هُوَ « رِفَاهِيَةُ الْمَجْمُوعِ » وَلَاشَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَبْدَأِ يَفْتَرِضُ إِمْكَانِيَّةَ « الْبَحْثِ عَنِ السَّعَادَةِ » ، وَلَكِنْ لَا لِلْفَرْدِ ، بَلِ لِلْجَمَاعَةِ . وَتَبَعاً لِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْمَشَاعِرِ الْجَمَاعِيَّةِ وَالْقَانُونِيَّةِ مِنْ مَعْنَى ، بَلِ لَيْسَ لِلْفَضِيلَةِ الْمَدْنِيَّةِ مِنْ دَلَالَةٍ ، اللَّهُمَّ إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى تِلْكَ « الْغَايَةِ » . وَحَتَّى لَوْ نَظَرْنَا إِلَى « الدَّوْلَةِ » نَفْسِهَا ، لَوَجَدْنَا أَنَّهَا بِمَجْرَدِ أَدَاةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ فِي خِدْمَةِ تِلْكَ « السَّعَادَةِ الْعَامَةِ » أَوْ « الْمَصْلَحَةِ الْكُلِّيَّةِ » الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى أَوْ الْمَهْدَفُ النَّهَائِي . فَسَعَادَةُ الْأَغْلِيَّةِ هِيَ « الْمَعْيَارُ » الَّذِي نَقِيسُ بِهِ قِيَمَةَ أَى « نِظَامٍ » أَوْ أَى « تَشْرِيعٍ » ، بِحَيْثُ إِنَّهُ لَا يَدُورُ لَنَا — عِنْدَ الْحُكْمِ عَلَى أَى شَيْءٍ — مِنْ التَّسْأُولِ دَائِماً عَنْ مَدَى « نَفْعِهِ » أَوْ « فَائِدَتِهِ » بِاعْتِبَارِهِ أَدَاةً أَوْ وَسِيلَةً تَتَأَدَّى بِنَا إِلَى تِلْكَ « الْغَايَةِ » . وَالْحِسَابُ الدَّقِيقُ الَّذِي لَا خَطَأَ فِيهِ هُوَ الْأَدَاةُ الَّتِي نَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى فَهْمِ « الْقِيَمِ الْخَلْقِيَّةِ » ، وَمَوَازَنَةِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَتَفْضِيلِ بَعْضِهَا عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ .

وَلَا نَرَانَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ بِنْتَامَ لَا يَهْمُ بِالْمَقَاصِدِ أَوْ النَوَايَا : فَإِنَّهُ لِمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ كُلَّ اهْتِمَامِهِ مَوْجِهٌ نَحْوَ النَّتَائِجِ أَوْ الْوَقَائِعِ . صَحِيحٌ أَنَّ الْفِيلَسُوفَ الْإِنْجِلِيزِيَّ الْكَبِيرَ كَثِيراً مَا يَسْتَخْدِمُ لَفْظَ « الْخَيْرِ » وَلَكِنَّهُ يَخْلَعُ عَلَى هَذَا الْمَفْهُومِ طَائِعَ « الْعَمَلَةِ » أَوْ « النَّقْدِ » . وَآيَةً ذَلِكَ — مِثْلًا — أَنَّهُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَى « السُّكْرِ » فَإِنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ عَنْهُ إِنَّهُ يَشْتَرِي لَذَّةَ السُّكْرِ بِشَمْنٍ بَاهِظٍ !؛ وَكَأَنَّ هَذَا هُوَ الْمَأْخُذُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُوْجِهَ إِلَى « مَدْمَنِ الْخَمْرِ » ! وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَصْلَ فِي مَذْهَبِ بِنْتَامٍ هُوَ الْاهْتِمَامُ بِالسَّعَادَةِ الْعَامَةِ أَوْ رِفَاهِيَةِ الْمَجْمُوعِ ، إِلَّا أَنَّنَا نَرَاهُ يَسْهَبُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ « الْوَسَائِلِ » الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَكَأَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَسَاسِيَّ لِلْفَلَسَفَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ هُوَ الْقِيَامُ بِبَعْضِ الْعَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَجْلِ قِيَاسِ عَدَدِ اللَّذَاتِ ، وَمَقْدَارِهَا ، وَمَدَى امْتِدَادِهَا ، وَدَرَجَةِ شَمُولِهَا ، (أَعْنَى عَدَدَ الْمُتَنَفِّعِينَ بِهَا) ! وَلَاشَكَّ أَنَّ هَذَا الْخَلْطَ الْوَاضِحَ بَيْنَ مَفْهُومِ « الْخَيْرِ » وَمَفْهُومِ « الْمَنْفَعَةِ » هُوَ الَّذِي حَدَا بِجَمَاعَةِ النَّفْعِيِّينَ — وَعَلَى رَأْسِهِمْ بِنْتَامٌ — إِلَى تَحْوِيلِ الْحَيَاةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ بِأَسْرَها إِلَى عَمَلِيَّةٍ سَعَى مُسْتَمِرٍّ وَرَاءَ « الْوَسَائِلِ » الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى « الْمَنْفَعَةِ » ، وَكَأَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُطْلَبَ « النَّافِعُ » لِذَاتِهِ ، دُونَ التَّفَكُّيرِ فِي « الْغَايَةِ » الَّتِي هُوَ « نَافِعٌ » لَهَا ! وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ فِلَسَفَةِ الْمَنْفَعَةِ أَنْ تَحْمِلَ الْحَيَاةَ إِلَى مَجْرَدِ بَحْثٍ عَنْ « الْوَسَائِلِ » دُونَ الْعَنَاءِ بِإِدْرَاكِ « الْغَايَةِ » الَّتِي تَكْمُنُ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ « الْوَسَائِلِ » . وَحِينَئِذٍ يَنْظُرُ الْمَرْءُ إِلَى « النَّافِعِ » فِي ذَاتِهِ ، أَوْ إِلَى « الْمَنْفَعَةِ » فِي ذَاتِهَا ، وَكَأَنَّهُ هُنَا بِلِزَاءِ « هَدَفٍ أَسْمَى » أَوْ « غَايَةٍ قَصْوَى » ، فَإِنَّهُ عِنْدَئِذٍ يَتَنَاسَى أَنَّ « النَّافِعَ » لَا يَكُونُ « نَافِعاً » إِلَّا بِالْقِيَاسِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ

ذى قيمة (فى ذاته) يكون هو بمثابة « أداة » أو « وسيلة » تفضى إليه . ولعل هذا هو السبب فى أن الرجل الحديث قد أصبح مجرد « عبد للمنفعة » فهو يجرى وراء اللذات ويسعى وراء المنافع ، دون أن يفكر فى « الغاية » التى يلمسها من وراء تلك المنافع أو اللذات ! ولا غرو ، فقد أصبح إنسان العصر الحديث مفتقراً تماماً إلى « الإحساس بالقيم » : تلك « القيم » التى تكمن من وراء شتى الأشياء ، وتضفى عليها كل ما لها من معنى أو دلالة^(١) .

نظرية جون استيوارت مل فى « المنفعة »

... ولنتوقف الآن قليلاً عند نظرية أخرى من النظريات النفعية ، لنرى إلى أى حد نجح صاحبها جون استيوارت مل فى تعديل « فلسفة السعادة » بحيث يصبح فى مقدورها مواجهة المآخذ التى طالما وجهت إلى مذهب سلفه بتنام . وهنا نجد أن مل يتفق مع بتنام وغيره من فلاسفة السعادة فى القول بأن الفارق بين الصواب الخلقى والخطأ الخلقى رهن بتتائج أفعالنا ، وأنه يتوقف — بالتالى — على مدى قدرة تلك النتائج على إشباع رغباتنا ، بحيث تحقق لنا وللآخرين ما نهدف إليه من « سعادة » . ولكن مل يحاول أن يقيم فلسفته النفعية على أسس تجريبية متينة فيقرر المبادئ التالية :

(أولاً) اللذة هى الشيء الوحيد الذى يُعد « مرغوباً » فيه : Desirable

(ثانياً) الدليل الوحيد على أن شيئاً ما « مرغوب » فيه هو كون الناس يرغبون فيه بالفعل .

(ثالثاً) سعادة كل شخص تمثل « خيراً » بالقياس إلى هذا الشخص ، وعلى ذلك فإن السعادة العامة « خير » بالنسبة إلى الجميع .

(رابعاً) قد يرغب الناس فى « موضوعات » أخرى ، ولكنهم لا يرغبون فيها إلا باعتبارها وسيلة للسعادة (أو اللذة) .

(خامساً) إذا لقيت لذة ما (من بين لذتين مختلفتين) تفضيلاً من جانب أولئك الذين هم على دراية بكلتا اللذتين ، فإن من حقنا أن نقول إن هذه اللذة

(1) Cf, N. Hartmann : « Ethics. », vol. I., pp. 137 - 138.

المفضلة أسمى — كيفياً — من اللذة الأخرى^(١) .

ولو أننا نظرنا إلى هذه المبادئ الخمسة بشيء من الإمعان والتمحيص ، لوجدنا أنها تتفق مع الروح العامة للفلسفة النفعية . وآية ذلك أن جون استيوارت مل يوافق سلفه بنتام على القول بأن الفعل الخلقى لا يكون « خيراً » إلا متى حقق أعظم قدر ممكن من اللذة لأكبر عدد ممكن من الناس . ولكن مل قد ذهب إلى أنه لابد من مراعاة « كيف » (أو نوع) اللذات ، بدلا من الاقتصار على مراعاة « كمها » (أو مقدارها) فقط . وحسبنا — فيما يقول مل — أن نسائل أهل الخبرة ممن مارسوا شتى اللذات ، لكي نتحقق من أن هناك لذات نبيلة رفيعة ، وأخرى ذنيقة حقيرة . فلا يمكن مثلا أن توضع لذات الحس في مستوى واحد مع لذات العقل ، بل ربما كان من الأفضل للفرد أن يكون إنسانا شقيا من أن يكون خنزيراً متلذذاً ، أو أن يكون سقراطاً متبرماً ساخطاً من أن يكون غراً أحمق سعيداً ! فضلاً عن ذلك ، فقد أخذ مل على سلفه بنتام أنه قدم « الأنانية » على « الغيرية » ، فجعل خدمة الآخرين مجرد واسطة لتحقيق المنفعة الشخصية ، في حين رأى هو أنه لابد من خدمة المصلحة العامة قبل المصالح الشخصية ، ما دامت قاعدة السلوك الأخلاقي هي بالضرورة : « أن نفعل نحو الآخرين ما نحب أن يفعلوه نحونا » ، وأن نحب قريبنا كما نحب أنفسنا . ومن هنا فقد اعتبر مل « المجموع » أسبق على « الفرد » (أو الأفراد) من الناحية الخلقية ، كما أقر مبدأ « التضحية » حين يكون فيها نفع يعود على أكبر عدد ممكن من الأفراد . وإلى جانب هذا وذاك ، ذهب مل إلى أن معيار الخير ليس هو تحقيق سعادة الفاعل ، بل ضمان أكبر سعادة تعود على المجموع ؛ وهو ما حدا ببعض النقاد إلى تسمية مذهبه في المنفعة باسم « مذهب السعادة الجمعية » ، أو « الجماعية » .

بعض المآخذ التي توجه إلى « نفعية » مل ...

وأما إذا نظرنا إلى المآخذ العديدة التي تعرضت لها نظرية مل في المنفعة ، فسنجد أولاً أن مبدأه القائل بأن « الخير هو ما يرغب فيه الناس بالفعل » يقع تحت طائلة ما أسماه مور Moore بـ « المغالطة الطبيعية » : Naturalistic Fallacy لأنه يفترض أن في الإمكان

(1) J. O. Urmson : The Interpretation of the Moral Philosophy of J.S. Mill., in « Philosophical Quarterly. III », pp. 33 - 39 .

تعريف « الخير » بالاستناد إلى ما يرغب فيه الناس بالفعل . وحتى لو سلمنا بأن الناس يرغبون دائماً فيما هو « خير » (مع العلم بأن هذا ليس صحيحاً دائماً مع الأسف) ، فإن من الواضح أن هذه الواقعة لا تمثل ما نعينه بالفعل حين نقول عن أى شئ إنه « حسن » أو « خير » . هذا إلى أنه ليس في وسعنا مطلقاً أن نستنتج مما يفعله الناس بالفعل وما ينبغي لهم أن يفعلوه ، وإلا لارتكبنا مرة أخرى « مغالطة طبيعية » .

وأما حين يقول مل إن الناس ينشدون اللذة دائماً أبداً ، فإنه يقيم مذهبه الأخلاقي في السعادة على أسس سيكولوجية واهية : لأنه لو صح ما يقوله مل في أن كل فرد لا ينشد في العادة سوى لذته الخاصة ، لوجب التسليم بمبدأ اللذة الفردية ، ولما كان هناك موضع — بالتالى — للقول بالمنفعة العامة ، أو للتسليم بإمكان البحث عن لذة الغير . والحق أن التجربة شاهدة على أن الناس لا ينشدون « اللذة » وحدها ، بل هم قد يقومون بالكثير من أوجه النشاط ، دون أن يضعوا نصب أعينهم دائماً أبداً تحقيق لذة مباشرة . ولكن مل يقرر أن الناس حتى إذا استهدفوا أشياء أخرى غير « اللذة » فإنهم لا يطلبون أمثال هذه الأشياء إلا بوصفها « وسائط إلى لذات » أو « جوانب من لذات » . وهو يضيف إلى ذلك أن « الموضوع » الذى نطلبه في الأصل كواسطة أو وسيلة تتأدى بنا إلى « اللذة » ، قد يصبح هو نفسه — عن طريق الارتباط أو التداعى — « موضوعاً » غائياً نطلبه لذاته . والأدنى إلى الصواب — في رأينا أن يقال إن الناس يرغبون أولاً في الحصول على بعض الأشياء ، ثم تجيء النتائج السارة المترتبة على تحصيلهم لتلك الأشياء ، فندفعهم إلى طلب « اللذات » المقترنة بأمثال تلك الأشياء . وآية ذلك — مثلاً — أن الإنسان يبحث عن الطعام حين يشعر بالجوع ثم يعرف لذة الطعام فيلتبس من بعد تلك اللذة لذاتها ، لا مجرد إشباع حاجاته الغذائية !

وأما القول بأن اللذات تختلف كيفياً ، لا كمياً فقط فهو قول يوافق عليه الرأى السائد بين الناس : لأننا اعتدنا أن نتحدث عن لذات رفيعة ولذات دنيئة ، كما أننا درجنا على اعتبار بعض اللذات أسمى (خلقياً) من غيرها من اللذات . ولكن ، ما هو المعيار الدقيق الذى نستطيع عن طريقه التمييز بين اللذات من حيث الكيف ؟ إن دعاة مذهب المنفعة يميلون إلى القول بأن المقارنة التى لا بد لنا منها من أن نجريها بين اللذات مقارنة نوعية تستند إلى « الكيفية السارة » لتلك اللذات ، ولكن من الواضح أن هناك عوامل أخرى غير « الكيفية السارة » تدخل في تكوين اللذات ، وبالتالي فإنه لا بد من مراعاة « عناصر القيمة » التى تمثلها كل لذة من اللذات ، ولسنا ندرى كيف يتسنى للمرء أن يقارن لذة الاستماع إلى الموسيقى بلذة تناول الطعام ، أو لذة حضور مباراة في كرة القدم

بلذة قراءة كتاب جيد ، أو لذة القيام بالعملية الجنسية بلذة مشاهدة معرض فنى ... إلخ ؟ الحق أننا لو التزمنا بصرامة « مبدأ اللذة » ، لما كان في وسعنا التمييز بين لذة وأخرى اللهم إلا بالرجوع إلى معيار « الكيفية السارة » (أو اللادة) ولكن من الواضح أننا لا ندرک هذه الكيفية إلا على سبيل « التجريد » Abstraction : إذ أننا لا نشعر في خبرتنا العادية إلا بالحالات النفسية — ككل — ثم نعلم من بعد إلى تحليلها فنفطن إلى ما فيها من عوامل لذة أو جوانب متعة وليس من شك في أن هناك عوامل أخرى غير عامل اللذة تجعلنا نقبل على بعض « اللذات العليا » (كلذة التذوق الفنى ، ولذة الاتحاد بالله) ، مما يدلنا على أن « خيرية » هذه « اللذات » لا ترتد إلى ما فيها من « كيفية سارة » ، ليس غير ، وصفوة القول إن التفرقة بين « لذات دنيا » و « لذات عليا » لا يمكن أن تستند إلى « عامل اللذة » وحده ، بل هى لابد أن تستند أيضاً إلى عناصر أخرى من « عناصر القيمة » غير « عنصر الاستمتاع » سواء أكان مباشراً أم غير مباشر .

وأما قول مل في الإمكان إضافة اللذات بعضها إلى البعض الآخر فهو قول فاسد ينطوى على مغالطة منطقية : لأنه ينتقل انتقالاً غير مشروع من « المنفعة الخاصة » إلى « المنفعة العامة » ، بحجة أنه ما دامت سعادة كل شخص تمثل « خيراً » بالنسبة إلى هذا الشخص « الفردى » ، فلا بد من أن تكون السعادة العامة « خيراً » بالنسبة إلى مجموع الأشخاص ولنفترض مثلاً أن لكل فرد في المدينة الحق في أن يفتح باب منزله ، فهل يكون معنى هذا أن من حق الجميع في هذه المدينة أن يفتحوا باب أى منزل من المنازل ؟ ثم لتساءل بعد ذلك : هل هناك بالفعل سبيل لإضافة مجموع « سعادة » الأفراد بعضها إلى بعض ، بحيث يتكون منها جميعاً ما يصح أن نسميه باسم « السعادة العامة » ؟ وإذا لم يكن من حقنا أن نتحدث عن مجموع أو حاصل « اللذات » التى تترتب على فعل واحد بعينه ، فهل يكون من حقنا أن نتحدث عن « الفارق » بين « حاصل اللذات » الناتج عن فعل ما ، و « حاصل اللذات » الناتج عن فعل آخر ؟ صحيح أننا قد نستطيع أن نقول : « إن المتعة التى حصلتها من قراءتى لهذه الرواية أكبر من المتعة التى حصلتها من قراءتى لتلك » ولكن هذا القول لا يعنى أن هناك « وحدات لذة » Units of pleasantness (كوحدات الطول أو الوزن) نستند إليها في قياسنا لكميات « الأشياء اللادة » ! وحتى لو سلمنا بإمكان قيام مثل هذا « الحساب النفعى » ، فإننا لن نستطيع مطلقاً أن نحسب — مقدماً — « حاصل اللذات » التى يمكن أن تترتب على أى فعل من الأفعال مهما يكن من بساطته ! والسبب في ذلك أن مثل هذا « الحاصل » لابد من أن يحىء مشتملاً — لا على النتائج السارة المباشرة التى قد تترتب على الفعل في الحاضر

فحسب — بل على كافة النتائج غير المباشرة التي قد تترتب عليه في المستقبل أيضاً . وكذلك لا ينبغي عند تقرير هذا « الحاصل » الاقتصار على النظر إلى الآثار الحسنة للفعل بالنسبة إلى صاحبه فقط ، وإنما ينبغي أيضاً تقدير شتى الآثار الحسنة التي قد تترتب عليه بالنسبة إلى كافة الموجودات الأخرى الواعية . ولاشك أنه لابد عند القيام بحساب هذا « الحاصل » من طرح شتى « الآثار السيئة » أو « النتائج الضارة » التي يمكن أن تترتب على « الفصل » — سواء بالنسبة إلى صاحبه أم بالنسبة إلى الآخرين — حتى يكون « الناتج » صافياً ! والحق أننا حين نوجد بإزاء بعض « الحالات المعقدة » : فإن مثل هذا « الحساب النفعي » لن يلبث أن يستحيل إلى ضرب من المحال . وإذا كان المرء كثيراً ما يعجز عن الكشف عما هو « نافع » له شخصياً ، فكيف له أن يبتدى دائماً إلى معرفة ما هو « نافع » للكل أو المجموع ؟ وإذا كان الفرد لا يكاد يعرف — على وجه التحديد — ما هو هذا الذي يرغب فيه لكي يكون سعيداً ، فهل يكون في استطاعته أن يقف على تلك « السعادة » العامة التي يرغب فيها سائر الناس ؟ وإذن أليس مفهوم « السعادة العامة » الذي دافع عنه مل أكثر غموضاً من مفهوم الفلاسفة العقليين عن « السعادة » ؟

نظرة نقدية إلى مفهوم « الحساب النفعي »

لقد رأينا من قبل — عند الحديث عن فلسفة اللذة — أن مذهب المنفعة — عند كل من بنتام ومل — لا يخرج عن كونه صورة منقحة أو تصحيحاً عقلياً لفلسفة اللذة . وآية ذلك أن كل ما يعنيه حساب اللذات هو تأخير موعد استحقاق اللذة ، من أجل صبغ « السعادة » بصبغة ملائمة معقولة ، تجنباً متوافقة مع مصلحة كل من الفرد والجماعة . والحق أنه لو كانت « الفضيلة » مجرد عملية حسابية نقيس فيها عدد اللذات أو مقدارها ، أو حتى نوعها ، لكان الرجل « الفاضل » هو المخلوق المدنخر المدبر الذي يجمع دخله ، ويحصل على ماله قبّل الناس ، ويضم إليه الفوائد ... إلخ. ولكن من منا يقول عن اللص — مثلاً — ها هو ذا جل أخطأ في حسابه ؟ أو من منا يقول عن السكير : هو ذا رجل يشتري لذة السكر بشمن باهظ ؟ بل من منا يُقدم على التضحية بعد حساب الأرباح والخسائر ، لمعرفة عدد الأفراد الذين سوف يفيدون من تضحيته ؟ أليس الأدنى إلى الصواب أن نقول إن الشخص الذي يضحي بنفسه لا يحسب ، بل هو يذل من ذات نفسه ، لأنه يمتد ببيضره نحو المثل الأعلى ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن التوحيد بين

مفهومي « الخير » و « المنفعة » ، إغفال صريحاً لعنصر هام من عناصر الشعور الخلقى ، وهو الطابع المثالي للأخلاقية Morality ؟ وعلى ذلك ، أليس في القول بمثل هذا الحساب النفعي إنكاراً لجوهر الحياة الخلقية باعتبارها سعيًا وراء المثل الأعلى ، وجهداً إرادياً تبذله « الذات » في سبيل العمل على تجاوز الواقع وتحقيق ما ينبغي أن يكون ؟

ولنفترض — مع ذلك — أن هذا « الحساب النفعي » ضروري لقيام علاقات اجتماعية متسقة بين الأفراد ، ثم لتساءل — بعد ذلك — « ما الذي يضمن لي صحة أية عملية « حساب نفعي » أقوم بها في موقف ما من المواقف ؟ » إنني قد أستطيع أن أقدر (وإن كان مثل هذا التقدير قد لا يخلو من خطأ في بعض الأحيان) نسبة اللذات ونسبة الآلام التي قد تنجم — بالنسبة إليّ — عن فعل ما من الأفعال ، ولكنني لن أستطيع أن أقدر هذه النسبة — بالقياس إلى جميع الناس — حين يكون عليّ أحسب الآثار التي قد تنجم عن فعلي بالنسبة إلى الآخرين . والواقع أنه ليس ثمة طريقة عملية ناجعة لحساب اللذات والآلام ، حتى من وجهة نظر شخصين فقط (لا أكثر) ! وحسبنا أن ننظر إلى الطريقة التي يستجيب بها شخصان مختلفان لموقف واحد بعينه ، لكي نتحقق من أن هناك اختلافاً كبيراً بين الناس من حيث القدرة على الاستجابة للذة والألم . ولكننا نستند في العادة — عند الحكم على تجارب الآخرين — إلى خبراتنا الخاصة ، فنقدر أن ما يسبب لنا ألماً ، لا بد من أن يحدث لدى الآخرين ضرباً من الإحساس الألم ، وأن ما يسبب لنا سروراً ، لا بد من أن يولد لدى الغير ضرباً من الشعور الملائم . ولكن مثل هذا التقدير الإجمالي لا يمكن أن يُعدَّ « حساباً نفعياً » : لأن الحساب النفعي يتطلب عملية « مقارنة » دقيقة لكل من الآثار النافعة والآثار الضارة ، بالاستناد إلى قاعدة حسائية معروفة هي ضرب كمية اللذة في درجة احتمالها . ولا حاجة بنا إلى إعادة ما سبق لنا قوله من أن كميات اللذة لا يمكن أن تقاس كعدد معين من الوحدات . وما دام من غير الممكن لأتّى « احتمال » Probability أن يُصاغ على هيئة « قيمة عددية » : Numerical value فلن يكون في وسعنا أن نقيس بدقة احتمال حدوث أية لذة في المستقبل .

وفضلاً عن ذلك ، فإننا لو أردنا أن نحسب عملياً أى مسلك من المسالك الأخلاقية سوف يكون هو الكفيل بترجيح كفة اللذة على كفة الألم ، أو تحقيق أكبر كمية ممكنة من السعادة ، لو وجدنا أن مثل هذا الحساب كثيراً ما يكون ضرباً من المستحيل ، لصعوبة تقدير « النتائج » التي يمكن أن تترتب على سائر الأفعال . صحيح أننا قد نستطيع — في بعض الأحيان — القيام — سلفاً — بمثل هذا « الحساب » ، ولكن هذا لا يمنعنا من

القول بأن ثمة حالات أخرى كثيرة قد يتعذر — إن لم نقل يستحيل — علينا فيها القيام بعمل مثل هذا الحساب . وليست « الحالات » التى نقوم فيها بعمل مثل هذا الحساب سوى حالات بسيطة ، نحكم فيها على نتائج الفعل (أو الأفعال) حكماً حدسياً مباشراً . ولاشك أننا فى أمثال هذه الحالات لا نكاد نجد أدنى صعوبة فى اتخاذ قراراتنا أو تصميماتنا . وأما حينما نكون بإزاء حالات أخرى « معقدة » يتعذر فيها علينا أن نحسب « حساب النتائج » سلفاً ، فإن من المؤكد أننا نجد أنفسنا عندئذ بإزاء « تعقيدات » يستحيل معها القيام بما سماه ميل « الحساب النفى » . وتبعاً لذلك فإن القاعدة التجريبية التى يقدمها لنا فلاسفة النفعية للحكم على « خيرية » أو « شرية » الأفعال الخلقية ليست من « السهولة » بقدر ما يتصورون .

وأما حين يقول مل إن الغاية الخلقية هى « أكبر سعادة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس » ، لا مجرد « أقصى درجة من السعادة » ، فإنه عندئذ يزداد المسألة تعقيداً على تعقيد : لأنه يقحم على « مذهب السعادة » مبدأً جديداً ألا وهو مبدأ « توزيع اللذة أو السعادة » . وليس من شك فى أن رأى العام على استعداد للتسليم مع مل بأن قدراً ضئيلاً من اللذة موزعاً على البشرية بأكملها أفضل بكثير من قدر كبير من اللذة يكون مقصوراً على اثنين أو ثلاثة من الأفراد ، ولكن من المؤكد أن مراعاة « الأغلبية » أو « أكبر عدد ممكن من الناس » تتطلب قيام مبدأ أخلاقى آخر ، ألا وهو مبدأ « عدالة التوزيع » . ولسنا نجد لدى فلاسفة النفعية أية إشارة صريحة إلى أى مبدأ من هذا القبيل ، كما أننا لا نعرف — على وجه التحديد — إلى أى حد يريد لنا فلاسفة النفعية أن نمضى فى الحدّ أو التقليل من مجموع اللذات الموجودة فى الكون ، من أجل العمل على ضمان قيام توزيع عادل للسعادة (أو الخيرات السارة) بين بنى البشر !

وأما المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه « الحساب النفى » بأكمله : ألا وهو المبدأ القائل بأن « اللذة » هى « الخير الأوحد » فى هذا العالم ، أو أنها الشئ الوحيد المرغوب فيه من قبل جميع الناس ، فأقل ما يمكننا أن نقوله فى الرد عليه هو أن هناك « قيماً » أخرى غير اللذة طالما سعى البشر فى سبيل الحصول عليها . وإن التجربة نفسها تُظهرنا على أن الناس ينشدون أشياء أخرى كثيرة غير « الرفاهية » ، بدليل أنهم يلتمسون « المعرفة » ، ويطالبون « الثقافة » ، ويقدر « الذوق » ، وينشدون « الجمال » ... إلخ . وليست هذه جميعاً مجرد « لذات » . بل هى « غايات » قد لا يكفى للحصول عليها تقدير « حساب الآلام واللذات » . وربما كان الخطأ الأكبر الذى طالما وقع فيه المأخوذون بسحر مذهب المنفعة هو اعتقادهم بأن « الرفاهية » هى

« كل شيء » ، في حين أن هناك « قيماً » أخرى كثيرة لأبد للفرد من العمل على تحصيلها ، مهما يكلفه ذلك ! فالفلسفة النفعية ترتكب خطأ جسيماً حين تحيل الحياة بأسرها إلى مجرد بحث عن « الوسائل » أو « الوسائط » ، دون أدنى وعى بالغاية المتميزة التي يراد بلوغها ، ألا وهي « السعادة » .

مبدأ « الأخلاق النفعية » في الميزان ...

ولسنا نريد أن نتعرض — بالتفصيل — لنقد المبادئ الأساسية التي قامت عليها الفلسفة النفعية (وفي مقدمتها النزعة الحسية) ، وإنما حسبتنا أن نقول إن النفعيين حيناً يدعوننا إلى البحث عما هو « نافع » Useful ، فإنهم كثيراً ما يتناسون أنه لابد من أن يكون « نافعاً » لهذا « الغرض » أو ذاك . ولاشك أن الحياة البشرية حين تستحيل إلى سعى مستمر وراء « المنفعة » أو وراء « النافع » ، فإنها عندئذ لن تلبث أن تفقد معناها الأصلي وقيمتها الحقيقية ، لكي تتحول إلى سعى لاهث وراء بعض « الوسائل » أو « الوسائط » . وقد سبق لنا أن قلنا إنه ليس ثمة « نافع في ذاته » : « Useful in itself » ، ما دامت « المنفعة » مجرد مفهوم يشير إلى « واسطة » تتأدّى بنا نحو شيء ذي قيمة في ذاته . ولعلّ هذا هو السبب في « خواء » حياة الباحثين عن « النافع » : لأنهم كثيراً ما يصبحون عبيداً للرغاية ، دون أن يفكروا في « القيم » التي جعلت من أجلها « الرغاية » . ولا غرو : فإنه حيناً يتلاشى كل شيء في تلك الصبغة الرمادية التي نطلق عليها اسم « المنفعة » ، فهناك لابد للحياة البشرية من أن تصبح عامية مبتذلة ، دون أن يكون هناك أى موضع للبحث عن شيء آخر يعدو الرغاية المادية التافهة ! والحق أن « النافع » لا يمكن أن يكون مرادفاً لما هو « خير » : لأن من شأن « النافع » أن يحيلنا إلى شيء آخر ، في حين أن « الخير » لابد من أن يكون « خيراً في ذاته » .

حقاً إن وجهة نظر « المنفعة » تتحكم في الكثير من مظاهر حياتنا وسلوكنا ، بدليل أننا نختار من « الوسائل » إلا ما يتأدّى بنا نحو « الغاية » أو « الغايات » التي نعمل من أجلها ؛ ولكن من المؤكد أن مفهوم « المنفعة » لا يشير إلا إلى « قيمة » من « قيم الوساطة » Mediating - value ، لا إلى « قيمة ذاتية » Self - value . ومعنى هذا أن « النافع » لا تكون ذات قيمة ، اللهم إلا باعتبارها « وسائط » ناجعة ترتبط منذ البداية ببعض « القيم الأصلية » ، وتفرض بنا إلى تحقيق أمثال هذه « القيم » . ولهذا يقرر هارتمان أنه لابد من استبعاد « المنفعة » من دائرة القيم الأصلية الأولية ، نظراً لأنها

لا يمكن أن تُعدَّ « في ذاتها » بمثابة « قيمة أولية » أو « أصلية ». ومع ذلك ، فإن كل « أخلاق » لا تريد لنفسها أن تبقى مجرد « أحلام مثالية » ، بل تحرص — بخلاف ذلك — على الارتباط بمشكلات الحياة العملية ، لا بد من أن تنطوي على عنصر ما من عناصر « النفعية » : لأنها تجد نفسها مضطرة إلى أن تصبح « أخلاق وسائل Morality of means » وهذا ما نلاحظه ، لا في الأخلاق السقراطية وحدها ، بل في العديد من النظريات الأخلاقية الاجتماعية الحديثة أيضاً . ولكن الطابع المميز المضمون لتلك النظريات الأخلاقية لم يتحدَّد بمقتضى ذلك العنصر « النفعي » ، بل لقد بقي مرتكزاً على « القيم » الأصلية التي ارتبط بها كل بناء « المنفعة » من حيث هي مجرد « وسيلة » .

وحينما كان التغير يصيب تلك « القيم » أو حينما كانت وجهات النظر إلى تلك « القيم » تلقى شيئاً من التعديل ، فقد كانت دلالة « المنفعة » نفسها تتغير هي الأخرى . وعلى كل حال ، فسواء أكان الغرض من « المنفعة » هو كفالة القانون ، أم النظام العام ، أم الرفاهية الشخصية ، أم التربية والإصلاح الاجتماعي ، أم تحسين العلاقات بين الأفراد ، أم غير ذلك ، فإننا نلاحظ في كل هذه الحالات أن « المنفعة » تمثل مقولة كلية من مقولات الحياة العملية ، بوصفها « الصورة » التي تشير إلى « علاقة الواسطة بالغاية » (١) .

يبد أن « أخلاق المنفعة » كثيراً ما تسبب في خداع عدد كبير من الناس ، خصوصاً من بين أهل الطبقات الكادحة ، إذ قد يقع في ظنهم أن أسعد الناس بالضرورة هو ذلك الذي يملك من أسباب « الرفاهية » ما يضمن له تحقيق كل رغباته ، وكأن « السعادة » رهن بتوافر بعض « الوسائل » أو « الموارد » Means ! ولا شك أن العامل أو الرجل الكادح حين يتصور أن الغنى يتمتع بكل ما هو في حاجة إليه ، فإنه قد ينسى أو يتناسى أن هناك قيمة أخرى غير « الرفاهية » ، وأن « السعادة » ليست بالضرورة مجرد نتيجة للحساب النفعي . والحق أن فلسفة المنفعة تحجب عن أعين الناس الكثير من « القيم » ، (كالمعرفة ، والتدبُّق ، والثقافة ، والفن ، وغير ذلك) ، في حين أن الكثير من هذه القيم لا يحصل إلا بشقِّ الأنفس . والخطر الأكبر الذي يتهدَّد المأخوذون بسحر مذهب المنفعة هو الوقوع تحت « وهم اللذة » ، أو « خداع السعادة » ، ممّا قد يدفع بهم نحو الجرى — عبثاً — وراء سراب « المنفعة » ، لكي لا يلبث الواحد منهم أن يجد نفسه — في خاتمة المطاف — أمام تهاويل بُراقة لا تخلف وراءها سوى الإحساس بالخواء

أو الفراغ أو الضياع !

وقد أفاض مور Moore في نقد الفلسفة النفعية ، فحاول أن يظهرنا أولاً على أن ثمة مبالغة كبرى في القول بأن الناس لا ينشدون سوى « اللذة » : لأن « اللذة » عَرَضٌ يصاحب معظم « النشاطات » التي نجد في تأديتها « قيمة » ، دون أن تكون « اللذة » نفسها هي « الغاية » التي نهدف إليها في جميع الحالات . والواقع أننا نرغب في الحصول على « أجوبة » أو « حلول » لما لدينا من « أسئلة » أو « مشاكل » ، ولكن أحداً منا قلماً يفكر في استبعاد هذه « الأسئلة » أو طردها تماماً من ذهنه ، طمعاً في الحصول على « لذة » عاجلة أو « متعة » مباشرة . صحيح أننا كثيراً ما نحقق من ضروب النشاط ما قد يقرن في العادة بشيء من اللذة ، ولكن « اللذة » نفسها ليست هي « المطلب » الأساسي الذي ننشده من وراء تحقيقنا لمثل هذا النشاط . ثم يحاول مور بعد ذلك أن يتعرض للمشكلة النظرية الخاصة بالتوحيد بين « المنفعة » و « الخير » . فيقرر أن مل قد ارتكب « مغالطة طبيعية » حين انتزع خاصية واحدة من الخواص التي تتميز بها « الأمور الحسنة » — ألا وهي كونها تتميز بكيفية سارة — فزّلها على حدة ، واعتبرها وحدها جوهر « الخيرية » الباطنة في تلك الأشياء . والظاهر أن مل قد أراد أن يتجنب بعض الأخطاء التي وقع فيها بتام حين قال إن اللذات لا تختلف إلا من حيث الكم أو الشدة أو المقدار ، ومن هنا فقد راح يعلن أن اللذات تختلف أيضاً من حيث الكيف أو النوع أو القيمة ، ولكن من المؤكد — فيما يقول مور — أن مل حين اتجه هذا الاتجاه فإنه قد تخلى تماماً عن أصول « مذهب اللذة » ، ما دام في تفضيل « حياة الفيلسوف » على حياة « الرجل الشهواني » اعترافاً بوجود « قيم » أخرى غير « المتعة » أو « اللذة » . وعلى الرغم مما قاله مل — فيما سبق — من أن « الخير هو ما يرغب فيه الناس بالفعل » ، فإننا نجد هنا يسلم ضمناً بأن ثمة « نشاطات » ينبغي للناس أن يرغبوا فيها أو أن يسعوا إليها . ولم يجانب مل الصواب حين ذهب إلى أن بعض « الملذات » أسمى من غيرها ، ولكنه لم يفتن إلى أن مثل هذا « التفضيل » يهدم نظريته الأصلية في التوحيد بين « الخير » و « اللذة » ^(١) .

ويمضي مور إلى حدّ أبعد من ذلك فيقول إن مل قد خالف مبدأ « الوحدات العضوية » حين عمد إلى التوحيد بين « اللذة » من جهة ، ومعنى « الخير » من جهة

(1) cf. L. J. Binkley : « Contemporary Ethical Theories. », N - Y Philosophical Library, 1961, pp. 6 - 7.

أخرى . وهذا المبدأ ينصّ على أنه ليس في الإمكان تقدير (أو تقييم) أية خبرة متكاملة عن طريق جمع (أو إضافة) الأجزاء التي تتكوّن منها تلك الخبرة . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إننا حينما ننظر إلى الخبرات التي نعدّها « ذات قيمة » فإننا لا بد من أن نلتقي باللذة كجزء داخل في تكوين تلك الخبرات . وحينما نمنع النظر في خبرات عديدة متنوّعة كخبرة صيد الحيوانات البرية ، أو خبرة حلّ الألغاز الرياضية ، أو خبرة حبّ شخص بشري ، فإننا قد لا نجد بينها جميعاً عاملاً مشتركاً آخر سوى عامل « اللذة » . ولا يريد مور أن ينكر وجود هذا العامل في أمثال تلك الخبرات ، ولكنه يريد أن يبيّن لنا أن عنصر القيمة الكامن فيها لا يرتدّ بتمامه إلى عامل الشعور باللذة الذي يقترن بكل نشاط من هذه النشاطات . ولو كانت « اللذة » هي العلامة الكلية الوحيدة المميّزة للقيمة ، لكانت أكثر الخبرات قيمة هي تلك التي تتفوّق فيها « درجة اللذة » على كل ما عداها ! ولكن من الواضح — كما يشهد بذلك الذوق الفطريّ — أن أدنى أشكال المتعة الجنسية لا تُعدّ أفعلاً حسنة أو خيرة ، حتى وإن كانت تنطوي على أعنف حالات اللذة في صميم خبرتنا العادية !^(١)

ومور يضع بين أيدينا عالين : عالماً لا ينطوي على شيء آخر سوى اللذة ، وعالماً آخر يشتمل على نفس القدر من اللذة ، ولكنه يجمع إلى جانب ذلك شيئاً من المعرفة ، والمحبة ، وغير ذلك من الصفات . ثم يتساءل مور : تُرى أى العالمين أجدر منا بالاختيار ؟ أليس من الواضح أننا جميعاً لن نتردّد في اختيار العالم الثاني ؟ وإذن ، أليس في هذا ما يدلنا على أن « اللذة » ليست هي « القيمة » الوحيدة التي ينشدها الموجود البشري ، حتى وإن كانت جزءاً لا يتجزأ من كل « خبرة » يحكم عليها المرء بأنها « قيمة » ؟ ومن جهة أخرى ، ألم يقع النفعيون في خطأ فلسفي كبير حين عمدوا إلى تحليل صفة « الخيرية » ، في حين أن هذه الصفة بسيطة أولية لا تقبل التحليل ؟ الواقع أننا حين نأخذ صفة مثل « سار » أو « لاذ » أو « مرغوب فيه » ، لكي نقول عن أية واحدة منها إنها تعرّف « الخير » ، فإننا نرتكب « المغالطة الطبيعية » والسبب في ذلك أن هذه الصفات موجودة في المكان والزمان ، ومن ثم فإنها داخلة في نطاق الطبيعة ، في حين أن « الخير » : « لا طبيعي » Nonnatural ، وبالتالي فإنه لا يندرج تحت فئة الموضوعات أو الصفات التي تدخل ضمن دراسة « العلوم الطبيعية » . وتبعاً لذلك فإن كل من يقول إن « الخير » هو « اللذة » أو « السرور » إنما يعرف « الخير » بالغة

(1) G. Moore: « Principia Ethica. », Cambridge, 1903 ; p. 95.

الموضوع الطبيعي . ولو كان « الخير » مرادفاً « للذة » ، أو لو كانت صفة « الخيرية » مساوية تماماً لصفة « السار » أو « المرغوب فيه » ، لما كان هناك معنى على الإطلاق لأن نتساءل : « هل اللذة خير ؟ » : إذ أن معنى هذا السؤال عندئذ سيكون هو : « هل اللذة لاذة ؟ » أو « سارة » وهذا تحصيل حاصل !^(١) .

وأخيراً نلاحظ أن مور لا يريد للمشكلة الخلقية أن تستحيل إلى مجرد تساؤل تجريبي عما يفعله الناس بالفعل ، لأنه لو صحّ هذا (وهو ما يذهب إليه دعاة المذهب النفعي) لاستحالت « الأخلاق » إلى مجرد علم من علوم الطبيعة أو الاجتماع . ومن جهة أخرى لو كان حكم الفرد بأن « هذا خير » مجرد حكم ذاتي يستند إلى إحساسه الخاص باللذة ، أو إلى أي ميل نفساني آخر ، لأصبح « علم الأخلاق » مجرد فرع من فروع « علم النفس » . ولكن الواقع أن هناك اختلافاً كبيراً بين ما يفعله الناس في الواقع ونفس الأمر ، وبين ما تريد لهم الأخلاق أن يفعلوه ، وبالتالي فإنه لا بد من رفض كل نظرية أخلاقية يكون من شأنها أن تحيل « الخير » إلى أية « خاصية طبيعية » ، أو أن تدخل « القيمة الأخلاقية » تحت أي « منظور طبيعي » !

(١) ارجع إلى كتابنا : « دراسات في الفلسفة المعاصرة » ، الجزء الأول ، ١٩٦٨ ، مكتبة

الفصل الثامن

نظرية « الواجب »

إذا كنا قد تحدثنا في الفصول الثلاثة السابقة عن نظريات اللذة ، والسعادة ، والمنفعة — وهى جميعاً مذاهب غائية : Teleological تحكم على الفعل الخلقى بالاستناد إلى آثاره أو نتائجه — فربما كان فى وسعنا الآن أن نتحدث عن نظرية « الواجب » — باعتبارها خير مثال للمذاهب الديونطولوجية Deontoloigical التى تحكم على الفعل الخلقى فى ذاته ، لا بالنظر إلى آثاره أو نتائجه⁽¹⁾ — ولا بد من أن يكون القارئ قد لاحظ معنا أن معظم المذاهب الأخلاقية التى تحدثنا عنها حتى الآن قد أغفلت عنصر الإلزام أو التكليف ، وكأن « الأخلاق مجرد بحث عن النتائج السارة ، أو الغايات السعيدة ، أو الخبرات النافعة ! والحق أن كل نظرية أخلاقية تربط الخير باللذة أو السعادة أو المنفعة ، تهمل جانباً هاماً من جوانب الأخلاق : ألا وهو جانب الإلزام أو التكليف Obligation وقد لاحظ بعض مؤرخى الفلسفة أنه لا وجود لفكرة « الواجب » تقريباً فى كل — أو جل — المذاهب الأخلاقية القديمة ، حتى أننا لا نكاد نعثّر على لفظ يترجم معنى « الإلزام » فى كل من اللغتين : اليونانية واللاتينية . وربما كان السبب فى ذلك أن فلاسفة اليونان قد تصوّروا « الفضيلة » دائماً أبداً على أنها ضرب من الانسجام ، أو التوافق ، أو الطمأنينة النفسية ، أو السكينة القلبية ، فى حين أن الحياة الخلقية هى أيضاً — فى جانب من جوانبها — صراع ، وجهد ، ومشقة ، وإلزام . وأما « النفعيون » من فلاسفة العصر الحديث فقد تصوّرت لهم « النزعة التجريبية » اعتبار « الخير » مجرد شيء محسوس ملموس ، ومن ثم فقد راحوا يقيسون « نتائج » الأفعال بمقياس تجريبيّ أطلقوا عليه اسم « حساب اللذات » ! ولا شك أن الاتجاه النفعي — فى شتى صورهِ — لا يزيد عن كونه مجرد اتجاه « غائي » أو « غرضي » يحيل الأخلاق بأسرها إلى مجرد بحث عن النتائج السارة ، أو « الآثار النافعة » !

يُبد أن العصر الحديث قد شهد اتجاهات أخلاقية جديدة أراد أصحابها اعتبار

(1) Cf. Broad : « Five Types of Ethical Theory , » London p, 162..

« القانون » ، أو « الواجب » أو « الإلزام » دعامة الأخلاق ، فكان من ذلك أن اهتم الكثير من الباحثين بدراسة طبيعة « التكليف » ، بدلاً من التوقف عند دراسة « النتائج السارة » أو « الغايات الخيرة » . وعلى الرغم من أن « القانون » قد بدا للبعض طبيعياً صرفاً ، بينما اعتبره البعض الآخر سياسياً محضاً في حين زعم غيرهم أنه عقلى خالص ، إلا أن أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة قد أجمعوا على القول بأن « القانون الخلقى » يفرض على الأفراد بعض القواعد السلوكية التي لا تحتل التأويل أو التفسير أو المناقشة : فليست « أخلاقية » الفعل رهناً ببعض الاعتبارات العملية المتعلقة بالنتائج أو الآثار ، بل هي رهن بما لدينا من إحساس بالإلزام ، على اعتبار أن « الإلزام » يقوم أولاً وبالذات على بعض « العلاقات » الباطنة المتضمنة في صميم « الفعل » الخلقى نفسه^(١) . ولا نرانا في حاجة إلى القول بأن أعلى صورة من صور الأخلاق الإلزامية هي تلك التي نلتقي بها لدى « كانت » في كتابه المشهور : « نقد العقل العملي » .

نظرية كانت في « الإرادة الخيرة »

لو أننا تساءلنا عن المبدأ الأخلاق الذي يمكن أن نعده بمثابة الدعامة الأساسية لكل « أخلاقية » ، لوجدنا « كانت » يقرر أن « الإرادة الخيرة » هي — من بين جميع الأشياء التي يمكن تصورهما في هذا العالم ، أو حتى خارجه — الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعده خيراً على الإطلاق ، دون أدنى قيد أو شرط^(٢) . صحيح أننا قد نعده مواهب الطبيعة كالذكاء وأصالة الحكم وقوة الإرادة والشجاعة وما إلى ذلك ، أو نعم الحظ كالمال والجاه والشرف والسلطة وما إلى ذلك ، بمثابة « خيرات » متعددة ، نرغب في الحصول عليها والتمتع بها ؛ ولكن كل هذه المواهب والنعم لا يمكن أن تكون بمثابة « خيرات في ذاتها » : لأنها قد تستخدم لفعل الخير أو لفعل الشر ، فهي جميعاً لا تصبح « خيرة » إلا بالنسبة إلى ذلك « المقصد » الذي ترجوه إرادتنا من وراء استخدامها . ويضرب « كانت » مثلاً لذلك بفضيلة السيطرة على النفس أو رباطة الجأش فيقول إن هذه الفضيلة ليست « خيراً في ذاتها » : لأنها لو توافرت لدى المجرم لجعلت منه مجرماً

(1) Sellars & Hospesr : « Readings in Ethical Theory. » N - Y., 1952, Appleton - Century - Crofts, pp. 154 - 155 (on Prichard).

(2) Kant : « Fondement de la Métaphysique des Moeurs. » Paris, Hatier, Trad Franc. par p. Lemaire, pp 19 - 20.

خطيراً ولأظهرته في عيوننا بصورة المخلوق السكريه الذى تنفر منه ونفسو في الحكم عليه . وأما «الإرادة الخيرة» فهي الشيء الوحيد الذى يمكن أن يُعدَّ «خيراً فى ذاته» لأنها لا تستمد «خيريتها» من المقاصد التى تحققها ، أو الغايات التى تعمل من أجلها ، إلا من باطن ذاتها باعتبارها الشرط الضرورى الكافى لكل «أخلاقية» . وعلى حين أنه إذا انعدمت الإرادة الطيبة من أى عمل خلقى فإنه يصبح عندئذ عديم الصبغة الأخلاقية ، نجد أن «الإرادة الخيرة» — حتى إذا لم تنجح فى تحقيق ما تريد — تظل تسطع كجوهرة ثمينة لما قيمتها فى ذاتها . ومعنى هذا أن ما يكون جوهر «الإرادة الخيرة» ليس هو إنتاجها أو نجاحها ، أو سهولة بلوغها للغرض المنشود ، وإنما هو «النية» الطيبة التى لا بعدها أى خير من الخيرات فى هذا العالم . فالإرادة الخيرة لا تستمد «خيريتها» مما تصنعه أو مما تحققه ، بل هى عالية على جميع آثارها ، كما أنها تستمد «خيريتها» من صميم «نيتها» .

والحق أن «النية» هى العنصر الجوهرى فى «الأخلاقية» بأسرها : ما دامت الإرادة الطيبة «خيرة» بذاتها ، لا بعواقبها ، وإن الإرادة لتظل خيرة حتى ولو عجزت مادياً عن تحقيق مقاصدها ، على شرط أن تكون قد استخدمت — بكل ما فى وسعها من طاقة — شتى الوسائل التى كانت موجودة بين يديها . وهنا يعارض «كأنت» المذهب الطبيعى العقل الذى يعتبر الفعل وسيلة لإنتاج السعادة لصاحبه ، وكأن الغايات أو المقاصد هى التى تحمى فتخلع من الخارج على الإرادة كل ما لها من قيمة . ولو كانت «السعادة» هى غاية الإنسان ، لكان «العقل» مجرد عقبة فى سبيل تحقيقها : لأن الغريزة والميول الفطرية أقدر على تحقيق السعادة من «العقل» . وإذن فالإرادة التى تضع نفسها فى خدمة أمثال هذه الغايات ، لن تكون ذات قيمة مطلقة ، بل ستكون قيمتها نسبية كالوسيلة سواء بسواء . وأما «الإرادة الخيرة» — على العكس من ذلك — فإنها «غاية فى ذاتها» ، لا مجرد «غاية» واسطة يراد من ورائها بلوغ غاية أخرى أعلى منها . وهذا هو معنى قول «كأنت» إن الإرادة الخيرة غاية فى ذاتها .

وقد علّق أحد فلاسفة الأخلاق المعاصرين على نظرية «كأنت» فى «الإرادة الخيرة» فقال إن الفيلسوف الألمانى الكبير قد أراد أن يخلص الأخلاق من كل نزعة توحد بين السعادة والخير ، وهذا هو السبب فى أنه قد ذهب إلى ضرورة عدم ربط «الأخلاقية» بنتائج الأفعال . فليس المقصد الحقيقى للعقل — فى رأى «كأنت» — أن يوصلنا إلى إرادة خيرة من حيث أفعالها ، بل «إرادة خيرة فى ذاتها» .

ومعنى هذا أن الإرادة الخيرة ليست مجعولة لكي تكون نافعة ، بل هي مجعولة لكي تكون جديرة بالتقدير . وكل محاولة للربط بين « الضمير » و « الطبيعة » إنما هي خروج على صميم المبدأ الأخلاقى الذى يعلو بنا على مستوى الوجود الطبيعى . وهنا تظهر الصبغة المسيحية التى تتسم بها نظرية كانت فى الإرادة الخيرة : ما دام المعول فى الأخلاق عنده هو الإخلاص ونقاء القلب وطهارة الضمير . وبهذا المعنى يمكننا أن نقول إن « أخلاقية » الفعل — عند كانت — لا تقاس إلا بأخلاقية صاحب هذا الفعل ^(١) .

والحق أننا لو نظرنا إلى الأثر المترتب على أى فعل ، لوجدنا أن هذا « الأثر » فى ذاته خارج عن دائرة الأخلاق ؛ اللهم إلا إذا جاءت « النية » التى صدر عنها ، فجعلت منه شيئاً أكثر من مجرد « نتيجة » ترتب على بعض المقدمات . ولكن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى الفارق الكبير بين « الأخلاق المسيحية » بصفتها العاطفية أو الوجدانية و « الأخلاق الكانتية » بصفتها العقلية الإرادية خصوصاً وأن كانت قد أراد أن يخلع على « القلب » نفسه صبغة عقلية . وآية ذلك أن الفيلسوف الألمانى الكبير حتى حين يفسر وصية المحبة ، فإنه يقرر أنه ليس المقصود بها أن تلقى إخواننا فى الإنسانية بضرب من الشفقة أو التعاطف أو بأى ميل حسى آخر ، بل المقصود هو أن نودى واجبنا نحوهم ، بحيث نقدم لهم إحساناً عملياً لا مجرد وجدان عاطفى . ولولا هذا لما كان فى الإيمان أن يكون « الحب » أمراً أخلاقياً أو وصية أخلاقية ، مادامت العاطفة لا تؤمر . وبهذا المعنى يكون قول الوصية « أحبوا أقرباءكم » مساوياً لقولنا : « اعملوا واجبكم » ، دون أن يكون لذلك أى باعث آخر سوى اعتبار الواجب نفسه ^(٢) .

صحيح أننا كثيراً ما نتحدث عن « عواطف » أو « ميول » خلقية ، ولكن الأخلاق لا تعنى مطلقاً إشباع هذه العاطفة أو تلك ، أو إرضاء هذا الميل أو ذاك . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما كان ثمة « قانون أخلاقى » ، ولكان على كل فرد منا أن يعمل وفقاً لوجدانه

(1) R. Le Senne : « Traité de Morale Générale. » P. U. F., 1949, p. 239.

(٢) ارجع إلى كتابنا . « كانت أو الفلسفة النقدية » ، مكتبة مصر ، ١٩١٣ ،

الخاص . وحتى لو افترضنا أن لدى جميع البشر قدراً مشتركاً من « العاطفة » أو « الوجدان » ، لما كان في وسعنا مع ذلك أن نقيم الإلزام الخلقى على مثل هذا « الوجدان » : لأنه لن يكون في وسعنا عندئذ أن نقول إنه « ينبغي » لنا أن نتصرف كما يروق لنا ، بل كل ما سيكون في وسعنا أن نقوله هو أن كذا من الناس يفعل كذا من الأفعال : نظراً لأن في هذا العمل ما يروقه ! والواقع أن الأخلاق لا يمكن أن تقوم على أية دعامة حسية : سواء أكانت هذه الدعامة هي الإحساس أم الوجدان . والسبب في ذلك أن « الوجدان » بطبيعته « ذاتي » ، بدليل أنه ليس في وسع أى فرد أن يدرك وجدان غيره من الأفراد ، في حين أن « الأخلاق » لابد من أن تكون « موضوعية » ، وبالتالي فإنها لا يمكن أن تقوم على اعتبارات وجدانية أو عملية . ولو لم تكن الأخلاق مستقلة تماماً عن كل ميل أو اتجاه وجداني ، لما كان هناك أى اتفاق بين الناس حول مبادئ الأخلاق الأساسية ، وبالتالي لكان سلوك الأفراد وليد ميولهم الذاتية الخاصة ، دون أن يكون ثمة موضع للحديث عن أى قانون أخلاقي .

معنى « الواجب » وخصائصه عند كانت

رأينا أن الحديث عن « الإرادة السيرة » قد قادنا بالضرورة إلى الحديث عن فكرة « الواجب » : لأن ما يخلع على « الإرادة الخيرة » صفة « الخير » ليس هو « النتائج الخيرة » التي تترتب عليها ، بل هو « الطابع الإلزامي » الذي يتسم به « فعلها » حين يحىء مطابقاً للقانون الأخلاقي . والواقع أننا لو تساءلنا عن الشروط التي ينبغي توافرها في « الإرادة » لكي تكون خيرة أو صالحة ، لوجدنا « كانت » يجيب على تساؤلنا هذا بإحالتنا إلى مفهوم آخر استخلصه من تحليله للضمير أو الشعور الخلقى ، ألا وهو مفهوم « الواجب » . ومن هنا فإن « الإرادة الخيرة » في ذاتها هي تلك التي لا يكون لها قانون آخر سوى قانون « الواجب » . وكانت يفرق بين « الواجب » من جهة ، و « التلقائية المباشرة » من جهة أخرى ، فيقول إن الإنسان الذي يحافظ على حياته — مثلاً — لا يعمل بمقتضى « الواجب » حينما يكون فعله قد صدر عن « التلقائية » وحدها . وأما حينما يحافظ الإنسان على حياته ، حتى حينما يكون في قرارة نفسه قد عاف الحياة ، وسئم الوجود ، وأصبح يتمنى الموت ، فهناك — وهناك فقط — تكون لمملكه قيمة أخلاقية . وكذلك لا يكون الفعل قد صدر عن « مبدأ الواجب » حينما يكون مجرد صدى لميل طبيعي دفعنا إلى إتيان تصرف مطابق للأخلاق . وآية ذلك أن بعض الأفراد

الذين يعملون تحت تأثير نزوع طبيعي نحو التعاطف أو المشاركة الوجدانية قد يأتون من الأفعال مالا ينطوى على أية قيمة خلقية ، إذا جاء سلوكهم مفتقراً إلى المبدأ الأخلاقى (مبدأ الواجب) الذى لابد للأفعال من أن تصدر عنه . وقد يكون فعل الإحسان الذى يأتبه إنسان لا يشعر بأى ميل طبيعى نحو محبة البشر أشدّ اتصافاً بالصيغة الأخلاقية من فعل رجل يحبّ للبشر لا يصدر فى سلوكه إلا عن مجرد ميل طبيعى .

ويفرّق كانت بين « الأخلاقية » Morality و « القانونية » أو الشرعية : Legality ، فيقول إن « القانونية » تعنى أن يتصرف المرء وفقاً لما يقضى به القانون أو التشريع ؛ ولكن من الممكن أن يجيء تصرف الفاعل مطابقاً للقانون أو الشرع ، دون أن يكون للفاعل نفسه أى فضل خلقى أو أية جدارة خلقية . ويضرب « كانت » مثلاً لذلك بالسرقة : فيقول إن القانون يأمرنا بالمحافظة على ملكية الآخرين ، ومادام المرء لا يسرق أو لا يعتدى على أملاك الغير ، فهو يعمل وفقاً لما يقضى به القانون . ولكن الذى يمتنع عن السرقة قد يصدر فى امتناعه هذا عن « بواعث » متباينة : كالخوف من العقاب ، أو خشية الله ، أو احترام الرأى العام ، أو الخوف من تأنيب الضمير ، أو التعاطف مع الأشخاص المعتدى على أملاكهم ... إلخ . وفى كل هذه الحالات لا يُعدّ الامتناع عن السرقة « فعلاً خلقياً » بمعنى الكلمة . وأما ذلك الذى يقول : « إن واجبي يقضى علىّ بالأمر أن أسرق ، فأنا لن أسرق احتراماً للواجب وللعدل » ، فهذا وحده هو الذى يُعدّ « فاعلاً أخلاقياً » كما أن « الفعل » الذى صدر عنه يُعدّ بحق « فعلاً خلقياً » . وأما كل من عداه ، فإنهم لا يصدر عنهم فى أفعالهم إلا عن بواعث غير أخلاقية : كالمصلحة أو الحساب النفعى أو السعى وراء اللذة أو الرغبة فى اجتناب الألم ... إلخ . وتبعاً لذلك فإن « الجدارة الخلقية » وقف على ذلك الفاعل الأخلاقى الذى يقهر نفسه ، وينظم سلوكه ، لا يقصد الحصول على فائدة أو منفعة ، بل لمجرد احترام القانون الأخلاقى . وبهذا المعنى يمكننا أن نقول إنه لكى يصبح المرء « شخصية أخلاقية » فإنه ليس يكفى أن يؤدّى واجبه ، بل لابد أيضاً من أن يكون أدائه لهذا الواجب وليد احترامه للواجب نفسه ، أعنى للقانون الأخلاقى بوصفه قانوناً عقلياً ، كلياً ، أولياً ، ضرورياً .

وحيثما يصدر الفعل عن « الواجب » ، فإن قيمته الخلقية لا تتوقف على « النتائج » التى يحققها ، أو « الغايات » التى يسعى نحو الوصول إليها ، وإنما تتوقف هذه « القيمة » على « المبدأ » أو « القاعدة » التى يستوحىها الفاعل فى أدائه لهذا الواجب . ومعنى هذا أن « القيمة الخلقية » لأى فعل من الأفعال تكمن أولاً وقبل كل شئ فى « مبدأ الإرادة » ، بغضّ النظر عن « الغايات » التى يمكن أن يحققها مثل هذا الفعل .

ولهذا يقرر كانت أن صدور الفاعل الأخلاقي عن الشعور بالتعاطف أو الرحمة أو المحبة لا يجعل للفعل أدنى قيمة خلقية ؛ اللهم إلا إذا كان الفاعل على وعى تام بمبدأ الإرادة الذى ينبغي له أن يصدر عنه فى فعله . وقد سبق لنا أن رأينا أن الحب نفسه — فى رأى كانت — لا ينطوى على أية قيمة خلقية ، اللهم إلا إذا كان خاضعاً لتوجيه العقل المحض ، بحيث يصدر عن احترام للواجب من حيث هو واجب . وفضلاً عن ذلك ، فإن كانت يرى أن « الواجب » يتحدد وفقاً للمبدأ الأولى « الصورى » للإرادة ، دون أدنى اعتبار للربغبات أو الأهواء أو الميول أو الغايات المادية : نظراً لأن مثل هذه الغايات أو الدوافع أو البواعث لن تكون سوى ظواهر تجريبية ناشئة عن القوى الراغبة فى الإنسان . وليس من شك فى أن كل ما هو « تجريبى » لا يمكن أن يكون « ضرورياً » أو « كلياً » ، بل هو لابد من أن يظل مصبوغاً بصبغة « العرضية » أو « النسبية » . ولكن الأفعال الخلقية لابد من أن تكون صالحة فى كل زمان ومكان ، فهى لابد بالضرورة من أن تكون مطابقة لقانون كلى عام يكون هو الدعامة المطلقة لكل أخلاق . وحسبنا أن ننظر إلى كل أفعالنا ، لكى نتحقق من أن ما نعدّه — من بينها — « أخلاقياً » ، إنما هو ذلك الذى يوصف بأنه « معقول » أو « منتظم » ، بمعنى أنه مطابق للقاعدة الأخلاقية^(١) .

والحق أن « الواجب » لا يستند إلى العاطفة أو الوجدان ، كما أنه لا يقوم على « التجربة » : خارجية كانت أم باطنية ، بل هو يقوم أولاً وبالذات على « احترام القانون » . ولهذا يعرف « كانت » الواجب بقوله : « إنه ضرورة أداء الفعل احتراماً للقانون »^(٢) . وليس هذا « الاحترام » باعثاً مضافاً ، وإنما هو ينشأ فينا تلقائياً بفعل العقل نفسه . وما دام الفعل الصادر عن الواجب لا يقع تحت تأثير أى ميل باطنى ، ولا يصدر عن أى موضوع خارجى ، فلم يبق إلا أن نقول إن احترام القانون هو الباعث الأخلاقى الوحيد ، وبالتالي فإن ما يحدد الإرادة ليس هو أى « مضمون » تجريبى ، بل هو « الصورة » الخالصة للقانون .

صحيح أن كل ما فى الطبيعة من أشياء إنما يعمل وفقاً لقوانين ، ولكن الموجود الناطق وحده هو الذى يتمتع بملكة القدرة على التصرف وفقاً لتصوره للقوانين ، أعنى بمقتضى بعض المبادئ العقلية . فعلى حين أن سائر الكائنات الأخرى تخضع لقوانين ، نجد أن الإنسان وحده هو الكائن الناطق الذى يتعقل القانون ، ويعمل بمقتضى فهمه لمبادئ

(1) Cf. Kant : « Lectures on Ethics, » Harper, N - Y., 1930 Introduction.

(2) Kant : « Fondements de la Métaphysique des Moeurs, p. 2

العقل . ولا يفرض القانون الأخلاقي نفسه على الإرادة ، كما يؤثر الثقل على الأجسام ، بل هو يتخذ طابع « الإلزام » لا « الضغط » ، ويتجلى على شكل « نظام أخلاق » ، لا « ضرورة طبيعية » . وهذا هو السبب في أن « الأخلاقية » تفترض انتصاراً للإرادة على الطبيعة ، أو إلزاماً تمارسه الذات على نفسها ، وتضحية بمظاهر الإشباع الدنيء ، للغرائز ، في سبيل الخضوع لأوامر العقل لمجرد أنه العقل . وما دامت الصبغة الأخلاقية للأفعال إنما تكمن في باطن « النية » ، لا في مظاهر تصرفاتنا الخارجية ، فإنه لا يكفي لكي يكون الفعل « خلقياً » أن تتفق نتائجه مع ما يقضى به الواجب ، بل يجب أن يكون صادراً عن تقدير عقلي لمبدأ الواجب . وهنا تظهر صرامة الأخلاق الكانتية ، فإن « الواجب » ليدو عند كانت ، وكأنما هو موجه ضد الطبيعة ، فضلاً عن أن الحياة الخلقية بأسرها لتبدو وكأنما هي سلب أو إنكار لميولنا الطبيعية . وكانت يدعونا إلى التغلب على جميع هذه العوائق ، حتى يكون تمسكنا بالعقل مظهراً لاستجابتنا لرسالتنا الحقيقية ، وبذلك نصل إلى ماهيتنا المعقولة ذاتها . وما يسميه كانت باسم « المعقولة » ، إنما هو الطابع الأساسى الذى يكون ماهية « الفعل الخلقى » : ونحن حين ننظر إلى نقائصنا ومظاهر ضعفنا — فيما يقول كانت — فإن تصورنا للقانون لابد من أن يشعرنا بضالة شأننا ، ولكتنا حينئذ نتحقق من أن هذا المبدأ الأخلاقى السامى كامنٌ في أعماق نفوسنا ، فإننا لا نلبث أن نشعر بعظمتنا ورفعة شأننا . وعندئذ ندرك أن الأخلاق تضعنا في مستوى أعلى بكثير من مستوى الطبيعة ، ونفطن إلى أن الواجب هو الذى يميز مملكة الإنسان باعتبارها « مملكة الحرية » عن مملكة الطبيعة بوصفها « مملكة الضرورة » (١) .

وأما إذا نظرنا إلى السمات الرئيسية التى ينسبها كانت إلى الواجب ، فإننا سنجد أولاً : أن الواجب صورتى محض : بمعنى أنه تشريع كلّى أو قاعدة شاملة لا صلة لها بتغيرات التجربة . ولما كان الواجب هو والعقل الخالص شيئاً واحداً ، فإن الواجب لا يقوم على أى اعتبار عملى أو تجريبى ، بل هو مبدأ صورتى خالص . وكانت يحاول أن يبين لنا في أحد المواضع كيف أن في استطاعة طفل صغير لما يتجاوز العاشرة من عمره ، حينئذ يكون بإزاء إشكال أخلاقى ، أن يميز الحل الأخلاقى الصحيح لهذا الإشكال ، بحيث يتسامى بنفسه فوق سائر اعتبارات اللذة والمنفعة والمصالح الفردية ، لكى يطابق

(١) ارجع إلى كتابنا : « كانت أو الفلسفة النقدية » ، مكتبة مصر ، سنة ١٩٦٣

سلوكه مع المثل الأعلى للنزاهة الخالصة أو الأمانة المطلقة . وبهذا المعنى يمكن القول بأن قيمة الواجب كأمنة في صميم الواجب نفسه ، بغض النظر عن أية منفعة أو فائدة أو كسب مادى . والإنسان هو الكائن الوحيد الذى يعمل الواجب ، علماً فى الوقت نفسه أن « قيمة الفضيلة إنما تزيد كلما كُلفتنا الكثير ، دون أن تعود علينا بأى كسب »^(١) .

ويتسم الواجب ثانياً : بأنه منزّه عن كل غرض : بمعنى أنه لا يُطلب من أجل تحقيق المنفعة ، أو بلوغ السعادة ، بل هو يُطلب لذاته . فليست « الأخلاق » هى المذهب الذى يعلمنا كيف نكون سعداء ، بل هى المذهب الذى يعلمنا كيف نكون جديرين بالسعادة . ومعنى هذا أن علينا أولاً أن نودى واجبتنا ، فإذا ما اضطلعنا بأدائه ، كان علينا من بعد أن نبحث فيما إذا كان الفعل الذى حققناه يتضمن أو لا يتضمن الإيمان بإمكانية تحقق الخير الأقصى لذلك الشخص الذى هو جدير به . ولئن يكن الواجب فى نظر كانت يفترض الحرية ويكتمل بالسعادة ، إلا أنه لا بد لنا أولاً وقبل كل شئ من إطاعة الواجب بوصفه « واجبا » ليس غير . وأما السمة الثالثة والأخيرة التى يتصف بها الواجب ، فهى أنه قاعدة لا مشروطة للفعل : بمعنى أنه لا سبيل إلى تأسيس الواجب على شئ آخر أو إرجاعه إلى شئ آخر ، مادام « الواجب » هو الدعامة التى يستند إليها كل تقدير عملى وكل حكم أخلاقى . وبعبارة أخرى يقرر كانت أن الواجب قانون سابق à Priori على كل تصور تجريئى ، أو هو على الأصح حكم أولى تأليفى يمثل الواقعة الوحيدة للعقل العملى المحض^(٢) وقصارى القول أن « الواجب » عند كانت يجمع بين « الطابع الأولى » من جهة ، والطابع « الصورى » من جهة أخرى ، وإلا لما كان كلياً ، ضرورياً ، غير مشروط ...

الأخلاق بين الأوامر الشرطية والأوامر القطعية

يذهب كانت إلى أنه لو كان الإنسان عقلاً محضاً ، لاتبه بطبيعته نحو الخير . ولتحقق التطابق بين عقله وإرادته . ولكن لما كان الوجود البشرى مزيجاً من الحسّ والعقل ، فإنه يتصور الخير ، ويُقدم مع ذلك على ارتكاب الشر . ومعنى هذا أن الإرادة البشرية خاضعة لدوافع حسية متعارضة مع العقل للعقل ؛ ولهذا فإنها كثيراً ما تحقق من الأفعال

(1) Kant : Critique De La Raison Pratique » , Trad . Franç . par

Picavet, Paris, 1906, P . 280

(2) Ibid., pp. 51 - 52.

ما يتعارض مع القانون . ومن هنا كانت حاجة الإرادة إلى « أوامر مُلزِمة » تكرهها على أداء ما اعتبره العقل خيراً . وعلى حين أنه لا حاجة بالإرادة الإلهية ، إلى أمثال هذه « الأوامر » ، ما دامت مثل هذه الإرادة — بحكم تكوينها الذاتي — قادرة على تحديد ذاتها واتخاذ تصميمها ، بمجرد ما تتصوّر « الخير » ، نجد أن الإرادة البشرية هي في حاجة دائماً إلى أمثال هذه « الأوامر » ، حتى تحقق تصرفاتها وفقاً لما يقضى به القانون الأخلاقي . وما دام « الخير » مختلفاً كل الاختلاف عن « الملائم » ، فإن طبيعتنا الحسية لا تكفى لإلزام إرادتنا بفعل الخير ومطابقة القانون . وحين يتحدث كانت عن « الأوامر » ، فإنه يعنى أن « الأخلاق » تضعنا في مستوى يعلو مرتبة « الطبيعة » . وهو يسمّى قوانين العقل العملي باسم « الأوامر » Imperatives لأنه يرى أنها تعارض مع أهوائنا ، فتحاطبنا بلهجة « الأمر » أو « السيد » الذى يُلْزِمنا باتباع أوامره . ويعرّف كانت « الأوامر » فيقول « إنها صيغ تعبّر عن علاقة قوانين الإرادة على وجه العموم بالنقص الذاتي المميّز لإرادة هذا الموجود الناطق أو ذاك ، كما هو الحال مثلاً بالنسبة إلى الإرادة البشرية » (١) .

حقاً إن لدى الإنسان طبيعة تجريبية محض تكشف عنها حياته الحيوانية التى لم يستطع العقل بعد أن ينفذ إليها ، ولكن هذه الطبيعة التجريبية لا تكفى لتحديد إرادتنا عن طريق تصوّرها للملائم أو الملائذ أو النافع . وآية ذلك أن « اللذة » أو « المنفعة » لا تتحدّد إلا تبعاً لملاءمتها لمثل كل ذات على حدة ، بحيث إن مبدأ السعادة نفسه لا يمكن أن يرق بنا إلى مستوى يعلو على الميول الذاتية . ومهما نحاول أن نجعل من « اللذة » أو « السعادة » قانوناً عملياً كلياً ، فستظل « السعادة » التى ينشدها كل فرد منا حقيقة ذاتية تضع صاحبها في تعارض مع الآخرين . وهنا يظهر الفارق الكبير بين « الخير » و « الملائم » : فإن الأول منهما لا بد من أن يكون كلياً ، موضوعياً ، ضرورياً ، فى حين أن الثانى لا يؤثر على الإرادة إلّا من خلال الإحساس ، وعن طريق علل ذاتية محض ، فهو مشروطٌ بالاحساسية الفردية التى يتمتع بها هذا الموجود أو ذاك ، دون أن تكون له صفة المبدأ العقلى الذى يصدّق بالنسبة إلى الجميع . وهكذا تقف الإرادة البشرية موقفاً وسطاً بين « الطبيعة الحيوانية » التى تخضع لدوافع حسية صرف ، وبين « الإرادة الإلهية » التى تمثل « تلقائية عليا » هي « القداسة » بعينها (٢) .

(1) Kant : « *Fondements de La Métaphysique des Moeurs* . p 38.

(2) R. Le Senne : « *Traité de Morale Générale* , 3e éd., p. 242.

ويفرق كانت بين نوعين من الأوامر : أوامر شرطية مقيدة ، وأوامر قَطعية مطلقة . وهو يقرر أن النوع الأول من الأوامر يخضع للقاعدة القائلة بأن « من أراد الغاية فقد أراد الوسائل أيضاً » . ومعنى هذا أن الأوامر الشرطية تلزمنا باتباع الوسائل اللازمة لبلوغ الغايات المنشودة : كأن أقول لك مثلاً : « إذا أردت أن تحيا سعيداً ، فكن صالحاً » ، أو « إذا أردت أن تكسب ثقة الناس ، فقل الصدق دائماً » . وأما النوع الثانى من الأوامر فهو غير مقيد بشرط ، لأن ما يلزمنا به أمر ضرورى فى ذاته ، بصرف النظر عن نتائجه أو غاياته ، كأن أقول لك مثلاً « كُنْ خَيْراً » أو « قل الصدق دائماً » . وهنا لا يكون فعل الخير أو قول الصدق وسيلة للحصول على أمر ما كائناً ما كان ، بل يكون مجرد تصرف نزيه نلتزم فيه بأصول الخير ، أو نحترم فيه مبادئ الحق : لأننا هنا بإزاء قانون أخلاق عام لا يطاع لما يترتب عليه من منافع ، بل لأنه هو القانون . ويضرب لنا كانت — فى موضع آخر — مثلاً للأمر الأخلاقى فيقول إن القاعدة الأخلاقية التى تأمرنا باحترام العهد أو الوفاء بالوعد ليست مجرد « أمر شرطى » يقول لنا : « إذا كان بما يفيدك أن تحترم العهد أو أن تقى بالوعد ، إذن فاحترمه أو أوف به » ، بل هى « أمر قطعى » يقول لك : « لا تخن العهد » ، أيأ ما كانت الظروف ، ومهما تكن الأسباب . ومعنى هذا أن من خصائص الأمر الأخلاقى أنه أمر مطلق غير مشروط : فليست هنا غاية تحدده ، وليس ثمة شرط يحكمه ، بل هو ينبع من الإرادة الحرة ، دون أن يدخل فى اعتباره النظر إلى النتائج أو الغايات . وتبعاً لذلك فإن « الفعل الحر » دائماً على « خيرية باطنة » بغض النظر عن هدفه أو غايته . وحين يقول كانت إن « الخيرية الأخلاقية » تخلع على الإنسان « جدارة خلقية » مباشرة ، فإنه يعنى بذلك أن قيمة السلوك الخلقى « باطنة » فيه . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إن الرجل الذى يحافظ على عهده أو يفى بوعه هو إنسان أخلاقى يتمتع بقيمة باطنية مباشرة ، ألا وهى قيمة الإرادة الحرة ، بغض النظر عن الغاية أو الهدف الذى يعمل فى سبيله . ومثل هذه « القيمة الذاتية » Intrinsic Value لا يمكن أن تنبع عن أية « خيرية برجماتية » أو « عملية »^(١) .

ويعود كانت إلى المقارنة بين هذين النوعين من الأوامر فيقول إن الأوامر الشرطية المقيدة هى مجرد أحكام تحليلية تقتضيها دواعى المهارة ، أو الحكمة ، أو السعادة ،

(1) Kant : « Lectures on Ethics », in « Approaches to Ethics », Mc Graw - Hill, N - Y., 1962, pp. 248 - 249 .

وتنطوى فيها فكرة « الغاية » المرادة على فكرة « الوساطة » التى لابد لها من استخدامها ، فى حين أن الأوامر القطعية المطلقة هى أحكاماً تأليفية أولية تربط الإرادة بالواجب ، فى استقلال تام عن أى مفهوم تجريئى . وحينما نقول عن الأوامر القطعية المطلقة إنها تلزمننا إلزاماً ، دون أدنى قيد أو شرط ، فنحن نعنى بذلك أنها ليست مقيدة بشروط تجريبية ، أو ظروف خارجية ، بل هى « كلية » شاملة تعبر عن عمومية القانون الأخلاقى . ولعل هذا ما عناه كانت نفسه حين قال فى إحدى محاضراته الأخلاقية : « إن الفعل الذى يتسم بالخيرية الخلقية فعل نقى خالص ، وكأنما هو قد هبط من السماء ذاتها » ^(١) ومن هنا فإن الفارق بين « الأمر الشرطى » و « الأمر المطلق » أن الفعل فى الأول منهما لا يكون خيراً إلا باعتباره وسيلة للحصول على شيء ما ، فى حين أن الفعل فى الثانى منهما متصور باعتبار « خيراً فى ذاته » .

ولسنا نريد أن نتوقف عند تقسيم كانت للنوع الأول من الأوامر إلى « قواعد مهارة » و « نصائح فطنة » ، وإنما حسبنا أن نقول إن كل الأوامر الشرطية المقيدة ، سواء أكان الغرض منها تحقيق مقصد معين ، أم بلوغ السعادة بصفة عامة ، إنما هى نصائح عملية تتصل بفن الحياة أو فن السعادة ، دون أن تكون لها صبغة الإلزام المطلق أو صفة الضرورة العامة . وأما الأوامر القطعية المطلقة فهى مبادئ أخلاقية تحمل فكرة « القانون » وتشتمل فى صميمها على مفهوم الضرورة الموضوعية اللامشروطة ، وبالتالي فإنها أوامر كلية شاملة لا تنطوى على أى اعتبار لفكرة الغايات أو الدواعى المستمدة من التجربة . وعلى حين أن الأوامر الشرطية المتعلقة بالسعادة لا تكاد تخرج عن كونها نصائح تجريبية قاصرة بطبيعتها عن أن تصور لنا بعض الأفعال بصورة « الأفعال الموضوعية الضرورية » التى لا غنى عنها للوصول إلى السعادة ، نجد أن الأوامر القطعية المطلقة المتعلقة بالأخلاق هى فى صميمها أوامر ضرورية كلية أولية سابقة على كل تجربة . ولهذا يقرر كانت أن الأمر المطلق وحده هو الذى يتمتع بصفة « القانون العمل » ، فى حين أن سائر الأوامر الأخرى ليست سوى مجرد « مبادئ » لا قوانين للإرادة . وما دامت الضرورة التى ينطوى عليها الأمر المقيد المشروط متوقفة على رغبتى فى الحصول على الغاية التى أريدها ، فإن موضوع الأمر الشرطى متوقف على مدى تمسكى بالغاية أو تنازلى عنها ، فى حين أن الطابع اللامشروط الذى يتميز به الأمر المطلق لا يدع لإرادتى أى مجال لاختيار عكس ما يقضى به . وأنا حين أتصور أمراً

شرطياً — بصفة عامة — فإننى لا أستطيع أن أعرف سلفاً ما سوف ينطوى عليه ، وإنما أعرفه فقط حينما أكون قد عرفت الشرط المتوقف عليه . وأما بالنسبة إلى الأمر المطلق ، فإننى أعرف سلفاً ما يتضمنه ، لأن هذا الأمر لا يحمل أى شرط يحدده ، بل كل ما يحمله هو « كلية القانون » بصفة عامة ، و « ضرورة مطابقة الفعل للقاعدة الأخلاقية »^(١) .

الأوامر المطلقة : أو قواعد الفعل الثلاث

رأينا أن الواجب هو الفعل الذى تحققه احتراماً للقانون ، وقلنا إن الخاصية الرئيسية التى تميز القانون هى « الكلية » ثم خلصنا إلى أن القانون الأخلاقى لا يمكن أن يحدّد إلّأ بما له من « صورة » . وسنحاول الآن أن نتعرف على الصيغ الرئيسية للواجب ، حتى نقف على الأوامر المطلقة التى لا بد لإرادتنا من مراعاتها فى كل أفعالها . وهنا نجد كانت يحصر هذه الصيغ فى قواعد أساسية ثلاث :

أولاً : « اعمل دائماً بحيث يكون فى استطاعتك أن تجعل من قاعدة فعلك قانوناً كلياً عاماً للطبيعة » . وهذه القاعدة الأساسية التى اعتبرها كانت مبدأً لسائر القواعد الأخرى تعنى أن المحكّ الأوحد للسلوك الخلقى هو إمكان تعميمه من غير تناقض . فإذا كان فى وسعى أن أجعل من القاعدة التى استندت إليها فى فعلى قانوناً عاماً لا يتعارض مع الواقع الخارجى (أو مع الطبيعة) ، كان فعلى مطابقاً للواجب . وأما إذا أدى تعميمى لقاعدة هذا الفعل إلى ضرب من التناقض ، كان الفعل نفسه متعارضاً مع القانون الأخلاقى . وكأنت يضرب لنا أمثلة عديدة لبيان صحة هذه القاعدة ، فيشير إلى فعل الانتحار ، وفعل خيانة العهد ، وفعل الانصراف إلى حياة اللذة ، وفعل الامتناع عن مساعدة الغير ، لكى يبين لنا من كل هذه الأمثلة أنه ليس فى الإمكان تعميم المبادئ التى تستند إليها أمثال هذه الأفعال دون الوقوع فى تناقض^(٢) . ولكننا لو نظرنا إلى المثالين الأولين اللذين ساقهما كانت ، لوجدنا أن الحكم الأخلاقى فىهما متناقض مع نفسه ،

(1) Cf. Sir David Ross : « Kant's Ethical Theory. » Oxford Clarendon Press, 1954, Second Section, pp. 40-42 .

(٢) يجد القارئ عرضاً مسهباً لهذه الأمثلة فى كتابنا : « كالت أو الفلسفة النقدية » . ص ١٩٩ — ٢٠١ .

ومن ثم فإن من المحال تصوّره قانوناً كلياً يَصْدُق على الطبيعة بأسرها ، في حين أن الملاحظ في المثاليين الثالث والرابع أن الإرادة (لا الطبيعة) هي التي تتناقض مع نفسها ، لوجعلت من سلوكها مبدأ عاماً أو قانوناً كلياً ، وبالتالي فإن من المحال تعميم المبدأ الذي استندت إليه في تصرفها . وكأنت يدكرنا بأننا حينما نخالف واجباً من الواجبات ، فإننا كثيراً ما نرفض في قرارة نفوسنا فكرة اعتبار مبدأ سلوكنا قاعدة أخلاقية عامة : لأننا نشعر بأننا هنا بإزاء حالة خاصة تجعل من سلوكنا مجرد استثناء للقانون الأخلاقي العام . وآية ذلك أن اللص الذي يقترب جريمة السرقة بدافع من الغواية أو الإغراء ، قد لا يريد لغيره من الناس أن ينهجوا نهجه فيصبحوا لصوصاً مثله ! ومعنى هذا أننا نعترف بقيمة الأمر الأخلاقي المطلق ، حتى حين نعلم إلى مخالفته تحت تأثير بعض الميول أو الأهواء ، وكأننا نسلّم ضمناً بأن للواجب قيمة كلية مطلقة ، أو كأننا نؤمن في قرارة نفوسنا بأن الاستثناء نفسه يؤيد القاعدة ^(١)

ثانياً : « اعمل دائماً بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي أشخاص الآخرين كغاية ، لا كمجرد واسطة » وهذه القاعدة الثانية تدلنا على أن الأخلاق الكاتية ليست مجرد أخلاق صورية بحتة لا تنطوي على أى مضمون ، ولا تشتمل على أية مادة ، بل هي قد أرادت أن تجعل للواجب مضموناً أو مادة ، فجعلت من « الشخص الإنساني » غاية في ذاته ، وذهبت إلى أنه الموضوع الأوحـد للواجب . ولكن ، لما كان من المستحيل في نظر كانت أن تكون للواجب مادة تجريبية أو مضمون تجريبي ، فقد حَصَرَ فيلسوفنا موضوع الواجب في الجانب العقلي (لا التجريبي) من الشخص الإنساني ، وذهب إلى أن الطبيعة العاقلة وحدها هي التي تُعَد « غاية في ذاتها » . وإذا كان في استطاعتنا أن نتخذ من الأشياء « وسائل » نستخدمها لتحقيق أغراضنا ، فإننا مُلْزَمُونَ بأن ننظر إلى الكائنات العاقلة على أنها « غايات » موضوعية ، وبالتالي فإنه ليس من حقنا أن نعامل « الأشخاص » باعتبارهم مجرد « وسائل » لتحقيق أغراضنا . ويعود كانت إلى أمثله السابقة ، لكي يبين لنا أن الشخص الذي يقدم على الانتحار ، أو الذي يعطى الآخرين وعوداً كاذبة ، أو الذي يتهاون في تنمية شخصيته ، أو الذي يحجم عن معونة الآخرين ، لا يعامل الإنسانية — سواء أكان ذلك في شخصه أم في أشخاص الآخرين — باعتبارها « غاية في ذاتها » . ولكن لما كانت كل ذات بشرية هي في الحقيقة « غاية في ذاتها » فإنه لا بد من أن تكون غاياتها — على قدر الإمكان — غايات لي أنا أيضاً ، إذا

كنتُ حريصاً على أن تحقق هذه « الغاية » في ذاتي كل ما لها من فاعلية. ولا شك أن حديث كانت هنا عن « مملكة الغايات » قد يوحى — على الأقل في ظاهر الأمر — بأنه لم يُلزم نفسه بالبقاء في حدود « أخلاق الواجب » أو « الأخلاق الإلزامية » ، بل هو قد أدخل في اعتباره أيضاً بعض مبادئ « أخلاق الغاية » أو « الأخلاق القُرْضية » .

ثالثاً : « اعمل بحيث تكون إرادتك — باعتبارك كائناً ناطقاً — هي الإرادة المشرّعة الكلية .. » وهذه القاعدة هي بمثابة مؤلف (أو مرتّب) يجمع بين القاعدتين السالفتين ، لأنها تنصّ على ضرورة خضوع الإنسان للقانون ، باعتباره هو المشرع الوحيد له . وما دامت إرادة الكائن الناطق هي بطبيعتها خاضعة للقانون ، فإنه لا بدّ لهذه الإرادة — من حيث هي غاية في ذاتها ، لا مجرد وسيلة أو أداة — أن تكون هي مصدر هذا القانون ، بحيث يكون خضوعها له بمثابة خضوع لنفسها . وحينما يقول كانت إن الإرادة هي المشرّعة العامة للقانون ، فهو يعنى بذلك أن لديها من « الاستقلال الذاتي » Autonomy ما يجعل منها إرادة حرة لا تصدر في كل أفعالها إلا عن طبيعتها العاقلة . وعلى حين أن كثيراً من فلاسفة الأخلاق السابقين كانوا يستمدون مصدر الإلزام الخلقى من سلطة خارجية ، نجد كانت يقرر أن مصدر الإلزام الخلقى هو سلطة باطنية تجعل من « الإرادة » مصدر التشريع الخلقى كله : Self-Legislation . وليس في وسع الإرادة أن تكون مصدراً للإلزام ، اللهم إلا إذا كان في مقدورها أن تتحرر من القانون الطبيعي الذي يفترض أن لكل ظاهرة علة خارجية عنها . فلا بد إذن من أن ننسب إلى الإرادة ضرباً من الحرية أو الاستقلال الذاتي ، حتى تكون هي المشرّع الوحيد لأفعالها ، وهي المستولة الوحيدة عن كل تصرفاتها . وكانت يرى أن « استقلال الإرادة » هو مبدأ كرامة الطبيعة البشرية وكل طبيعة عاقلة ، لأنه لولا هذا المبدأ لما كانت الإرادة هي مصدر التشريع الخلقى . وحيث إن القانون الأخلاقي الصادر عن العقل واحد لدى جميع الكائنات الناطقة ، فإن كانت يرى أن ثمة « مملكة غايات » تتألف من اجتماع سائر الموجودات العاقلة التي تجمع بينها تلك القوانين المشتركة . وليس في هذه المملكة رئيس ومرعوس ، بل كل أفرادها أعضاء في ذلك « العالم المعقول » الذي يسوده تشريع عقلي واحد ، وتسود العلاقات بين أفراد مبادئ الواجب الضرورية الكلية . وما دامت ماهية التشريع الخلقى هي « الكلية » أو « العمومية » ، فإن المجتمع البشري لن يكون سوى جمهورية معقولة تتألف من أناسٍ أحرار ، يضع كل منهم لنفسه (وللآخرين) قواعد صادقة كلية ، بحيث لو وُجد أي شخص آخر مكانه ، لتصرّف مثله تماماً ، دون أي اعتبار للتفضيل الشخصي أو الميول الذاتية ... إلخ .

وهكذا نرى أن القاعدة الثالثة من قواعد الفعل تتطلب من كل فرد منا أن يعمل بحيث تكون القاعدة التي يصدر عنها في سلوكه معبرة عن استقلال إرادته . وقد أخذت كانت عن روسو فكرة « الإرادة العامة » بوصفها المثل الأعلى لشتى الإرادات الفردية، فذهب إلى أن القانون العملي الكلي باطنٌ فينا ، وإن كان في الوقت نفسه عالياً علينا : بمعنى أن هناك إلى جانب « الذات الظاهرية » التي تخضع للنظام التجريبي ذاتاً أخرى خالصة تتمتع بضرب من الاستقلال الذاتي ، ألا وهي « الذات الباطنية » أو « الذات المطلقة » وهذه الذات المطلقة هي التي تكفل « أخلاقية » الأفعال المحققة بوازع من احترام الواجب ، وهي التي تسمو بنا في الوقت نفسه فوق مستوى العالم التجريبي ، ولما كان العقل — في رأى كانت — يمثل الماهية الباطنية الخالدة للموجود البشري ، فليس بدعاً أن تراه يقيم الأخلاق على قوانين الطبيعة العاقلة ، مستبعداً من حسابه كل اعتبار للخيرات الوضعية ، والدوافع الخارجية ، والتلقائية المباشرة ، والميول الوجدانية ... إلخ . ونظراً لأن كانت قد أراد أن يتوصل إلى « العنصر الخالص » أو « الحقيقة المحضة » في مضمار الأخلاق ، فقد وجد نفسه مضطراً إلى الصعود نحو « المبدأ الكلي للامشروط » الذي هو المصدر الأصلي العام لكل « أخلاقية » .

ويختم كانت حديثه عن « الأوامر المطلقة » بالرجوع إلى فكرة « الإرادة الخيرة » التي اتخذ منها نقطة انطلاقه ، فيقول إن الإرادة تكون خيرة خيراً مطلقاً ، حينما يكون في الإمكان تحويل قاعدة سلوكها إلى قانون عام ، دون أن يكون في ذلك أى تناقض ذاتي . ومعنى هذا أن الخيرية الأخلاقية تنحصر في إخضاع إرادتنا للقواعد ، بحيث يتحقق ضرب من الانسجام بين شتى أفعالنا الإرادية . وتبعاً لذلك فإن الإرادة الخيرة لا يمكن أن تتعارض مع نفسها ، فضلاً عن أنها لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون سيئة . وعلى حين أن الحقيقة لا تتعارض مع نفسها ، نجد أن الأكاذيب يناقض بعضها البعض ، فضلاً عن أنها لا يمكن أن تتسق مع غايات الفرد وغايات الآخرين . ولهذا فإن شأن القاعدة الأخلاقية أن تضمن تحقق ضرب من الانسجام بين سائر الإرادات الحرة . وإلى جانب هذا وذاك : فإن الإرادة الخيرة لا بد من أن تكون مبدأً لتشريعها ، وغاية لأفعالها ، بحيث إن « استقلال الإرادة » ليدو في خاتمة المطاف بمثابة المبدأ الأسمى لكل « أخلاقية » . ولهذا نرى كانت يردّ الجانب الأكبر من الأخطاء التي وقع فيها أصحاب

المدارس الأخلاقية المختلفة — من طبيعية ، ووجدانية ، وسيكولوجية ، ولاهوتية وغير ذلك — إلى قولهم بوجود « سلطة خارجية » Heteronomy هي مصدر الإلزام الخلقى^(١) .

نقد نظرية الواجب عند كانت

إذا كان من بعض أفضال النظرية الكانتية في الواجب على الفلسفة الخلقية أنها أبرزت — لأول مرة في تاريخ المذاهب الأخلاقية — أهمية « الإرادة الحرة » ، و « القانون الأخلاق » ، وكشفت عن الطابع الحقيقي للإلزام الخلقى والعقل العمل ، فإن هذه النظرية — في الوقت نفسه — قد استهدفت للكثير من الحملات في أيام كانت نفسه وحتى أيامنا هذه . وقد أخذ معظم فلاسفة الأخلاق على النظرية الكانتية في الواجب نزعتها الصورية المتطرفة ، وإغراقها في التزمّت أو التشدد ، وإزدراءها للحساسية والوجدان ، وعدم اعتمادها على التجربة ... إلخ .

ونحن نعرف كيف أراد كانت أن يخلع على الأخلاق صبغة أمرية مطلقة ، وكيف اقتادته نزعته الصورية المتطرفة إلى القول بأن « المهم في أية فلسفة عملية ، ليس هو أن نشرح أسباب ما يحدث بالفعل ، بل أن نبسط القوانين التي تحدّد ما ينبغي أن يحدث ، حتى ولو لم يحدث هذه الذي تحدده يوماً ما على الإطلاق^(٢) » وشوبنهاور يعترض على هذه العبارة الأخيرة فيقول إنه من يدري أن هناك بالفعل « قوانين » لا بد لنا من أن نخضع لها كل أفعالنا ؟ بل من يدري أن ما لم يحدث في يوم ما من الأيام لا بد من أن يحدث ، أو هو بالضرورة مما ينبغي حتماً أن يكون ؟ أليس من واجب عالم الأخلاق أن يفسّر معطيات التجربة ، بحيث يتناول ما هو كائن أو ما قد كان ، محاولاً العمل على فهمه حق الفهم ، بدلاً من الاكتصار على التشرّيع ووضع الأوامر وصياغة القواعد ؟ بل إن « كانت » ليفترض منذ البداية أن هناك « قوانين أخلاقية خالصة » ، دون أن يضطلع بأى بحث تمهيدى يررر لنا فيه هذه القضية التي تحمل المناقشة . ولكن ، أليس من حقنا أن نفحص مفهوم « القانون » نفسه ؟ فهل نقول بأن لهذا المفهوم طابعاً مدنياً

(١) ارجع إلى كتابنا : « كانت أو الفلسفة النقدية » ، ١٩٦٣ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧

(2) Kant : « *Fondements de la Métaphysique des Moeurs* . », Trad , Franç , Préface.

صرفاً ، على أساس أن القانون هو مجرد تنظيم بشري يقوم على تراضى الشعب ؟ أم هل نرجع إلى الوراء قليلاً ، لكي نبحث في أصول كلمات « القانون » و « الواجب » و « الإلزام » ، بُغية الوصول إلى معرفة المصادر الدينية التي انحدرت إلينا منها ؟ الواقع أننا لو عدنا إلى أصول هذه الألفاظ — فيما يقول شوبنهاور — لوجدنا أنها قد انحدرت إلينا من تشريع موسى الوارد في سفر « التثنية » . ومعنى هذا أنه ليس هناك « واجب » بالمعنى الفلسفى أو الأخلاقى ، بل هناك « وصايا » نزلت لأول مرة في تاريخ العهد القديم على موسى . وتبعاً لذلك فإن مفهوم « الواجب » يرتد في خاتمة المطاف إلى الأخلاق اللاهوتية ، مما يدل على أنه مفهوم غريب على الأخلاق الفلسفية . وحتى لو سلمنا مع كانت بأن « الواجب » مفهوم أخلاقى صرف ، فإن قول كانت بوجود الخضوع للقانون « احتراماً للقانون » هو قول غير معقول : لأن العقل يلزمنا دائماً بالبحث عن « الحثيات » التي تسوّغ للقانون أن يأمرنا .

ثم ينتقل شوبنهاور إلى « المبدأ الأول » *a priori* الذى أراد كانت أن يطبقه على « الأخلاق » ، كما طبقه على « المعرفة » ، فيقول إن الخطأ الأصلى الذى وقع فيه كانت هو أنه ظن أن في وسعه تأسيس الأخلاق كلها على أسس صورية أولية سابقة على التجربة . وهذا ما جعله يؤكد أن « القانون الأخلاقى » لا ينصبُّ على « مادة » الأفعال ، بل على « صورتها » فقط . ولكننا لسنا ندرى (فيما يقول شوبنهاور) كيف وقع في ظن كانت أن يكون في وسع الفيلسوف الأخلاق أن يضرب صفحاً عن شتى خيرات الناس — داخلية كانت أم خارجية — وأن يتجاهل شتى وقائع العالم الخارجى ، لكي يقيم « الأخلاق » كلها على بعض المعانى المجردة التي لا اتساق فيها ، أو على بعض المفاهيم الخالصة التي ليس لها أدنى نقطة ارتكاز . وفضلاً عن ذلك ، فإن شوبنهاور يأخذ على « كانت » أنه اعتبر « العقل » بمثابة الماهية الجوهرية الباطنية للإنسان ، في حين أن الطبيعة العاقلة للإنسان — من حيث هي ملكة المعرفة — لا تخرج عن كونها مجرد شيء ثانوى يرتبط بالظواهر ، ولا يستطيع أن يرقى إلى إدراك الأشياء في ذاتها . ولو أمعن « كانت » النظر إلى باطن الوجود الإنسانى ، لاستطاع أن يدرك أن « الإرادة » — لا « العقل » — هي نواة الوجود البشرى الحقيقية ، أو هي جوهره الميتافيزيقى الصحيح . ولكن شوبنهاور — في رأينا — قد نسى أن ما سماه هو باسم « الإرادة » لم يكن في نظر كانت سوى « العقل العملى » نفسه . وليس « العقل العملى » عنده سوى ملكة إدراك الحقيقة فيما يتعلق بما ينبغى أداؤه ، أو بما لا بد من عمله .

ولا بد لنا في هذا الصدد من أن نشير إلى نقد آخر تعرضت له فلسفة كانت الصورية

في الأخلاق من جانب أحد كبار الفلاسفة المعاصرين ألا وهو نيقولاى هارتمان . فهذا المفكر الألماني الكبير يأخذ على كانت أنه قد نسب إلى القانون الأخلاقي مصدراً ذاتياً صرفاً ، بحجة أنه لا مفر لنا من الاختيار بين أمرين : فإما القول بأن المبدأ الأخلاقي صادر عن « الطبيعة » أو « الأشياء » أو « العالم الخارجي » ، وإما القول بأن مصدره هو « العقل » أو « الذات » أو « العالم الباطني » . وقد وجد كانت أننا لو قلنا بالاحتمال الأول ، لجعلنا المبدأ الأخلاقي « تجريئياً » محضاً ، وبالتالي لأحلناه إلى مبدأ نسبي مُفتقر إلى « العمومية » و « الكلية » و « الضرورة » ، وعندئذ لن تكون الأوامر الأخلاقية سوى مجرد « أوامر مقيّدة مشروطة » . وأما إذا قلنا بالاحتمال الثاني ، أعنى لو أرجعنا المبدأ الأخلاقي إلى « العقل » ، فإننا عندئذ سنجد أنفسنا بإزاء مبدأ كلي ، عام ، أولى ، ضروري ، وبالتالي فإن الأوامر الأخلاقية ستصبح « أوامر مطلقة غير مشروطة » ، أعنى قواعد مستقلة ، عالية على التجربة ، غير متوقفة على الطبيعة . والسؤال الذي يثيره هارتمان هنا هو هذا : « هل يكون القياس الشرطي المنفصل الذي وضعه كانت قياساً صحيحاً ؟ » أو بعبارة أخرى : « ألا يمكن أن يكون للقانون الأخلاقي مصدر آخر غير « الطبيعة » أو « العقل » ؟ » .

الواقع أن كانت قد توهم أنه إذا أريد للقانون الأخلاقي أن يكون « أولياً » *à priori* ، فلا بد من أن يكون مصدره « العقل » أو « الذات » ، في حين أنه ليس هناك ما يلزمنا بأن نسلّم مع كانت بأن « الأولى » هو بالضرورة « ما يصدر عن العقل وحده » . وحينما وُحّد كانت بين ما هو « أولى » من جهة ، وما هو « عقلي » من جهة أخرى ، وبين ما هو « لحقي » أو « بعدي » *à posteriori* من جهة ، وما هو « تجريبي » أو « مادي » من جهة أخرى ، فإنه قد ارتكب خطأ منطقياً كبيراً ، لأنه قد أقام « تطابقاً » بين معادلتين مختلفتين كل الاختلاف . وحجة هارتمان — في هذا الصدد — هي أنه ليس من الضروري أن يكون كل ما هو « أولى » أو « سبقي » ، صورياً ، كما أنه ليس من الضروري أن يكون كل ما هو « بعدي » أو « لحقي » ، مادياً . ومعنى هذا أنه ليس ما يمنع من أن يكون المبدأ الأخلاقي في آن واحد مبدأً أولياً أو سبقياً ، مع كونه مبدأً « مادياً » أو مبدأً ذا مضمون . وبعبارة أخرى يقرر هارتمان أن المبدأ الأخلاقي يملك « مادة » أو « مضموناً » دون أن يكون في ذلك ما يطعن في طابعه « الأولى » أو « السبقي » . وليس من الضروري لكل تحديد مادي (أو مضموني) للإرادة أن يكون تحديداً طبيعياً أو تجريئياً صرفاً . وحينما وُحّد كانت بين « ما هو أولى » من جهة ، وما هو « صوري » من جهة أخرى ، فإنه لم يكن يتصور إمكان قيام « مادة »

أو « مضمون » يصحّ في الوقت نفسه اعتباره « أولياً » أو « سابقاً على التجربة » ، في حين أن هارتمان يرى في « القيم الأخلاقية » — سواء أكانت مادية أم صورية — مبادئ أولية ، كلية ، عامة ، سابقة على التجربة ^(١) .

ثم يستطرد هارتمان فيتعرض لدراسة « النزعة العقلية » التي غلبت على كل فلسفة كانت الأخلاقية ، ويقول إن صاحب « نقد العقل العملي » قد أراد للآمر الأخلاقي أن يكون قطعياً مطلقاً ، فلم يجد بُدّاً من أن يضعه في مقابل القانون الطبيعي الذي تركز عليه الغريزة ، والرغبات ، والميول ، بوصفه « قانون عقل » *A law of Reason* . وليس من شك في أن كانت الذي جعل من « الأولى » النظرية صورة من صور « الحكم » ، لم يستطع أن يجعل من « الأولى » العمل أيضاً سوى صورة أخرى من صور « الحكم » ! وهكذا توهم كانت أن حياتنا الخلقية مُشَبَّعة منذ البداية بطابع « العقل العملي » الذي لا يكف عن « التفكير » و « الحكم » ، وكأن كل ما نقوم به من اختيار ، وتصميم ، واستهجان ، واستحسان ، وغير ذلك من مظاهر التفضيل أو التقييم ، ليس إلا مجرد عملية منطقية تُذَرَج فيها بعض الحالات الفردية تحت القانون الأخلاقي العام الذي ندرسه منذ البداية إدراكاً « أولياً » . وكانت هنا يسلم ضمناً بوجود « وظيفة عقلية » ذات طابع عملي تهيمن على الحياة الخلقية بأسرها ، وكأنّ ثمة « مملكة منطقية » تنظم الكثرة الهائلة لمواقف الحياة المتنوعة ، وشتى مظاهر الصراع قد تنشب في أعماقها . وعلى الرغم من أن كانت قد اعترفت بقيمة بعض العواطف الخلقية ، بدليل أنه قد أبرز أهمية عاطفة « احترام القانون الأخلاقي » ، إلا أن كل نظريته الأخلاقية في الواجب قد بقيت مصبوغة بصبغة عقلية منطقية ، وكأنّ الإحساس بالواجب هو مجرد « إدراك عقلي » ! والحق أننا لو عدنا إلى حياتنا الخلقية العينية — فيما يقول هارتمان — لتحققنا من أنّها لا تركز على المعرفة ، والتفكير ، والحكم ، بقدر ما تركز على الوجدان ، والعيان ، والحدس ، وآية ذلك أننا لا ندرک « الحقيقة الأخلاقية » دون أن نقوم في الوقت نفسه بعملية « تقييم » أو « تفضيل » وفقاً لما لدينا من مشاعر أو عواطف أو أحاسيس وجدانية . وما دامت أفعالنا الخلقية خبرات حية مشحونة ببطانة وجدانية ، فلا يمكن أن يتحقق سلوكنا الخلقى إلا بمقتضى عيان حدسى بالقيم . ومعنى هذا أن أفعالنا الخلقية ليست « أفعالاً عرفانية » : *Cognitive acts* ، بل هي « أفعالاً وجدانية »

(1) N. Hartmann : " Ethics " , vol. I., Moral Phenomena Ch Xjll, Critique of Formalism, pp. 168 - 170.

Acts of feeling . وعلى حين أن كانت كان يرى أن « العنصر الأولي » في مضمار الأخلاق لابد من أن يكون « عقلياً » — لأنه لم يكن يستطيع أن يتصوره على نحو آخر — نجد أن هارتمان يقرر أنه ليس ما يمنعنا من تصور « أولية وجدانية » (أو انفعالية) : Emotional Apriorism : ألا وهي « أولية الإحساس بالقيم » . وقد سبق لنا أن تحدثنا عن دور هذا « الجانب الأولي الانفعالي » في عملية إدراكنا للقيم ، فقلنا بأن ثمة « وعياً أولياً » بالقيم هو دعامة الحياة الأخلاقية بأسرها . ويمكننا الآن أن نضيف إلى ما سبق لنا قوله إنه ليس من الضروري لهذه « الأولية الانفعالية » أن تكون تجريبية أو طبيعية لأن : « الوجدان » الذي تصدر عنه تقييماتنا الأخلاقية يمثل « سلطة » خالصة ، أصلية ، أولية ، مستقلة . وهارتمان يعارض هنا كانت فيقول إن الأخلاق لا تقوم أولاً وبالذات على أى قانون عقلى خالص ، بل هي تقوم في المحل الأول على « الوجدان الأولي بالقيم » . وليس من العسير على الباحث الفلسفى أن يستخلص « معرفة أخلاقية » من مثل هذا الوجدان الأولي بالقيم ، ومن ثم فإنه ليس ما يمنعنا من تصور قيام أخلاق مادية (لا مجرد صورية) يكون موضوعها هو « القيم » ، على العكس مما توهم « كانت » حين ربط الأخلاق بمفهوم القانون الصورى المحض (١) .

لو أننا نظرنا الآن إلى القاعدة الأولى من قواعد الفعل الثلاث التي صاغها « كانت » ، لوجدنا أنها — فيما يقول شوبنهاور — لا تمثل أمراً قطعياً مطلقاً ، بل مجرد أمر شرطى مقيد يستند إلى مبدأ « التبادل » . والدليل على ذلك ما يقوله كانت نفسه من « أننى لن أستطيع مثلاً أن أريد تحويل الكذب إلى قانون كلى عام ، لأن أحداً عندئذ لن يصدقنى ، كما أن الناس في هذه الحالة سوف يردون على تصرفى بمثله » ، وما يقوله هو نفسه أيضاً في موضع آخر من « أن كل فرد منا يرغب في أن يعاونه الغير ، فلو أنه صرح علناً بأن مبدأه هو ألا يساعد الآخرين ، فإن الآخرين أيضاً سوف يجدون أنفسهم في حل من أن يعاونوه . وتبعاً لذلك فإن مبدأ الأثانية ينقض نفسه بنفسه » . وهاتان العبارتان — وغيرهما كثير — تستندان في رأى شوبنهاور إلى مبدأ « التبادل » باعتباره فرضاً ضمناً نسلم بصحته ابتداءً ، وكأن كانت يقول لنا : « إذا أردت ألا يسيء إليك الآخرون ، فلا تسئ إليهم » . وتبعاً لذلك فإن الأخلاق الكاتنية لا تقوم هنا إلا على مبدأ « حب الذات » ، مادام احترامى لمبدئى الأخلاقى هو وليد حرصى على ألا يصيبنى أى أذى أخلاقى من جانب الآخرين .

وأما فيما يتعلق بالقاعدة الثانية التى تنص على معاملة الشخص البشرى كغاية في

(1) Cf. N. Hartmann : « Ethics », vol. I., Ch. XIII, PP. 171 - 180.

ذاته ، لا كمجرد وسيلة ، فإن كثيراً من فلاسفة الأخلاق قد وجدوا فيها مجرد تأكيد للقاعدة الأخلاقية القديمة التي كانت تقول : « لا تفكر في نفسك فقط ، بل فكر في الآخرين أيضاً . » . ومع ذلك ، ألسنا نلاحظ أننا حين ندين المجرم ، فإننا نعامله قطعاً معاملة « الوسيلة » ما دمنا نتخذ منه أداة ضرورية للمحافظة على حرمة القانون ، حتى أننا قد ننفذ فيه حكم الإعدام ، ليكون عبرة لغيره ممن قد تعدّتهم نفوسهم بالخروج على القانون ؟ ومن جهة أخرى ، ألم يتخذ كانت نفسه من الإنسان مجرد « واسطة » أو « وسيلة » ، حينما نظر إليه — لا على أنه غاية في ذاته — بل على أنه مجرد أداة لتحقيق القانون الأخلاقي المجرّد ؟

وأما القاعدة الثالثة التي تنص على أنه لا بد لإرادة كل مخلوق عاقل من أن تشرّع لنفسها وللغير ، بطريقة كلية عامة ، فإن كثيراً من فلاسفة الأخلاق قد وجدوا فيها قاعدة جوفاء تتطلب من « الإرادة » أن تصدر قوانين كلية ، احتراماً للواجب ، دون أى باعث آخر ، في حين أنه لا يمكن للإرادة أن تحقق شيئاً دون أدنى باعث أو وازع أو مصلحة . وإذا كان « كانت » قد تصور أن ثمة أفعالا تخلو تماماً من كل باعث أو من كل مصلحة — كأفعال العدالة ومحبة البشر — فإن شوبنهاور يحاول أن يظهرنا على أن هذه الأفعال ليست نزيهة نزاهة خالصة ، أو هي بالأحرى ليست خلواً تماماً من كل اهتمام أو وازع أو باعث . وأما حديث « كانت » عن « مملكة الغايات » فهو حديث طوباوى عن مدينة خيالية تسكنها موجودات عقلية مجردة « مدينة يريد أهلها ، دون أن يريدوا شيئاً — أعني بدون مصلحة — أو بالأحرى لا يريدون سوى شيء واحد ، ألا وهو أن يريدوا جميعاً وفقاً لقاعدة واحدة — أعني وفقاً لقاعدة استقلال الإرادة ! » ..^(١) . وأخيراً قد يكون في وسعنا أن نقول مع الأستاذ برود Broad إن « كانت » بجانب الصواب حين يستبعد عنصر « الميل » من كل « فعل أخلاقي » ، في حين أن « الميول » أساسية بالنسبة إلى الكثير من الأفعال الخلقية : كما هو الحال مثلاً حين يختار الشاب زوجاً له ، أو حينما يفكر في اختيار هذه المهنة أو تلك .. إلخ . وربما كان من واجبنا في بعض الأحيان أن ندخل في اعتبارنا ، عند الحكم على صواب الفعل الخلقى أو خطئه ، عنصر « الميل » الذى صدر عنه هذا الفعل ، خصوصاً إذا عرفنا أن الكثير من أفعالنا قلما تصدر عن بواعث عقلية خالصة^(٢)

(1) Schopenhauer : « Critique du Fondement de la Morale. » ,. Paris Alcan, Trad Franc. pur. Burdeau, ge éd, p. 135 .

(2) C. D. Broad ; « Five Types of Ethical Theory. » , 1946 p. 124f.

الباب الثالث

خبرات خلقية^(١)

الفصل التاسع

خبرة « الشر »

إذا كنا قد تعرضنا في الباب الثانى لدراسة بعض النظريات الأخلاقية التقليدية فإننا نريد فى هذا الباب مواجهة « المشكلة الخلقية » من خلال بعض « الخبرات » ، لا من خلال بعض « النظريات » . ولا شك أن القارئ الذى تتبع — منذ البداية — طريقتنا الخاصة فى مناقشة قضايا الأخلاق قد فطن إلى أننا لا نرى فى « المشكلة الخلقية » مجرد العوبة جدلية تقوم على مضاربة بعض المفاهيم ، بل خبرة حية تستند إلى بعض المواقف البشرية الأصلية . ومن هنا فإننا لا نستطيع التسليم مع بعض الفلاسفة المحدثين بأن « الأخلاق » ترتد فى خاتمة المطاف إلى مجموعة من القواعد الشكلية التى تفرض نفسها على سلوك البشر بطريقة أولية سابقة ، بل نحن نرى فى « الأخلاق » صراعاً حياً تقوم به ذات حرة تشق طريقها عبر الكثير من العوائق والتجارب والمشقات . ولو أننا تصورنا الحياة الروحية للإنسان على أنها كفاح مستمر للشر ، وغزو متواصل للخير ، لكان علينا أن نقول مع كروتشه Croce : « إن الشر هو المحرك الدائم للحياة الروحية . » والحق أن الحياة الخلقية لا تمثل سلسلة متراخية من اللحظات المتكررة الخاوية ، بل هى سلسلة ديناميكية من الخبرات الحية التى لا تخلو من نضال ، وصراع ، وكفاح مستمر . ومعنى هذا أنه لا قيام للحياة الخلقية دون التصادم مع الشرور والأشرار ، بل دون خوض تلك المعارك الروحية المستمرة التى تقتحم فيها العقبات ، وتواجه الكثير من الصعوبات ، دون أن نكون واثقين من النجاح سلفاً ! وعلى حين أن الكثير من دعاة الزهد والتصوف ، قد يهيون بالإرادة أن تتجنب مواطن العراك ، أو أن تعزف بنفسها عن دواعى العثرات ، نجد أن الحياة الخلقية الصحيحة لا ترى أى جناح على المرء فى أن يتلوث بالخطيئة ، أو أن يشتبك مع الشر ، واثقة من أنه لا موضع فى الأخلاق لدعوى « البراءة » الخاوية . أو لأسطورة « الطهارة » الشفافة الملساء ^(١) .

(١) ارجع إلى كتابنا : « دراسات فى الفلسفة المعاصرة » ، الجزء الأول ، مصر ، ١٩٦٨ ،

فلسفة كروتشه ، ص ١٤٣ .

وإذا كان كثير من فلاسفة الأخلاق قد وجدوا في « الشر » و « الخير » مجرد مفهومين أخلاقيين ، فإن من واجبتنا أن نقرر — على العكس من ذلك — أنهما خبرتان خلقيتان ترتبطان بترقي الحياة الشخصية للإنسان . وآية ذلك أن الشر والخير « خالتان » متصلان اتصالاً وثيقاً بالسياق التاريخي لكل شخصية ، أو بالاتجاه العام لكل حياة فردية . ولا غرو ، فإن المهم في الحياة الخلقية هو أولاً وبالذات « الكيفية » التي تتخذها الإرادة ؛ أعني ما قد يشيع في وجودنا الشخصي من نظام أو اضطراب . ولو أننا أحلنا « الخير والشر » إلى دوامة الحياة الخلقية ، لما وجدنا أدنى صعوبة في أن نفهم أن « الخير » هو الرغبة في ترقية « القيم » والعمل على النهوض بها ، في حين أن « الشر » هو الحركة المضادة التي تهدف إلى الانتقاص من « القيم » والعمل على الهبوط بها . وتبعاً لذلك فإن ما نسميه باسم « خبرة الشر » يمثل حركة « انحلال » ، أو « تدهور » ، تضع في طريق نمونا الروحي بعض العراقل أو العثرات ، فتحول دون نضج حياتنا الخلقية وازدهار رقينا الروحي . ومهما اختلفت أشكال « الشر الخلقى » ، فإنها جميعاً تشير إلى عملية عرقلة لترقي القيم ، وبالتالي فإنها تعبر عن قيام « عوائق » في السبيل المؤدى إلى « تكامل » حياتنا النفسية . ومن هنا فإنه لا بد لنا من التوقف عند « خبرة الشر » حتى نفهم دلالتها في حياتنا الروحية .

الشر تحالف مع الفوضى أو الاضطراب !

إن هناك — بلا شك — شروراً كثيرة ترتبط في وجودها بالعالم الخارجي ، ولكن هناك أيضاً شروراً أخرى تكمن في صميم حياتنا الشخصية ، وتلك هي الشروط المرتبطة في أصلها بانحرافات الإرادة أو اضطراباتنا . ولا غرو ، فإن معظم الشرور الخلقية نابعة أولاً وقبل كل شيء مما في الطبيعة البشرية ذاتها من « متناقضات » Contradictions . ولعل هذا ما حدا ببعض فلاسفة الأخلاق إلى القول بأن الشر مظهر لانقسام الإنسان وتوزعه وتفككه . وحين تحدث أجدراجالات المسيحية المشهورين — ألا وهو القديس بولس — عن « قيام تعارض بين قانون الأعضاء الجسدية وقانون الروح » ، فإنه لم يكن يعنى بهذا الحديث سوى الإشارة إلى اقتران « حالة الطبيعة » بحالة التمزق أو التفكك أو « عدم التكامل » Disintegration . والواقع أنه إذا كان من المستحيل على الإنسان أن يصل تماماً إلى حالة « النقاء » أو « الطهارة الأخلاقية » ، فذلك لأن لديه من الرغبات المتعارضة ما يدفعه باستمرار

إلى الاستهانة ببعض « المبادئ الخيرة » المعترف بها ، أو الخروج على بعض « القواعد الأخلاقية » المتعارف عليها . هذا إلى أن « الإغراء » أو « الغواية » لا تكاد تهدأ أو تتوقف في أعماق نفوسنا ، مما يجعل حياتنا الأخلاقية ضرباً من « الصراع » أو « الكفاح » المستمر . وليس بيننا من لا يشعر في قرارة نفسه بأنه « مذنّب » أو « آثم » : فإنه ليكفى أن يدع المرء العنان لأهوائه ، حتى يرى نفسه مكبلاً بأغلال الإثم ، خاضعاً لسيطرة الخطيئة . وحينما يستولى على نفس المرء مثل هذا الشعور الخلقى بالذنب أو الإثم ، فهناك لا بد له من أن يشعر بأنه قد تحالف مع نداء الاضطراب الكامن فيه ، أو هو قد تواطأ مع قوى الفوضى الباطنية فيه ... وربما كان منشأ الآلام النفسية العديدة التي طالما استبدت بنا ، هو شعورنا الخلقى بالإثم ، واعترافنا الضمني بأننا قد تواطأنا مع الفوضى أو الاضطراب !

وليس من شك في أن « الأخلاق » مظهر من مظاهر « النظام » أو « التكامل » في حياتنا الشخصية ، فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون « الشر » عائقاً أو عقبة تحول دون تحقق وحدتنا الشخصية . ومعنى هذا أن « الشر » يمثل في حياتنا النفسية ضرباً من الانقسام أو التوزع ، لأنه يمنعنا من الخضوع للقيم العليا التي يمكن أن تضمن لنا ضرباً من النظام أو التكامل في الشخصية . هذا إلى أن الشر ينطوى دائماً على استسلام للظروف الخارجية المتعارضة ، واستكانة أمام الإغراءات الدنيوية المتعددة ، فهو لا بد من أن ينطوى أيضاً على عملية « رفض » للاستماع إلى « نداء القيم » . وحين يقول بعض فلاسفة الأخلاق إن « تجربة الشر » تمثل دائماً ضرباً من « الخيانة » أو « عدم الوفاء » فإنهم يعنون بذلك أنها في جوهرها عملية إنكار للقيم !

هل يكون للشر معنى « نسبي » ؟

إن البعض لينسب إلى « الشر » طابعاً محدداً تحديداً مطلقاً ، وكأنما هو وجود مستقل قائم بذاته ، أو حقيقة متعينة ذات كيان خاص . ونحن نعرف كيف جعلت « المانوية الأخلاقية » من الخير والشر موجودين مستقلين يتصارعان وجهاً لوجه في نطاق كل حياة شخصية . بيد أن الواقع أن موقف كل من « الخير » و « الشر » لا يمثل موقفاً متساوياً يتعادل مع موقف الطرف الآخر « تعادلاً مطلقاً » . ولعل هذا ما عناه الفيلسوف الفرنسي المشهور لافل Lavelle حينما كتب يقول : « إننا لا نكاد نستطيع أن نحدد الشر تحديداً إيجابياً ، وذلك لأنه ليس يكفي أن نقول إن الشر يندرج تحت

حقيقة مزدوجة ، طرفها الآخر هو « الخير » ، بل لابد أيضاً من أن نقول إنه لمن المستحيل أن نسمي الشر دون أن نثير في الأذهان فكرة « الخير » على اعتبار أن الشر هو منه بمثابة سلب أو نقي أو حرمان Privation . وليس معنى هذا أننا ننكر « وجود » الشر ، أو أننا نقول مع بعض فلاسفة العصور الوسطى بأنه « عدم » أو « وجود » ، بل كل ما هنالك أننا ننسب إلى الشر معنى نسبياً ، نظراً لأنه يبدو لنا دائماً بصورة الواجهة الأخرى لتجربة أصلية أو خبرة أولية .

هل يكون الشر وثيق الصلة بطبيعة تكويننا ؟

لقد قلنا إن « الشر » حليف التوزع ، والتشتت ، والتفكك ، والانقسام ، فهل يمكن أن نحدد مركز الشر في حياتنا الشخصية بأن نقول إنه يشير دائماً إلى ضرب من « التمرد على الوحدة » ؟ إن كل الشواهد قائمة على أن لدى الوجود البشري حيناً مستمراً إلى الوحدة الأصلية والسكنية المطلقة ، ولكن التجربة — مع الأسف أننا لا نتغنى تمدناً بأسباب التصدع ، والتمزق ، والانكسار ، مما يشيع في حياتنا النفسية ضرباً من التفكك ، والتكثر ، والانقسام . وقد لاحظ بعض الفلاسفة الميتافيزيقيين أن هذا « الانقسام » الذي يتهدد باستمرار وحدتنا النفسية ، ليس عرضاً دخليلاً على وجودنا الميتافيزيقي ، بل هو حقيقة أصلية لا سبيل إلى القضاء عليها نهائياً . والسّر في ذلك إنما هو تركيب الإنسان نفسه بوصفه نفساً وبدناً : فإن هذا التركيب يجعل من الإنسان موجوداً هجيناً يحمل بين جنبيه عنصرين متعارضين هيات له أن يحقق بينهما أى ضرب من ضروب التآلف أو التوافق أو الانسجام ! ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لكان الخطب ، ولكننا أيضاً موجودات متناهية تحيا في المكان والزمان . ومثل هذا « الوجود المكاني — الزماني » لابد بالضرورة من أن يمزق وحدتنا ، ويمزق نشاطنا ، مما يؤدي بنا دائماً إلى الانقسام على أنفسنا . وتبعاً لذلك فقد يبدو « الشر » — فيما يقول بعض فلاسفة الأخلاق — وثيق الصلة بطبيعة تكويننا .

وجود « الشر » يثبت أن الإنسان « حرة » ، لا « طبيعة » !

إن « الشر » — ممكنا كان أم واقعياً — يعبر دائماً عن شرط ضرورى لوجود « الخير » ، إذ لولا إمكانية الشر ، لكانت إمكانية الخير ضرباً من المحال . والواقع أن الخير والشر لا يوجدان في الأشياء ، بل في الطريقة التى تستخدم بها إرادتنا تلك الأشياء . ولعل هذا ما فطن إليه بعض فلاسفة العصور الوسطى منذ مئات السنين حينما قالوا « إن الإرادة في حد ذاتها خيرة ، وإنما يكمن الشر في سوء استعمال هذه الإرادة » . ولكن بيت القصيد — في رأينا — هو أن نؤكد أنه لو لم يكن هناك سوى أسلوب واحد ، أو طريقة واحدة ، في استعمال الواقع الخارجى سواء أكانت هذه الطريقة خيرة أم شريرة ، لصار السلوك حتمياً ضرورياً ، وبالتالي لفقد صبغته الأخلاقية وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إنه لا معنى ولا قيمة للخير ، اللهم إلا بالنظر إلى الاختيار الممكن للشر ، والعكس بالعكس . وإذن فإن الشر مرتبط بممارسة الحرية البشرية لنشاطها الخاص ، إذ لولاه ، لحقق الإنسان الخير بطريقة آلية (ميكانيكية) . ومعنى هذا أننا لورفعنا عن الإنسان إمكانية الشر أو الخطأ أو الضلال ، لأصبح الإنسان كائناً مجبراً لا يملك أدنى قسط من الحرية على الإطلاق !

والواقع أن تعارض الخير والشر يضع أمام أنظارنا منذ البداية أسلوبين متمايزين من أساليب « الوجود في العالم » أو طريقتين مختلفتين من طرق « التعامل مع الواقع » . صحيح أننا جميعاً نواجه في الحياة موقفاً واحداً ، ولكن الأزواج القائم بين الخير والشر إنما يضع بين أيدينا أسلوبين متناقضين في تفسير هذا الموقف الواحد . وقد يكون الأسلوب الأول منهما أميل إلى الأخذ بفلسفة التفاؤل ، في حين يبدو الأسلوب الثانى منهما أقرب إلى التسليم بفلسفة التشاؤم . ولكن المهم أن هذا الأزواج القائم على وجود « التناقض » إنما هو الذى يضطر الإنسان إلى « الاختيار » ، سواء أكان ذلك بالخضوع والقبول ، أم بالثورة والتمرد . ولولا هذا « التعارض » الذى قد يسمح للإنسان بأن يتخذ من أشد العقبات صلابة نقطة ارتكاز له ، من أجل الانطلاق إلى ما وراءها ، لاستحال الإنسان إلى مجرد « طبيعة » ، بدلا من أن يكون « حرة » . وإذن فإن ممارسة الحرية لذاتها ، مشروطة بقيام هذا التعارض الأصلى بين الخير والشر ، بحيث قد يكون في وسعنا أن نقول إن وجود « الشر » هو الذى يثبت أن الإنسان « حرة » لا مجرد « طبيعة » . ولعل هذا هو السبب في ارتباط مشكلة الشر منذ البداية — في

أذهان الكثيرين — بمشكلة الاختيار أو الحرية .

والحياة الأخلاقية أيضاً حياة « مخاطرة »

إن هناك أسطورة مسيحية قديمة تقدر « سقطة آدم » ، وتعدها حَدَثاً سعيداً ، نظراً لأنها هي التي تسببت في خروج الإنسان من فردوس البراءة والسذاجة واللاشعور ، حيث لم يكن ثمة شر ، وبالتالي لم يكن ثمة « خير » بمعنى الكلمة ، مادام الإنسان لم يكن ليستطيع تمييز هذا الخير . والواقع أن الإحالة المستمرة إلى الشر ، والصراع الحى العنيف بين الخير والشر ، هما اللذان يدعمان قدرتنا على « الاختيار » ، وهما اللذان يؤكدان مسئوليتنا . ومن هنا فإنه ليس من شأن « الجهد الأخلاقى » أن يكون مضمون النجاح منذ البداية ، بل لابد لهذا الجهد من أن يتسم بطابع « المخاطرة » ، مادام جهداً حراً يقوم على « الاختيار » . وربما كانت كل القيمة العملية الأخلاقية التى يضطلع بها الإنسان حين يعتمد إلى تحقيق الحياة الشخصية الصحيحة ، أنها تضمن له من الانتصار ما يستطيع معه سحق أسباب الفشل ، والقضاء على احتمال السقوط .

وإذن فإن « إمكان الخير والشر » هو الذى يؤكد سمو « الحياة الشخصية » بوصفها حياة إنسانية قادرة على اكتشاف « عالم القيم » فيما وراء « العالم الطبيعى » . وفى هذا يقول لافل مرة أخرى : « إنه لا يمكن أن تكون للحياة قيمة فى نظرنا ، اللهم إلا إذا كان فيها موضع لخير يكون فى وسعنا نحن أن نفهمه ، ونريده ، ونحبه . وأما الشر — على العكس من ذلك ، فهو هذا الذى لا نستطيع أن نفهمه أو نحبه ، حتى حينما نكون قد أردناه ، بل هو هذا الذى يديننا حينما نكون قد فعلناه ، أو هو على الأصح هذا الذى لن يكون إلا إدانة للوجود والحياة ، لو أنه كان صميم جوهرهما ... » ثم يستطرد المفكر الفرنسى الكبير فيقول : « إن من شأن الخير والشر أن يضعا الواقع تحت حكم الروح (أو العقل) : إذ أنه هيئات للواقع أن يتبرر ، اللهم إلا إذا وُجِدَ أنه خير ، وأما حين نقول عن الواقع إنه سيئ أو شرير ، فإن معنى هذا أننا نعرف بأن العدم خير منه ! وتبعاً لذلك فإن كلا من الخير والشر يستلزم حكماً تُصْدِرُهُ الروح على الكون » .

... إن وجود « الشر الخلقى » كثيراً ما يولد لدى الإنسان ثورة عارمة على المصير البشرى بأكمله ، ولكن الحقيقة أنه لا موضع للشكاة من مصيرنا ، على الرغم من كل ما يكتنفه من آلام وشرور ، بل لابد لنا — على العكس — من تقبل هذا المصير ، مع كل

ما يقدمه لنا من احتمالات ! ولا غرو ، فإن « الحياة الخلقية » — مثلها في ذلك كمثل الحياة الإنسانية عموماً — مخاطرة لابد لنا من القيام بها . وقد تنجح هذه المخاطرة أو تفشل ، ولكن نجاحها أو فشلها لن يكون رهنأ ببعض الظروف الخارجية ، بل سيكون متوقفاً — أولاً وقبل كل شيء — على بعض الأحوال الروحية أو الظروف الشخصية التي هي رهن بحريتنا الذاتية بوصفنا موجودات ناطقة تستطيع أن تكشف « القيم » !

ولكن ، هل ينبغي أن نبغض « الشر » ؟

إن الكثيرين ليطنون أن الحياة الأخلاقية الصحيحة تستلزم كراهية الشر ، وبغض الأشرار ، ولكن الإرادة الخيرة — فيما يقول جانكلفتش Jankélévitch لا تعرف « الكراهية » في أية صورة من صورها ، وبالتالي فإنها لا تبغض « الشرير » ، ولا تكره « الشر » نفسه ! وقد كان رجال العصور الوسطى في أوربا يعدون الشر « عدماً » أو « شبه عدم » ، ومن ثم فإنهم كانوا يقولون إنه لا موضع لكراهية أمر لا وجود له ! وأما ديكارت فقد كان يقول إن الفعل الذي يصدر عن « كراهية الشر » لا يمكن أن يكون فعلاً جليلاً أو نبيلاً كذلك الذي توحى به إلينا — بطريقة مباشرة — « محبة الخير » . والحق أن الحياة الأخلاقية الصحيحة — في جوهرها — « إرادة خير » لا تقوم إلا على « المحبة » . وليس المفروض في « المحبة » أن تقتصر على ما هو أهل للحب ، أو أن تقتصر على التعلق بما يحمل قيمة أعظم ، بل إن « المحبة » الحقيقية « إشعاع لا يستأثر به أي موضوع كائن ما كان » . والواقع أن « قيمة » المحبوب ليست هي السبب الكافي للحب ، أو العلة المكافئة للمحبة ، فضلاً عن أنها قد لا تكون « صفة » أو « كيفية » قائمة من ذي قبل في شخص المحبوب ، بحيث لا يكون على المحب سوى أن يقف عليها ويلاحظها قبل الشروع في الحب ، كما يثبت المرء من شخصية زائر يطرق على بابه ، قبل أن يأذن له بالدخول إلى عقر داره ! وإنما تجيء « المحبة » فتضع هي نفسها « قيمة » المحبوب ، أو تكشف تلك القيمة بفعل الحب نفسه !

وحين يقول بعض فلاسفة الأخلاق « إن الحب المُحِبَّ L'amour Amant — لا الشيء المحبوب — هو القيمة الحقيقية » فإنهم يعنون بذلك أن واقعة الحب (التي هي جوهر الإرادة الخيرة) ، لا الموضوع المحبوب (الذي تتجه نحوه الإرادة الخيرة) هي وحدها فضيلة الفضائل . ولهذا فقد أعلن حكماء الأخلاق من قديم الزمن أن

« المحبة الحقيقية » إنما هي محبة الأئمة والمذنبين وضحايا الشر . فالمحبة الصادقة لا تخشى التنازل عن كرامتها ، والهبوط إلى مستوى الأشرار ، والتلوث بمخالطة جماعة المذنبين ، بل هي تنزل إليهم ، وتتعاطف معهم ، وتغمرهم بعطفها . والمحبة الحقيقية يعلم تمام العلم أنه ليس من واجبه أن يبغض الشر أو أن يكره الكراهية ، بل أن يعمل على استئصال الشر وتحطيم الكراهية . وحينئذ يتحدث بعض حكماء الأخلاق عن « محبة الكراهية » ، فإنهم لا يعنون بها محبة الشرير بوصفه شريراً ، بل محبة الشرير بوصفه إنساناً تعساً أو مخلوقاً شقيماً . ومعنى هذا أن المحبة الحقيقية هي محبة الشرير ، لا محبة شر الشرير ! وإذا كانت بعض الديانات قد أغلّت من شأن فضيلة « الصنف » ، فذلك لأنها قد فطنت إلى أن « الصنف » أو « الغفران » يضحي بعلاقة القانون في سبيل علاقة المحبة ، وبالتالي فإنه يمثل فاتحة لعهد جديد هو « عهد المحبة » . هذا إلى أن « الصنف » ثقة في الاستمرار الزماني الحي للشخصية البشرية ، فهو يفتح للمذنب حساباً جديداً ، أو قرصاً اثنتان لا نهاية له ، في سجل المستقبل ! وليس « الصنف » — بعد هذا وذاك — سوى صورة من صور « السخاء » : لأنه يعطى حيث لا يتوقع الأخذ ، ويجب حيث لا يتوقع المبادلة ! وإذا كانت محبة الإنسان للأشرار أرفع شكل من أشكال الفضيلة ، فذلك لأنها محبة سخية فياضة ، تحاول أن تمضي في وجه التيار ، فتعاطف مع موجود شقي تعلم أنه ليس إلا ضحية مسكينة ... وهكذا تجد « المحبة الخالصة » نفسها وجهاً لوجه أمام الكراهية ، « الكراهية الخالصة » فتشعر بأن « الشر » الذي قد يلحق بها من جراء احتكاكها بالشرير نفسه ، لن يكون أعظم بأى حال من « الشقاء » الذي يعانيه هذا المخلوق التعس ، وبالتالي فإنها تسعى جاهدة في سبيل العمل على إنقاذه من تلك الوحدة القاسية التي يحيا في أحضانها ، ألا وهي « وحدة الشر » الأليمة الباردة !

هل تكون « الكراهية » هي « إرادة الشر » ؟

إن الكثيرين ليتحدثون عن « إرادة الشر » ، في حين أنه قد يكون من العجيب العجائب أن تتجه الإرادة البشرية نحو « الشر » ، وهي التي لا تريد لنفسها في الأصل إلا « الخير » ! فماذا عسى أن تكون هذه الإرادة الشريرة التي تريد « الشر » ، بوصفه « خيراً » لها ؟! إنها — فيما يقول بعض فلاسفة الأخلاق — « الكراهية » ؛ بل « الكراهية الخالصة » التي تمثل القطب المضاد لما أطلقنا عليه اسم « المحبة الخالصة » ! والكراهية كالمحبة ، من حيث إن كلا منهما « ظاهرة شخصية » تهدف نحو « الإنية » ، (المشكلة الخلقية)

أو تتجه نحو « الذات ». إنها علاقة مع « الآخر » ولكنها علاقة مع « الآخر » بقصد إنكاره أو نفيه أو سلبه ، لا بقصد تأكيد أو إثباته وضعه ! وعلى حين أن حبنا للآخر إنما يعنى أننا نريد وجود الآخر ، أو نريد الآخر موجوداً ، نجد أن كراهيتنا للآخر إنما تعنى أننا نريد « عدم وجوده » ، أو نريده « لا موجوداً » . فكل ماهية « الكراهية » منحصرة بتمامها في نزوعها نحو العدم ، بمعنى أن الكراهية في صميمها « سلب » أو « نفي » أو « إنكار » Négation .

وعلى الرغم من أن الشخص الميغض أو الكاره يريد « لا وجود » الشخص الميغض أو المكروه ، إلا أنه مع ذلك يعمل على استمرار بقاء ضحيته ، حتى يكون لديه شيء ييغضه ، أو شخص يكرهه ! ومعنى هذا أن الجلال يريد « وجود » ضحيته و « عدم وجودها » في آن واحد ، وإن كان لا يستطيع في الحقيقة أن يريد على وجه التحديد « موجودة » أو « لا موجودة » . أو ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إنه يريد في قرارة نفسه وجود ما يعمل على محوه ، ولا وجود ما يعمل على استمرار بقائه ! ومن هنا فإنه ما تكاد ضحيته تشارف العدم ، حتى يريد لها موجودة لكي يعاود محوها من الوجود ! والواقع — كما لاحظ لافل — أن « القسوة » لا تنحصر في القضاء على الخصم ، فإن قتل الخصم لن يتيح للقدرة البشرية الفرصة لأن تمارس ذاتها ، اللهم إلا في لحظة واحدة ينتهي بعدها كل شيء — بل هي تنحصر في العمل على تعذيبه . وهنا نجىء القسوة فنحاول إقامة ضرب من التوازن بين القضاء على الضحية من جهة ، والعمل على استبقائها من ناحية أخرى . وعلى حين أن العملية الأولى منهما تقلل دائماً من قدرته على التألم ، نجد أن العملية الثانية منهما تزيد من جدة شعوره بالألم !

إن « المحبة » لتأرجح دائماً بين حالتين : حالة « المِلْك » L' Avoir التي لا بد بالضرورة من أن تظل ناقصة ، وحالة « الوجود » L' Etre التي تمثل تطابقاً يمحو بالضرورة رابطة الحب المليئة بالشوق والهوى . وهكذا نجد أنه لا بد للمُحِبِّ من أن يظل دائماً عاجزاً عن تملك شخص محبوب . وقد لا تختلف « الكراهية » عن « المحبة » من هذا الوجه : فإن صاحب الإرادة الشريرة لا يستطيع من جهة أن يوجد « مع » الشخص المكروه ، كما أنه لا يستطيع من جهة أخرى أن يحيا « بـلونه » ! صحيح أنه يسعى جاهداً في سبيل القضاء عليه ، ولكنه لا يلبث أن يتحقق من أن ثمة شيئاً قد تبقى منه ، وهذا الشيء هو الذي ييغى فيفسد عليه كل سعادة إرادته التهمة العرمة ! ولا غرو ، فإنه هيات للإرادة الشريرة أن تقضى على آثار وجود خصمها ، ما دام هذا الخصم قد وُجِد ، وما دام من المستحيل القضاء على ذكره تماماً !

هذا إلى أن الإرادة الشريرة تعلم تمام العلم أن كل شخصية « قدس أقداسها » الذى لا سبيل إلى الدثو منه أو النفاذ إليه . فكيف يتسنى لها أن تقتحم سرّ تلك الشخصية ، أو أن تقضى على قرارة وجودها ؟ إننا لنتلقى هنا بسرّ تلك « الكراهية » التى لا تُلقى سلاحها أبداً ، بدليل أنها قد لا تستسلم حتى بعد موت ضحيتها ، بل تظل تتعقب آثارها ، وتلاحق أعقابها ، وتواصل حملاتها الشريرة ضدّ كل ما قد يحمل طابعها (سواء أكانت أعمالاً أم آثاراً أم مُخلّفات أم رموزاً ...) إلخ . ولكن ، هيهات للكراهية أن تمحو ذكرى شخصية وُجِدَتْ بالفعل ، واحتلت مكانها تحت الشمس ، واستطاعت أن تسجّل ذاتها فى سجلّ الواقع !

بعض أعراض « الكراهية » بوصفها « علة أخلاقية »

وهنا قد يحق لنا أن نتوقف وقفة قصيرة عند تلك « الكراهية » التى قلنا عنها إنها « إرادة الشر » بدمها ولحمها ! فما الذى تُسِمُّ به تلك العلة الأخلاقية الخبيثة ، أو ما هى أهم الأعراض التى تميّزها ؟ إن أول ما نلاحظه فى هذا الصدد أن الكراهية لا تستطيع أن تحيط بقرارة الذات ، أو أن تتعمق أسرارها ، أو أن تنفذ إلى صميم وجودها ، بل هى تتوقف بالضرورة عند بعض التفاصيل الجزئية ، أو المظاهر السطحية ، لذلك « الآخر » الذى هو موضوع بغضائها . وعلى حين أن الشرير يعجز عن فهم نفسية أخيه ؛ لأنه لا يرى جوهر وجوده ، ولا يدرك قيمة الحقيقة ، نجد أن المحب يفهم محبوبه فى تكامل ، ويدرك وجوده ككل ، فهو يغض النظر عن مساوئه الجزئية ، ولا يكاد يتوقف عند عيوبه الظاهرية ؛ لأنه يرى منه صميم حياته الباطنية العميقة ! وهكذا نرى أن الكراهية لا تقرأ « الباطن » ولا تحسن فهم « الداخل » : لأنها فى جوهرها مجموعة من القراءات السطحية ، والتأويلات الظاهرية ، لسلوك « الآخر » . وليس من عجب ألا تفهم الكراهية شيئا : فإن أخشى ما نخشاه هو أن تفهم ، وهى تعلم أنها لو فهمت ، لما استطاعت من بعد أن تبغض ! ومن هنا فإن الكراهية لا تريد أن تتعمق ذاتية « الآخر » ، حتى لا تتعرف فى شخص قريبها على « حامل القيم الروحية » ، أو حتى لا تجد نفسها بإزاء « وحدة شخصية » قابلة للمحبة وعلى حين أن « الشفقة » تمثل ضرباً من التباطؤ والتعمق والتوقف عند الآخر ، نجد أن الكراهية هى الحكم السريع السطحي العابر الذى يأبى التوقف عند ما يحمله « الآخر » من « قيم روحية » ، مكتفياً بالنظر إلى شخصيته نظرة سريعة عابرة ، فالكراهية صماء لا تريد أن تسمع ،

متعجلة لا تريد أن تتوقف ، بحيث إن ما فيها من نقص أساسى قد لا يرجع أولاً وبالذات إلا إلى صلابتها ، وإقارها ، وفقر خيالها ، واقتقارها إلى كل إشعاع ! ولعل هذا ما عبرنا عنه فى موضع آخر حين قلنا « إن الكراهية هى تلك الوحدة الباردة التى لا يستطيع صاحبها أن يحيا فى أية مدينة عقلية ، نظراً لأنه يريد دائماً أن يعيش فى مكان قفر مجذب ، لا تتردد فيه أى أصداء على الإطلاق » .

وقد يقع فى ظن البعض أن « الكراهية » وإن كانت ظاهرة سلبية إلا أنها تنطوى على « محبة ضمنية » . وبهذا المعنى مثلاً قد يغض المرء جماعة الملّونين ، لكى يحب جماعة البيض . ولكن الواقع أنه إذا كان الشرير يغض الزوج ؛ فذلك لأنه عاجز عن محبة الإنسان بوجه عام . ولهذا فإننا نقول إن الكراهية عقيمة ، ومن ثم فإنه لا مجال للتحدث بأى حال عن « آثار قد تنتجها الكراهية » . ومعنى هذا أنه ليس فى وسعنا أن نقيم فوق دعامة من الكراهية أى بناء متين يمكن أن يقدر له البقاء ، أو أية جماعة أخلاقية يمكن أن تركز على قيم صحيحة ... إلخ . والحق أنه ليس للشر — كما سبق لنا القول — أى وجود حقيقى ، فهو فى حاجة ماسة باستمرار إلى « الإرادة الشريرة » التى تتكفل بالعمل على إيجاده ! وتبعاً لذلك فإن « الكراهية » ليست شيئاً إيجابياً قائماً بالفعل ، بل هى توتر وتقلص وجهد إرادى ، أو هى على الأصح شىء فارغ يحتاج باستمرار إلى عملية « نفخ » حتى تقوم له أدنى قائمة : إذ أنه فى حد ذاته « غير قابل أصلاً للحياة » ! وربما كان هذا هو السبب فى أن « الشر » قلما يتجمع ويتراكم كمرأس مال متضخم ، على العكس من « الخير » الذى يترسب دائماً على شكل أعمال إبداعية وآثار فنية ومظاهر خلق ولادات روحية خصبة . وحين يقول أحد فلاسفة الأخلاق « إن الشر هو السُّقْط L'avorton الذى يراد ولا يوجد » فإنه يعنى بذلك أنه يكفى لظهور الشر أية غفلة صغيرة من قبل إرادتنا ، ولكننا ما نكاد ندير له ظهورنا ، حتى يبادر إلى الاختفاء ، فنعجب عندئذ كيف أمكن له أن يوجد يوماً !

الشر حقيقة خفية قد تندس حتى فى النوايا الطيبة !

ولكن حذار أن تنوهم أنه إذا كان كل وجود « الشر » منحصرأ فى عملية إرادته ومعاودة إرادته ، فإن « الخير » — على العكس — حقيقة إيجابية قائمة بذاتها ! كلا ، إنما الخير الذى صنعناه ، لا بد لنا من أن نعود فنصنعه دائماً أبداً من جديد ، وإلا فإننا لن نلبث أن نجد أنفسنا قد انحرفنا عن جادة الفضيلة . ومن هنا ، فإن علينا أن نذكر دائماً

أن « الواجب » عملية مستمرة تلزمننا بمواصلة الجهاد إلى مالا نهاية ! صحيح أنه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد في حد ذاته شراً إيجابياً مطلقاً ، ولكن كل شيء يمكن أن يستحيل إلى « شر » بدليل أن الشر يستطيع أن يندس حتى في صميم النية الطيبة ، كما يندس طعم المرارة حتى في أعماق السعادة ! ولن تكفى المعرفة لعصمتنا من الوقوع في هذا الشر : فإن الإغراء قد يكمن حتى في صميم الأعمال الطيبة . وآية ذلك أننا قد نأتى فعلاً لا نلمح فيه أى أثر من آثار الخبث أو السوء ، ومع ذلك يكون سم الشر قد اندس فيه . ولو أن « الشر » كان شيئاً موضوعياً أو حقيقة ملموسة أو كائناً واقعياً ، لكان يكفى ألا نفكر فيه حتى نتجنب وسواسه ! ولكن « الشر » — فيما يظهر — حقيقة خفية ذات طابع روحي : إذ مهما نصم آذاننا ، ومهما نغمض عيوننا ، ومهما نخفي أنفسنا تحت الأرض ، فإن « الشر » مع ذلك يظل يهمس في آذاننا وكأنما هو يخاطبنا بآلاف من الأصوات الخفية ! وقد أصبر على إنكار الواقع ، ولكننى مع ذلك قد لأجزع في قرارة نفسى جزعاً حقيقياً لأى شر يلحق بمن أحسن إلى ! والظاهر أن « حب الشر » دفين في القلب البشرى ، بدليل أن الإنسان قد يستشعر غبطة دفينه أثناء الحرب ، وكأنما يحلوه أن يسمع عن موت الصديق ، أو كأن ثمة فكرة شيطانية خبيثة تراود نفسه فيتمنى لغيره الموت ! وحين يفرح الإنسان للفشل يصيب قريبه ، فإنه قلما يصارح نفسه بأن سم الشر قد اندس في أعماق قلبه . ولكن الشر — مع الأسف — خطر جائم يتهدد باستمرار كل أفعالنا الخيرة ، وهو على استعداد دائم لأن يندس في أكثر نياتنا طيبة ! ولهذا يقول أفلوطين إن سرّ النجاة إنما يكمن في « الهرب » : الهرب من عدوى المادة التى هى علة كل جهالة ، وأصل كل انحراف شرير . ولكن ، هل يكون « الهروب » هو الحل الحقيقى للمشكلة الأخلاقية ؟ أو هل يكون « الشر » مجرد « عدوى » تلحقنا دائماً من الخارج ؟ (١) .

(١) قارن هذا رأى بما سنورده فيما بعد عن موقف علماء النفس من حقيقة الشر بوصفه مجرد

« مرض نفسى » .

الإرادة هي الألف والياء في مشكلة الشر !

هنا يقول كبير كجاردار إن الطفل ليس قديساً صغيراً نجىء نماذج السلوك السيئ فتفسد عليه طهارته الأصلية ، بل إن علة الداء كامنة في صميم قلبه منذ البداية ! فالدنس لا يأتي إلينا من الخارج ، لكى لا يلبث أن ينفذ إلى الداخل ، بل هو — بمعنى ما من المعانى — باطنٌ في صميم إرادتنا . وتبعاً لذلك ، فإن علة الشر كامنة في مركز إرادتنا ، بدليل أن إرادة الشر الوجودية لدينا كثيراً ما نجىء هي نفسها فتصطنع الظروف المواتية لاقتراب الإثم . ولعل هذا ما عناء المفكر الفرنسى المعاصر جانكلفتش حينما كتب يقول : « إن بؤرة الفساد ليست بعيدة عنا ، بل هي قريبة كل القرب منا ، لدرجة أنها قد تكون هي نحن أنفسنا ، أو هي على الأقل متطابقة تماماً معنا ! »

صحيح أن الشر سيطر دائماً هو الدخيل المتطفل الذى يأتي إلينا على غير ميعاد ، ولكنه دخيل لا يقدم إلينا من بعيد إذ أنه ينبثق من أعماق قلوبنا بفعل التلقائية الشريرة . وإذا كان « الحبث » هو الإرادة الشريرة ، فذلك لأنه يبدأ دائماً من تلقاء نفسه ، وكأنما هو بداية لنفسه ! ومعنى هذا أن الدواعي الخارجية ليست هي المسئولة دائماً عن إقدام الإرادة الشريرة على ارتكاب الشر . وآية ذلك أن « حب الشر » قد لا يحتاج إلى بواعث خارجية أو مبررات نفسية من أجل العمل على تحقيق ذاته ! ولهذا يقرر بعض فلاسفة الأخلاق أن مشكلة الغواية قد تكون أقل أهمية من مشكلة « حب الشر » (أى الولع بالسوء للسوء) . وعلى حين أن القول بالغواية أو الإغراء يشل الإرادة ، ويسقط عنها المسئولية ، ويرر أخطاءها ، نجد أن الإرادة هي الألف والياء في كل مشكلة الشر الأخلاقى . ولعل هذا ما عبر عنه كاتب هذه السطور في موضع آخر حينما قال : « .. إن البشر قد اخترعوا الشيطان حتى يحملوه مسئولية كل ما في الوجود من تنافر وتشاحن واضطراب وخصام ، فهم يقولون إن الشيطان هو الفساد الأكبر ، والضلال الأعظم ، والشر المحض ، والكراهية نفسها بلحمها ودمها ! وليس أيسر على الإنسان من أن يلقي بتبعة الشر على الشيطان ، في حين أن الشواهد جميعاً إنما تنطق بأنه هو نفسه الشيطان ! أليس الإنسان هو الذى ينشر الانقسام والخصام ، ويغلب الحرب على السلام ، ويتفنن في خلق ضروب التعذيب والإيلام ؟ أليس ابن آدم هو ربيب الشر الذى لا يكف عن إشاعة الاضطراب بين القيم ، وتوطيد دعائم الخلاف بين المعايير ؟ ألا يحق لنا إذن أن نقول إن بضاعة الشر لم ترُج إلا لوجود بنى البشر في هذا العالم ، أولئك المشتريين الذين

يتهافون على سلعة الشيطان ، لأنها بهضاعتهم رُدَّتْ إليهم ! ^(١) .
إن الإنسان كثيراً ما يبحث عن الشر في الغريزة ، أو اللذة ، أو المادة ، أو الطبيعة
الجسدية ، ولكنه سرعان ما يتحقق من أن هذه جميعاً — مجتمعة أو متفرقة — ليست
بالشر نفسه ! والحق أنه ليس للشر من وجود ، اللهم إلا بالنسبة إلى « الإرادة » التي
تريده ، أو التي تجعله يوجد حينما تريده . ومعنى هذا أن « الشر » ما كان يمكن أن يوجد
لو لم تكن هناك مشيئة تريده . وحين يقول البعض إن الشر لا يوجد إلا لمن يرى الشر ،
فإنهم يعنون بذلك أن الشر كامنٌ في نياتنا ومقاصدنا ، بحيث قد لا تكون من المبالغة أن
نقول إن الشر الأورحد في هذا العالم إنما هو إرادة الشر !

« إرادة الخير » إنما هي المحبة العاملة ...

... إن المشكلة الأخلاقية لتكمن بأسرها في « الإرادة » ، فليس من المستحيل أن
يتقلب « الشرير » إلى « خير » ، إذا استطاع الخروج من حالة « الوسن الروحي » ،
لكي يتفتح للآخرين ، ويحيا معهم حياة جديدة ملؤها التعاطف والمشاركة . والحق أن
الشرير ليس إلا شخصاً مسكيناً لا يستحق الكراهية في ذاته . ومن يدري ، فربما كان
ماكس شلر على حق حين قال : « الشرير قد لا يكون شريراً إلا لأنه لم يلقَ القدر
الكافي من الحب ، فما هي إلا أن تو - ، إليه بعض كلمات المحبة ، حتى تذوب الكراهية
الكامنة في قلبه ، كما تذوب الثلوج تحت وهج شمس الربيع الدافئة » !

وإذا كنا قد أقمنا ضرباً من التطابق بين « الكراهية » و « إرادة الشر » ، فلا بد لنا
أيضاً من أن نقيم ضرباً مماثلاً من التطابق بين « المحبة » و « إرادة الخير » . ولكن المحبة
الأخلاقية لا تعنى ضرباً من الانفعال أو العاطفة أو التأثير الوجداني ، بل هي تعنى أسلوباً
من العمل أو السلوك أو النشاط الفعلي . ولعل هذا هو السبب في أن كلمة « المحبة »
تختلط — على الصعيد الأخلاق — بكلمة « الإحسان » . ومعنى هذا أن « الحب » —
في نظر فيلسوف الأخلاق — لم يُجعل لكي « يُحَبَّ » ، بل هو قد جعل لكي يُمارَس
ويحقق .. وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إنه ليس يكفي أن « نحب الخير » — إذ الحب هنا
مجرد تأمل سلبي خالص — بل لابد لنا من أن نصنعه . وليس معنى الوفاء للمحبوب
الأسمي أن تقتصر على محبته ، بل معناه أن نحاكيه فنعمل كما يعمل . وقد يتوهم بعض

(١) زكريا إبراهيم : « مشكلة الإنسان » ، الفصل الخامس « الشر » ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

رجالاً المسيحية أن محبة السيد المسيح (مثلاً) إنما تعنى محبة العذراء مريم ، والقلب المقدس ، والأسرة المقدسة ، والآلام الإلهية ، ولكن المسيح نفسه لم يتطلب من أنصاره سوى محبة الناس كما أحبه هو ...

والواقع أن المحبة الحقيقية لا تعنى تأمل بعض الآثار الدينية المقدسة ، أو التعلق ببعض الخلفات الدينية القدسية ، بل هى تعنى أولاً وبالذات الاتجاه نحو الآخرين من أجل العمل على شمولهم بعطفها ورحمتها . وعلى حين أن « التبادل » هو العامل الأساسى فى شتى ضروب « الحب » ، نجد أن مثل هذه المحبة الأخلاقية قد لا تتطلب بالضرورة ضرباً صريحاً من « التبادل » ، نظراً لأنه قد كتب عليها دائماً أن تشقى وتآلم ، دون أن تجد دائماً من يتجاوب معها ، ويرد لها الجميل بمثله ! وليس من واجب الحب أن ينعكس على نفسه لكى يحب الحب ، بل لابد له من أن ينسى نفسه فى شخص « الآخر » — ذلك الأخ الذى يحبه ويضحى من أجله ويتفانى فى خدمته — متجها باستمرار نحو صرعى الخطيئة والإثم من الضحايا المساكين الأشقياء ، مسلطاً عليهم من أشعته ما يذيب قساوة قلوبهم . وهكذا نعود فنقرر أن « إرادة الخير » لا تعنى « النية الطيبة » التى تقتصر على التمنى والرجاء ، بل هى تعنى « المحبة العاملة » التى تمضى إلى أبعد حدود التضحية والفداء !^(١) .

هل يكون الخير هو « قوة البناء » والشر هو « قوة الهدم » ؟

على أننا لو تركنا هذه التأملات الميتافيزيقية جانباً ، ورحنا نبحث عن دلالة الشر من وجهة نظر سيكلولوجية محض ، لوجدنا أن معظم علماء النفس يميلون إلى الأخذ بضرب من « الثنائية » فى تصورهم للطبيعة البشرية . والواقع أن تجربتنا البشرية شاهدة على أن فى النفس خيراً وشرّاً ، حباً وكراهية ، نزوعاً نحو البناء وميلاً نحو الهدم . ولعل هذه الصورة الثنائية هى التى حدثت بعالم النفس الكبير سيجموند فرويد إلى الحديث عن غريزتين بشريتين أساسيتين ، ألا وهما : « غريزة الحياة » و « غريزة الموت » . — وقد ذهب فرويد إلى أن النفس البشرية مسرح لصراع عنيف بين هاتين القوتين المتعادلتين : قوة البناء ، وقوة الهدم ! وربما كان من بعض محاسن هذه النظرة الثنائية إلى الطبيعة

(١) ارجع إلى كتابنا « مشكلة الحب » ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٣ ، الفصل الثامن

البشرية أنها تصوّر لنا الحياة الخلقية للبشر بصورة صراع مستمر بين القوة البناءة والقوة الهدّامة ، أو بين الرغبة في الإنتاج والنزوع نحو التحطيم . ولما كان « الخير » حليف البناء والإنتاج والعمل على ترقية الحياة ، في حين أن « الشر » حليف الهدم والتحطيم والعمل على إعاقة الحياة ، فإن « دراما » الحياة الخلقية لا بد من أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا الصراع المستمر الجارى على قدم وساق بين قوى الخير البناءة ، وقوى الشر الهدّامة .

والحق أن من طبيعة الحياة البشرية — فيما يقول بعض علماء النفس — أن تنمو ، وتتطوّر ، وترتقى ، محقّقة ما لديها من إمكانيات تلتهمس الظهور ، وساعية في الوقت نفسه نحو التعبير عن شتى قوى الإنسان الحسيّة ، والانفعالية ، والجسمية ، والذهنية ... إلخ . ولكن ، قد يحدث في بعض الأحيان أن يلتقى هذا النزوع البشرى نحو النمو والترقي ببعض القوى الخارجية التي تحوّل دون انطلاقه ، وعندئذ سرعان ما تستحيل « طاقة البناء » المُعاقبة إلى « طاقة حيوية هُدّامة » . ولسنا نغنى « بالإعاقة » هنا مجرد عملية « توقف » أو « تعطيل » مؤقت ، بل نحن نغنى بها عملية « صدّ » كامل تحوّل دون استمرار التعبير التلقائي عن طاقات الإنسان الحركية والحسية والوجدانية والذهنية ، مما يؤدّي إلى انحباس الطاقة البناءة ، وتحوّلها إلى نوازع هُدّامة . وبهذا المعنى يمكننا أن نقول إن ما اصطلاحنا على تسميته في علم النفس باسم « النزعة الهدّامة » هو في الحقيقة مجرد أثر من آثار الحياة المعطلة ، المُعاقبة : أعنى تلك الحياة التي لم ينجح صاحبها في التعبير عن نفسه ، وبالتالي لم يستطع أن يكون منها بمثابة المنتج أو المستثمر أو المستفيد ...

وهنا قد يحق لنا أن نتساءل : إذا كان الأصل في الوجود البشرى هو تلك « الطاقة الإنتاجية » التي تفتح أمام الحياة سبيل النمو والترقي والازدهار ، أفلا يجدر بنا إذن أن نعدّ « الشر » مجرد مظهر من مظاهر إعاقة هذا النمو ؟ وإذا صحّ هذا ، أفلا يكون الأدنى إلى الصواب أن يُقال إن الميول الهدّامة لا تظهر لدى البشر إلا حين يتعرض تكوينهم النفسى لأزمات حادة تعوق ترقّهم الطبيعي ، وتقف حجر عثرة في سبيل نموهم العادى ؟ وإذن أفلا يكون ظهور « القوة الشريرة » أو « الطاقات الهدّامة » لدى الإنسان مجرد عرض من أعراض الاختلال أو الاضطراب أو المرض النفسى ؟.. هذا ما يميل إلى التسليم به كثير من علماء النفس المحدثين ، خصوصاً وأنهم يؤكدون لنا أن النزعة الهدّامة ليست سوى طاقة ثانوية تظهر لدى المرء حينما يعجز عن تحقيق إمكانياته الأولية . فليس الإنسان — في رأيهم — شريراً بطبعه ، أو مخلوقاً فاسداً بالضرورة ، بل هو يصبح كذلك حين تتوافر له الظروف الملائمة للنمو ، أو حينما تنقصه الشروط اللازمة لترقيّة النفسى .

وتبعاً لذلك فإنه ليس « للشر » أى وجود مستقل قائم بذاته ، وإنما الشر فى جوهره انهدام للخير ، أو هو على الأصح أثر من آثار الفشل فى تحقيق الذات ، أو العجز عن الاستمرار فى عملية تنمية الحياة ، وتطورها ، وترقيتها ...

يبد أن هذا الرأي الذى يذهب إليه بعض علماء النفس المحدثين لا ينطوى على أى مضمون ميتافيزيقى : فإنه لا يعنى العودة إلى مذهب أوغسطين فى اعتبار « الشر » مجرد « سلب » أو « نقي » أو « عدم » بل هو يعنى تقدم « البناء » على « الهدم » ، وإعطاء الصدارة لغريزة الحياة على غريزة الموت . والواقع أن الأصل فى الحياة هو النزوع نحو البناء ، والاتجاه نحو الترقى ، والسير فى طريق النمو . فليس من التعسف فى شئ أن يقال بأن من شأن الفرد العادى السوى أن يمتلك فى ذاته نزوعاً تلقائياً نحو الترقى والنمو والإنتاج المستمر . ومن هنا فإن كل خلل أو شلل يطرأ على هذا النزوع لابد من أن يكون فى حد ذاته عرضاً من أعراض المرض النفسى . وليست الصحة النفسية — مثلها فى ذلك كمثل الصحة الجسمية — غاية يقهر الفرد من الخارج على العمل فى سبيلها ، بل هى حافز باطنى فى صميم الفرد ذاته ، وبالتالى فإنه لا سبيل إلى القضاء عليها اللهم إلا إذا تضافرت على ذلك مجموعة قوية من العوامل الخارجية أو الظروف القاسية التى قد تعمل عملها ضد الفرد . وإذن ، فإن المبدأ الطبيعى القائل بأن القدرة على الفعل هى التى تخلق الحاجة إلى استعمال تلك القدرة ، وأن الفشل فى استخدام تلك القدرة هو الذى يؤدى إلى الخلل الوظيفى والشقاء النفسى ؛ نقول إن هذا المبدأ الطبيعى نفسه هو الذى حدا بعلماء النفس إلى ربط « العصاب » Neurosis بحالة عجز الفرد عن استخدام ما لديه من قوى باطنة أو إمكانيات حيوية تحفزها إلى النمو وتدفعه نحو الترقى ، وتملى عليه الاتجاه فى سبيل التكامل والتوافق والحياة المنتجة المثمرة . وهكذا ذهب هؤلاء إلى أن « العصاب » أو « المرض النفسى » ليس إلا مجرد مظهر لعجزه عن استخدام طاقاته الإنتاجية ، وفشله فى تنمية حياته والترقى بها على الوجه الذى يضمن لها مواجهة القوى الخارجية المعوقة ...

هل يكون الشر الخلقى مجرد « مرض نفسى » ؟

ولو أننا أنعمنا النظر الآن إلى ما اصطلاح علماء النفس على تسميته باسم « العُصاب » أو « المرض النفسى » ، لوجدنا أن كل عُصاب هو نتيجة لصراع بين قدرات الإنسان الباطنية من جهة ، وبعض القوى الخارجية التى تحول دون اكتمال نموها استمرار ترقبها من جهة أخرى . وليست الأعراض العُصابية سوى مجرد تعبير عن قيام الجانب السليم من الشخصية بضرب من الصراع ضد التأثيرات المعطلة أو المعرقة التى تعمل عملها ضد نمو

الشخصية واستمرار ترقبها . ولكن مهما تكن قوة تلك العوامل الخارجية التي تقف حجرة عثرة في سبيل نمو الشخصية وترقى القدرات الإنتاجية لدى الفرد ، فإن المصاب بالمرض النفسى يظل يشعر بحافز قوى نحو العمل على استرجاع طاقاته الحيوية ، واسترداد صحته النفسية ، واستعادة تكامله النفسى . ولولا هذا الحافز لما كان فى استطاعة المحلل النفسانى الأخذ بيد المريض من أجل معاونته على الشفاء من مرضه النفسى . وليس « الاستبصار » اللازم لعملية الشفاء سوى مجرد محاولة يقوم بها المريض — بمساعدة الطبيب أو المحلل النفسانى — من أجل تمهيد الطريق أمام تلك القوى الباطنة فى نفسه : أعنى قوى المريض الراغبة فى الصحة النفسية ، والتي لا يبد للطبيب من العمل على زيادة حظها من الفعالية حتى تصبح قوى إيجابية ناجعة . ومعنى هذا أن شفاء المريض النفسى رهن بما لديه من قوة باطنية تنشد السعادة ، وتلتصم بالصحة النفسية .

وهنا تظهر لنا الصلة الوثيقة التى تجمع بين المشكلة الخلقية من جهة ، ومشكلة المرض النفسى والصحة النفسية من جهة أخرى . وهذا ما عبر عنه عالم النفس الأمريكى المعاصر إريك فروم E. Fromm حينما قال بصراحة : « إن كل عصاب يمثل فى الحقيقة مشكلة خلقية » . وآية ذلك إن كل عجز تفشل معه الشخصية فى تحقيق نضجها أو تكاملها النفسى ، إنما هو فى جوهره « فشل خلقى » . وكثير من الأمراض النفسية لا يخرج عن كونه مجرد مبرر عن بعض المشكلات الخلقية ، بدليل أن الأعراض العصابية لا تظهر فى كثير من الأحوال إلا نتيجة لضروب من « الصراع الخلقى » الذى لم تنجح الشخصية فى التغلب عليه . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما قد يحدث لبعض الأفراد العصائين حينما يصابون بنوبات حادة من « الدوار » دون أدنى سبب عضوى . فمثل هؤلاء الأفراد قد يكونون بإزاء مشكلات خلقية لم يستطيعوا مواجهتها أو النجاح فى التغلب عليها ، مما أدى بهم إلى الوقوع بين يرائن « المرض النفسى » ، نتيجة لهذا العجز عن مواجهته نمط معين من أنماط الحياة .

وليس أيسر على الفرد — بطبيعة الحال — من الاستسلام لدوافعه الهدامة ، وإطلاق العنان لطاقاته العدوانية . ولكن من المؤكد أن كل اعتداء يقوم به الفرد — سواء أكان ذلك فى شخصه أم فى أشخاص الآخرين — على قوى الحياة البناءة وطاقاتها الفعالة ، إنما هو فى الحقيقة انتحار نفسانى يقضى على صاحبه بالشقاء ولما كان نمونا وسعادتنا لا تقوم إلا على أساس احترامنا لنمو الآخرين وسعادتهم وقوتهم ، فإن كل اعتداء نمارسه على القوى الحيوية البناءة لدى الآخرين إنما هو فى الوقت نفسه عدوان ذاتى يمس صميم حياتنا النفسية . ومعنى هذا أن الصحة النفسية للفرد رهن باحترامه للحياة فى شخصه وفى

أشخاص الآخرين معاً . وكثيراً ما تكون نزعات الفرد الهدامة بإزاء الآخرين مجرد « عرض » مرضى يعبر عن ميول عدوانية ذاتية ، أو حوافز انتحارية هدامة ، ومهما ينجح الفرد الهدّام في تحقيق غاياته العدوانية الهدامة فإنه لابد من أن يظل ضحية لضرب من الشقاء النفساني العميق : لأن سلوكه قد انطوى على خيانة للحياة نفسها ، في شخصه وفي أشخاص الآخرين . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الشخص السوى المتمتع بصحة نفسية سليمة لا يملك سوى الإعجاب بمظاهر الحب والشجاعة والرفقة لدى الآخرين .

وأخيراً قد يكون في وسعنا أن نقول إن أحداً لا يولد شريراً بالفطرة ، وإنما يصبح المرء كذلك حينما تتعطل قواه الإنتاجية ، فيقع ضحية للمرض النفسي أو للميول العدوانية الهدامة . وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن ما يرجع جانب الخير على جانب الشر — لدى هذا الإنسان أو ذاك — إنما هو عوامل البيئة ، والتربية ، والتعليم والثقافة ... إلخ . وكثيراً ما يكون المجرمون مجرد ضحايا لبعض الظروف القاسية ، أو مجرد مرضى نفسانيين هم في حاجة إلى العلاج أكثر مما هم في حاجة إلى العقاب ! ولو أننا أدركنا هذه الحقيقة ، لكان في وسعنا أن نلقى صرعى المرض النفسي بشيء أكبر من التسامح والعطف ورحابة الصدر . ولعل هذا ما حدا بنا الكراهية هي « العلة الأخلاقية الكبرى » ! أجل فإن الحياة الخلقية الصحيحة لا تعنى الطهارة التامة أو البراءة المطلقة ، وكأن على الإنسان أن يغسل يديه من أدران الغير وخطايا الآخرين ، بل هي تعنى التلوث بمخالطة الأشرار ، والتدنس بذنوب أهل المعصية ! وليست « خبرة الشر » سوى تلك التجربة الأخلاقية الأولى التي تمارس فيها الحرية الإبداعية ذاتها ، لكي تشع فيما حولها فتبدد ظلمات الخطيئة ! وليس أيسر على رجل الأخلاق من أن يرسم لنا صورة طوباوية نقية للمثل الأعلى ، ولكنه عندئذ لن يكون قد وضع أمامنا أخلاقاً إنسانية نابضة بالحياة ، بل مجرد أسطورة وهمية لا تمت إلى الخبرة البشرية بأدنى صلة ! ولا سبيل — في رأينا — إلى فهم الحياة الخلقية على وجهها الصحيح ، اللهم إلا بإلقاء الكثير من الأضواء على خبرات الموجود البشري في مضمار الصراع مع النفس ، والصراع مع الآخرين : أعنى في مضمار السلوك العملي الذي يحفل بخبرات الشر ، والألم ، واليأس ، والشقاء ... إلخ^(١) .

(١) ارجع إلى مقالنا : « هل يكون الشر الخلقي مجرد مرض نفسي ؟ » ، مقال منشور بمجلة

الفصل العاشر

خبرة الألم

كثيراً ما يقال « إن الإنسان يولد بمفرده ، ويموت بمفرده ، ولكنه لا يعيش إلا مع الآخرين » ! ولئن يكن هذا القول على قدر كبير من الصحة ، خصوصاً وأن الإنسان كائن أخلاقي لا بد من أن يحدد سلوكه أمام نفسه وأمام الآخرين ، إلا أن الحياة الإنسانية — في جانب من جوانبها — حياة باطنية لا بد لكل « ذات » من أن تحياها لحسابها الخاص ، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يقوم « وجود » بشري بدون « وعى ذاتي » أو « شعور بالذات » . ولكننا ما نكاد نتحدث عن « الشعور بالذات » حتى نجد أنفسنا مضطرين إلى التفكير في « الألم » : لأن الواقع أن « وجودنا » يظل ملتبساً بالوجود الخارجي (أو وجود الأشياء) ، إلى أن « نتألم » ، فنشعر عندئذ بأن وجودنا لم يعد مختلطاً في غمار الأشياء . ومعنى هذا أن « الألم » هو الذي يكشف لنا عن وجودنا الفردي في حدة قاسية تتمزق معها الرابطة التي كانت توثقنا بالكون . وإذا كانت الصلة وثيقة بين « خبرة الألم » من جهة ، وبين « الشعور بالذات » من جهة أخرى ، فما ذلك إلا لأن المرء يشعر بذاته حينما يجيء الكون فيدفعه بقسوة ، أعنى حينما يدرك لأول مرة أنه بإزاء « خصم خارجي » هو « الكون » . وهنا يبدو الفارق الكبير بين « اللذة » و « الألم » : فإن « اللذة » بطبيعتها باسطة ، في حين أن « الألم » من شأنه دائماً أن يردنا إلى ذواتنا ، ويحتبسنا في وجودنا الفردي . وحينما تستشعر الذات اللذة ، فإنها تستسلم لهذا الشعور بحيث إنها لتكاد تنسى نفسها ، وتتخلى عن ذاتها ، في حين أنها ما تكاد تستشعر الألم حتى تقبع في ذاتها ، وتنطوى على نفسها . ومن هنا فقد ذهب البعض إلى أن الألم وحده هو الذي يتيح لنا الفرصة لأن نعاني « تجربة الوحدة » على حقيقتها^(١) .

(١) ارجع إلى كتابنا « مشكلة الإنسان » ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص ٣٤ — ٣٥ ، وارجع أيضاً إلى مقالنا « مكانة الألم في الحياة النفسية » ، بمجلة علم النفس مجلد ٥ ، عدد ٣ ، فبراير سنة ١٩٥٠ ، ص ٣٨٧ .

والملاحظ في العادة أننا لا نشعر قط بأننا كنا « سعداء » إلا بعد أن تفارقنا تلك « السعادة » التي كنا غارقين في غمرتها ! وربما كان السبب في ذلك أن السعادة تخلق ضرباً من الانسجام بين « الذات » و « العالم الخارجى » ، مما يترتب عليه نسيان الذات لنفسها . وأما « الألم » فإنه لا بد من أن يعزلنا على حدة ، لأن الشخص الإنسانى حين يتألم فإنه سرعان ما ينطوى على نفسه ، لكى يتجه بانتباهه واهتمامه نحو تلك النيران الباطنة التى تشتعل في جوفه ! إننا نتألم فرادى : لأن الألم « خبرة باطنية » هيئات للآخرين أن يشاركونا في معاناتها . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن الإنسان شعر بوجوده الفردى في اللحظة التى « يتألم » فيها « بمفرده » . وهذا « الوجود » الذى ينكشف له عند « التألم » هو في الحقيقة وجود « الإثنية » باعتبارها ذاتاً خاصة فريدة في نوعها ، منفصلة عن العالم الخارجى الذى يرين عليها ويثقل كاهلها ! وهكذا نرى أن « الألم » إن هو إلا مناسبة لشعور الذات بنفسها ، من حيث هى متأصلة في أعماق الوجود العام ، حاضرة أمام العالم الخارجى . وهذا الشعور هو الذى يجعلنا نميل إلى « الوحدة » في اللحظة التى نتألم فيها ، لأننا نشعر عندئذ بانفصالنا عن الكون ، على الرغم من تأصلنا في أعماق الوجود العام . وسنرى بعد حين أن هذه « الدلالة الميتافيزيقية » للألم هى التى تخلع عليه في الوقت نفسه « دلالة أخلاقية » هامة : لأن كل ما من شأنه أن يردّ الذات إلى نفسها ، وأن يدفع بها إلى مراقبة نفسها ، لا بدّ من أن يكتسب طابعاً خلقياً بوصفه « خبرة باطنية » تحفز « الذات » إلى الانعكاس على نفسها .

أهمية « الألم » في حياتنا الروحية

إن « خبرة الألم » لا تقوم بدور « المنبه » الذى يشعرونا بكياننا الفردى في وسط عالم يرين علينا فحسب ، بل هى أيضاً حافز قوى يدعونا إلى الوحدة والانفصال . فهذه ذات متفتحة تتجاوب مع الآخرين ، وتتجه بكل مشاعرها نحو غيرها من الذوات ، ولكنها على حين فجأة تتلقى ضربة عنيفة من ضربات الشر ، فما هى إلا طرفة عين حتى نراها وقد انسحبت من العالم الخارجى ، لكى تعاني في صمت مرارة الألم وقسوة الوحدة ! وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن الإنسان الذى يتألم يميل دائماً إلى الانعزال عن الناس ، لأن من شأن « الألم » أن يشعره بمحدوده ، وأن يحتبسه في الوقت نفسه داخل تلك الحدود . ألا تظهرنا التجربة كل يوم على أن « الألم » يشل كل

انتباهنا ، فلا نجد في نفوسنا أى اهتمام بالناس أو بالعالم الخارجى أو بأى مظهر من مظاهر التسلية ؟ ... إن كلا متا حين يتألم ، فإنه سرعان ما يشعر بأن ألمه فريد فى نوعه ، شاذ فى حدته ، وكأن ألمه أيضاً هو « نسيج وحده » ، كما أن ذاته هى الأخرى « نسيج وحدها » !! « دعونى وحدى ! اتركونى وشأنى ! إن أحداً منكم لا يستطيع أن يتصور إلى أى حد أتألم !. إن أحداً منكم لا يستطيع أن يقف على طبيعة حزنى ! : تلك هى صرخة المتألم ، وهى صرخة تبعث من أعماق نفس حزينة وحيدة تشعر بأنها فى جانب ، والعالم كله فى جانب آخر ... ! وليس أدل على ما بين الألم والوحدة من صلة وثيقة ، من أن الحيوان نفسه قد ينزع إلى الوحدة حين يتألم . ولكن للوحدة بالنسبة إلى الإنسان قيمة خلقية كبرى : لأنها السبيل إلى حياة باطنية خصبة . وليس يكفى أن نقول إن القدرة على التوحد والقدرة على التألم تسيران فى معظم الأحيان جنباً إلى جنب ، وإنما يجب أن نضيف إلى ذلك أن كلا منهما يعد مظهراً هاماً من مظاهر الحياة الروحية بصفة عامة ، والحياة الخلقية بصفة خاصة .

وإذا كان كثير من فلاسفة الأخلاق (وعلى رأسهم كيركجارد) قد غالوا فى تقرير أهمية « الألم » ، فذلك لأنهم قد فطنوا إلى أن الآلام النفسية التى تعانها هى التى تخلع على وجودنا الشخصى كل ماله من فردية وأصالة . والواقع أن « خبرة الألم » هى التى تبرز الجانب الشخصى من وجودنا ، لأنها هى التى تضطر « الذات » — فى كثير من الأحيان — إلى الغوص فى أعماق وجودها ، من أجل العمل على اكتشاف ما ينطوى عليه هذا الوجود من « قيم » . وإذا كان كثير من الناس ينسبون إلى « الألم » دوراً هاماً فى صميم حياتهم ، فذلك لأنهم يشعرون فى قرارة نفوسهم بأن الآلام التى عانوها هى التى كونت معظم الجانب الشخصى من وجودهم . ومعنى هذا أن الخيرات الأليمة التى يعانها المرء لا بد من أن تندمج فى صميم وجوده ، فتصبح بذلك ثروة باطنة تدخرها الذات للمستقبل ، وتتسلح بها ضد ما يستجد من هجمات . وليس أدل على قيمة « الألم » فى حياتنا الروحية من أنه قد يستحيل إلى أداة فعالة تزيد من خصب حياتنا النفسية ، وتعمل على صقل شخصيتنا ؛ ولكن على شرط ألا يظل مجرد شئ دخيل نعانيه ونقع تحت تأثيره . وتبعاً لذلك ، فإن « خبرة الألم » تمثل تجربة ذاتية تزيد من عمق حياتنا الباطنية لأنها تقوم بدور الأداة الفعالة التى تكفل لنفوسنا ما هى فى حاجة إليه من « تربية أخلاقية »^(١) . ولعل هذا ما حدا بفيلسوف أخلاقى مثل هارتمان إلى

التحدث عن « الألم » — إن لم نقل « العذاب » — بوصفه « قيمة » من « القيم الأساسية »^(١).

الدالة الميتافيزيقية للألم في فلسفة هيجل

وقد لا يتسع المقام هنا لاستعراض مواقف فلاسفة الأخلاق — قديماً وحديثاً — من مشكلة الألم ، ولكنَّ حسبنا أن نقول إن الأقدمين لم يكونوا يعترفون بما للألم من قيمة أخلاقية خاصة ، ومن ثم فقد بقيت مذاهبهم الأخلاقية — في معظمها — مذاهب لذة أو مذاهب سعادة . والظاهر أن الفلاسفة العقلانيين أنفسهم قد اقتصروا على النظر إلى « الألم » أو « العذاب » ، بوصفه مظهراً من مظاهر « الشر » ، وبالتالي فإنهم لم يستطيعوا أن يروا فيه سوى مجرد « حرمان » أو « نقص » لا بد من العمل على تجنبه ، أو التحامى عنه . ثم جاءت « المسيحية » فوقفت من « الألم » موقفاً مختلفاً كل الاختلاف ، وإن لم يكن ذلك من وجهة نظر أخلاقية صرفة . والواقع أن المسيحية لم تر في « العذاب » مجرد « ضعف » أو « نقص » ، بل هي قد اعتبرته رافعة أخلاقية ، فاعترفت بما للألم من تأثير محرر على النفس البشرية ، وذهبت إلى أنه كثيراً ما يكون أداة ترقى أو وسيلة تسام بالنسبة إلى الشخص الإنساني . ولا غرو ، فقد لاحظ الكثير من رجالات المسيحية أن « العذاب الخلقى » هو في بعض الأحيان واسطة ناجعة لإطلاق قوة باطنية دفينية قالوا عنها إنها ذات طابع سرى غامض . ولا نرانا في حاجة إلى التحدث عن شتى ضروب « العذاب الدينى » التى طالما عاناها أهل المسيحية من قديسين ، وشهداء ، ومتصوفة ... إلخ .

وأما الفيلسوف الذى شاء أن يدخل « الألم » في صميم فلسفته الميتافيزيقية — ولا نقول اللاهوتية — فهو « هيجل » بمذهبه المعروف في « السلب » أو « القوة السالبة » Negativity . ونحن نعرف أن كل فلسفة هيجل الجدلية تركز أولاً وبالذات على مبدأ « التناقض » الذى هو بمثابة القوة المحركة لكل ما فى الوجود من كائنات . وحسبنا أن ننظر إلى شتى الرغبات التى تنبثق فى صدر الكائن البشرى — ابتداء من أدنى نوازعه السيكو — فيزيائية حتى أسمى مطالبه الروحية ، وعلى رأسها جميعاً نزوعه نحو الاتحاد

(2) N. Hartmann : « Ethics » vol II., Moral Values, London, 1963 Ch, XI, d, Suffering as a Value, pp. 138 - 141.

بالله — لكي نتحقق من أن الوجود البشرى يستشعر ضرباً من « التناقض الذاتى » الذى يعمل فى باطنه على شكل توتر حاد بين ما هو عليه وما يريد أن يصير إليه ، أعنى بين الوجود المتناهى بضعفه وقصوره ، والوجود اللامتناهى بسموه وكأله . وليست الرغبات المختلفة التى تستشعرها الذات البشرية سوى مجرد تعبير باطنى عن ذلك الاستقطاب العنيف القائم بين « الذات الحاضرة بالفعل » وتلك « الذات اللاموجودة » التى هى محط آمالها وموضع رغباتها ! وما « الألم » — فى رأى هيغل — سوى المظهر الشعورى لهذا « التناقض الذاتى » الذى تستشعره الذات على صورة « نقص داخلى » أو « عوز باطنى » ، لا مجرد ظاهرة خارجية أو واقعة موضوعية . والحق أن « الألم » ميزة كبرى قد اختصت بها الكائنات الواعية ، بحيث إنه كلما تزايد حظ الإنسان من السموم ازدادت بالتالى قدرته على التألم . وهيغل يذهب إلى حد أبعد من ذلك فيقول إن الأفعال العظيمة لا تنبع إلا عن حالة نفسية عميقة من « العذاب » أو « المعاناة » ، وكأن هناك ضرباً من « النزاع » أو « الاحتضار » الإلهى قبل كل ولادة روحية عظيمة ! وعلى الرغم من أن هيغل يعترف بأن الفاعلية الإلهية أزلية أبدية ، إلا أنه لا يرى مانعاً من القول بأنها لا تخلو من مظاهر « الجدية » ، والعذاب ، والمعاناة ، والمشقة ، التى تقترن بالسلب أو القوة السالبة . وحين يتحدث هيغل عما تنطوى عليه عملية « الخلق » من « تناقض ذاتى » ، فإنه يعنى بذلك أن الله نفسه يفتدى خليقته (أى الإنسان) بمقتضى فعل لا يخلو من ألم ، ويأس ، وموت ! وآية ذلك أن « الآب » يتجسد على صورة « ابن » وهذا « الابن » يتعذب ويحتضر ويموت بالضرورة ، لكي لا يلبث أن يُبعث حياً ويعاود الاتحاد بالآب الذى هو واحد معه بالجوهر . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى أسطورة عدن ، فإنها تمثل ضرورة اغتراب الله عن ذاته فى الإنسان : ذلك المخلوق الذى خلقه الله ، ثم لم يلبث أن تركه يعصاه وينأى بنفسه عنه ، ولكنه عاد من بعده فافتداه وأنقذه من الهلاك ! وحين مد الإنسان يده إلى شجرة المعرفة ، فإنه سرعان ما هوى من حالة البراءة والطهر إلى حالة الخطيئة والعذاب ؛ ولكن خطيئته فى الحقيقة لم تكن إلا طبيعة « أصلية » استلزمها مصيره وتطلبها وجوده ! أجل ، فقد كان لابد للإنسان من أن يرتكب المعصية ، لأنه هيات للإنسان أن يصبح موجوداً متكاملًا اللهم إلا بعد الخطيئة ، وبعد العذاب ! وقد استرد الإنسان وجوده البشرى الكامل بعد العقوبة والصفح الإلهى (أو الغفران) ، ولكنه لم يعد إلى حالة البراءة ، بل استرجع حالته البشرية المليئة . وما كان يمكن للموجود البشرى أن يبلغ هذه الحالة ، لو لم يكن الله قد عانى الاحتضار والموت من أجله ! وقصارى القول أن للعذاب دلالة ميتافيزيقية

تكشف عنها « دراما الله والإنسان » في هذه الفلسفة الجدلية التي لا ترى في الصراع ، والتناقض ، والاعتراب عن الذات ، سوى مجرد مظاهر لما في الوجود من « سلب » أو « قوة سالبة »^(١) .

الصلة بين « الألم » وعملية « تحقيق الذات » في فلسفة برديايف

ولا بأس من أن نتوقف وقفة قصيرة عند مذهب ميتافيزيقى آخر شاء له صاحبه : ألا وهو المفكر الروسى المعاصر برديايف ، أن يقوم على التأليف بين خبرة الألم من جهة ، وتجربة الحرية من جهة أخرى ، ونحن نعرف أن « الألم » يمثل في العادة ذلك « الشر » الخاص الذى لا تألو الإرادة جهداً فى سبيل العمل على طرده واستبعاده ، نظراً لما له من طابع منفر غير ملام . ولكن برديايف يريد أن يبين لنا أن هذا الذى ننفر منه ونحرص على استبعاده بكافة الوسائل إنما هو بعينه ما نحن فى أمس الحاجة إليه ، حتى نكون ما فى وجودنا من طابع شخصى . ومن هنا فقد علق برديايف على « الألم » أهمية كبرى فى عملية تكوين الشخصية ، نظراً لأنه قد فطن إلى أن « تحقيق الذات » فعل أليم لا يتم بدون عناء ومشقة ومقاساة . والواقع أن « تحقيق الذات » لا يعنى سوى اكتساب الحرية ، وليست الحرية هبة أو منحة تجود بها علينا قوة عليا ، بل هى عملية شاقة تستلزم الصراع والمشقة والمجاهدة ، فلا بد فيها من تحمل شتى ضروب الألم والعذاب والمعاناة . ولكننا كثيراً ما نشعر بفداحة عبء تلك الحرية ، فتود لو استطعنا أن نتخل عنها ، حتى نتجنب الألم ، ونخلع عن وجودنا ذلك الطابع الدرامى الذى لا يكاد يتفصل عنه . وليس بدعاً أن ترتبط الحرية بالألم ، فإن مأساة الوجود الإنسانى تنحصر فى تلك العملية الشاقة التى تقوم بها « الذات » حينما ترفض كل نفعية سهلة ، وكل سعى رخيص وراء السعادة ، حتى تظفر بقطر أوفر من الحرية والكمال . وسواء أكان علينا أن نتحرر من عبودية الطبيعة ، أم من أسر المجتمع ، أم من سطوة الدولة ، أم من طغيان الآلة ، أم من نير الطبقة ، فإننا فى كل تلك الحالات لابد من أن نشعر بما تستلزمه عملية « التحرر » من مجاهدة ، وألم ، ومشقة . وإذن فإن قيمة الحياة البشرية — فيما يقول برديايف — تنحصر أولاً وبالذات فى عملية تحقيقنا لذواتنا ، وعلوّنا على أنفسنا ، واتصارتنا على

(1) Cf. G. R. G. Mure: « The Philosophy of Hegel. », Oxford University Press,

شتى ضروب الختمية ، ونحرقنا من كافة أشكال العبودية ، وهذه كلها جهود عيفة تضطرننا إلى تحمل « الألم » ، وتقليل « التضحية » ، إن لم نقل بأنها تستلزم ضرباً من « البطولة » التي لا مندوحة عنها لكل من يريد أن يجاهد في سبيل تحقيق ذاته ^(١) . وهكذا نرى أن هذا الفيلسوف الذى رأى في « التحرر » السبيل الأوحى للوصول إلى مستوى الحياة الروحية الصحيحة ، قد جعل من « الألم » الجسر الضرورى الذى لا بد للذات من أن تمر به في طريقها إلى « الحرية » . وليست « الحرية » في النهاية سوى « الروح » نفسها : أعنى ذلك الفعل الإبدعى الذى ينبثق من أعماق أعماقنا حين نكون قد نجحنا في تحقيق ذواتنا .

الصلة بين « الألم » و « الترقى الخلقى » لدى الفرد والجماعة ...

إن الكثيرين ليعرفون « الألم » بقولهم « إنه على وجه التحديد تلك الحالة التى لا نريد أن نعانيها » ، ولكن من المؤكد أنه على الرغم من أن الإرادة تقول للألم دائماً : « لا » إلا أن خبرة الألم نفسها دوراً هاماً في ترقية الإرادة . والحق أن « الألم » يسير دائماً جنباً إلى جنب مع الترقى الروحي : فإنه ما من شيء عظيم أو جليل قد تحقق في هذه الحياة البشرية من دون ألم . ولستأ نريد أن نذهب مع كثير كجارى إلى حد القول بأن « الوجود الإنسانى هو في صميمه عذاب ، وعذاب دينى على وجه الخصوص » ^(٢) ، وإنما حسبنا أن نقول إن التاريخ البشرى نفسه شاهد على أن الإنسانية قد اضطرت إلى أن تتجاوز أقصى التجارب وأقصى المحن ، من أجل الوصول إلى مرحلة أسمى من الرقى . والواقع أننا قد نكون على حق حين نقيس مدى رقى الجماعة (كما هو الحال أيضاً بالنسبة إلى الفرد) بما عانته من محن ، وما مر بها من تجارب . وهنا يتجلى الفارق الكبير بين الإنسان البدائى والإنسان المتحضر : فإن البدائى لا يكاد يعرف كل تلك الآلام العديدة المتنوعة التى تجيء بها الحضارة الإنسانية كلما أوغل الإنسان في سبيل التقدم والتحضر ، على حين أن المتحضر يعاني الكثير من الآلام بسبب ترقى حساسيته ونضج وعيه ورقة شعوره . ومن هنا فقد لاحظ الكثير من الباحثين أن الإنسان البدائى يكاد يحيا في شبه سرور دائم ، حتى أنه ليجهل الكثير من الآلام الأولية البسيطة التى يعانها الإنسان المتحضر ، على الرغم من

(1) N. Berdiaeff « Cinq Méditations sur L'existence », 1936, P. 203.

(2) Jean Wahl : « Etudes Kierkegaardiennes » Vrin, 1949 p. 357.

أنه أكثر تعرضاً (من الإنسان المتحضر) للصدفة ، والقوى الطبيعية الخطيرة ، وشتى ضربات القدر ! وبينما يزداد شعور الرجل المتحضر بالخوف من جهة ، والبعد عن الطبيعة من جهة أخرى ، نجد أن الرجل البدائي أقل منه شعوراً بالخوف ، وأدنى منه إحساساً بالبعد عن الطبيعة . وهكذا تقل لدى الرجل البدائي درجة الإحساس بالألم ، وتضعف لديه القدرة على تمييز المواقف الأليمة ، بينما تعمل المدنية — لدى الرجل المتحضر — على زيادة إحساسه بالألم ، وتقوية قدرته على تمييز أو إدراك المواقف المؤلمة . وليس غريباً أن يكون من آثار الحضارة البشرية تزايد آلام الفرد والجماعة ، فإنه لمن الواضح أن تعقد أسباب الحياة لا بد من أن يفضى إلى تنوع آلام الإنسان . ولعل هذا ما عناه ماكس شلر حينما قال إن المدنية تزيد من عمق الآلام البشرية ، لأنها في الوقت نفسه تفتح أمام الإنسان المتحضر مجالاً واسعاً لضروب كثيرة من المسرات . وسواء أردنا أم لم نرد ، فإنه لا بد لنا من أن نشترى حضارتنا بأفدح الأثمان ، لأن علينا أن نقبل ما يجيء معها من آلام ومصاعب ومحن (١) !

وأما بالنسبة إلى الأفراد ، فإنه لمن الواضح أن المقدرة على التألم هي — إلى حد ما — مقياس لدى قدرة كل فرد على التحضر والترقى . وحتى إذا لم نقل مع كيركجارد بأنه « كلما كان الشخص أسمى وأرق ، كان الثمن الذى يدفعه لشراء أى شىء أغلى وأهبط » فإنه لا بد لنا مع ذلك من التسليم بأن القدرة على التألم تسير جنباً إلى جنب مع الرغبة في تحقيق المثل الأعلى ، ولسنا هنا في مجال الآلام الحسية التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بمطالب الجسم العضوية ، بل نحن في مجال الآلام النفسية التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بمطالب الشعور الخلقى . وهكذا تنجى ضرورات الترقى الخلقى أو النمو الروحى فتفرض على الذات آلاماً نفسية عديدة : إذ يشعر المرء بأن شخصيته لا يمكن أن تنمو وترقى إلا إذا انصهرت في بوتقة الألم والعذاب . وهناك تجربة نفسية أليمة كثيراً ما نعانىها في حياتنا الروحية العادية : ألا وهى تلك التجربة التى يحياها الإنسان كل يوم حينما تنجى أفعاله دون مرايمه ، أعنى حينما يشعر بأن ما يمتلكه هو دون ما يريده بكثير ! ولسنا في حاجة إلى حسن مرهف من أجل الشعور بهذه التجربة الأليمة ، وإنما حسبن أن تلقى نظرة عابرة على أفعالنا العادية ، لكى ندرك إلى أى حد يعمل « الألم » عمله في صميم حياتنا الخلقية . ولاشك أن كل من يشعر بأن ثمة قوة باطنة تدفعه إلى التصاعد والترقى لا بد من أن يعانى في الوقت نفسه هذا « الألم » الذى لا علة له سوى شعور المرء بأنه

دون ما ينبغي بكثير (١) !

الآلم بوصفه قيمة خلقية تزيد من عمق حياتنا الباطنية

لقد حاول الفيلسوف الألماني ماكس شلر أن يظهرنا على الدلالة الروحية العميقة للآلم فقال إن العلاقة وثيقة بين « الآلم » و « التضحية » : لأن « الآلم » هو في صميمه « تضحية » بالجزء من أجل الكل ، أو تضحية بما له قيمة دُنْيَا من أجل ما له قيمة عليا . والصلة وثيقة بين الآلم والموت : لأن الآلم موت للجزء ، ولكنه موت يتحقق من ورائه إنقاذ الكل . كذلك يمكننا أن نربط الآلم بالحب فنقول إن أية قيمة عليا لا يمكن أن تفرض علينا التضحية بقيمة أخرى دُنْيَا إلا إذا كانت أقدر منها على انتزاع حُبِّنا . ومن هنا فإن الآلم هو الذى يضطرنا إلى أن نخضع حياتنا الحسية لنشاط روحي يتزايد سموًا يوماً بعد يوم . وحينما يقول أفلاطون — ومن بعده فلاسفة المسيحية — إن الآلم أداة تطهير ، فإنهم يعنون بذلك أن آلام الحياة هي الكفيلة بأن توجّه بصرنا الروحي نحو الخيرات العليا والقيم السامية ، فترفع بنا إلى مستوى الطهارة القلبية الحقة التي هي ينبوع السعادة الروحية العميقة . (٢) ولعل هذا هو السبب في أن معظم الديانات الكبرى تعلق أهمية عظيمة على « الآلم » ، حتى لقد ذهب كيركجارد (في تفسيره للمسيحية) إلى أن « الآلم » هو العلاقة التي تميّز الإنسان المتدين : لأن الآلم يعني العزلة الروحية ، والحياة الباطنية العميقة ، والشعور بالتناقض الحاد بين المتناهي واللامتناهي . ويمضي كيركجارد إلى حدّ أبعد من ذلك فيقول إن الآلم هو الجو الروحي الذى يعيش فيه الإنسان المتدين ، إن لم يكن هو الجو الأوحى الذى يستطيع أن يتنفس فيه . « وحينما يريد الله أن يوثق العلاقة بينه وبين إنسان ما ، فإنه يستدعى رفيقه الأمين الذى هو الهم ، وينبّه عليه بأن يلاحقه أينما توجه ، ويشدّد عليه بأن يلازمه في كل خطواته » ! وهكذا يصبح « الهم » حليف الرجل المتدين ، ويظل الآلم هو الصديق الأوحى الذى يلازم المسيحي في حله وترحاله ، كالظل لا يفارق صاحبه ! (٣) .

(١) ارجع إلى كتابنا : « مشكلة الإنسان » ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، الفصل الخامس ،

ص ١١٣ — ١١٥ .

(2) Max Scheler : « Le Sens de la Souffrance » , Aubier, 1946, pp. 62 - 71.

(3) Cf. Jean Wahl : « Etudes Kierkegaardiennes » , Vrin, 1949, pp. 367 - 369.

(وارجع أيضاً إلى مقالنا المشار إليه آنفاً بمجلة علم النفس مجلد ٥ ، عدد ٣ ، ص ٣٩٠)

والواقع أن من شأن « الألم » في كثير من الأحيان أن يولد في النفس تناقضاً خصباً يزيد من عمق حياتنا الباطنية ، إذ تشعر الذات بتوتر حاد بين ما هي عليه ، وما تريد الوصول إليه ، أو بين ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون ، ومثل هذا التوتر هو — على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي رنيه لوسن R. Le Senne — شعور بالقيمة . وليس معنى هذا أن « الألم » هو في حد ذاته « خير » وإنما معناه أن « الألم » قد يعود بالخير على الذات ، حيناً تتمكن من مثله ، أعنى حيناً تستطيع أن تجعل منه أداة فعالة لتحقيق تطورها الروحي وتنمية حياتها الباطنية . وتبعاً لذلك فإن القدرة على التألم هي أمانة طيبة : إذ ربما كان أعضل داء يمكن أن تصاب به النفس هو أن تصبح غير قادرة على التألم ! وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن التألم ليس مرضاً على الإطلاق ، وإنما هو بالأحرى نقاهة النفس ، أو هو على الأصح السبيل إلى تحقيق غبطة أعمق وسرور أعظم !

صحيح أن هناك أناساً لا يقوون على تحمل الآلام ، ولكن هؤلاء في الحقيقة بشر ضعفاء تزعزعهم التجارب ، وتعصف بهم البلايا ، وتهتد كياناتهم المحن ، فسرعان ما يقعون صرعى تحت ضربات القدر ، وعندئذ لا يلبثون أن يرزحوا تحت وطأة العذاب ، ومن ثم يتضعض كل وجودهم ، ويتداعى بناء شخصياتهم !! وحينما تزول الغمة عن الإنسان الضعيف الذي لا طاقة له على تحمل الألم ، فإنها لا تدعه إلا مشوهاً ، محطماً ، مهبط الجناح ، مغلوباً تماماً على أمره ! ومن هنا فإنه لا يعود يقوى من جديد على النهوض من كبوته ، بل يجد نفسه عاجزاً تماماً عن الوقوف على قدميه ، وكأنما هو قد فقد كل ما كان له من قيمة ! وهذا هو السبب في أن « الألم » لا يمثل بالنسبة إلى الرجل الضعيف سوى مجرد « نفى » تام لكل قيمة . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الرجل الذي يقوى على احتمال الألم لا يخرج من التجربة إلا أقوى صلابة ، وأشد عزيمة ، وأصلب عوداً ! ولا غزو ، فإن « خبرة الألم » — بالنسبة إليه — هي بمثابة فرصة مواتية لزيادة قدرته على الاحتمال ، وتنمية كيانه الأخلاقي ، وتنقية معدنه الإنساني . وإذا كان للألم — في نظره — قيمة خلقية كبرى : فذلك لأن استجابته للمحن والتجارب هي على النقيض تماماً من استجابة الرجل الضعيف المستكين . وآية ذلك أنه لا يستجيب لضربات القدر بالصراخ والعويل ، بل هو يستجيب لها بردود أفعال إيجابية ، يؤكد فيها ذاته ، ويعلن من خلالها رفضه لكل استسلام !

والواقع أنه حينما تنزل بساحة المرء مصائب كبرى أو محن هائلة لا يملك حيالها شيئاً ، ولا تقوى إرادته على صدها ، فهناك قد تنطلق من عقابها بعض القوى الدفينة في أعماق

طبيعته الخلقية ، لكي تقوم بدور المقاومة الفعالة بدلاً من النشاط العادى الموجود لديه .
 وحينما يتحقق « التحرر » أو « الانطلاق » لهذه القوى ، فإنها قد تأخذ على عاتقها
 مهمة الكفاح فى سبيل النود عن الكيان الخلقى لصاحبها ، والعمل على الدفاع عن
 صميم وجوده الروحى . والحق أن « التألم » هو ضرب من الامتحان أو الاختبار لطاقة
 « الموجود الأخلاقى » : لأنه محك صلابته الروحية ، وميعاد مرونته الأخلاقية . وليس
 من الضرورى أن يكون التألم علامة على الانهيار أو الاستسلام ، بل كثيراً ما يكون
 « التألم » شاهداً على قيام حالة تحرر فعلى ، أو توافر يقظة روحية يتم بمقتضاها استنهاض
 القوة الأخلاقية الكامنة ، وعندئذ لا يلبث الفرد أن يقيم الدليل على أنه يملك من
 « القوة » أو « المقدرة الحقيقية » ما هو أسمى بكثير من كل ما ينطق به نشاطه العادى .
 ولا غرابة فى ذلك على الإطلاق : فإن الانهيار الذى قد يصيب نشاطنا العادى كثيراً ما
 يكون مناسبة طيبة لإطلاق ما هو لدينا من طاقات روحية خفية ، وعندئذ تظهر لدينا
 القدرة الإيجابية على التحمل .

بيد أنه لا بد لنا من الاعتراف بأن لكل فرد منا — بطبيعة الحال — قدرة محدودة على
 احتمال الألم ، بحيث إنه إذا زادت البلايا التى تنزل بساحته عن « الحد الذى يمكنه
 احتماله ، فإن « الألم » قد يقهره ويرين عليه . وتبعاً لذلك فإن لكل فرد منا « نطاقاً »
 معيناً يمكنه فى داخله الإفادة من « الألم » بوصفه « قيمة » ، حتى إذا ما تجاوزت الآلام
 هذا الحد أو النطاق ، لم تلبث أن استحالت إلى قوى مضادة تماماً لكل قيمة ! وهنا نلتقى
 بالجانب القبيح من جوانب الألم : فإن من شأن الآلام إذا زادت عن حدها أن تصبح
 عوامل سلبية هدامة تتبدد معها سائر القيم ، وإن كانت النقطة التى يتم عندها هذا التحول
 لا تتحدد بكمية الآلام نفسها ، بل بمدى قدرة الفرد على احتمال الآلام . وأما فى نطاق
 الحدود الميسر لكل فرد منا احتمال الآلام فى مجالها ، فإن من المؤكد أن « التألم » يقترن
 بعملية استنهاض أو استشارة لطبيعتنا الأخلاقية الدفينة ، وكأن من شأن « المعاناة » أن
 تحرك أعماق وجودنا ، وأن تطلق طاقاتنا المحبوسة ، وأن تحرر أنبل ما لدينا من قوى
 روحية . ومن هنا فإن كل من صهرته المحن لا بد من أن يكون أصلب عوداً من غيره :
 لأنه قد مر بتجربة الألم التى هى المحك الأوحى لامتحان معادن الرجال ! وحين يخرج
 المرء من معركة الآلام ظافراً منتصراً ، فإنه لم يجد من بعد شيئاً عسيراً لا طاقة له به : لأنه
 سيكون عندئذ قد اختزن فى باطنه من الطاقات الروحية ما يستطيع معه مواجهة أقصى
 المحن وأقصى التجارب ! ولا غرو ، فإن الإنسان الذى انصهرت نفسه فى بوتقة الآلام
 هو — على حد تعبير نيتشه — كالقوس المشدود الذى ينتظر السهم !؛ أو هو فى الحقيقة

إنسان مجرب قد زودته الحياة بأسمى قوة أخلاقية .

هل من صلة بين « خبرة الألم » و « الوعي بالقيم » ؟

إن الكثير من فلاسفة الأخلاق ليعلون من شأن « الألم » لأنهم يرون فيه « خبرة خلقية » لا مثيل لها في عالم الخبرات الروحية للموجود البشري . وحجة هؤلاء أن الألم العظيم يهبط إلى القرار السحيق الذي لم ينفذ إليه أحد من قبل ، ويبرز أركان الموجود البشري بشكل لم يحلم به قط كَلَّ من لم يقدر له أن يعاني تجربة الألم . وحين يقول هارتمان (مثلاً) إن من شأن الألم أن يفتح الكثير من « الأماكن الدفينة المغلقة » ، فإنه لا يعنى بذلك أن الألم ينفذ إلى أعماق قلب المرء ، أو إلى أعماق قلوب الآخرين فحسب ، بل هو يعنى بذلك أيضاً أن الألم يفتح أعماق قلب الحياة العامة نفسها ، بكل ما تنطوى عليه من مظاهر الخصوبة والوفرة والثراء . وهذا هو السبب في أن من شأن الألم أن يغير من كل موقف الفرد من الحياة تغييراً كلياً شاملاً . وعلى حين أن الشخص الذي لم تنقل كاهله المحن والتجارب ، لا يكاد يرى من الحياة سوى سطحها الظاهري البراق ، نجد أن الشخص الذي لم تنضجه الآلام والبلايا يتجه ببصره نحو كل ما في الحياة من مواقف ، ومطامع ، ومطامع ، وآمال ، وصراعات ، ومعارك ، ولكنه ينفذ ببصره إلى ما يكمن تحت السطح ، فيرى ما تخبئه الحياة من قيم ، ومعان ، ودلالات ، ويشارك في حياة الآخرين وبالتالي فإن نظرتهم لا بد من أن تنجيء أكثر اتساعاً وأشدّ إرهافاً . ومن هنا فقد يكون في وسعنا أن نقول إن من شأن « التألم » أن يزود صاحبه بالقدرة على رؤية القيم الخفية التي لم يقدر له من قبل النفاذ إليها أو الوقوف عليها . وهذا ما حدا بالبعض إلى القول بأن « الألم » هو المعلم الخاص الذي يلقي الإنسان درساً لا ينساه في الوعي بالقيم . ولا غرو ، فإن الحياة الخلقية لا تقوم إلا على الخبرات المعاشة والمواقف الحية ، بحيث إنه هيات للقيم أن تنكشف لنا اللهم إلا من خلال تلك الصراعات الحيوية التي نعانيها بأنفسنا في صميم تجاربنا الوجودية . والواقع أنه ليس من شأن أى موقف حتى أن يكشف عما ينطوى عليه من « عناصر قيم » ، اللهم إلا لذلك الشخص الذي يندمج فيه ويمتزج به ، أو على الأقل لذلك الشخص الذي يحدّق فيه ويمعن النظر إليه ببصر حاد وبصيرة نفاذة^(١) .

وإذا جاز لنا أن نقول إن الإنسان يتاع أسمى القيم بآلامه وأحزانه ، فقد يصحّ لنا أيضاً أن نقول إن هناك « إرادة عذاب » أو « إرادة ألم » تأخذ على عاتقها شراء أسمى القيم بأفدح الأثمان ! والحق أن كل من يرتضى لنفسه حمل أثقال باهظة ، أو تحمل تبعات ثقيلة ، لابد بالضرورة من أن يكون مالكاً لمثل هذه الإرادة . وليس من النادر أن نلتقى بأناس يريدون أن يتألموا في سبيل بلوغ غاية كبرى ، أو تحقيق هدف أعظم ، سواء أكان هذا الهدف فكرة ، أم مثلاً أعلى ، أم غاية جماعية أم غير ذلك . ولكن ربما كانت أعمق صورة من صور « إرادة الألم » هي تلك التي نلتقى بها لدى الإنسان الذي يريد أن يتعذب في سبيل الحب ، أو على الأصح في سبيل الشخص المحبوب ! وليس من شك في أنه حينما يرتضى المرء لنفسه أن يتألم في سبيل الشخص الذي يحبه ، فإنه يهدف من وراء هذا الألم إلى تحقيق ضرب أعمق من المشاركة ، وكأنما هو يريد أن يصهر ذاته في بوتقة حبه العميق « للآخر » ! ونحن نعرف كيف أن الأم تحب ابنها على الرغم من كل ألم قد يسببه لها ، إن لم نقل بأن حبها لابنها يتزايد عمقاً وشدة ، بقدر ما يسبب لها الابن من ألم وعذاب ! وليس على ظهر هذه الأرض أم هي على استعدادٍ للتنازل عن هذا الألم ، أو التخلي عن ذلك العذاب ، مهما يكن الثمن الذي قد يكلفها حبها لأبنائها ! ومعنى هذا أن حب الأم لأبنائها لا يتوقف على مدى عرفانهم بالجميل لها ، بل هو حب خالص يقوم على التضحية ، ويقترن بالألم والعذاب ، دون أن يكون له أدنى شأن بوفاء الأبناء أو عدم وفائهم ! وقد كان المسيحيون الأوائل يتحدثون عن التألم في سبيل المسيح ، أو احتمال العذاب من أجل اسم المسيح ، فكانوا يرون في « الألم » أكبر مشاركة من جانبهم في شخص « يسوع المسيح » ...

وليس من شأن الألم — فيما يقول هارتمان — أن يتسامى بالشخصية البشرية ، وأن يزيد من عمق إحساسها الخلقى ، وأن يكسبها ضرباً من الثبل الخلقى فحسب ، بل إن من شأنه أيضاً أن يزيد من قدرة الإنسان على الإحساس بالسعادة . وآية ذلك أن من شأن « خبرة الألم » أن تكسب المرء إرهافاً وعمقاً يجعلان منه مخلوقاً زقيقاً يتمتع بقدرة أعظم على تذوق السعادة . والواقع أن الشخصية التي صهرتها الآلام لا تعود تجزع لأتفه المخاوف ، وتقلق لأصغر الأحداث ، بل تقف في وجه مصيرها بقلب ملؤه الشجاعة والإقدام ، دون أن يقض مضجعها أى تلثف على اللذة أو أية رغبة عارمة في السعادة ! وقد عودتنا الحياة أن يكون جزاء من لا يجري وراء السعادة ، أن يراها يوماً جالسة إلى

مائدته على غير ميعاد ! ومن هنا فإنه ليس بدعاً أن تُقدم السعادة إلى ذلك الرجل « المجرب » الذى اكوت نفسه بنيران الآلام ، وانصهرت شخصيته فى بوتقة الأحران^(١) !

ولسنا نريد أن نساير بعض الفلاسفة الحيويين — من أمثال نيتشه — فى تمجيدهم للألم ، وإنما حسبن أن نقول إن ما فى « تجربة الألم » من عمق وإرهاق هو الذى يجعل منها إحدى التجارب الأخلاقية الأساسية لكل ضمير إنسانى . ولم بجانب نيتشه الصواب حين قال إننا لو عمدنا إلى امتحان حياة الأفراد والشعوب ، لوجدنا أن أفضلها وأكثرها إنتاجية هى تلك التى صهرتها الآلام . « وإلا ، فهل يكون فى وسع الشجرة التى تتطلب النمو والازدهار فى صلف وكبرياء ، لكى تبلغ أغصانها وفروعها عنان السماء ، أن تستغنى عن الطقس الردى ، أو أن تعفى نفسها من الزواجر والأعاصير ؟ إن العوامل المؤذية ، وشتى المقاومات الخارجية ، وكافة ضروب الكراهية والغيرة والعناد والارتياح والقسوة والطمع والعنف : هذه كلها لا يمكن إلا أن تكون مجرد ظروف مواتية هيئات لأى نمو عظيم أن يقوم بدونها ، حتى ولو كان ذلك فى مضمار الفضيلة نفسها ! وقد يجيء السم فيحطم الطبيعة الضعيفة الواهنة ، ولكنه لن يكون إلا عاملاً من عوامل التقوية بالنسبة إلى الفرد القوى المتين . ولا غرو ، فإنه لن يسميه سماً أصلاً^(٢) » ! ويعود نيتشه إلى التحدث عن « حكمة الألم » فى موضع آخر فيقول إن الألم — مثله فى ذلك كمثل اللذة — هو أداة فعالة من أدوات المحافظة على بقاء النوع . ولو لم يكن الألم كذلك ، لم القضاء عليه منذ زمن بعيد ! صحيح أن من طبيعة « الألم » أن يكون « جارحاً » ، ولكن الجراح التى يسببها لنا هى فى حد ذاتها علامات على طريق الشفاء ! « وأنا حين أفكر فى الألم فإننى أسمع تلك الصيحة العالية التى يرسلها ربان السفينة حين يدعو بحارته قائلاً : خففوا أشرعتكم ! ولا بد من أن يكون الإنسان — ذلك الملاح المقدم الجسور — قد تعلم كيف ينشر أقلعته بالآلاف الطرق المختلفة ، وإلا لما استطاع أن يحمر طويلاً ، إذ لكان المحيط قد ابتلعه منذ زمن بعيد ! ونحن أيضاً لا بد لنا من أن نعرف كيف نحيا على طاقة مخفضة : إذ بمجرد ما يلوّح لنا الألم بإشارته المخدرة ، فإنه لا بد لنا عندئذ من أن نعلم إلى تخفيض سرعتنا : لأن معنى هذا أن هناك

(1) N. Hartmann : « Ethics », vol. II., Moral Values, 1963, p. 141.

(2) F. Nietzsche : « Joyful Wisdom », New-York, Frederick Ungar Publishing Co. 19 d 64, No 19. Evil, 5 p. 6-57

خطراً عظيماً يلوح في الأفق ؛ أو أن هناك زوبعة قد أصبحت على مقربة منا ؛ وأنه لا بد لنا بالتالي من العمل على تجنب الرياح ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . ولكن ثمة أناساً ، إذا دنى منهم الخطر الجسمي ، سمعوا صيحة معارضة تماماً ، فهم لا يبدون أكثر كبرياء ، وأشد سعادة ، وأقوى رغبة في القتال ، اللهم إلا حين تعصف الأنواء ، وتثور الزوابع ، وتتجمع الأعاصير ؛ وكأن من شأن « الألم » نفسه أن يزودهم بأسمى لحظات حياتهم ! وهؤلاء هم أبطال البشرية : أعنى أنهم « حملة الألم » العظماء في كل تاريخ الجنس البشري ... إنهم يمثلون قوى ذات أهمية كبرى للمحافظة على بقاء النوع والعمل على تقدمه ؛ وربما كان من بعض أفضالهم — على الأقل — أنهم يقفون بالمرصاد لكل حياة سهلة رخيصة ، دون أن يخفوا احتقارهم لهذا النوع من السعادة » ^(١) وليس لنا من تعليق على هذه العبارات القوية التي لخص فيها نيتشه كل « حكمة الألم » سوى أن نقول إن الصلة الوثيقة التي تجمع بين « خبرة الألم » من جهة ، ووعي الإنسان بالقيم من جهة أخرى ، هي التي أملت على كثير من فلاسفة الأخلاق التوجس من حياة اللذة والسهولة ، والقول بأن الضمير أو الوعي الخلقى هو في جوهره صورة من صور « الشعور الأليم » ...

« الصلة بين « الألم » و « عذاب الضمير »

وهنا قد يحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند ما اعتدنا تسميته باسم « الندم » أو « عذاب الضمير » ، حتى نقف على طبيعة هذا النوع الخاص من « الألم الخلقى » . ولنفترض مثلاً أنني قد تفوهت بكلمة ، أو أنني قد أعطيت وعداً ، أو أنني قد أتيت نصرفاً ، أو أنني قد اتخذت خطوة ، دون أن أحسب سلفاً كل النتائج التي يمكن أن تترتب على سلوكي هذا . ألسنا نلاحظ في هذه الحالة أن « الفعل » الذي حققته لن يلبث أن يفصل عني ، لكي يشهد لي أو يشهد ضدي ، دون أن يكون في وسعي من بعد أن أتذكر له ، أو أن أتهرب منه ؟ بل ألسنا نلاحظ أن الجماعة نفسها تفرض علينا ضرباً من الوفاء الصارم لما حققنا من أفعال ، وكأنما هي تريد بذلك أن تشعرنا بجدية « الفعل البشري » ، وخطورته ، واستمراره في الزمان ؟

هذا كانوت Kanut — مثلاً — يقتل والده العجوز الذي فقد وعيه تماماً ، وما من

(1) F. Nietzsche : « Jovful Wisdom » , N - Y, 1963, N° 318, Wisdom in Pain, p. 247.

رقيب يمكن أن يسجل عليه فعلته ، بل ما من قرائن تشهد حتى بإمكان وجود جريمة ! ولكن شبح الجريمة يظل يطارده حتى وهو في أوج عظمته ، فلا يقوى هذا الملك العظيم على إخماد صوت ضميره ، أو تخفيف حدة شعوره بالندم والألم والعذاب النفسى المقيم ! وعبثاً يحاول الإنسان في مثل هذه الأحوال أن يبرر مسلكه بأن يقول لنفسه إن جريمته ضئيلة تافهة : فإن قيمة الأفعال — في المجال الخلقى — لا تقاس دائماً بحجمها !! ومعنى هذا أن انعدام التناسب بين « العلة » و « المعلول » في العالم الأخلاقى هو السر في عجزنا أحياناً عن تفادى « تأنيب الضمير » . والحق أن « تأنيب الضمير » ليس مجرد استرجاع للماضى الأليم في الحاضر ، وإنما هو تعبير عن حالة نفسية معقدة تقوم على التناقض الحاد والازدواج الأليم : ذلك أن الضمير يشعر من ناحية بأن الأفعال التى حققها فى الماضى والتى أصبح ينكرها اليوم ، لا يمكن بحال أن تندمج فى صميم ذاته الحاضرة ، لأنه لم يعد يقرأها على الإطلاق ؛ ثم هو من جهة أخرى لا يملك أن يطررها خارج ذاته ، وكأنما هى لا تمت إليه بأدنى صلة ، إذ الواقع أنها ليست غريبة عنه تماماً ، وإنما هى داخله فى صميم وجوده ، دون أن يكون فى وسعه اعتبارها مجرد منظر خارجى يستطيع أن يحول بصره عنه . وهكذا نجد أنه بين الماضى والحاضر ، أو بين الخطأ الذى ارتكبه والندم الذى نستشعره لارتكابنا هذا الخطأ ، لا بد من أن يتولد فى النفس تناقض أليم هو الذى يكون فى الحقيقة صميم « الشعور الخلقى » أو ما اصطلاحنا على تسميته باسم « الضمير » ^(١) . ومهما فعلنا ، فإننا لن نستطيع أن نلغى ماضينا تماماً : لأنه هيات للموجود الحر أن يجعل ما كان وكأنه لم يكن ! وقد تستطيع الإرادة الكثير ، أما أن تمحو من الوجود ما أوجدته ، فهذا ما لا قبل لها به على الإطلاق ! وكثيراً ما ترتبط « خيرة الألم » بهذا « الماضى » الذى يحمله كل منا بين جنباته ، دون أن يتمكن يوماً من الانفصال عنه أو الانسلاخ منه ، حتى ولو أراد أن يحوّه ويقضى عليه !

وإن التجربة لتدلنا على أننا قد لا نستطيع دائماً أن نتنبأ بنتائج أفعالنا ، أو بما قد يترتب على تلك الأفعال من آثار : فإن الرواية المطبوعة أو المسرحية الممثلة على خشبة المسرح سرعان ما تخرج من يد صاحبها ، لكى تكتسب صورة جديدة يعجب لها هو ، فلا يكون عليه سوى أن يقف مكتوف اليدين لكى يشهد ما لم يخطر له على بال ! ولكن القاعدة فى عالم الولادة الروحية أنه لا بد للنسل من أن يتمرد على والديه ، ولا بد للوالدين من أن ينتظرا عقوب الأبناء ! وهكذا تنكسر شوكة الكبرياء البشرية : إذ يشعر الإنسان

(1) Jankélévitch : « La Mauvaise Conscience », Alcan. 1939, p. 94.

الخالق بأنه سيكون أول ضحية لما جبلت يده ! وقد لا يخطر على بالنا عند الفعل أن التصميم الذى نتخذه ينطوى على كل تلك الآثار الخطيرة والنتائج الضخمة ، ولكننا لا بد من أن نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نأخذ على عاتقنا كل تلك الأصداء التى تنبعث مما أتينا من أفعال . وقد يجول بخاطرنا أننا أفضل بكثير من كل ما حققنا من أعمال ، وأن قيمتنا الخلقية أعظم بكثير من كل ما يشهد به سلوكنا ، ولكننا لن نستطيع أن نبرى أنفسنا : بأن نزعم لأنفسنا أن الخطيئة هى فينا — على حد تعبير الفيلسوف الفرنسى جانكلفتش — مجرد شيء غريب عنا . والواقع أن الماضى يتبعنا ويلاحقنا باستمرار ، فليس فى وسعنا أن نشهد آثامنا الماضية وكأنما هى لا تمت إلينا بأدى صلة ، وإنما نحن مضطرون إلى أن نعترف بأن ذلك الوجه الكالح البغيض هو وجهنا نحن ! وربما كانت شناعة الخطأ الأخلاقى كامة على وجه التحديد فى كونه أثراً ملتصقاً بى ، دون أن يكون فى وسعى الانفصال عنه تماماً ! وآية ذلك أن هذا الفعل الذى حققته يبقى حاضراً فى ، دون أن يكون منى تماماً ! إنه شيء لا أعترف به ، ولكننى أتعرف فيه على ذاتى الماضية ؛ أو هو شيء أحاول أن أنأى بنفسى عنه ، ولكنه يظل يلاحقنى ويلازمنى ملازمة الظل لصاحبه^(١) !

... تلك إذن هى بعض جوانب من « خبرة الألم » فى حياتنا الخلقية بصفة خاصة ، وفى وجودنا الروحى بصفة عامة . وليس من شك فى أن الوجود البشرى الذى اعتاد أن يُقبل على اللذة ، ويعزف عن الألم ، لا يمكن أن يصبح « كائناً أخلاقياً » بمعنى الكلمة ، اللهم إلا فى اللحظة التى ينفصل فيها عن حياة التلقائية والسهولة واللذة ، لكى يتجه بكل قوته نحو حياة المجاهدة والعسر والمشقة . وليست « خبرة الألم » سوى مظهر من مظاهر صراع الإنسان ضد « ذاته » ، وضد كل ما قد تنطوى عليه « ذاته » من عناصر ضعف أو وهن أو تخاذل أو قصور ! وإذا كان الكائن الحى الواعى وحده هو الذى يتألم ، فذلك لأن الحياة الواعية هى الصراع ضد كل أمارات « الموت » فى وجودنا ، بما فيها « الضعف الخلقى » الذى لا بد لنا من العمل على استئصال أسبابه !

الفصل الحادى عشر

خبرة « الأمل »

قد يعجب القارئ أشد العجب ، حين يرانا نتقل من خبرة سلبية كالآلم ، إلى خبرة إيجابية كالأمل ؛ ولكن الواقع أن ثمة حلقة وسطى تجمع بين الخبرتين ، ألا وهى « خبرة اليأس » . والحق أنه ليس بين البشر إنسان لم يعرف « اليأس » يوماً طريقه إلى قلبه ؛ ولكن ليس بين البشر أيضاً مخلوق واحد لم تترج في حياته حيوط « الألم » و « الأمل » . وقد تبدو كلمة « الأمل » — لأول وهلة — لفظاً شعرياً لا موضع له في كتابات الفلاسفة ، خصوصاً لدى أولئك الذين يريدون لمصطلحاتهم الفلسفية أن تحيى مصبوعة بالصيغة العلمية الدقيقة ، ولكن من المؤكد أن كل « أخلاق » تستند إلى « الإحساس بالقيم » ، وتقوم أولاً وبالذات على « الخبرة المعاشة » لا يمكن أن تغفل دلالة « الأمل » في حياتنا الخلقية العملية . وليس على ظهر البسيطة شخص لم يشعر يوماً بأن الطريق قد أصبح مغلقاً تماماً أمامه ، أو أنه قد أصبح يواجه مشكلة عسيرة لا حل لها ، فإن اليأس — مع الأسف — ظاهرة بشرية عادية نشعر معها بأننا أمام مأزق لا رجاء لنا في الخلاص منه ! ولكن اليأس أيضاً — لحسن الحظ — ظاهرة بشرية موقوتة ، لأنه يمثل جواً خائفاً لا تستطيع النفس البشرية — في نطاقه — أن تتنفس ! ولو لم يكن « الأمل » هو الجوى الروحى الأوحد الذى تحيا في كنفه النفس الإنسانية ، لاختنق البشر جميعاً منذ زمن بعيد ! وحينما قال بعض الفلاسفة إن الله نفسه هو « الأمل » : Spes Mea ، فإنهم كانوا يعنون بذلك أنه ليس للمشكلة الأونطولوجية من حل إلا بالأمل (١) .

يبد أننا حين نتحدث هنا عن « الأمل » ، فإننا لا نتحدث عن « حل نظرى » لمشكلة أونطولوجية ، بل نحن نتحدث عن خبرة وجودية تنكشف من خلالها قيم خلقية أساسية . وإذا كان من غير الممكن ، إن لم نقل من المحال ، قيام « أخلاق » — بمعنى الكلمة — على دعامة من « اليأس » المطلق ، فذلك لأن « الأخلاق » — بطبيعتها —

(١) زكريا إبراهيم : « تأملات وجودية » ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٤٥ .

ثقة ضمنية في إمكانية « التحسن » ، وإيمان خفي بإمكان انتصار « المثالية » ^(١) . وليس أيسر على الإنسان — بطبيعة الحال — من الاستسلام لنداء « العيب » ، أو الاستجابة لداعى « اليأس » ، بدعوى أنه لا صلاح للإنسان ، وأنه لا أمل في ترقى الأخلاق البشرية ، ولكن من الواضح أن مثل هذا الاستسلام هو في صميمه قضاء مبرم على الوجود البشرى بأسره . وآية ذلك أن استمرار الإنسان في البقاء شاهد على أنه قد وجد سبيلا إلى القضاء على « اليأس » — بصورة أم بأخرى — ، كما أن رفضه لكل توحيد مطلق بين « الواقع » و « المثل الأعلى » دليل ساطع على أنه ما يزال يأمل أن يكون مستقبله خيراً من ماضيه وحاضره ! وإذا كانت « خبرة الأمل » شاهداً حياً على ارتباط الأخلاق بالعسر والضيق والشدة ، فإن « خبرة الأمل » دليل قوى على اقتران الأخلاق بالثقة والرجاء والإيمان . فليس ثمة « أخلاق » تخلو تماماً من كل « مثل أعلى » : لأنه لو وجدت مثل هذه « الأخلاق » لما كان أمامها « أفق » تتحرك صوبه ، أو « هدف » تسعى إليه . ولكن « الأخلاق » — بطبيعتها — اتجاه نحو « المستقبل » ، وسعى من أجل تحقيق « المثل الأعلى » . فالأمل « خبرة معاشة » تعنى أن بهر الإنسان متجه نحو الأمام ، وأن جهده مُعبأً من أجل تجاوز الحاضر ، وبالتالي فإنه لا حياة للموجود الأخلاق إلا بالأمل ، وفي الأمل !

الدلالة الروحية لخبرة اليأس عند كيجارد

يبد أننا ما نكاد نتحدث عن « الأمل » حتى يواجهنا كيجارد بقوله : « إن اليأس — لا الأمل — هو الظاهرة البشرية الطبيعية » ! وحجة الفيلسوف الدغمكى الوجودى في هذا الزعم أنه ليس على ظهر الأرض إنسان واحد تخلو نفسه تماماً من كل يأس ، كما أنه ليس على وجه الأرض مخلوق واحد تخلو جسمه تماماً من كل مرض ! وإذا كان الأطباء يقررون أنه لا يكاد يوجد إنسان يتمتع حقاً بصحة كاملة مكتملة ، فربما كان في وسعنا أيضاً — فيما يقول كيجارد — أن نقرر أنه ليس ثمة موجود بشرى يتمتع حقاً بسعادة كاملة غير منقوصة . ومعنى هذا أنه ليس ثمة إنسان تخلو نفسه تماماً من كل أثر من آثار القلق ، أو الضيق ، أو الجزع ، أو الاضطراب ، أو اليأس ، أو أية صورة أخرى من صور « التمزق الباطنى » . وكما أن كل إنسان يمحى على طريق الحياة حاملاً في

(١) نمنى هنا بهذا اللفظ « المثالية الأخلاقية » Moral Idealism لا المثالية « التصورية » .

باطنه جرثومة هذا المرض الجسمي أو ذاك ، فإن كل إنسان أيضاً يحمل في أعماق نفسه جرثومة مرض روحي قد لا يفتن إليه ، ألا وهو مرض « اليأس » . وقد يبدو مثل هذا الحكم — فيما يرى كير كجارد — ممعنا في الشطط ، أو المبالغة ، إن لم نقل موغلاً في التشاؤم والكآبة ، ولكن الحقيقة أن « خيرة اليأس » تسير جنباً إلى جنب مع مطلب روحي هام يفرض نفسه على الإنسان ، ألا وهو ذلك المطلب الذي يدعو الإنسان إلى أن يكون « روحاً » Spirit بمعنى الكلمة . ولو كان على الإنسان أن يبقى مجرد « جسم » أو مجرد « حيوان » لما وجد « اليأس » يوماً سبيله إلى قلب « الموجود البشري » . والحق أنه ليس النادر أن يحيا الإنسان في يأس ، بل النادر أن يحيا إنسان بلا يأس ! وحتى حين يظن إنسان أنه خلّو تماماً من كل يأس ، فإن الملاحظ في مثل هذه الحال أنه لا يخلو تماماً من كل يأس ، وإن لم يكن لديه وعي صريح بهذا اليأس ! وقد يزعم أحدهم أنه يتمتع بصحة جيدة ، مجرد أنه لا يشعر بأي عرض من أعراض المرض ، ولكن هذا لن يمنع الطبيب من اكتشاف بعض الجرائم في هذا العضو أو ذاك من أعضاء جسمه وبالمثل قد يظن أحدهم أنه يتمتع بصحة نفسية كاملة : مجرد أنه لا يشعر بأي عرض من أعراض اليأس ، ولكن هذا لن يمنعنا من اكتشاف بعض الجرائم النفسية في باطن مثل هذا الشخص . وربما كانت أخطر صورة من صور اليأس — فيما يقول كير كجارد — هي تلك التي يتوهم معها الإنسان بأنه خلّو تماماً من كل يأس ، أعني تلك التي لا تقترن بأي وعي أو شعور باليأس ! ولسنا نريد أن نتابع كير كجارد في حديثه عن أنواع اليأس ، وإنما حسبنا أن نقول إنه يرى في اليأس أمانة من أمارات الوعي أو الشعور ، والوعي عنده إنما يعني الوعي أو الشعور بالذات . وكلما زادت شعور الفرد بذاته ، زادت درجة إرادته ، وبالتالي زادت رتبة وجوده الذاتي . ومن هنا فإن الإحساس باليأس يسير جنباً إلى جنب مع الشعور بالذات ، كما أنه بقدر ما تزيد حدة الوعي أو الشعور ، بقدر ما تزيد حدة اليأس . صحيح أن اليأس نفسه هو صورة من صور « السلبية » Negativity ، ولكن عدم الشعور باليأس يمثل صورة أخرى جديدة من صور « السلبية » . ولا سبيل إلى بلوغ الحقيقة — فيما يقول كير كجارد — اللهم إلا باختراق شتى صور السلبية ، من أجل الوصول إلى الشعور بالذات من حيث هي « روح » . ومعنى هذا أن « اليأس » مرحلة ضرورية من مراحل الترقى الروحي للذات البشرية ، لأنه يمثل ذلك « الشعور بالذات » الذي لا بد من أن يقترن بكل حياة أخلاقية سليمة ، إن لم نقل بكل حياة

روحية سوية^(١) .

وقد حاول أحد الفلاسفة الوجوديين المعاصرين — ألا وهو بول تليتش Tillich — أن يصف لنا دور « اليأس » في دراما الوجود البشري ، فقال إن « اليأس » قبول للعبث أو اللامعنى ، ولكنه ليس استسلاماً نهائياً يقع معه المرء أسيراً للمحال أو ضحية للامعقول . وآية ذلك أن الإنسان اليائس لا يتهرب من إشكال الوجود ، ولا يحاول الفرار من كل تساؤل وجودي ، بل هو يواجه مشكلة الحياة بشيء من الإقدام أو الشجاعة . ولهذا يقول تليتش إن في تقبل اليأس ضرباً من « الإيمان » أو « الثقة » : إذ أن « اليأس » لا يقع إلا على الحدود النهائية الملاصقة للشجاعة الوجودية . ومعنى هذا أن « اليأس » فعل من أفعال الحياة ، وبالتالي فإنه يتسم بطابع « إيجابي » حتى في صميم « سلبيته » . وربما كان أعجب ما في المواقف السلبية الأصلية — وعلى رأسها موقف اليأس — أنها لا يمكن أن تكون إلا مواقف إيجابية فعالة ، فهي لا تملك سوى أن تؤكد ذاتها حتى يكون في وسعها أن تنفي ذاتها ! وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إنه لا قيام لأى سلب فعال اللهم إلا بذلك الإيجاب الضمني الذي ينطوى عليه . وليس أدل على الطابع التناقضي الذي تنطوى عليه عملية « نفي الذات » Self - negation من ذلك السرور الخفي الذي قد يحدثه « اليأس » أحياناً في بعض النفوس ! ولا غرو ، فإن « السلبى » لا يجحى إلا على ذلك « الإيجابي » الذي ينكره وينفيه ! ولعل هذا هو السبب في أن الحياة تؤكد ذاتها فينا ، وبنا ، حتى من خلال ذلك « اليأس » الذي قد يوحى إلينا بأنه لا معنى للحياة على الإطلاق ! والحق أن تقبل « اللامعنى » هو ذاته فعل ذو معنى ! وحتى حين يقع المرء ضحية لموقف « اليأس » فإنه عندئذ لا يكون قد فقد كل درجة من درجات الإحساس بالوجود ، وإلا لما كان في وسعه أن يستشعر « اليأس » ! صحيح أن من شأن « الحيوية » Vitality أن تقاوم « اليأس » ، ولكن من المؤكد أن « اليأس » لا يخلو تماماً من كل « شعور الحياة » ، وإلا لما كان في وسعه حتى ولا أن يتقبل « العبث » أو « اللامعنى » . وقصارى القول إن « اليأس الوجودي » — في نظر بول تليتش — يأس فعال يحمل في ذاته بذور فنائه ، وبالتالي فإنه خبرة روحية هامة تحمل في طياتها تباشير الرجاء أو الإيمان^(٢) .

(1) cf. S. Kierkegaard : « The Sickness unto Death »., trans. by W. Lowrie, Anchor Books, New - York, 1954, (on Despair.)

(2) cf. Paul Tillich : « The Courage to Be. » yale University Press, New - Haven, 1952. (Ch. II. & III.) . Absolute Faith.

« تجربة اليأس » حين يكون مصدرها « العالم الخارجى »

وهنا قد يقال إن لليأس أشكالاً مختلفة ، كما أن له أسباباً متنوعة ؛ وهذه وتلك تختلف باختلاف ظروف الناس ، ومشكلاتهم ، وقدراتهم ، وشتى ملابسات حياتهم ونحن لا ننكر أنه قد يكون هناك من ضروب « اليأس » قدر ما هنالك من بشر على سطح هذه الأرض ، ولكننا نميل إلى الظن بأن ثمة مصادر ثلاثة لليأس : ألا وهى العالم الخارجى ، والذات ، والآخرون ، على التوالى ، وحين يكون « العالم الخارجى » هو مصدر اليأس الذى يستشعره الإنسان ، فهناك تكون الدلالة النفسية لليأس هى شعور المرء بأن « الخارج » أقوى من « الداخل » ، أو أن « العائق » أعظم بكثير من أن تواجهه « الإرادة » . وهنا يجد المرء نفسه بإزاء موقف عسير يشعر معه بأنه عاجز عن تحويل « العائق » إلى « واسطة » ، ومن ثم فإنه قد لا يملك سوى الانطواء على نفسه من أجل إعلان « قصوره » أو إشهار إفلاسه ! وليست كلمة « اليأس » فى هذه الحالة سوى اعتراف صريح من جانب « الإرادة » بأنها لم تعد تملك من « القدرة » ما تستطيع معه مواجهة الظروف الخارجية والتغلب عليها .

ولكن من ذا الذى يقوم بتقدير « الظروف » ، أو وضعها فى ميزان الحكم ؟ .. إنها « الإرادة » نفسها ، وميزان الإرادة ميزان نسبى غير دقيق ، معرض للاختلال فى كل لحظة ! فالإرادة هى التى تخلع على الظروف دلالاتها ، وهى التى تنسب إليها أقدارها ، وهذه هو السبب فى أن ثقل كل « ظرف » كثيراً ما يكون رهنا بمدى « قوة الإرادة » نفسها ، أو مدى استعدادها للتحمل والمواجهة والمجابهة . فليس هناك « ظروف فى ذاتها » ، بل هناك « ظروف نسبية » بالقياس إلى الإرادات البشرية المختلفة . وليس أيسر على الإنسان — بطبيعة الحال — من أن يستسلم لليأس ، بحجة أن الظروف التى يواجهها ظروف عصبية هيات لأية قوة بشرية أن تتمكن من الوقوف فى وجهها . ولكن الإنسان الذى « يستسلم » إنما هو ذلك الذى يرفض منذ البداية « مبدأ المقاومة » ، أو هو ذلك الذى يكون قد استبعد أصلاً « فكرة الصراع » . ولعل هذا هو السبب فى أن الكثير من معاركنا النفسية والخلقية ، نخسرها حتى قبل أن نكون قد دخلنا المعركة ! وربما كان أخطر أنواع « اليأس » ذلك الذى يدب فى نفس المرء منذ البداية ، فيوحى إليه بأنه « خاسر » لا محالة ، أو يسوّل له تجنب « الصراع » أصلاً ! وليس من شك فى أن مثل هذا « اليأس » ، إنما هو الهزيمة قبل الهزيمة ، أو هو الموت قبل الموت ،

لأنه « يأس » يحكم على نفسه قبلاً بأنه لن يكون إلا « يأساً » !
وهنا قد يقول قائل : « ولكن ، هل يمكن لليأس إلا أن يكون يأساً ؟ » . وردنا على
هذا الاعتراض أن البطانة التي يستند إليها اليأس السوى (لا المرضى) إنما هي بطانة
« الأمل » . وهذا هو السر في أن الكلمة التي تشير إلى « اليأس » Désespoir — في
اللغة الفرنسية — تحمل في ثناياها كلمة « الأمل » Espoir . والحق أن ما يضاد « الأمل »
ليس هو « اليأس » ، بل هو « التبدد » أو « عدم الاكتراث » أو « اللامبالاة » . وأما
« اليأس » نفسه فإنه العسق الذى يحمل في طياته تباشير الفجر ! ولعل هذا ما عبر عنه
الفيلسوف الوجودى الكبير كيركجارد حينما قال قوله الماثورة : « إننى لأهوى الموجة
العاتية : لأنها هى التى تهبط لى إلى أعماق اليم ، وهى التى تحملنى أيضاً على أجنحتها
القوية إلى ما وراء النجوم » ! فليس كل ما فى اليأس يأساً ، بل هناك أيضاً تلك الخيوط
الرفيعة من « الأمل » ، وهى الخيوط التى تحتاج إلى يد قوية تستطيع أن تمحك منها نسيج
النصر ! ومعنى هذا أن « اليأس » فى أصله « حالة مؤقتة » لا بد من تجاوزها ، أو
« موقف عارض » يتطلب العمل على الخروج منه . ولولا أن الناس « يأملون » لما كان
ثمة « يأس » على الإطلاق : فالْيأس اعتراف ضمنى بوجود « الأمل » ، وإقرار خفى
بحاجة الإنسان إلى المزيد من « الأمل » للتغلب على حالة « اليأس » .
إننا نريد للظروف دائماً أن تنجىء مواتية لنا ، ولكن الإرادة الواعية تعلم تمام العلم أنه
لا بد لها من أن تكثف نفسها مع الظروف . لكى لا تلبث — حين تبلغ درجة أعلى
من « الإبداعية » — أن تحاول هى نفسها خلق الظروف المواتية لها . وإذا كان البعض منا
قد يرفض « الحياة » نفسها ، حين لا تنجىء « الظروف » مواتية له ، أو حين لا يتحقق
له كل ما يريده ، فإن هذا البعض — فى العادة — قلة نادرة تختلط فى نظرها تجربة اليأس
بغريزة الموت ! ولكن كل إرادة ترفض فكرة « الانتحار » — مهما استبد بها « اليأس »
إنما هى فى الواقع إرادة واعية تدرك أن الطريق ليس مسدوداً تماماً أمامها ، وتعرف أنه ما
يزال ثمة « مخرج » ؟ وحين تستبعد الإرادة احتمال « الانتحار » ، فإنها تقدم بذلك
الدليل على أنه ليس كل ما فى اليأس يأساً ، وأنه طالما كان هناك « زمان » ، فما يزال ثمة
« أمل » ! وليس « الأمل » فى الحقيقة سوى هذا « الإيمان » الضمنى بأن لكل مشكلة
حلاً ، وأن « الأفق » ما يزال « مفتوحاً » أمام الإرادة للوصول إلى هذا الحل ، أو
للعمل — على أقل تقدير — من أجل الاهتمام إلى مثل هذا الحل ...

حين يكون مصدر « اليأس » هو « الذات »

ولو أننا انتقلنا الآن إلى النوع الثاني من اليأس ، ألا وهو ذلك الذى يكون مصدره « الذات » نفسها لا « العالم الخارجى » ، لوجدنا أننا هنا بإزاء « يأس نفسانى » مبعثه عجز « الأنأ » عن تحقيق أى ضرب من ضروب « التوافق » بين ما هى عليه وما تريد الوصول إليه . والواقع أنه ليس ثمة « ذات » لا تملك فى قرارة نفسها « مثلاً أعلى » تهدف إليه ، أو « ذاتاً علياً » Super-ego تحاول التسامى بنفسها إلى مستواها ، ولكن المشكلة هى أن الشقة قد تكون بعيدة بين « الذات الدنيا » بغرائزها وميولها العدوانية من جهة ، وبين « الذات العليا » بقيمتها ومثلها العليا من جهة أخرى . وحين تتسع « الهوة » التى تفصل بين هاتين الذاتين ، فهناك قد تستشعر « الأنأ » ضرباً من التمزق الباطنى الذى يسبب لها الإحساس بالقلق واليأس . ومن هنا فقد ذهب بعض علماء النفس — وعلى رأسهم فرويد — إلى أنه حينما تكثر المطالب الأخلاقية المفروضة على « الذات » ، أو حينما تعتمد « الذات » إلى اعتناق « مثل أعلى » بعيد المنال ، فهناك قد ينتهى بها الأمر إلى « اليأس » من نفسها ، وبالتالي فقد تقع ضحية للقلق أو فريسة للعُصاب . ومعنى هذا أنه ليس من مصلحة « الذات » أن تتجاهل تماماً ميولها الطبيعية ، أو أن تتنكر كلياً لشتى غرائزها الفطرية ، وإلاً لكان من المحتوم عليها أن تجد نفسها عاجزة تماماً عن توجيه سلوكها على النحو الطبيعى السنوى ^(١) .

وقد دللتنا التجربة على أن الكثير من الناس يصلون إلى مرحلة النضج النفسانى ، ولكنهم مع ذلك يظلون محتفظين فى قرارة نفوسهم ببعض « المثل العليا » القديمة التى انحدرت إليهم من فترة الطفولة . وقد تبدو مثل هذه « المثل العليا » — لأول وهلة — أخابيل جميلة أو تهاويل براءة ، لا ضرر فيها ولا خطر من ورائها ، ولكنها فى الحقيقة على خلاف ذلك تماماً ، لأنها قد تتحكم فى سلوك صاحبها ، وقد تعتمد إلى توجيه حياته بأكملها . ولاشك أنه حينما يستمر الإنسان البالغ فى تحديد مجرى سلوكه وفقاً لبعض أحلام الطفولة ، فإنه لن يلبث أن يتحقق من أن العالم الواقعى يتعارض تماماً مع أمثال هذه الأوهام الساذجة ، وعندئذ قد يُصاب بخيبة أمل كبرى حينما يجد الشقة بعيد بين

(1) Cf. S. Freud : " Civilization and Its Discontents.," New, -York, Norton, 1962. (Cf. The Cultural Super., Ego.).

« الواقع » من جهة ، « والمثل الأعلى » من جهة أخرى . وهنا يكون « اليأس » بمثابة تعبير عن سقوط المرء من علو سمائه المثالية إلى أرض الواقع العملى ! وقد يقترن مثل هذا « اليأس » بإحساس أليم بأن « الحياة » لا تستحق أن تُعاش ، وشعور حادّ بأن « الواقع » خلوتاماً من كل « قيمة » ! وأما إذا ظل الإنسان يعمل تحت تأثير سحر تلك « المثل العليا » التى انحدرت إليه من عهد الطفولة ، فإنه قد يجد نفسه مدفوعاً إلى اصنطاع ضرب من « العنف » أو « القسّر » من أجل العمل على تطبيق تلك « المثل » ، وبالتالي فإنه قد يضحي بنفسه وبالأخرين فى سبيل الاستجابة لمثل هذه الأوهام ! ولا ريب أن مثل هذا الشخص لا بد من أنه يبقى طوال حياته — من الناحية الأخلاقية — مجرد « طفل » : لأنه لن يكون إلا مجرد « حالم » لا تعلّمه التجارب ، أو مجرد « واهم » لا يعتبر بدروس الواقع ! ومهما يكن من شيء ، فإنه من المؤكد أن الذات التى لا تعرف كيف تحقق التوافق بين واقعها ومثلها الأعلى ، أو بين حاضرها ومستقبلها ، هى فى العادة « ذات » قاصرة تحيا على شفا « اليأس » ، لأنها ذات ضعيفة لا تملك القدرة على استلهاهم أحلام الطفولة دون الخضوع لأوهامها ، وبالتالي فإنها تبقى أسيرة لماضيا ، دون أن تتمكن من تجاوزه متجهة نحو المستقبل .

حين يكون مصدر اليأس « الآخرين »

وأما النوع الثالث من أنواع « اليأس » ، فهو ذلك الذى يقترن بخيبة أمل الذات فى غيرها من الذوات ، خصوصاً حين تكون قد وضعت كل ثققتها فى ذات معينة من الذوات ، ثم لم تلبث أن تحققت من أنها كانت مخدوعة فى تلك الذات ، أو أنها كانت قد وضعت ثققتها فى غير موضعها . ونحن نعلم أن التعلّق بالمثل الأعلى كثيراً ما يقترن بشخصية ما من الشخصيات ، لأن « القيم » التى تؤمن بها « تتجسّد » أمام أعيننا فى هذه الشخصية أو تلك . وحينما نجىء إحدى هذه الشخصيات فترتكب — مثلاً — تصرفاً شائناً كنا نرىأ بها عنه ، أو نتصرّف على نحو يختلف عما كنّا نظنها أهلاً له ، فهنالكَ قد ينهار — فى نظرنا — « المثل الأعلى » الذى كانت تتمثله ، أو قد تتحطّم « القيم » التى كانت تجسّدُها أمام عيوننا . وليس من شك فى أن « القدوة » تلعب دوراً هاماً فى حياتنا الخلقية ، فليس من الغرابة فى شيء أن تصاب الذات بخيبة أمل كبرى حين ترى الشخصية التى اتخذت منها « نموذجاً أخلاقياً » لها ، قد هيّطت إلى دُنْيا الناس ، والتصقت بطين الواقع ، وهى التى كانت تمثل فى نظرها « مثلاً أعلى » ترنو إليه ، وقدوة صالحة تحتذّيها فى كل سلوكها ! ولو أننا عدنا إلى تجربتنا الخلقية ، لتحققنا

من أنه ليس أخطر على الذات من أن تصطدم بمثل هذا النوع من « اليأس » : لأن انهيار النموذج الأخلاقي « قد يحمل في طياته ارتياباً مطلقاً في قيمة « الأخلاق » نفسها ، فلا يلبث الشخص المخدوع أن يقع فريسة لضرب من « اللا أخلاقية » : Immoralism ، وكأنما هو قد فقد نهائياً كل « إيمان » بالقيم !

ونحن نعرف كيف أن « الحب » يضع كل ثقته في « المحبوب » ، وكيف أن « الحب » — بطبيعته — يتطلب « الوفاء » ، ويستلزم ضرباً من الثبات أو الاستمرار . ولكن ، لنفترض أن « الحب » صَحَا يوماً على هذه الحقيقة المرة : ألا وهي أن محبوبه لم يكن أهلاً لثقلته ، أو أنه لم يكن جديراً بحبه ! فهنا نجد « الحب » يصاب بخيبة أمل كبرى : لأنه يدرك أنه كان مخدوعاً ، وأنه قد وقع ضحية لضرب من الخيانة أو عدم الوفاء ! وليس أقسى على النفس من أن تتحقق يوماً من أن كل الآمال التي قد وضعتها في شخص ما من الأشخاص قد ذهبت أدراج الرياح ، وأن كل « القيم » التي توسمتها في هذا الشخص لم تكن سوى مجرد أوهام كشفت عن زيفها الحقيقة الأليمة ! والحق أننا حين نضع ثقتنا في شخص ما من الأشخاص ، فإننا نفترض — ضمناً — أنه أهل لتلك الثقة ، وأنه قدير على إلزام نفسه في المستقبل بمقتضى العهد الذي قطعه على نفسه في الحاضر . فالثقة تعنى أن الشخصية البشرية تتمتع بضرب من « الثبات » أو « الاستقرار » ، وأنها قادرة على المحافظة على « هويتها » الخلقية على الرغم من تغير الظروف ، وتقلب الأحوال ^(١) . وتبعاً لذلك فإن « الثقة » تحمل طابع « الأمل » : لأنها تنطوي على إيمان ضمنى بأن المستقبل سوف يكون استمراراً للحاضر ، وأن القسم المعقود لا يمكن إلا أن يظل عهداً ملزماً . وها تجيء الخيانة فتكون بمثابة انهيار تام لهذا « الأمل » ، وكأن « الذات الطبيعية » قد انتصرت تماماً على « الذات الخلقية » ، أو كأن التغير التجريبي قد قضى على كل « هوية أخلاقية » ! وهكذا نرى أن « اليأس » الذي قد يسببه لنا « الآخرون » يأس عميق بعيد المدى : لأنه تجربة أليمة تزعزع من ثقتنا في « القيم » ، وتضع أمام أنظارنا صورة قائمة لأخلاقيات الناس في عالم الواقع العملي ! ولعل هذا هو السبب في أن هذا النوع من « اليأس » قد يكون أخطر شأنًا على حياتنا الخلقية من أى نوع آخر ، خصوصاً حين نكون قد بنينا كل حياتنا الخلقية على « القدوة » أو « الاحتذاء » بنموذج شخصي .

اليأس المرضى ، واليأس السوى

ولو أننا ألقينا الآن نظرة فاحصة على هذه الأشكال المختلفة من اليأس ، لوجدنا أنها جميعاً خبرات « سلبية » تحمل في ثناياها بذور « الأمل » ، بوصفه « الإيجاب » الحقيقى الذى لا قيام لها إلا به . وآية ذلك أن اليأس السوى ينطوى منذ البداية على رغبة عارمة فى تجاوز ذاته ، من أجل الاتجاه نحو حالة نفسية جديدة يكون من شأنها أن تستوعبه وتعلو عليه . ونحن نعرف أن الشرط الأساسى للشفاء إنما هو رغبة المريض الحقيقية فى الشفاء : أعنى ما اصطللحنا على تسميته باسم « إرادة الشفاء » . ومن هنا فإن أخطر أنواع المرضى إنما هم أولئك الذين « لا يريدون » فى قرارة نفوسهم أن يشفوا ! وأهل العلاج النفسانى يلتقون بالكثير من « المرضى العصائين » الذين يندرجون تحت هذه الطائفة من المرضى . وقد يكون من العجيب أن يستمسك المريض بمرضه ، أو أن يتشبث الغريق بالموجة العاتية التى تطويه فى عُبابها ، ولكن « إرادة الموت » — فى بعض الأحيان — هى التى قد تحمل الضحية على التعلق بجلاذها ! ولهذا فإن « اليأس » الذى قد يستعصم به الشفاء السريع ، إنما هو ذلك « اليأس الانتحارى » الذى تكمن من وراءه « إرادة الموت » ! ومثل هذا اليأس إنما هو فى صميمه « حالة مَرَضِيَّة » لا بدّ لعلاجها من اللجوء إلى طرق « التحليل النفسى » . وأما اليأس السوى العادى فهو فى جوهره « حالة عَرَضِيَّة » سرعان ما تتمخطاها النفس ، لأنها تشعر بأنها لا تستطيع أن تتوقف عندها . وآية ذلك أن النفس تدرك أن ثمة « مستقبلاً » ، وهى تشعر بأن أفق الزمان مفتوح ، فهى لا ترى فى أى ظرف طوارئ حالة مستديمة لا سبيل إلى الخروج منها ، أو موقفاً نهائياً ليس فى الإمكان العمل على تجاوزه . وهذا الشعور بفتح آفاق المستقبل هو السرّ فى قدرة النفس السوية على تحطيم « دائرة اليأس » مهما كانت درجة صلابتها !

وقد يقع فى ظننا أحياناً أن تقدم الإنسان فى السنّ لا بدّ من أن يؤدى به إلى الإحساس بأن « المستقبل » قد أصبح مغلقاً أمامه ، أو أنه لم تعد لديه من « الإمكانيات » ما يدفعه إلى الانطلاق نحو « المستقبل » . ولكن جوهر الحياة البشرية — فى أية مرحلة من مراحل العمر — هو العمل على تحويل « الممكن » إلى « واقعى » ، فليس فى الحياة فترة تخلو تماماً من كل « أمل » ، بل إن للشيوخ أيضاً آمالهم وأحلامهم ومشاريعهم التى ما تزال تنتظر « التحقق » ! ولو كانت حياة الشيخوخة مجرد « ترقب » أليم للموت ، لكانت الشيخوخة

« انتحاراً ميتافيزيقياً » هيئات لأحد أن يقوى على احتماله ! وحين يقول المثل المعروف : « إنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس » فإنه يعبر بذلك عن حقيقة سيكولوجية أساسية هي أن الحياة تأثر واستجابة ، وكل « استجابة » لا بد من أن تنطوى على شيء من « الأمل » أو « الرجاء » . ومعنى هذا أنه طالما كان الإنسان على قيد الحياة ، فإن اليأس المطلق لا بد من أن يكون بالنسبة إليه ضرباً من المحال : إذ أن أقل استجابة يقوم بها الكائن البشرى لا بد من أن تنتقل به نحو المستقبل المفتوح ! وربما كان أعجب ما في الموجود البشرى أنه كائن غيبى يؤمن بالمُعجزات : فهو يؤمن في قرارة نفسه بأن المستقبل قد يجيء بما لم يستطع كل من الماضي والحاضر أن يجدوه بعيننا ، ولهذا فإنه كثيراً ما يقول لنفسه — مكذباً كل شواهد الحاضر — : « من يدرى ، فقد تحدث المعجزة ، كما حدثت من قبل مرات ومرات ^(١) » !

كيف لليأس أن يتغلب على اليأس ؟

وهنا قد يحق لنا أن نتوقف وقفة قصيرة عند كلمة « معجزة » : فإنها المعجزة حقاً أن يتمكن « اليأس » من التغلب على « اليأس » ! والواقع أن « اليأس » في العادة حليف القصور والضعف والوهن وشلل الإرادة ، فكيف لليأس أن يتغلب على يأسه ؟ ألا يقتضى مثل هذا التغلب العزم والتصميم والحزم وقوة الإرادة ؟ ألسنا هنا بإزاء إشكال عسير قد لا يكون من السهل أن نجد له مخرجاً ؟ إنك لتصبح في وجه الإنسان اليأس طالباً منه أن يتصر على يأسه ، ولكن المخلوق المسكين لا يملك من أسباب الإرادة ما يستطيع معه تحقيق هذا النصر ، فهو يتخبط في يأسه آملاً أن تستيقظ الهمة الهامدة ، متمنياً أن تنشط الإرادة الخاملة ! ولكن ، كيف للإرادة الضعيفة أن تحشد قواها لمواجهة هذا الضعف ؟ ألسنا هنا بإزاء « تناقض » ، أو على الأقل بإزاء ضرب من « الدور » ، بالمعنى المنطقي لهذه الكلمة ؟ وإذن فكيف لليأس أن يتصر على اليأس ؟

هنا نجد أنفسنا مضطرين — مرة أخرى — إلى تذكير القارئ بما سبق لنا قوله من أن اليأس يحمل في ثناياه بذور فثائه ، بمعنى أن اليأس السوى « يأس » ينشد « الأمل » ، أو هو بالأحرى « أمل » قد خاب مسعاه ، فلم يملك سوى الاحتفاء بقوقعة اليأس !

(١) ارجع إلى مقالنا : « مشكلة اليأس » ، المنشور بمجلة « العربي » ، العدد ١١٢ مارس سنة

ولكن قوقعة اليأس ليست من الصلابة دائما بالقدر الذى نظن : فإن أقل حركة تنتفض بها الإرادة قد تكون كافية فى بعض الأحيان لتحطيم تلك القوقعة . وليس من الضرورى أن تتحطم هذه القوقعة تماماً منذ الحركة الأولى ، ولكن المهم أن تقوم « الإرادة » بأدنى حركة من أجل العمل على الخروج منها . وفارق كبير بين أن ترتضى الإرادة البقاء داخل قوقعة اليأس ، وبين أن ترفض فكرة الاستمرار فى حالة اليأس ، فتقوم بأقل جهد ممكن من أجل العمل على تجاوز حالة اليأس . وإذن فليس فى الأمر « إعجاز » ، بل المهم أن يكون هناك « بدء » لكى يكون ثمة « إنجاز » . وليس من شك فى أن « البدء » قلما يكون سهلاً : لأن نقطة الانطلاق هى بالضرورة أعسر نقاط السير ، ولكن من المؤكد أن مجرد الرغبة فى الانطلاق قد تكفى أحياناً لدفع الإرادة على طريق « المقاومة » . وليست « المقاومة » سوى الحلقة الأولى فى سلسلة الحلقات المؤدية إلى « الانتصار » .

وحينما يتسلل « الفكر » إلى أعماق « اليأس » ، فهناك لابد لليأس من أن يبدو له بصورة « الجرثومة » النفسية التى لابد له من العمل على مقاومتها ، تمهيداً للتوصل إلى طردها . وليس « الفكر » وظيفة نفسية مستقلة تماماً عن « الإرادة » ، بل إن كل فكرة قوية تتسلط على النفس ، لابد أن تتمكن يوماً من تنشيط الجهد الإرادى واستخدامه لتحقيق أغراضها . ومن هنا فإن فكرة « المقاومة » لابد من أن تبنى فتلعب دوراً هاماً فى دراما النفس اليائسة التى لا تريد لليأس أن يكون هو الكلمة النهائية فى حياتها النفسية ! وإذن ، أليست « المعجزة » هنا هى أنه لا « معجزة » على الإطلاق ، بل هناك جهد عادى على صعيد الفكر والإرادة فى سبيل التحرر والانطلاق ؟ بل ألسنا نلاحظ أنه حينما يواجه المرء الحياة بضرب من الشجاعة « الوجودية » ، فإنه عندئذ سرعان ما يتحقق من أن لديه من « الحيوية » ما يستطيع معه تبديد ظلمات اليأس ، بمقتضى تلك « الطاقة » الإيجابية التى تدفع به إلى الأمام ، وتحفز به إلى مواصلة العمل ؟ وماذا عسى أن تكون هذه « الشجاعة الوجودية » إن لم تكن تعبيراً عملياً عن تلك « الخبرة المعاشة » التى أطلقنا عليها منذ البداية اسم « خبرة الأمل » ؟ فلماذا لا نقول إذن إن العصب الحيوى لكل حياتنا الخلقية إنما يكمن — على وجه التحديد — فى تجربة الأمل ؟

الطابع « الإبداعى » خبرة « الأمل »

إن الكثيرين ليظنون أن « الأمل » خبرة سيكولوجية خاصة لا تنطوى على أية دلالة أخلاقية ؛ ولكن الحقيقة أن « الأمل » يكون جوهر « الخبرة الخلقية » : لأنه يمثل النسيج الأصلى للحياة الخلقية من حيث هى سَتَى دائب نحو تحقيق « المثل الأعلى » . ولَوْ وقع فى ظن الفرد أنه لا مجال لتطعيم « الواقع » بـ « المثل الأعلى » ، أو أنه ليس ثمة موضع للبحث عن « قيم » تغيّر من دلالة « الوقائع » ، لما كانت هناك « حياة خلقية » على الإطلاق ، وبالتالي لما كان ثمة « طابع أخلاقى » يَسِمُ بصبغته الخاصّة كل « وجودنا البشرى » . ولكن من المؤكّد أن « الموجود الأخلاقى » لا يمكن أن يحيا إلّا على هذا الإيمان الضمنى بإمكان تحقيق « المثل الأعلى » ، وضرورة العمل على تغيير « الواقع » . وحين يفقد الإنسان كل « أمل » فى تحقيق « إمكانيات » جديدة ، أو اكتشاف « قيم » ظلمت مجهولة حتى هذه اللحظة ، فإنه يكون عندئذ قد أعلن كفره بكل أخلاق ، ونكرانه لكل « إبداعية خلقية » . والمتأمل فى تاريخ البشرية يلاحظ أن العباقر والأبطال والقديسين والمصلحين ورجالات الأخلاق لم يكونوا مجرد مفكرين آمنوا ببعض المبادئ ، بل كانوا أولاً وقبل كل شيء رجالاً عمليّين اتخذوا من « الأمل » قوة جبارة لرحضة الجبال ! ولا غرو ، فإن « الأمل » يسير دائماً جنباً إلى جنب مع الثقة والإيمان والإرادة الفعّالة . ولسنا نتحدث هنا — بطبيعة الحال — عن « الأمل » الحالم أو الواهم ، الذى يعيش على خيالات الطفولة أو تهاويل أحلام اليقظة ، بل نحن نتحدث عن « الأمل » العامل أو المُبدع الذى يعرف كيف يتجه نحو « المستقبل » فى ثقة ، وعزم ، وتصميم .

والحق أن « الأمل » اعتراف بأن الأفق مفتوح ، وإقرار بأن المستقبل لن يكون إلّا كما نريده ! وليس معنى هذا أن « الأمل » بطبيعته تهوّر واندفاع ، بل إن معناه أن « الأمل » فى صميمه خلق وإبداع . وإذا كان لخبرة الأمل دور كبير فى حياتنا الخلقية ، فذلك لأنها تكشف لنا عن إمكانية « التغيّر » ، وتضع نصب أعيننا « قيماً » تجتذبنا إليها ، وتدعونا إلى العمل على « تحقيقها » . وهنا قد يعمد دعاة التشاؤم إلى صَبْغ كل مَسْعى أخلاقى بصبغة الوهم أو الخيال ، وكأن « المثل الأعلى » بطبيعته ضرب من المحال ، أو على الأقل شيء غير عملى هو فى صميمه بعيد المنال ، ولكن « خبرة الأمل » هى التى تحيى فتذكرنا بأن « المخاطرة الخلقية » انطلاق نحو آفاق المستقبل البعيد ، وانعتاق من قيود

« الواقع » الضيق المحدود . وليس من شك في أننا حينما نفقد كل ثقة في أنفسنا وفي الآخرين ، فإننا قد نجد أنفسنا مدفوعين إلى الشك في كل « تقدم » أخلاقى ، والارتياح في كافة المحاولات المبذولة من أجل إصلاح كل من الفرد والجماعة . وكثيراً ما تكون فترات الحروب والأزمات والنكسات مناسبات مواتية لأمثال هذه الدعوات التشاؤمية ، ولكن رجال الأخلاق يعلمون حق العلم أن « الحرب » نفسها قد تكون فرصة طيبة لانبثاق الكثير من « القيم » ، وتولد العديد من « الآمال » الجديدة . فليس ما يبرر « اليأس » من صلاح الإنسان ، طالما كان هناك « مستقبل » مفتوح ما يزال حافلاً بالإمكانيات . وربما كانت « خبرة الأمل » هى التعبير الوجودى الصريح عن هذه الثقة الإنسانية العميقة بمعنى الحياة ، وكأن الوجود البشرى يشعر في قرارة نفسه بأن « العبث » أو « اللامعنى » لا يمكن أن يكون هو الكلمة الأخيرة في دراما الحياة !

اليأس والعبث هما الوجهة الخلفية للأمل والقيمة

الحق أن الوجود البشرى لا يحيا ، ولا يمكنه أن يحيا ، اللهم إلا بمقتضى فعل دائب من أفعال « الأمل » : ألا وهو ذلك الفعل الذى يعبر عن إيمانه الحى بقيمة الوجود . فليس « اليأس » سوى « الوجهة الخلفية » لما اصطلح بعض الفلاسفة على تسميته باسم « انفعال الوجود بالحياة » أو « تعلق الكائن البشرى بالوجود » . ومعنى هذا أن اليأس نفسه لا يخلو من تعبير عن « حب الحياة » : ما دام الإنسان الذى يمر بتجربة اليأس إنساناً مُريداً يسعى جاهداً في سبيل « التحرر » من مظاهر الألم والقلق والصراع . وإن « الحرية » لتتطوى في أعماق ذاتها على إمكانية « إنكار ذاتها » ، وما هذه الإمكانية سوى ما أطلقنا عليه اسم « تجربة اليأس » وإذا كانت هذه الإمكانية أمراً لا سبيل إلى استبعاده ، فذلك لأنها تمثل الثمن الضرورى الذى لابد من دفعه ، إن لم نقل الضريبة الباهظة التى لابد من تقديمها ، في نظير الحصول على تلك الميزة الكبرى التى تتمتع بها — باعتبارنا كائنات حرة تفصل في مصيرها بنفسها — وربما كان جيريل مارسيل Gabriel Marcel أبعد فلاسفة الفكر المعاصر عن الدعوة إلى التشاؤم أو المناداة بفلسفة اليأس ؛ ولكننا نراه يقرر مع ذلك أن « اليأس ممكن دائماً وباستمرار » ، وأنه يتخذ أشكالا عديدة لا حصر لها . ولكن من الممكن دائماً — في نظر مارسيل أيضاً — أن يتصير المرء على « اليأس » ، بمقتضى فعل من أفعال الحرية ، ألا وهو ذلك « الفعل » الذى يكتشف « القيمة » فيما وراء « الواقعة » العقل . صحيح أنه ليس أيسر على الإنسان من إنكار

القيم والتذكر للحرية ، ولكن من المؤكد أنه ليس في وسعه — حتى عندئذ — أن يثبت أن « العبث » أو « اللامعنى » L'Absurde هو الكلمة الأخيرة ، للتجربة البشرية ، وأن « اليأس » هو الواقعة النهائية في صميم دراما الوجود البشرى !

والواقع أن « العبث » ليس بأى حال من الأحوال « واقعة موضوعية » يلتقى بها المرء في صميم خبرته ، بل هو أولاً وبالذات « صفة » أو « كيفية » qualité لا توجد إلا إذا أردنا لها نحن أن توجد ، وذلك بمقتضى اختيارنا الحر ! ومعنى هذا أن « العبث » يكشف عن « عمى إرادتى » يمنع صاحبه من رؤية تلك « القيم » التي لا تكف عن الانبثاق من أحضان العالم والتاريخ . ولما كان الإنسان يتمتع بحرية السلب والإنكار ، فإنه كثيراً ما يستخدم هذه الحرية في إغلاق عينيه عن رؤية أسباب الأمل ومظاهر القيم وليس « الأمل » مجرد « واقعة محضة » أو « منحة » تجود بها علينا الطبيعة ، بل هو كسبٌ تحققه « الحرية الإبداعية » حين تعرف كيف تحيل « المثل الأعلى » إلى « واقعة » ، وكيف ترقى بالواقعة — في الوقت نفسه — إلى مستوى « المثل الأعلى » ! ولا غرو ، فإن « الحرية الإبداعية » تعلم أن « المستقبل » لا بد أن يبقى مفتوحاً أمامها ، وتذكر أنه لا بد لكل شيء من أن يقبل التحقق عن طريق الجهد الإيجابى الفعّال . وإذا كان بصر الحرية الإبداعية موجهاً دائماً نحو الأمام ، فذلك لأنها تتحرك دائماً في اتجاه « المثل الأعلى » الذى لا بد لها من العمل على تحقيقه . ومثل هذه الحرية لا تعشق إلا « النأى » أو « القاصى » أو « البعيد » : لأنها لا تصبو إلا إلى « القيمة » أو « المثل الأعلى » أو « الغاية القصوى » . وهذا هو السبب في أنها تستشعر دائماً رغبة عارمة في العمل من أجل « المستقبل » : لأنها تدرك أن « الأمل » لا ينصب إلا على « المستقبل » ! وهل يمكن أن يقوم « أمل » ، لو كانت الحياة مجرد « ماضٍ » قد انقضى ، و « حاضر » هو في طريقه إلى الزوال ؟!

الإنسان المعاصر : بين التشاؤم النظرى والتفاؤل العملى

إن مشاعر القلق ، والعبث ، والغربة ، والضيق ، والفراغ ، واليأس : مشاعر متواكبة قلما يسير الواحد منها بمفرده ، وذلك لأن « اليأس » هو النتيجة الطبيعية التى لا بد من أن تقضى إليها حياة خاوية قد ارتفع عنها كل إيمان ضمنى بالقيم . وليس أيسر على الإنسان — بطبيعة الحال — من أن يستسلم لنداء « العبث » ، لكى لا يلبث أن ينحدر على طريق « اليأس » . وهنا يجيء فلاسفة « التشاؤم » ، فيعملون على إبراز الطابع الدرامى للوجود البشرى ، ويرسمون أمام الناس صورة قاتمة للحياة الإنسانية ،

بوصفها حياة ألم ، وصراع ، ويأس ! وليس في استطاعة أية فلسفة — بلا ريب — أن تتجاهل ما في الوجود البشرى من طابع درامى أليم ، ولكن ليس في وسع أى مذهب فلسفى — أيضاً — أن يغلق الدراما البشرية على نفسها ، لكى يجعل منها « قصة تافهة يرونها أحمق ! » . ومهما كان من أمر تلك الفلسفات التشاؤمية التى تُشَدُّد على نغمة « اليأس » ، وتعمل على تأكيد نبرة « القلق » ، فإن كل حياة إنسانية سوية لابد من أن تجد لنفسها — فى صميم نشاطها العملى — حلاً واقعياً لمشكلة الشر الخاصة بها . ولعل هذا ما عناه الطبيب الفيلسوف ألبير شفتيسر حينما قال : « إننى إذا كنت متشائماً نظرياً ، فإننى متفائل عملياً » .

والحق أن الحياة وحب الحياة أمران لا يتفصلان : فنحن لا نملك أن نعيش دون أن نتفتح للحياة ، بل دون أن نكتشف كل يوم أسباباً جديدة للحياة وحب الحياة ! وعلى حين أن « اليأس » يحىء فيغلق الكائن البشرى على نفسه ، لكى يجعل منه ذرة روحية تافهة لا تحيا إلا مع مشاغلها الخاصة ، ومشاكلها الذاتية ، نجد أن « الأمل » يحطم قيود الإنسان الذاتية الضيقة ، لكى يفتح أمامه أسباب « التوصل » مع العالم والآخرين . وعلى حين أن الانقسام ، والانفصال ، والعزلة : سمات ثلاث تسير دائماً جنباً إلى جنب مع القلق ، والعذاب ، واليأس ، نجد أن التكامل ، والتواصل ، والمشاركة : سمات أخرى تسير دائماً جنباً إلى جنب مع السكينة ، والغبطة ، والأمل . وربما كان الوجود البشرى أحوج ما يكون اليوم إلى الانتصار على أسباب القسمة ، والعزلة ، والانفصال ، حتى يكفل لنفسه حياة سوية لا تمرقها عوامل اليأس والقلق والعذاب . وليس من شك فى أن العالم المعاصر ، الحافل بمظاهر التخصص والتقسيم والتجريد هو الذى عمل على فصم عرى الوحدة التى كانت تربط الإنسان البدائى بالعالم . ومن هنا فقد فطن علماء النفس وفلاسفة الأخلاق إلى ضرورة العمل على استعادة أسباب اتصال الإنسان بالعالم ، حتى يضمّنوا للوجود البشرى ضرباً من التكامل والتواصل بينه وبين العالم . وربما كان من بعض مزايا « خبرة الأمل » أنها تعيد للإنسان وشائجه القوية بالعالم والآخرين . فضمن له ضرباً من « الثقة » بالمستقبل ، والإيمان بالآخرين . وحين تتحقق « الوحدة » بين « العالم الأكبر » و « العالم الأصغر » ، فإن من المؤكد أن « الحياة » لابد من أن تكسب « معنى » فى نظر الإنسان ، ولا غرو ، فإن « تجربة الأمل » تزود الكائن الأخلاقى بطاقة روحية هائلة ، فتزيد من إيمانه بالنظام الأسمى Higher order الذى هو وحده الكفيل بتحديد الدلالة الكونية للإنسان . وليست « المثالية الأخلاقية » سوى هذا الإيمان القوى الفعال بأنه لابد للإنسان من أن يصبح — فى خاتمة المطاف — على نحو ما يريد أن يكون ، وأنه لابد لكل مخاطرة أخلاقية من أن تأخذ على عاتقها مسئولية « المستقبل » ، دون تردد ، أو تحوُّف ، أو ارتياب !!

الفصل الثاني عشر

خبرة « الحب »

قد تكون « خبرة الحب » من أهمّ الخبرات الخلقية وأخطرها في حياة الإنسان . وليس بين البشر مخلوق لم يلتق في حياته بذلك « الآخر » الذي أثار اهتمامه ، وأخرجه من وحدته ، وعمل على تحويل كل انتباهه من « الأنأ » إلى « الأنأ » ! وحينما تحدث بعض الديانات عن « حب القريب » ، فإنها كانت تعنى — بلاشك — تحوّل اهتمام الإنسان من « الذات » إلى « الغير » ، أو — على وجه التحديد — إلى ذلك « الآخر » الذي هو « القريب » . وعلى الرغم من أن كلمة « الحب » تنطوى أولاً وقبل كل شيء على دلالة عاطفية أو صبغة وجدانية ، إلأ أن « الحب » — في أصله — ميل إيجابى أو نزوع عملى ، يتجلى في تحوّل الاهتمام من « الأنأ » إلى « الأنأ » . والحق أن « الحب » ليس مجرد انفعال أو عاطفة أو وجدان ، بل هو أولاً وبالذات نية ، واتجاه ، وسلوك . وقد يخيل إلينا أحياناً أننا نحبّ الآخرين لذواتنا ، ولكن الحب الحقيقى هو ذلك الذى يرى فى « الآخر » شخصاً يُحبّ لذاته ، دون أن يتخذ منه مجرد « أداة » أو « وسيلة » لإشباع أنانيته أو إرضاء ميوله الذاتية . ومن هنا فإن كلمة « الحب » لا تكاد تنفصل فى معناها عن كلمة « الإيثار » ، على شرط أن نفهم من « الإيثار » أنه تحوّل تام لاهتمامات الشخص من دائرة « الذات » أو « الأنأ » إلى دائرة « الآخر » أو « الأنأ » . وعلى حين أننا نلقى الآخرين فى العادة بروح اللامبالاة أو عدم الاكتراث ، إن لم نقل — فى بعض الأحيان — بروح العداء أو الخصومة ، نجد أننا — عند الحب — نفسح للآخر مكاناً كبيراً فى أعماق نفوسنا ، ونضع أنفسنا تماماً تحت تصرّفه ، ونتفانى فى خدمة الآخر من حيث هو « آخر » ! وهذا هو السبب فى أن « الحب » يقترن فى العادة بالإخلاص ، والتفانى ، والوفاء ، والثقة ، والإيمان ، وغير ذلك من « القيم » الخلقية . ومهما اختلف فلاسفة الأخلاق فى فهم طبيعة « الحب » ، فإنهم قد يسلّمون معنا بأن للحب مضموناً إيجابياً يجعل منه ضرباً من « التلقائية الإبداعية » .

ولنحاول عقد مقارنة سريعة بين « الحب » و « العدالة » ، لنرى إلى أى حد تختلف

طبيعة « الحب » عن طبيعة « العدالة » . وهنا نرى أننا بإزاء « قيمتين » أو « فضيلتين » تمثلان « موقفاً أخلاقياً » يتخذه الإنسان بإزاء أشباهه من الناس . ولكن ، على حين أن « العدالة » لا تهتم إلا بحقوق الآخر ومطالبه المشروعة ، نجد أن « المحبة » تهتم بالشخص نفسه ، وتعنى به لذاته ، بغض النظر عن حقوقه ، واستحقاقه ، وقيمه . فالحب يتجه أولاً وبالذات نحو « الوجود الشخصى » للكائن المحبوب ، دون التوقف عند أى اعتبار خارجى يمسّ مزايا الشخص أو عيوبه . وعلى حين أن « العدالة » ذات طابع سلبي : لأن مطلبها الأول هو فرض بعض القيود أو الحدود ، أو وضع بعض النواهي أو المحظورات ، نجد أن « المحبة » — من أولها إلى آخرها — ذات طابع إيجابى : لأن مطلبها الأول هو تحديد ما ينبغى عمله ، أو دعوة الفرد إلى التفتح التام للآخر أو القريب . وحينما قال أرسطو قديماً قوله المشهورة بأنه « لو سادت « المحبة » (أو « الصداقة ») Philia بين الناس ، لارتفعت الحاجة إلى القانون » ، فإنه كان يعنى بذلك أن « المحبة » تشمل « العدالة » وتطوئها تحتها (لا العكس) أو لعله كان يعنى أن قانون المحبة لا يلغى قانون العدالة بل يطويه ، ويتجاوزها ، ويعلو عليه^(١) .

الدلالة الميتافيزيقية لحبرة الحب

وكما ميزنا « المحبة » عن « العدالة » ، فلا بد لنا أيضاً من أن نميزها عن « الشفقة » . وربما كان السبب فى الخلط بين « المحبة » و « الشفقة » ، أن المسيحية حين تحدثت عن « محبة القريب » ، فإنها كانت تعنى الإحسان إلى الشخص المعوز أو المحتاج أو الضعيف . وهذا ما حدا بفيلسوف مثل شوبنهاور إلى إقامة كل مذهبه الأخلاقى على أساس نظريته فى « الشفقة » ، مما أثار حفيظة نيتشه ودفع به إلى الثورة على الأخلاق المسيحية بأسرها ، وصبَّ جام غضبه على نظرية المسيح فى « محبة القريب » ! ولكن « المحبة » تختلف اختلافاً جوهرياً عن « الشفقة » (كما يبيّن فى كتاب سابق لنا تحت عنوان « مشكلة الحب ») ، لأن « الشفقة » تنطوى على معنى « التألم » أو « التعاطف » مع ما قد يوجد لدى أى شخص بشرى من مظاهر « ضعف » أو « مرض » أو « فقر » أو غير ذلك ، فى حين أن « المحبة » لا تتجه أولاً وبالذات نحو أمثال هذه « النقائص » ، بل

(1) N. Hartmann : « Ethics », vol. II, Moral Values, pp. 269 - 270.

هى تتجه بطبيعتها نحو « القيم ». وحتى حينما نتجه بمحبتنا نحو شخص ضعيف أو مريض - أو فقير ، فإن ما نجه لدى هذا الشخص لا يمكن أن يكون هو « ضعفه » أو « مرضه » أو « فقره » ، بل هو شيء آخر يكمن وراء هذه كلها ، ويخلص على هذا كل ما له من « قيمة » . والواقع أن « محبة القريب » هى فى صميمها إحساس قوى بالقيمة الحقيقية للشخص البشرى ، خصوصاً حين نحىء بعض العوامل الخارجية أو الداخلية فتهدد تلك القيمة ، ومن ثم فإن هذه « المحبة » تتجه بطبيعتها نحو إنقاذ تلك « القيمة » أو العمل على صيانتها . ومن هنا فإن للمحبة طابعاً إيجابياً يتمثل فى « بذل » الذات بأسرها من أجل إنقاذ « إنسانية » ذلك الشخص المعذب الذى ينطوى فى ذاته على شيء جدير بالبقاء ! وليس التفانى فى خدمة أى إنسان شقى أو ضعيف أو محتاج سوى مجرد تقديس أو احترام أو تبجيل لتلك « البشرية » التى تمثل « قيمة » فى حد ذاتها . وربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إن « المحبة » — فى أصلها — لا يمكن أن تعد مجرد « رَجْع » أو « رد فعل » لأية حالة مؤقتة أو لأى ظرف طارئ يتعرض له الشخص البشرى ، وإنما هى اهتمام أصلى تلقائى ، بذلك « الآخر » من حيث هو « شخص » بحيث نتجه بكل عنايتنا ورعايتنا واهتمامنا نحو ذات « الآخر » ، ومواقفه ، وخبراته ... إلخ .

وهنا قد تبدو لنا « خبرة الحب » خبرة أصيلة ، فريدة ، إن لم نقل ظاهرة عجيبة مدهشة فى كل حياة الإنسان . فهذا المخلوق الذى يستشعر الحب لا يلبث أن يجد نفسه مستغرقاً فى حياة جديدة ، وكأنما هو قد غزا « ذاتا » أخرى ، فاستطاع أن ينفذ إلى خبرتها الخاصة ، وأن يتسلل إلى حياتها الوجدانية العميقة ، وأن يخترق صميم كيائها الخلقى بأسره ! وعلى حين أن كل « ذات » تبدو فى العادة وكأنما هى « عالم أصغر » مغلق على ذاته ، ينجى « الحب » فيحقق ضرباً من « التواصل الخلقى » بين « الأنا » و « اللا — أنا » ، وكأن « الذات » قد نجحت فى الخروج من عزلتها الأصلية ، أو كأنما هى قد تمكنت من التسلل إلى ذلك « الآخر » الذى طالما ودث لو استطاعت النفاذ إليه ! وقد يسارع المرء إلى الظن بأن مثل هذه « المحبة » هى فى جوهرها صورة من صور « المعرفة » ، ولكنه سرعان ما يتحقق من أن فعل الحب ليس فعلاً عرفانياً ينطوى على أى انتقال من « الذات » إلى « الموضوع » ، بل هو ضرب من العيان الوجدانى الذى يعرف طريقه إلى ذات « الآخر » ، غير طرق أو سبل لا تستطيع المعرفة العقلية أن ترتادها .

ومعنى هذا أن « الحب » فعل من أفعال « التجاوز » أو « التعالى » Transcendence : لأنه ينطوى على عملية امتداد أو توسيع للخبرة الذاتية ، والوجدان الشخصى ، ما دام

من شأنه بالضرورة أن يفتح أمام الذات عالم « الآخر » ، بما فيه من خبرات ومشاعر ، وقيم ، ومثل عليا .. إلخ . وهذا هو السبب في أن « الحب » كثيراً ما يتخذ طابع « الحدس » الذى يكشف لنا عن خبرة « الآخر » الباطنية ، وكأنتنا نشاركه عواطفه ، ونقاسمه انفعالاته ، ونعانى معه آلامه وآماله ، ونعيش — إن صح التعبير — سعادته وشقاءه وصراعاته وسقطاته ! وإذا كان البعض قد تحدث عن « معرفة » يملكها « الحب » ، فربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول عن هذه « المعرفة » إنها غير مباشرة : لأنها أقرب ما تكون إلى « التعرف » أو « التذكر » ، (بالمعنى الأفلاطونى لهذه الكلمة : Anamnesis) . ولو شئنا أن نكون أكثر دقة وأشد تحديداً ، لكان علينا أن نقول إن الحب مشاركة أكثر مما هو معرفة .

يبد أن الحب — مع ذلك — لا يعنى الامتزاج أو التطابق أو الاتحاد التام : فإن من طبيعة فعل الحب أن يوسع من عالم خبرتنا ، وأن يثرى مضمونها بمضامين أخرى جديدة ، دون أن يكون من شأنه القضاء على « المعادلة الشخصية » لأى طرف من الطرفين ، أو محو إحدى الذاتين في الذات الأخرى تماماً . والحق أن « الآخر » لا يستحيل — عن طريق فعل المشاركة — إلى « أنا » ، بل هو يظل « آخر » أشاركه تجاربه ، وأقسامه خبراته ، دون أن تذوب شخصيته تماماً في شخصيتي . وليس من شك في أن أفعال الرعاية ، والعناية ، والعون ، والاهتمام ، والمساعدة .. إلخ : شاهدة على أنه ليس في الحب أى امتزاج أو تطابق أو هوية ، بل هناك « فعل وجداني » نعلو فيه على ذاتنا الخاصة ، ونعمد إلى الاهتمام بمصالح الآخر كما لو كانت مصالحنا تماماً !

وهنا يقرر هارتمان أن للحب طابعاً أولياً (أو قبلياً) : Apriori لأنه يمثل ضرباً من « الإدراك الحدسى » الذى بمقتضاه « نفهم » الآخر « من الباطن » . وإذا كان المحب كثيراً ما يشعر بأنه قد أصبح « واحداً » مع المحبوب ، فما ذلك إلا لأن من طبيعة « الإدراك الحدسى » الذى يشتمل عليه « الحب » أن يوحى إلى « المُحِبِّ » بأنه قد نجح في تحقيق ضرب من « الواحدية » مع « المحبوب » ! وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن نظرة الحب — بطبيعتها — نظرة عميقة مليئة بالاستبصار ، قادرة على التنبؤ : بدليل أن المحبين يفهمون الكثير من أنصاف الكلمات ، ويدركون الكثير من وراء أتفه العلامات ، ويقرأون الكثير على الشفاء حين تعلوها أبسط البسمات ! إنهم « يرون » في لمح البصر ؛ و « يفهمون » منذ الوهلة الأولى ، وكأنهم « يدركون » أعقد الحالات الباطنية بطريقة أولية حدسية ! وحينما « ندرك » الآخر عن طريق « الحب » ، فإننا سرعان ما نجد حياته الباطنية مكشوفة أمامنا ، وكأنتنا قد عرفناه منذ زمن طويل !

وربما كان أعجب ما في هذا « الإدراك الحدسي » أنه معرفة أولية لا تقوم على الاستنتاج أو التعميم ، بل تقوم على العيان أو المشاركة الوجدانية ، ونحن نعرف كيف وجد الفلاسفة في هذا « التعاطف » سرًا غامضاً حاولوا اجتلاءه ، فقال البعض منهم بأن « الفردية » هي مجرد « ظاهرة » أو « وهم » ، وأن الحياة بأسرها تمثل وحدة كلية شاملة ، بينما زعم البعض الآخر منهم أن « الحب » هو مجرد « عود » إلى « الوجود » الأصلي ، أو ارتداد إلى « الوحدة » الأصلية ... إلخ . ولكن كل هذه المزاعم تقضى على ظاهرة « التعاطف » ، بدلاً من أن تفسرها ، لأنها تشوه حقيقة فعل « تعالى » على « الذات » الذى يكون جوهر عملية « المشاركة الوجدانية » ، وبالتالي فعل « الحب » . ولا سبيل إلى فهم « خبرة الحب » اللهم إلا بإلقاء بعض الأضواء على فعل « تعالى على الذات » الذى هو فى صميمه الخطوة الأولى على درب « الإيثار » أو « الغيرية » .

الحب الشخصى يتجه أولاً وبالذات نحو « القيم »

إن كثيراً من فلاسفة الأخلاق — وعلى رأسهم ماكس شلر ونيقولاى هارتمان وغيرهما — يحدثننا عن « الحب الشخصى » أو « حب الشخص للشخص » فيقولون لنا إنه أعمق شكل من أشكال الحب : لأنه يكشف عن فضيلة « الشخصية » الواحدة ، حين تتفتح للشخصية الأخرى . والواقع أن من شأن كل حب أن يتجه بطبيعته نحو « القيم » : فإن كل « إيروس » Eros — أيما كانت صورته — لابد من أن يتطلع نحو « المثل الأعلى » . ولكن ، على حين أن الحب الأخوى يتجه باهتمامه نحو القيمة الإنسانية الكلية للشخص البشرى ، نجد أن من شأن الحب الشخصى أن يركز كل اهتمامه حول الوحدة الفردية لهذا الكائن المشخص — دون غيره — لكى يتخذ منها « قيمة » خاصة يسهم فى العمل على تحقيقها .

والحق أن من طبيعة « الشخصية » أن تنشده « التحقق » ، ولأبقى « وجودها » مُعلقاً على ذاته ، عاجزاً تماماً عن التفتح ، ولكن « الوجود للذات » لا يكفى وحده لضمان مثل هذا « التحقق » ؛ فلابد لكل شخصية من أن تنشده ذلك « الآخر » الذى يمكن أن « توجد له » ! ومن هنا فإن الشخصية الأخرى هى وحدها التى يمكن أن تشبع تلك الحاجة إلى التحقق ، وكأنا هى القطب الآخر الذى يكتمل به معنى « الشخصية » الواحدة . وإذا كان فى الحب « سر » Mystery ، فما ذلك « السر »

سوى قدرته العجيبة على إشباع هذا النزوع العميق الباطن في أعماق الشخصية الفردية ، وآية ذلك أن الحبّ يقدم للمحبوب هبة كبرى حين يوفر له هذا البُعد الجديد الذى يضمن له أن « يوجد لذاته » ، بعد أن كان مجرد « موجود فى ذاته » . ومعنى هذا أن الحب الشخصى هو الذى يسمح للشخصية الفردية بأن تكتشف معناها الذاتى : لأنه يوفر لها ما هى فى العادة عاجزة عن الحصول عليه بنفسها ، ألا وهو إدراكها لذاتها . والواقع أن « الحب » يقدم للـ « محبوب » مرآة صادقة يرى فيها « المحبوب » شخصيته وقد انعكست على صفحتها بتمامها ، وكأنما هو يُعينه على « إدراك ذاته » من خلال عملية حبه الشخصى لتلك « الذات » . ولا عجب ، فإن شعور المرء بشخصيته قلما يتم إلا من خلال وعى « الآخر » الذى يدرك قيمة « شخصيته » !

وإذا كانت « الشخصية التجريبية » قلما تستطيع أن تتجاوب تماماً مع قيمتها المثالية الذاتية ، فإن من شأن « الحب » أن يجيء فيركز اهتمامه بأكمله على تلك « القيمة المثالية » ، لكى يحاول اختراق « الشخصية التجريبية » والامتداد نحو « الذات العليا » . وقد نعجب فى بعض الأحيان كيف يجيء « الحب » فيتعلق بشخصية ناقصة أو غير متقدمة — أخلاقياً — ولكن الحقيقة أن بصر الحب — فى مثل هذه الحالة — يكون متجهاً نحو « المثل الأعلى » لتلك الشخصية ، وكأنما هو لا يرى « الشخصية التجريبية » إلا فى ضوء ما لديها من « إمكانيات عليا » ترقى بها إلى ما فوق مستوى وجودها الفعلى . فما يتعلق به « الحب » فى « شخص » مثل هذا الكائن الناقص ، إنما هو « ميله » الأساسى ، أو « معادلته الشخصية الأكسيولوجية » ، أعنى « مثله الأعلى » من حيث هو نزوع نحو « التحقق » ، وكأن من شأن « الحب » أن يرى هذا « المثل الأعلى » متحققاً فى هذا « الشخص » أو — على أقل تقدير — فى سبيله إلى « التحقق » . ولعل هذا هو السبب فى أن الحب لا يرى فى الكائن التجريبى الناقص سوى اتجاه نحو « الكيان الأخلاقى السامى » الذى هو مُيسر له منذ البداية ! صحيح أن حامل هذا « المثل الأعلى » كائن ناقص ، ولكن « الحب » حين يتطلع إلى « الشخصية » التى تحمل فى طواياها مثل هذه « القيم » العليا ، فإنه يزداد تعلقاً بذلك « الفرد » التجريبى الذى يسعى جاهداً نحو تحقيق تلك « القيم » . والحق أن « الحب الشخصى » لا يجيئ إلا على ذلك « الإيمان » الضمنى بالقيم العليا الباطنة فى شخص « المحبوب » . وليس « التنبؤ » الأخلاقى الذى ينطوى عليه « الحب الشخصى » سوى مجرد تعبير عن إحساس « الحب » بما لدى « المحبوب » من « قيم » أو « مثل عليا » . ومن هنا فقد يكون فى وسعنا أن نقول إن الحب يرى « الكمال » فى « الناقص » ، ويدرك

« اللانهاية » في « المتناهي » — على حد تعبير هارتمان — .

وربما كان من أهم مميزات « خبرة الحب » أنها تخلق بين الشخصين المتحابين جوًّا أخلاقياً من نوع خاص ، ألا وهو جوُّ الألفة ، والتفاهم ، والتبادل . فليس « الحب » مجرد تعاطف خارجي أو سطحي ، بل هو علاقة حميمة يسقط معها كل تكلف أو افتعال أو مجاملة ! إذا كان من شأن « الحب الشخصي » أن يلمس العزلة أو الوحدة ، فما ذلك إلا لأنه « علاقة باطنية » تنزع بطبيعتها نحو « الوجود للذات » : Existence-for-itself . وليس من طبيعة مثل هذه العلاقة أن تنشأ بين أكثر من شخصين : لأنها علاقة صميمية تقوم على التبادل المطلق . وهذا الموقف الشخصي الفريد الذي يسمُّ بطابعه مثل هذا النوع من « الحب » يوسِّع بالضرورة من دائرة « الشخصية » ، ويسمح لها بالتسامي إلى درجة عليا تستطيع معها أن تحتضن الكيان الشخصي للذات المحبوبة . وحينما يكون هناك « تبادل » حقيقي بين الشخصين المتحابين : فإن ثمة « نظاماً أخلاقياً » أسمى يجيئ فيجمع بين هذين الشخصين ، وعندئذ لا يلبث كل منهما أن يجد نفسه أقدر على « النمو الخلقى » مما كان من قبل حين كان بمفرده ! وهذا هو السرّ في أن « الحب » يزيج النقاب عن الطابع « الإبداعي » للأخلاق البشرية ، وكأنما هو الذي يسمح لكل ذات فردية بأن تعلو على نفسها . ولا غرو ، فإن كل مشاركة حقيقية ينطوى عليها « الحب » ، لابد من أن تؤدي بالشخصين المتحابين إلى التسامي فوق مستوى وجودهما الشخصي ، وكأن من شأن هذه العلاقة أن تضيء عليها كرامة لم يكونا يملكانها حينما كان كل منهما يحيا بمفرده ! وعلى الرغم من أن للحب نقطة بداية في الصيرورة الزمنية ، فضلاً عن أن له حياته ، وأطوار نموه ، وأزماته ، وصراعاته ، وتحولاته ، إن لم نقل بأنه قد يعرف الانحلال والموت ، إلا أن من الممكن للحب أن ينمو ويزداد قوة ، متخطياً في ذلك مشيقات الحيين وقدراتهم ، لكي يقوم هو نفسه بتحديد مصيرهم !

وليس من شأن الحب أن يكون مجرد اتحاد بين شخصيتين تجريبيتين ، بل هو في الوقت نفسه اتحاداً أسمى لنوعين مختلفين من « القيم » أو « المثل العليا » . ولهذا فإن القانون الذي تخضع له حياة الحب قانون أسمى يعلو على الوجود التجريبي للأشخاص المتحابين ، ويعبر عن « امتزاج اكسيولوجي » لمركبتين مختلفتين من مركبات « القيم » . وقد لا يفتن الشخصان المتحابان إلى هذه الحقيقة ، ولكن من المؤكد أن « خبرة الحب » — بالنسبة إلى كل منهما — إنما تعنى صراع « الطبيعة الأخلاقية » — لدى كل منهما — من أجل التحقق ، وكأن كل « شخصية » منهما تسعى جاهدة في سبيل العلوِّ

على نفسها . ومعنى هذا أن « خيرة الحب » هي التي تكشف عن الطابع اللانهاى للمصير البشرى : لأنها هي التي تُظهرُ إلى عالم النور ذلك الجانب الخفى المجهول من شخصية الفرد ، فتبين لكل فرد منا أن « الإنسان التجريى » ليس هو كل شىء فى حياته ، وأن ثمة « إنساناً مثالياً » يسعى جاهداً فى سبيل « التحقق » من خلال تجارب « الحب » المشتركة !

القيمة الأخلاقية للحب بوصفه أعلى الفضائل

إن الكثير من فلاسفة الأخلاق ليقولون إن الحب « فضيلة الفضائل » : لأنه ينطوى فى صميمه على قيمة أخلاقية كبرى ، ألا وهى « الإرادة الخيرة » أو « النية الطيبة » . وليس من شك فى أن الحب فضيلة إيجابية إلى أقصى حد : لأنه فى جوهره إثبات ، وإحياء ، وبناء ، فى حين أن الكراهية فى جوهرها إنكار ، وإفناء ، وهدم . والواقع أن الذين يعدّون « الحب » مجرد عاطفة أو وجدان ، يتناسون أن الحب أيضاً طاقة ، وإنتاج . وربما كان للحب من القوة ما يسمح للمحبين فى بعض الأحيان بأن يحققوا من الأفعال ما لا طاقة لغير ذوى الإرادة القوية بتحقيقه . فالحب يحشد كل ما لدى الفرد من طاقات ، ويعبئها فى خدمة محبوبه ، وكأن فى استطاعة المحب أن يضع كل وجوده الأخلاقى تحت تصرف المحبوب ! وقد يقع فى ظن البعض أن كل ما يهدف إليه المحب هو تملك إرادة المحبوب ، أو العمل على إخضاعه والسيطرة على حرّيته تماماً ، ولكن هذه الرغبة فى « الامتلاك » هى أقرب إلى « الأنانية » منها إلى « الغيرية » . وقد سبق لنا أن قلنا إن فى الحب من « الإيثار » (أو « الغيرية ») ما يجعل « الحب » يضع نفسه أو وجوده بأسره تحت تصرف « المحبوب » ، وكأن كل « وجوده لذاته » قد استحال إلى « وجود للغير » أو « من أجل الآخر » ! وهذا هو السبب فى أن الحب الحقيقى لا يكاد يعرف الرغبة فى التملك أو النزوع نحو السيطرة على « الآخر » ، لأنه حب إيثارى لا يرى فى « الآخر » سوى ذلك « الكائن المثالى » الذى هو ميسر بلوغه . والحق أن ما يراه « المحب » فى « المحبوب » هو على وجه التحديد هذا الذى لا يستطيع « المحبوب » ذاته أن يراه فى نفسه : لأنه يرى إرادته المجاهدة الساعية قدماً نحو تحقيق « كيانه الأخلاقى » ، أو على الأصح نحو « إبداع » قيمتها الذاتية بوصفها « شخصية » . ولا عجب ، فإن من شأن « الحب » أن يملك من « القوة » ما يستطيع معه تغيير الطابع الخلقي لذلك المخلوق الذى يتجه نحوه ، بحيث إن « المحب »

— وحده — هو الذى يستطيع أن يجعل من « محبوبه » ما يراه فيه ، وما يحبه منه !
صحيح أن مثل هذا « التأثير » قد يلقي الكثير من الصعوبات من جانب « الإنسان
التجريبى » ، ولكن من المؤكد أن كل من عانى « خبرة الحب » لابد من أن يكون قد
شعر بأن « حَضْرَةَ الْحُبِّ » هى أشبه ما تكون بقوة أخلاقية هائلة تتسامى بالفرد إلى
مستوى « الإنسان المثالى » !

وليس من الضرورى أن يتخذ هذا « التأثير » طابعاً عقلياً ، أو صبغة واعية ، بل هو
قد يتحقق بطريقة وجدانية غامضة . وآية ذلك أن « الحب » قد يشعر بأن لديه طاقة
خفية تعمل عملها فى نفس « محبوبه » ، كما أن « المحبوب » قد يحسّ بأن ثمة إلهاماً سرّياً
يأخذ بيده ويقوده على طريق « المثل الأعلى » الأخلاقى . وهنا قد يجد « الحب » ضرباً
من السعادة فى الإحساس بأنه قد بلغ أعلى درجة يمكن أن يبلغها إنسان فى علاقته بإنسان
آخر ، بينما قد يجد « المحبوب » نوعاً من الراحة النفسية فى الإحساس بأن ثمة شخصاً
آخر قد اكتشف ماله من قيمة ، وأنه أصبح « شفافاً » أمام ذلك الكائن المحبّ الذى
استطاع أن ينفذ إلى أعماق وجوده ! ولا شك أن « المحبوب » حين يدرك أن « الحب »
يقدره فوق قدره ، ويرى منه أكثر مما يرى هو من نفسه ، فإنه قد يجد نفسه مدفوعاً إلى العلو
على نفسه ، حتى يصبح أهلاً لما يتوسمه فيه « الحب » ! وبدلاً من أن يشعر « المحبوب »
بأنه قد تعرّض لسوء فهم من جانب « الحب » ، نراه يحسّ بأنه قد وَجَدَ مَنْ يعرفه لأول
مرة ، لكى لا يلبث أن يسعى جاهداً فى سبيل التحول إلى تلك « الشخصية » التى رآها
فيه ذلك « الآخر » .

والحق أننا لو أمعنا النظر إلى القيمة الأخلاقية للحب ، لاستطعنا أن نتبين كيف أن
هذه القيمة رهن بالنشاط الإبداعي للحب نفسه ، بوصفه « فعلاً أخلاقياً » من الدرجة
الأولى . وإذا كان ثمة « تحقق » يبلغ عنده « الحب » غاية كماله ، فما ذلك سوى اكتمال
الكيان الأخلاقى للكائن المحبوب نفسه . وليست مهمة الكائن المحب سوى العمل على
استنهاض هذا « الكيان الأخلاقى » من أجل رفعه إلى مستوى « المثل الأعلى » والوصول
به إلى « الصورة » العليا التى تبثت له (أى للكائن المحب) منذ البداية . ولعل هذا هو
السبب فى أن كل حب حقيقى لا يمكن أن يخلو من عملية « تحقق » أو « اكتمال » تتم عبر
هذا التفاعل الحى الذى يتم بين الإرادتين المتحابتين ...

الحب الحقيقي هو فيما وراء السعادة والشقاء

إذا كان الناس قد دأبوا على تركيز أنظارهم حول القيمة الانفعالية للحب ، فذلك لأنهم قد وجدوا في « الحب » عاطفة إيجابية إلى أبعد الحدود ، حتى لقد اقترنت هذه العاطفة في نظرهم بأعمق انفعالات الغبطة ، والنشوة ، والسعادة ! وليس من شك في أن خبرة الحب — أيما كان موضوعها — هي من أكثر خبرات البشر قيمة ، وخصوصية ، وثراء ، وربما كان من طبيعة الحب أنه حين يأخذ بمجامع قليلين ، فإنه كثيراً ما يصور لهما أنه أزلى أبدي ، عالٍ على الزمان ، على الرغم من أن تجربة الحب نفسها تجربة زمانية سيكولوجية ، وجدانية ، لها بدايتها ، ونموها ، وانحلالها . والواقع أن المحبين يشعرون بأن للحب معنى خالداً ، وكأن من شأن الحب أن يكشف لهم عما في أنفسهم من عنصر خالد لعله أن يكون أفضل ما في ذواتهم . وكل حب شخصي هو بطبيعته فردي ، إن لم يكن فريداً في نوعه ، مثله في ذلك كمثل حامله من جهة ، والموضوع الذي يتجه نحوه من جهة أخرى . ولكل حب أيضاً وجوده المثالي الخاص به ؛ وهو « الوجود » الذي لا بد من أن يبدو للكائنين المتحابين حقيقة خالدة ! صحيح أن دوام الحب رهن دائماً بمدى قدرة « الإنسان التجريبي » على استبقاء هذه الحقيقة ، خصوصاً وأن « الإنسان التجريبي » هو الذي « يحب » ؛ ولكن من المؤكد أنه قلما يخلو « حب » من مثل هذا الإحساس السامي بالمشاركة في حقيقة خالدة ، أو في عنصر أزلى أبدي عالٍ على الزمان ! ولا شك أن الخارجين عن دائرة الحب لا يرون في هذا الإحساس سوى مجرد « وهم » ، ولكنه في نظر المحبين أنفسهم « حقيقة » لا يتطرق إليها أدنى شك ! وإذا كان الناس كثيراً ما يتحدثون عن « سعادة » الحب ، فإن هذا الوصف قد لا ينطبق تماماً على خبرة الحب . وآية ذلك أن الشحنات الوجدانية التي تنطوي عليها هذه الخبرة لا تتطابق مطلقاً مع انفعالات الغبطة ، والنشوة ، والسرور ، إن لم نقل بأن « السعادة » نفسها أمر ثانوي في الحب . والحق أن الحب يجمع بين اللذة والألم ، بين النشوة والعذاب ، بين السعادة والشقاء . وربما كان أعجب ما في الحب أنه حين يبلغ درجة معينة من العمق الوجداني ، فإن الألم والسرور عندئذ لا يلبثان أن يستويا ، وكأنما هو لا يبالي بالواحد منهما والآخر ، أو كأنما هو قد أصبح عاجزاً عن التمييز بينهما ! وهذا هو السبب في أن عذاب المحبين قد يصبح مصدر سعادة لهم ، كما أن سعادتهم قد تصبح مصدر ألم لهم ! أو لعل الأدنى إلى الصواب أن نقول إن القيمة

الوجدانية المميزة للحب تقع فيما وراء كل من السعادة والشقاء ، لأنها تمثل وجداناً من نوع آخر ، أو عاطفة ذات رتبة مختلفة . ومعنى هذا أن الصبغة الوجدانية للحب تشتمل على مضمون روحى خاص وكأن الذبذبات المتلاحقة لموجات اللذة والألم لا تمثل فى حياة الحب سوى عامل فرعى أو عنصر ثانوى بحت .

وليس من المستبعد — فى خبرة الحب — أن يلتقى المحب بمحجوب يسومه العذاب أو أن يقع المحجوب تحت طائلة محب جائر تسيطر عليه إرادة التملك ، ولكن كل هذه الصور الشاذة من الحب لا تمنعنا من القول بأن القيمة الوجدانية الحقيقية للحب هى فيما وراء كل مشاعر اللذة والألم . وحينما يستحيل الحب إلى هوى عميق يطوى نفس صاحبه فى جو روحى عامر بالسكينة ، فهناك تصبح المشاركة القائمة بين القلبين المتحابين أعمق بكثير من كل ما تنطوى عليه حياة الوعى أو الشعور ، كأنما هى قد استحالت إلى نور صافٍ يلمس برقة ناعمة أعماق « الحياة الروحية » للكائنين المتحابين . وهنا يظهر لنا الطابع الروحى العميق الذى يتسم به الحب الشخصى : فإن من شأن هذا الحب أن يتخطى شتى الجوانب السطحية فى حياة الشخصين المتحابين ، لكى يوحد بين وجودهما الباطنى العميق ، فى رابطة روحية وثيقة هيات أن تنفصم عراها . وليس من النادر أن يقرن الحب الشخصى بضرب من النزاع السطحي أو الخلاف التجريبي ، الذى قد يخلق له الطرفان المتحابان ، ولكن الملاحظ فى العادة أن هذا النوع من الحب كثيراً ما يظل محافظاً على بقاءه ، على الرغم من كل تلك الخلافات أو الصراعات . صحيح أن الحب الشخصى قد يجد فى أمثال تلك النزاعات ما يسبب له ضرباً من الألم أو العذاب ، فضلاً عن أنه قد يقع ضحية لمثل هذا الصراع الأليم ، خصوصاً حينما لا تتوافر لديه القوة اللازمة لتجاوز حياة الصراع ، ولكن السمة الغالبة على الحب الشخصى هى أنه قلماً يحاول حل الصراعات التى تقلق باله وترين عليه ، بل هو يجد السبيل إلى تجاوزها من أجل الامتداد نحو حالة أعمق من الانسجام الباطنى . والواقع أن الحب قد يعمد على تحمل الألم والاستهانة بالعذاب ، لأن جذوره لا تكمن حيث تقوم جذور الصراعات والخلافات ، بل هى متأصلة فى طبقات أعمق من كياننا الأخلاقى .

وليس من شأن الحب أن يمد جذوره فى الينابيع الروحية العميقة لحياتنا الشخصية فحسب ، بل إن من شأنه أيضاً أن يسمو بهذه الينابيع الدفينة إلى مستوى الوعى أو الشعور ، أو أن يسلط عليها بعض الأضواء الوجدانية الكشفية . وربما كان أعجب ما فى الحب أنه يزود تلك الأعماق السرية الغامضة بلسان فصيح لولاه لبقيت خرساء لا تنطق ولا تبين ! صحيح أن هذه اللغة قد تبقى ناقصة أو غير مكتملة ، ولكن من المؤكد

أن لغة الحب ليست في حاجة إلى ألفاظ أو كلمات ! وآية ذلك أن المحبين لا يشعرون بالحاجة إلى التعبير اللفظي ، نظراً لأن لديهم من صنوف اللغة (كالرموز ، والإشارات ، والإيماءات ، وشتى ضروب الكشف) ما يُغنيهم عن لغة الألفاظ أو الكلمات ! وكثيراً ما يجد المحبوب في قدرات النفس والبدن أدوات فعالة يضعونها في خدمة تواصلهم الروحي ، وكأن الحب نفسه هو الذي يزودهم بالبصيرة القادرة على التفاهم العميق والمشاركة النفاذة . ومن هنا فقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن من شأن الحب أن يفتح في أعماق النفس البشرية سراديب مجهولة حافلة بالكنوز الثمينة ! وهذا ما يستشعره المحبون حين يُغلون من شأن الحب بوصفه تلك الخبرة النفسية الهائلة التي تستخرج من نفس كل واحد منهم خير ما فيها ، وكأن القيمة الحقيقية للشخصية لا تظهر إلى حيز الوجود إلا من خلال تجربة الحب . وهكذا نرى أن حياة المشاركة الباطنية العميقة لا بد من أن تبقى سرّاً مجهولاً لدى كل نفس لم تتح لها فرصة الحب ، ما دامت هذه النفس لم تلتق في طريقها بالذات الأخرى التي تراها ، وتفهمها بحق !

هل يكون الحب صورة خاصة من صور « المعرفة » ؟

وهنا قد يحق لنا أن نتساءل : هل تكون كل قيمة « الحب » مقصورة على ماله من صبغة وجدانية باعتباره « ميلاً » أو نزوعاً أو « اتجاهاً وجدانياً » ؟ ألا يمكن أن نعد « الحب » أيضاً شكلاً من أشكال « المعرفة » ؟ هذا ما قد يجيب عليه معظم الناس بالسلب : فإن العنصر العرفاني في الحب هو أكثر عناصره غموضاً وأعسرهما تمييزاً . وآية ذلك أن الحب يتقبل شخص « المحبوب » على نحو ما يراه ، أو على نحو ما يوّد أن يراه ، مما يدفع بالكثيرين إلى القول بأن « الحب أعمى » ، وأنه سعيد في عماءه ، وكأن لا حاجة به أصلاً إلى الرؤية ؟ ولكننا لو أنعمنا النظر إلى عوامل « القيمة » التي أتينا على ذكرها فيما سلف ، لتبين لنا أنها جميعاً تفترض عنصراً أصيلاً من عناصر « المعرفة » . وإلا فكيف للحب أن يتحرك صوب القيمة المثالية للشخصية ، أو حتى كيف له أن يجد طريقه إلى « الوجود الحقيقي » للإنسان ، إن لم يكن في استطاعته أن يفهم « ذلك الوجود أو أن » يدركه « بوجه ما من الوجوه » ؟ صحيح أننا هنا بإزاء ضرب من « الفهم الوجداني » أو « الإدراك العاطفي » ، ولكنه على كل حال شكل من أشكال « المعرفة » . ولا شك أن كل من ينظر إلى « المعرفة » على أنها مجرد « تفكير » أو « استدلال » أو « وعى عقلي » سوف يبادر إلى الاعتراض على اعتبار « الحب »

مصدراً من مصادر « المعرفة » ، ولكن من المؤكد أن خبرة الحياة من جهة ، والوعى الخلقى من جهة أخرى ، لا يسمحان لنا بقبول مثل هذه النظرة القاصرة إلى « المعرفة » . ولما كان كل فهم حقيقى للقيم لا بد من أن يستند إلى « الوجدان » ، فإن العنصر الأساسى من عناصر « الإدراك التقييمى » لا بد من أن يرتكز على « الفهم الوجدانى » . وهذه الحقيقة تصدق أولاً وبالذات على « الحب الشخصى » ، ما دام هذا النوع من « الحب » ينطوى على إدراك وجدانى لبعض « القيم » الكامنة — ضمنياً — فى شخص « المحبوب » .

وقد يكون الناس على حق حين يقولون « إن الحب أعمى » : فإن الحب — فى الواقع — لا يرى ما هو ماثل أمام عينيه . ولكن ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إن الحب يرى ما ليس ماثلاً أمام عينيه ، أو ما ليس فى متناول يده بالفعل ! ومعنى هذا أنه يمتد ببصره إلى ما وراء الواقع : إذ أن من طبيعة « عيانه » أن يكون صورة من صور « التنبؤ » Divination . وآية ذلك أن الحب يعدّ الماهية « المثالية » الكامنة وراء الإنسان « الواقعى » بمثابة « الإنسان الحقيقى » . وحين نكون بصدد « الشخصية » ، فإن من المؤكد أن الموجود الذى « يحب » هو وحده الذى « يرى » ، فى حين أن ذلك الذى « لا يحب » هو « الأعمى » بمعنى الكلمة ! وعلى حين أن الرجل العادل يظل أعمى لا يرى الشخصية ، نجد أن الإنسان المحب الذى يتميز ماهية الشخصية يكاد يكون رجلاً « غير عادل » ! وذلك لأن الأول منهما (ألا وهو الرجل العادل) مفتقر تماماً إلى كل عنصر من عناصر الحب ، فهو لا يرى إلا ما هو « متحقق » ، فى حين أن الثانى منهما (ألا وهو الرجل المحب) لا يرى إلا الشخصية المثالية . وهذا هو السبب فى أن « الإنسان المحب » لا بد بالضرورة من أن يبدو لغير المحب بصورة الإنسان الأعمى ، بينما نلاحظ أن ما يراه « الإنسان المحب » هو — على وجه التحديد — ما يعجز عن رؤيته الإنسان غير المحب ! ولكن ليس من شك فى أن « الإنسان المحب » حين يمحض فى طريقه ، هو دائماً على حق ، إذا قورن بذلك الحشد الكبير من « غير المحبين » ، لأنه هو وحده الذى « يرى » بحق ذلك « الشخص » الذى أثره بحبه ! ولما كان موضوع الحب بالضرورة موضوعاً فردياً — ألا وهو الشخصية المثالية — فإن من طبيعة قابلية الحب للمعرفة ، أو قدرته على المعرفة ، أن تبقى قدرة جزئية غير قابلة للتعميم ...

وهنا قد يقال إنه لا موضع للحديث فى الحب عن أية « خبرة » أو « تجربة » : فإن المحبين لا « يتعلمون » شيئاً ، ولا يستخلصون من خبرات حياتهم أى درس ؛ الأمر الذى قد يدفع برجل التجارب إلى السخرية منهم والتندر عليهم ؛ ولكن ربما كانت هذه

الظاهرة بعينها هي مصدر كل ما في الحب من « جدية ». وحتى حين تجيء كل الوقائع مؤيدة لما يقول به رجل التجارب ، فإن الحب يظل مع ذلك (من وجهة نظره المثالية) على حق ! والواقع أنه ليس ثمة تجربة ، حتى ولا تجربته الخاصة ، يمكن أن تعلمه أو أن تلقنه أى درس ، وذلك لأن من شأن حبه أن يركز كل بصيرته الحدسية على الشخصية المثالية للكائن المحبوب ! ولكن الحب لا يرى مثل هذه الشخصية المثالية في استقلال تام عن الشخصية التجريبية ، بل هو يرى الواحدة منها عبر الأخرى ، أو من خلال الأخرى ، وكأنما هو يدرك « الذات المثالية » — أوليا أو حدسيا — من خلال « الذات الواقعية » . ومعنى هذا أن العنصر العرفاني — في الحب الشخصي — لا يكاد ينفصل عن « الطابع الأولي » ، (أو القبلي) : Apriorism الذى يتسم به كل إدراك للقيم .

وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن الحب الشخصي — وحده — هو الذى « يعرف » الشخصية باعتبارها « قيمة » : فإنه لمن الواضح أن الطريق الأوحى إلى « فهم » الشخصية هو طريق العيان أو الاستبصار أو الحدس ، أعنى طريق « الحب » الذى يتم عبره اكتشاف « المثالى » فى « الواقعى » . ولابد للحب — بادئ ذى بدء — من أن « يفهم » المثل الأعلى للشخصية ، حتى « يعرف » وجه التباين بينه وبين الشخصية الفعلية للكائن المحبوب ، ولكن من شأن الحب — بعد ذلك — أن يسعى ويجهد فى سبيل العمل على تحقيق ذلك « المثل الأعلى » ، وبالتالي فإنه يسهم بنشاطه الخاص فى إبداع « الشخصية المثالية » للكائن المحبوب . ولاشك أن اكتشاف « المثل الأعلى » يتم هنا قبل المبادرة إلى « تحقيقه » : لأن عملية الإدراك أو التمييز لابد من أن تسبق النشاط البناء الذى يضطلع به « الحب » . ومعنى هذا أن كل « تحقيق » أو « إنجاز » ، بل كل إحساس بالتحقيق أو الإنجاز ، لابد من أن يركز على المعرفة النفاذة التى ينطوى عليها « الحب » الحدسى .

يُبد أن « الحب » لا يرى فى « المحبوب » شخصيتين مستقلتين : شخصية واقعية وأخرى مثالية روحية ، بل هو يرى فيه شخصية واقعية تلتبس بتحقيق مثلها الأعلى ، وكأن « المثل الأعلى » ماثل بطريقة مباشرة فى « الواقع » ، أو كأن « الكائن الواقعى » قد تسامى منذ البداية إلى مستوى « الكائن المثالى » ! وليس من شك فى أن « الحب » قد يتعرض للخطأ ، حين يتوهم أن الإنسان الواقعى هو بعينه الإنسان المثالى ، ولكن يبت القصيد فى الحب أن يعرف الحب كيف يجمع بين حياة المثل الأعلى من جهة ، وحياة الكائن الواقعى من جهة أخرى ، بحيث لا يرى فى « المحبوب » سوى شخصية واقعية تسعى جاهدة فى سبيل تحقيق مثلها الأعلى . وهنا قد لا تخلو خبرة الحب من ألم

وعذاب ، ولكن هذا الألم وذاك العذاب هما الثمن الباهظ الذى لابد للمحيين من أن يدفعوه للحصول على تلك الدرجة العليا من « المشاركة » و « العيان الخالص » .
وليس حياة الحب سوى حياة روحية يَقْضِيهَا المرء فى التعرف على ما هو جدير حقاً بالمعرفة ، أعنى أنها حياة مشاركة يتعلّق فيها الإنسان بأسمى وأرفع ما فى الإنسان ! وإذا كان للحب الشخصى قيمة أخلاقية كبرى فى حياة الإنسان ، فذلك لأنه يخلع على الوجود البشرى عُمْقاً ، ومعنى ، وقيمة ، فيكسبه بذلك اتجاهأ ، وقصدأ ، وغائية^(١) .

(1) cf. N. Hartmann : « Ethics », vol. II., ch. XXXIII. pp. 368 - 381.

خاتمة

أما بعد ، فإن كاتب هذه السطور مقتنع تماماً الاقتناع بأن المشكلة الخلقية تمثل في الحقيقة جوهر التساؤل الفلسفى . وليس السبب فى ذلك هو أن «الأخلاق» ملتقى «النظر» و « العمل » فحسب ، أو أنها نقطة تلاقى كل من « الفكر » و « الإرادة » فحسب ، بل لأن « الحقيقة الأخلاقية » هى بمثابة همزة الوصل بين « العالم » و « الإنسان » ، أو بين « الواقع » و « القيمة » ... والحق أن ما نطلق عليه اسم « الأخلاق » إنما هو فى صميمه احتجاج يتجدد يوماً بعد يوم ضد ما فى « الواقع » من « نقص » أو « عدم كفاية » Insuffisance ، وإن كنا هنا بصدد احتجاج مقرون بالثقة والأمل فى المستقبل . فالأخلاق مطلب يفرض علينا بالضرورة شيئاً هو فى حكم « ما ينبغي أن يكون » ، ولكنه مطلب حر يستلزم تضافر الإرادة ، حتى نجيء الحرية فنحقق شيئاً يتجاوز كل ما أمكن تحقيقه حتى الآن ، ويعلو على كل ما وجد حتى اللحظة الراهنة !

ولابد من أن يكون القارئ قد لاحظ معنا أن طرح المشكلة الخلقية قد قادنا بالضرورة إلى إثارة قضية « القيم الخلقية » . وليس المهم أن يحدد الباحث ماهية « القيمة الخلقية » ، بل المهم أن يدرك دلالتها الحية فى صميم « الخير البشرية » . والواقع أن « القيمة الخلقية » ليست قيمة شاهد عاقل ، أو متأمل ذكى ، يقتصر على فهم ما يجرى من أحداث ، أو يكتفى بملاحظة الوقائع ، دون أن يتدخل فى مجرى الأمور ، بل هى قيمة فاعل نشيط ، أو ذات عاملة ، تنخرط فى مجرى الأحداث لكى تُنتج الأشياء . والرجل المحامد الذى يرى نفسه بإزاء خصمين متصارعين ، فيقتصر على التساؤل : أيهما — ياترى — سوف يكسب المعركة ، إنما هو مجرد إنسان يتخذ موقف المؤرخ ، دون أن يكون لتفكيره أى طابع أخلاقى ، ولا يصبح تفكيره « أخلاقياً » إلا فى اللحظة التى يأخذ فيها على عاتقه أن يتنصر لذلك الطرف المعين الذى يحارب بحق فى سبيل العدالة . ومعنى هذا أن « القيمة الخلقية » تقتضى شعوراً غلاباً لا يُقهر بأن المستقبل رهنٌ بالذات ، وأن الواقع — وحده — هيات أن يشيع نهم الإرادة البشرية . وإذا كان كثير من فلاسفة الفكر المعاصر قد فطنوا إلى ضرورة معاودة البحث فى الفضائل () وهو المبحث الذى ظل مهملاً — أو شبه مهملاً — منذ عهد أرسطو (،

فذلك لأنهم قد أدركوا أن « الفضيلة » — أو على الأصح « القيمة الخلقية » — إنما هي قيمة « الحرية » من حيث هي « إرادة ». وقد رأينا في تضاعيف هذا البحث كيف أن « الفضيلة » — أو « القيمة الخلقية » — تتطلب دائماً : « العائق » Obstacle ، و « الجهد » effort ، و « الألم » pain . فلا قيام للأخلاق بدون « الإرادة » التي تعبى كل ما لديها من طاقات ، حتى تستطيع أن تحقق ما تريد لنفسها أن تكون . وليس أيسر على الباحث — بطبيعة الحال — من أن يلغى دور « الإرادة » في دراما « الأخلاق » ، لكي يقتصر على الحديث عن آثار « الاقتصاد » أو « المجتمع » أو « التغير الحضارى » ، ولكن كل هذه العوامل الخارجية لا تعمل تلقائياً ، بل هي تستلزم تضافر « الإرادة » التي هي الألف والياء في قصة كل « تغير » ، أخلاقياً كان أم اجتماعياً ...

وهنا قد يقال إننا نهيب ببعض المبادئ الميتافيزيقية الغامضة من أجل العمل على دغم « الأخلاق » ، في حين أن « العلم » وحده هو الكفيل بتحديد أسس الحياة الخلقية ؛ ولكن الحقيقة أن « العلم » يتجه ببصره دائماً نحو ما هو قائم بالفعل ، فهو يعتمد إلى الكشف عن « الطبيعة » ، وتحقيق امتداد « الماضى » في صميم « الحاضر » ، على حين أن « الأخلاق » تسدير ظهرها للماضى وتتجه بنا نحو « المستقبل » وكأنما هي تريد أن تطبع هذا المستقبل الغامض (غير المحدد) بطابع « المثل الأعلى » ، حتى يصبح « أفضل » مما كان عليه كل من « الماضى » و « الحاضر » . وهذا هو السبب في أن « الإرادة » لا بد من أن تضطلع بالدور الأكبر في المجال الخلقى ، ما دام من شأن « الإرادة » أن تشعر بذاتها دائماً كقوة متعالية على الجرى الخارجى للأحداث ، وما دام من شأن هذه الأحداث أن تتغير تحت تأثير تدخل « الإرادة » . وعلى حين أن العالم يشعر دائماً بأن « للموضوع » مركز الصدارة أو الأولوية بالنسبة إلى « الذات » ، نجد أن رجل الأخلاق يشعر دائماً بأن « للذات » مركز الصدارة أو الأولوية بالنسبة إلى « الموضوع » . وليس من شك في أن المهمة الأولى للأخلاق — على وجه التحديد — إنما هي دعوتنا إلى العمل ، أو على الأصح إلى بذل الجهد ، من أجل تحقيق ما لم يوجد بعد ، أو من أجل تلقيح « الواقع » بمصل « المثل الأعلى » . وسواء اتجه نشاطنا الخلقى نحو تحصيل خير ما من الخيرات ، أم اتجه نحو أداء واجب ما من الواجبات ، أم اتجه نحو بلوغ غاية ما من الغايات ، فإنه في كل هذه الحالات لا يمكن أن يكون مجرد نشاط ارتدادى يتجه نحو « الماضى » بل هو لا بد من أن يكون نشاطاً تقدماً يتجه نحو « المستقبل » . وإذا كنا قد اعتبرنا « خبرة الأمل » خبرة خلقية أساسية في كل حياتنا العملية ، فذلك

لأننا قد وجدنا في « الأمل » تعبيراً واقعياً عن قدرة الذات على تحقيق القيم ، وثقتها في قدرتها الخاصة على الخروج من « الماضي » ، والانتصار على « الحاضر » .

صحيح أن دعاة اليأس لن يجدوا أدنى صغوبة في اختلاق الحجج لتشكيكنا في قيمة « الأخلاق » ، ولكن من المؤكد أن « الأخلاق » هي القوة الروحية الكبرى التي استطاعت أن تعلو بالإنسانية إلى مستوى أرقى بكثير من كل ما كانت تتمتع به في ظل « التلقائية » المحضة ، أو « الطبيعة » الخالصة . وإذا كانت خبرة الإنسانية المتصلة ، من جيل إلى آخر ، قد سمحت لها بتجميع حصيلة من المعارف التي استطاعت أن تُمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمة أغراضه ، فإن هناك أيضاً خبرة بشرية أخرى قد أتاحت للإنسان الفرصة لأن يستخلص أساليب السلوك والحياة التي لا بد من اتباعها ، حتى لا تنحرف تلك المقدرة البشرية الهائلة عن جادة الصواب ، وبالتالي حتى لا ترتد ضد الإنسان نفسه ! وهذا ما فطن إليه الموجود البشري — منذ اللحظة الأولى للتفكير الفلسفي — إذ سرعان ما تحقق من أنه لا بد له من تنظيم سلوكه ؛ ولم تلبث خبرات الحياة الطويلة أن علمت البشر ما كان فلاسفتهم قد أضنوا أنفسهم في دعوة الناس إليه ! وحين أحرز « العلم » في العصور الحديثة نجاحاً ساحقاً ، وقع في ظن البعض أن « المعرفة العلمية » قد حلت محل « المعرفة الخلقية » ، وأن « العلم » قد أصبح هو الكفيل بحل كل مشكلات « السلوك » ؛ ولكن التجربة لم تلبث أن أثبتت للناس أن ضحايا « اللاأخلاقية » أكثر بكثير من ضحايا « الجهل » ، وأن « العلم » نفسه لا يمكن أن يقوم إلا على دعامة من « الأخلاق » . وهكذا أدرك الإنسان أنه « ليس العلم هو الذي يصنع الإنسان ، بل الإنسان هو الذي يصنع العلم » ؛ وهو قد صَنَعَهُ بفكره وأخلاقه وقيمه وقدرته على الإبداع !

يبد أن الكثيرين من أنصار « النزعة العلمية » المتطرفة قد توهموا أن مهمة علم الأخلاق هي الاقتصاد على وصف وقائع السلوك ، دون الامتداد إلى الحديث عن أي « مثل أعلى » . وفات هؤلاء أن الموجود البشري — بوصفه كائناً مريداً حراً — لا يستطيع أن يحيا ، حتى في صميم مجتمعه وبين باقي أقرانه — دون أن يُصدر حكماً على أخلاق مجتمعه ، أو دون أن يعتمد على تقييم معايير بنى قومه . وليس الإنسان حراً في أن تكون له « مثلٌ عليا » ، أو ألا تكون له على الإطلاق ، بل هو حرٌّ في أن يختار لنفسه هذا « المثل الأعلى » أو ذاك . إنه حرٌّ في أن يختار لنفسه الإخلاص لعبادة القوة والهدم ، أو التضاني في عبادة العقل والحب . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الناس جميعاً « مثاليون » فإن التجربة لتشهد بأن البشر جميعاً يعملون جاهدين في سبيل بلوغ بعض

« المثل العليا » التى تسمو فوق مستوى الإشباع العضوى أو اللذة المباشرة . وكل ما بين البشر من خلاف إنما ينحصر فى « نوع » المثل الأعلى ، أو المثل العليا ، التى يؤمنون بضرورة العمل على بلوغها ، أو السعى فى سبيل الوصول إليها .

صحيح أن الإنسان — مثله فى ذلك كمثله غيره من بنى الحيوان — يخضع لمجموعة من « القوى » التى تحدّد سلوكه ، ولكنه — من بين المخلوقات جميعاً — الكائن الأوحده الذى يستطيع أن « يفهم » تلك القوى ، والذى يملك — عن طريق هذا « الفهم » نفسه — القدرة على القيام بدور إيجابى فعال فى تحقيق مصيره . وهو حين يفهم العوامل المختلفة التى تؤثر على سلوكه ، فإنه يستطيع أن يزيد من قوة (أو فعالية) تلك العوامل الخاصة التى قد يكون من شأنها زيادة قوة الخير أو تغليب قوى الخير على قوى الشر .

وحين يقرر بعض فلاسفة الأخلاق أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذى يتمتع بحاسة أخلاقية ، أو يملك ما يصح تسميته باسم « الضمير » ، فإنهم يعنون بذلك أن الموجود البشرى يجد فى ذاته صوتاً باطنياً يردّه إلى ذاته ، أو أنه يملك حاسة تسمح له بمعرفة ما ينبغى له فعله ، حتى يصبح « عين ذاته » . فالضمير هو الذى يسمح للكائن البشرى بأن يظل على وعى بأهدافه فى الحياة ، وأن يقف على المعايير اللازمة لبلوغ تلك الأهداف . وإذن فإن البشر ليسوا مجرد ضحايا شقية لمجموعة من الظروف أو المقادير ، بل هم فى الحقيقة كائنات أخلاقية واعية تملك من القوة ما تستطيع معه تغيير ظروفها ، والتأثير على مقاديرها . وسواء أكانت تلك الظروف داخلية أم خارجية ، فإن فى وسعنا دائماً — ولو إلى حد ما — التحكم فى تلك الظروف ، أو العمل على التغيير من دلالتها بالنسبة إلينا . وربما كان الدرس الأكبر الذى تعلّمنا إياه « الأخلاق » هو أننا موجودات عاقلة حرة تملك باختيارها الانسياق وراء دوافع الهدم والكراهية ، أو التفانى فى خدمة أهداف البناء والحب . والواقع أن كلاً من « الخير » و « الشر » لا يمثل مجرد واقعة آلية أو ظاهرة أوتوماتيكية ، بل هو أولاً وقبل كل شىء ثمرة لجهد إرادى أو اختيار خلقى .

وليس يكفى أن نقول إن « الإنسان هو عين ما يعمل » ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن « الإنسان هو ما يخلق من نفسه » ، وأنه فى الوقت نفسه ما يهدف إليه ، وما يريد أن يكون عليه ! وقد يكون « الموت » حقيقة أليمة بالنسبة إلى الإنسان ، ولكن هناك مع ذلك فكرة أقسى على الإنسان من فكرة الموت ، وتلك هى أن يموت قبل أن يكون قد استطاع أن يحيا بالفعل ؛ ولا شك أن الأخلاق بوصفها « فن الحياة » إنما هى التى تأخذ بيدنا على درّب الحياة لكى تعلّمنا كيف نحيا !

والحق أننا حين حرصنا — فى تضاعيف هذا الكتاب — على ربط الأخلاق بالحياة ،

وحين عمدنا إلى إثارة « المشكلة الخلقية » على مستوى « الخبرة المعاشة » ، فإننا لم نكن نقصد من وراء ذلك تقديم « أخلاق وجودية » ، أو وضع مذهب أخلاقي جديد نضيفه إلى قائمة المذاهب الأخلاقية المعروفة ، بل كنا نرمي أولاً وبالذات إلى وصف « الخبرة الخلقية » على نحو ما يعانينا الموجود البشرى في صميم حياته العملية . وهذا هو السبب في أننا لم نتوان لحظة في الكشف عما تنطوى عليه الحياة الخلقية من « متناقضات » ، وضروب صراع ، ومظاهر توتر ... إلخ . صحيح أن « الأخلاق » كثيراً ما تظهر لنا بصورة « النظام » أو « التوافق » أو « الاتساق » ، ولكن الحياة الخلقية للموجود البشرى لا تتألف من مجموعة من الحالات المتسقة ، المنسجمة ، المتجانسة ، بل هي تقوم على سلسلة من المتناقضات الباطنية التي لا سبيل لنا مطلقاً إلى التحرر منها نهائياً ، أو القضاء عليها تماماً . والواقع أنه على الرغم من أن « الأخلاق » تمثل في وجودنا مطلب « النظام » ، وتفرض على حياتنا ضرباً من « الوحدة » ، إلا أن من شأن « النظام » في العادة أن يكون قاتلاً ، كما أن من طبيعة كل « توازن » أن يولد ضرباً من الركود الروحي .. ومن هنا فإن كل « وحدة » تتوصل إليها الذات ، لا تلبث أن تبدو لها غير مكافئة للطابع « اللامتناهى » الذى تتطلبه « الروح » . ومعنى هذا أن « الأخلاق » تنفر من كل « روتين » أو « تحجر » ، لأنها تأبى لنفسها دائماً أن تحيا على مجموعة من « الصيغ » الجامدة ، أو المبادئ التقليدية البائدة ! ومن جهة أخرى ، قد تبدو الحياة الخلقية بحثاً مستمراً عن « الامتلاك » Possession ورغبة دائبة في الحصول على بعض الخيرات ، ولكنها في الوقت نفسه لا يمكن أن تقع بأية حالة سكونية من حالات القدرة أو التملك ، بل هي لابد من أن تتخذ طابع الحركة المستمرة والتوتر الدائب . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى مطلب العزلة أو الحاجة إلى المشاركة ، فإن الحياة الخلقية لا يمكن أن تقوم على الوحدة المطلقة والفردية الضيقة ، ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تذوب تماماً في قيم الجماعة أو أن تحيا خارج ذاتها بصورة مستمرة . وكل هذه المتناقضات الأخلاقية إنما تدلنا على أن « الفعل الخلقى » لا يمكن أن يكون مجرد صورة من صور « الخضوع » لأى قانون أخلاقي مُسبق ، أو مجرد « اتباع » لقاعدة من القواعد الأزلية المطلقة ، بل هو لابد من أن يتخذ طابع النشاط الإبداعي الذى يحقق المرء بمقتضاه ضرباً من التوازن بين القانون العام من جهة ، والموقف التاريخي الخاص من جهة أخرى . ولا غرو ، فإن الأخلاق حليفة الصراع بين الواجبات ، بحيث إنها لا تكاد تظهر إلا في اللحظة التى يجد فيها المرء نفسه بإزاء قاعدتين أخلاقيتين متعارضتين لابد له من العمل على التوفيق بينهما . وكلما زاد حظ « الضمير الخلقى » من الإرهاب ، زاد (المشكلة الخلقية)

إحساسه بالتعارض القائم بين الواجبات . وهذا هو السبب في أن « التناقض » لا بد من أن يظل هو القوة المحركة للنشاط الخلقى بصفة عامة ، وللتفكير الأخلاقي بصفة خاصة .

وأخيراً لا يسعنا سوى أن ندعو القارئ إلى تصحيح ما قد نكون تردّينا فيه من أخطاء ، في وصفنا السريع لبعض متناقضات الحياة الخليقة ، آمليين أن يكون رائده في هذا التصحيح ، هو العودة إلى الخبرة الخلقية نفسها ، من أجل الكشف عما تنطوى عليه من جوانب ربما تكون قد خفيت علينا ، وحسبنا أن نكون قد أثّرنا لدى القارئ الرغبة في طرح القضية ، والإحساس بما تنطوى عليه من جدية . ونحن على ثقة في النهاية من أن أول صورة من صور الأخلاق إنما هي الوعي بضرورة الأخلاق !

مراجع

سنقتصر — فيما يلي — على تزويد القارئ بثبت مجمل لأهم المراجع الأجنبية الحديثة في علم الأخلاق ، دون الإشارة إلى المصادر الأخرى التي تعرضت للمشكلة الخلقية بطريقة عرضية ، أو كجزء من أجزاء الفلسفة العامة .

(أولا) المراجع الإنجليزية

1. Binkley (L. J.): "Contemporary Ethical Theories", Philosophical Library, New - York, 1961.
2. Braithwaite (R. B) : " Theory of Games as a Tool for the Moral Philosophy. ", Cambridge, Cambridge University Press, 1955.
3. Ewing (A C,) : " Second Thoughts in Moral Philosophy ", London, Routledge & Kegan Paul, 1959.
4. Hare (R. M.) : " The Language of Morals. " Oxford, Clarendon Press, 1952
5. Mayo (B): " Ethics and the Moral Life. ", London, Macmillan, 1958.
6. Moore (C. E) : " Ethics " London, Oxford University Press, First Edition, 1912.
7. Moore (C. E.) : " Principia Ethica ", Cambridge, Cambridge University Press, 1903.
8. Nowell - Smith (P.): " Ethica ", London, Penguin Books, 1954.
9. Ross (W. D.) : " Foundation of Ethics. ", Oxford, Oxford University Press, 1959.
10. Ross (W. D.) : " The Right and the Good ", Oxford, The Clarendon Press, 1930.
11. Schlick (M.): " Problems of Ethics. ", Translated by D. Ryuin, New - York, 1939.
12. Sellars (W.) & Hospers (J.): " Readings in Ethical Theory ", New - York, Appleton - Century - Crofts, 1952.

13. Stevenson (C. L.): “**Ethics and Language.**”, New - Haven, Yale University Press 1944.
14. Toulmin (S.): “**The Place of Reason in Ethics.**”, Cambridge, Cambridge University Press, 1950.
15. Warnock (Mary): “**Ethics since 1900**”, London, 1960.
16. “**Approaches to Ethics.**”, Edited by W. T. Jones, F. Sontag M. O. Beckner & R. G. Fogelin, Mc Graw - Hill, New - York, 1962.

وهناك مرجع شامل في الأخلاق بعنوان :

(ثانيا) مراجع فرنسية

1. R. Bastide: “**Les Grands Thèmes Moraux de la Civilisation Occidentale.**”, Grenoble, Bordas, 1943.
2. S. de Beauvoir: “**Pour une Ethique de L'Ambiguïté**”, Paris, Gallimard, 1947.
3. G. Gusdorf: “**Traité de l' Existence Morale.**”, Paris, Colin, 1949.
4. G. Gurvitch: “**Morale Théorique et Science des Moeurs.**”, P. U. F, Paris, le éd., 1937.
5. V. Jankélévitch: “**Traité des Vertus**”, Paris, Bordas, 1949.
6. V. Jankélévitch: “**L'Austérité et la Vie Morale.**”, Flammarion, 1964.
7. V. Jankélévitch: “**Le Pur et l'Impur.**”, Flammarion, 1965.
8. V. Jankélévitch: “**L'Aventure, L'Ennui, Le Sérieux.**”, Paris, Aubier, 1966.
9. L. Lavelle: “**Traité des Valeurs.**”, 2 volumes. P. U. F., 1949 - 1950.
10. R. Le Senne: “**Traité de Morale Générale.**”, Paris, P. U. F., 1949.
11. J. Maritain: “**Histoire de La Philosophie Morale.**”, Gallimard, 1964.
12. E. Mounier: “**Traité des Vertus.**”, Paris, Editions du Seuil, 1949.
13. J. Nabert: “**Eléments Pour une Ethique.**”, P. U. F., 1942.
14. D. Polin: “**La Compréhension des Valeurs**”, P. U. F., 1945.
15. D. Polin: “**La Création des Valeurs.**”, Paris, P. U. F., 1944.
16. D. Polin: “**Du Laid, du Mal, du Faux.**”, P. U. F., 1948.

(ثالثاً) مراجع عربية

- ١ — د. توفيق الطويل : « الفلسفة الخلقية : نشأتها وتطورها » ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ .
- ٢ — د. محمد فتحى الشنيطى : ترجمة عربية لكتاب كائت : « أسس ميتافيزيقا الأخلاق » ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٥ .
- ٣ — د. نجيب بلدى : « مراحل التفكير الأخلاقى » ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ .
- ٤ — د. زكريا إبراهيم : « مشكلة الإنسان » ، الطبعة الثانية ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ٥ — د. زكريا إبراهيم : « مشكلة الحب » ، الطبعة الأولى ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٤ .
- ٦ — د. زكريا إبراهيم : « الأخلاق والمجتمع » ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، مارس ١٩٦٦ .
- ٧ — د. زكريا إبراهيم : « عود إلى مشكلات الأخلاق » ، مقال منشور بمجلة « الفكر المعاصر » ، العدد ٣٢ — أكتوبر سنة ١٩٦٧ ، من ص ١١ إلى ص ١٧ .
- ٨ — د. زكريا إبراهيم : « مبادئ الفلسفة والأخلاق » ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

فهرس تحليلي

تصدير :

الصفحة

١٦ — ٦

ضرورة إثارة المشكلة الخلقية — موقف فلاسفة الفكر الإنجليزى المعاصر من المشكلة : الأخلاق و « الميتا — أخلاق » — الدراسات اللغوية المنطقية لا تقضى على المشكلة الأخلاقية العملية — استبعاد « الحياة الباطنية » من حساب الإنسان المعاصر — ظاهرة اغترابه عن ذاته — مشكلة القيم بالنسبة إلى الإنسان المعاصر — ضرورة مواجهة حالة الخواء الباطنى — الحكيم هو الإنسان « المتدوق » — الأخلاق و ضرورتها لتحقيق عملية « إبداع الكون » — الأخلاق تحول العالم من « المرتبة الطبيعية » إلى « المرتبة الأكسيولوجية » — أهمية مشكلة القيم — الأخلاق والتربية .

مقدمة :

الإنسان حيوان أخلاقى

الصفحة

٣٩ — ١٧

الخبرة الأخلاقية لا بد من أن تنطوى على « مضمون ذى قيمة » — الفعل الأخلاقى لا بد من أن يتجاوز صاحبه — هل هناك « فعل أخلاقى » لدى الحيوان ؟ — الدلالة الروحية للأفعال الحيوانية لدى الموجود البشرى — مكانة الإنسان فى العالم باعتباره « كائناً أخلاقياً » — دور « الحرية » فى سلوك الكائن الأخلاقى — أخيراً : لا بد من إثارة « المشكلة الخلقية » بكل حديثها — السلوك العام والسلوك الخاص .

الباب الأول

مناقضات أخلاقية

الفصل الأول :

الأخلاق بين « النظر » و « العمل »

الصفحة

٥٩ — ٤٢

الفرق بين « النظرية الأخلاقية » و « الحياة العملية » — شوبنهاور يؤكد أن « الأخلاق » نظرية بحثة — نظرية سقراط في التوحيد بين « الفضيلة » و « العلم » — دور « المعرفة » في « الحياة الخلقية » — نوعية الطابع العمل للفلسفة الخلقية — الحكمة الأخلاقية هي ملتقى « النظر » و « العمل » — الفلسفة الخلقية « نظر عقلي » من جهة و « فن حياة » من جهة أخرى .

الفصل الثاني :

الأخلاق بين « النسبية » و « الإطلاق »

الصفحة

٧٥ — ٦٠

وضع المشكلة — اختلاف الشرائع الأخلاقية : هل هو اختلاف مطلق ؟ — ضرورة التمييز بين « المبادئ الأخلاقية » و « قواعد السلوك » — دور « الانفعالات » في تأكيد « نسبية » الأخلاق — الوضعيون المناطقة ينكرون أصلاً وجود « أحكام أخلاقية » — الرد على حجج فلاسفة « الوضعية المنطقية » — أدلة أخرى على وجود معايير أخلاقية مطلقة — الأخلاق بين التعدد والوحدة — القيم الأخلاقية : هل هي نسبية أم مطلقة ؟

الفصل الثالث :

الأخلاق بين « الفرد » و « المجتمع »

الصفحة

٧٨ — ٩٤

هل الظواهر الخلقية هي مجرد « وقائع اجتماعية » ؟ — حملة الوجودية على هذه الوضعية الأخلاقية — المشكلة الخلقية عند الفيلسوف الوجودى مشكلة شخصية — ولكن الظاهرة الخلقية ليست مجرد « ظاهرة فردية » . — أخلاق « الأنانية » وأخلاق « الغيرية » . — لا تعارض بالضرورة بين قطبى « الأنانية » و « الغيرية » —

الفصل الرابع :

الأخلاق بين « الاتباع » و « الإبداع »

الصفحة

٩٥ — ١١١

مستويات الحياة الخلقية ، مستوى الغريزة ، ومستوى العرف ، ومستوى الضمير — الأخلاق المغلقة والأخلاق المفتوحة عند برجسون — الأخلاق المفتوحة أخلاق إنسانية تقوم على « المحبة » — صلة الأخلاق بالإبداع عند كل من برجسون وريد — نموذج آخر للأخلاق الإبداعية لدى برديايف — نظرة نقدية إلى الأخلاق الإبداعية .

الباب الثانى

نظريات أخلاقية

الفصل الخامس :

نظرية « اللذة »

الصفحة

١١٤ — ١٣٠

المشكلة الأخلاقية تدور حول « بينة اللذة » — فلسفة اللذة فى الفكر اليونانى :
أرسطىس وأبيقور — موقف أرسطو من فلسفة اللذة — سحر اللذة وارتباطها بالقيم
البيولوجية — هل تكون طبيعة اللذة سلبية ؟ — هل تكون هناك « لذات خالصة » ؟
— هل تنطوى « فلسفة اللذة » على تناقض ذاتى ؟ — هل من سبيل إلى الحصول على
« اللذة » ؟ — فوضى اللذات فى حياتنا النفسية — موقف « الضمير » من « مبدأ
اللذة » — الإحساس بالقيم يرفض التوحيد بين « الخير » و « القيم الحيوية » .

الفصل السادس :

نظرية « السعادة »

الصفحة

١٣١ — ١٤٦

العلاقة بين فلسفة اللذة وفن السعادة — نظرية أرسطو فى « السعادة » — مذهب
الرواقية فى السعادة — السعادة فى الأفلاطونية الحديثة والأخلاق المسيحية — نظرة نقدية
إلى فلسفة السعادة بصفة عامة — ما أخذ أخرى يمكن أن توجه إلى « فلسفة السعادة » —
هل من علاقة بين السعادة والفضيلة ؟ .

الفصل السابع :

نظرية « المنفعة »

الصفحة

١٤٧ — ١٦٢

مقدمة عامة — صلة مذهب اللذة بمذهب المنفعة — الروح العامة لمذهب بتنام في المنفعة — نظرية جون استيوارت مل في « المنفعة العامة » — بعض المآخذ التي توجه إلى « نفعية » مل — نظرية نقدية إلى مفهوم « الحساب النفعي » وأخيراً مبدأ « الأخلاق النفعية » عموماً في الميزان .

الفصل الثامن :

الصفحة

١٦٣ — ١٨٤

نظرية « الواجب »

ظهور فكرة الواجب في العصر الحديث — نظرية كانت في « الإرادة الخيرة » — السمات الرئيسية للواجب عنده — الأخلاق بين الأوامر الشرطية والأوامر القطعية — قواعد الفعل الثلاث : أو الأوامر المطلقة — نقد نظرية الواجب عند كانت — دور الوجدان أو الحدس في الحياة الخلقية — دور « الميول » في النشاط الخلقى —

الباب الثالث

خبرات خلقية

الفصل التاسع :

الصفحة

١٨٦ — ٢٠٤

خبرة الشر

الشر هو المحرك الأول للحياة الخلقية — الشر تحالف مع الفوضى أو الاضطراب — هل يكون للشر معنى نسبي ؟ — هل يكون الشر وثيق الصلة بطبيعة تكويننا — وجود الشر يثبت أن الإنسان « حرية » لا « طبيعة » — الحياة الأخلاقية حياة « مخاطرة » —

هل ينبغي أن نبغض « الشر » ؟ هل تكون « الكراهية » هي « إرادة الشر » ؟ — بعض أعراض الكراهية بوصفها علة أخلاقية — الشر حقيقة خفية قد تندس حتى في النوايا الطيبة — الإرادة هي الألف والياء في مشكلة الشر ! — إرادة الخير إنما هي المحبة العاملة — هل يكون الشر الخلقى « مرض نفسي » ؟

الفصل العاشر :

« خبرة الألم »

الصفحة

٢٠٥ — ٢٢١

الصلة بين الألم والشعور بالذات — أهمية الألم في حياتنا الروحية — الدلالة الميتافيزيقية للألم في فلسفة هيجل — الصلة بين الألم وعملية تحقيق الذات في فلسفة بردياثيف — الصلة بين الألم من جهة والترقي الخلقى لدى الفرد والجماعة من جهة أخرى — الألم بوصفه قيمة خلقية تزيد من عمق حياتنا الباطنة — هل من صلة بين « خبرة الألم » ودرجة « الوعي الخلقى » ؟ — الصلة بين « الألم » و « عذاب الضمير » —

الفصل الحادى عشر :

« خبرة الأمل »

الصفحة

٢٢٢ — ٢٣٧

الأمل هو الحب الروحى الأوحد للنفس البشرية — الدلالة الروحية لخبرة اليأس عند كيركجارد — تجربة اليأس حين يكون مصدرها العالم الخارجى — حين يكون مصدر اليأس هو الذات — حين يكون مصدر اليأس الآخرين — اليأس المرضى واليأس السوى — كيف لليأس أن يتغلب على اليأس ؟ الطابع الإبدعى لخبرة الأمل — اليأس والعبث هما الواجهة الخلفية للأمل والقيمة — الإنسان المعاصر بين التشاؤم النظرى والتفاؤل

العملى — المثالية الأخلاقية وخبرة الأمل .

الفصل الثانى عشر :

خبرة « الحب »

الصفحة

٢٣٨ — ٢٥٢

مشكلة « الآخر » وعلاقتها بخبرة الحب — الـدلة الميتافيزيقية لخبرة الحب — الحب الشخصى يتجه أولا وبالذات نحو « القيم » — القيمة الأخلاقية للحب بوصفه أعلى الفضائل — الحب الحقيقى هو فيما وراء السعادة والشقاء — هل يكون « الحب » صورة خاصة من صور « المعرفة » الحب والمثل الأعلى — .

الصفحة

٢٥٣ — ٢٥٨

خاتمة :

أهمية المشكلة الخلقية — الحقيقة الأخلاقية هى ملتقى كل من « الواقع » و « القيمة » — دور « الإرادة » فى دراما الأخلاق — العلم لا يكفى لحل مشكلة الإنسان — ليست مهمة علم الأخلاق هى الاقتصاد على وصف وقائع السلوك — الأخلاق و « المثل الأعلى » نحن جميعا — « مثاليون » — دور الحرية الأخلاقية فى تحديد المصير البشرى — المشكلة الخلقية لا تواجه إلا على مستوى « الخبرة الخلقية » — مناقضات الحياة الخلقية ...

الصفحة

مراجع :

٢٥٩

١ — المراجع الإنجليزية .

٢٦٠

٢ — المراجع الفرنسية .

٢٦١

٣ — المراجع العربية .

٢٦٢

فهرس تحليلى :

مؤلفات الدكتور زكريا إبراهيم

أولا : رسائل جامعية

- ١ — « فلسفة الفعل عند موريس بلوندل » ؛ رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ٢ — « ميتافيزيقا هوكنج » ؛ رسالة أصلية لدكتوراه الدولة جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٥٤ باللغة الفرنسية .
- ٣ — « المشكلة الدينية عند وايتهد » ؛ رسالة فرعية لدكتوراه الدولة ، جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٥٤ — باللغة الفرنسية .

ثانيا : مجموعة « مشكلات فلسفية » :

- ١ — « مشكلة الحرية » ، القاهرة ، مكتبة مصر ، طبعة ثالثة ، ١٩٧٢ .
- ٢ — « مشكلة الإنسان » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٧ .
- ٣ — « مشكلة الفن » مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٧ .
- ٤ — « مشكلة الفلسفة » ، مكتبة مصر ، طبعة ثالثة ، ١٩٧١ .
- ٥ — « مشكلة الحب » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٧٠ .
- ٦ — « المشكلة الخلقية » ، مكتبة مصر ، طبعة أولى ، ١٩٦٩ .
- ٧ — « مشكلة الحياة » ، مكتبة مصر ، طبعة أولى ، ١٩٧١ .
- ٨ — « مشكلة الله » (تحت الطبع) .

ثالثا : مجموعة « عبقریات فلسفية » :

- ١ — « كائنات أو الفلسفة النقدية » ، مكتبة مصر ، ١٩٦٣ (نقد ويعاد طبعه الآن) .
- ٢ — « هيغل أو المثالية المطلقة » ١٩٧١ (صدر منه الجزء الأول) .
- ٣ — « ماركس أو المادية الجدلية » (معد للطبع) .

رابعا : دراسات فلسفية متفرقة :

- ١ — « دراسات في الفلسفة المعاصرة » ، الجزء الأول ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨ .
- ٢ — « برجسون » (مجموعة نوابغ الفكر الغربى) ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ .
- ٣ — « تأملات وجودية » ، بيروت ، الآداب ، ١٩٦٣ (نقد) .

- ٤ — « الفلسفة الوجودية » ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ (نفذ) .
- ٥ — « مبادئ الفلسفة والأخلاق » ، دار المعارف طبعة ثالثة ، ١٩٧٢ .
- ٦ — « الثقافة الاجتماعية » (الجزء الخاص بالمنطق) ، وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٩ ، دار المعارف ، طبعة ثالثة ، ١٩٧٢ .
- ٧ — « الأخلاق والمجتمع » ، المكتبة الثقافية ، مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، مارس ١٩٦٦ .

خامسا : دراسات جمالية :

- ١ — « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » مكتبة مصر ، ١٩٦٦ .
- ٢ — « الفن والفنان » (مجموعة دراسات جمالية معدة للطبع) .

سادسا : دراسات إسلامية :

- ١ — « أبو حيان التوحيدى » مجموعة أعلام الفكر العربى — مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٢ — « ابن حزم الأندلسى » — مجموعة أعلام الفكر العربى — مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ .

سابعا : دراسات سيكولوجية واجتماعية :

- ١ — « سيكولوجية الفكاهة والضحك » ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨ .
- ٢ — « الجريمة والمجتمع » ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٥٩ .
- ٣ — « سيكولوجية المرأة » مكتبة مصر ، ١٩٥٧ .
- ٤ — « الزواج والاستقرار النفسى » ، مكتبة مصر ١٩٥٧ .

ثامنا : كتب مترجمة :

- ١ — « الفن خبرة » لچون ديوى ، مكتبة النهضة العربية (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) . القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٢ — « الزمان والأزل » لستبس ، المؤسسة الوطنية (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) ، ١٩٦٧ .